

وقفات تربوية

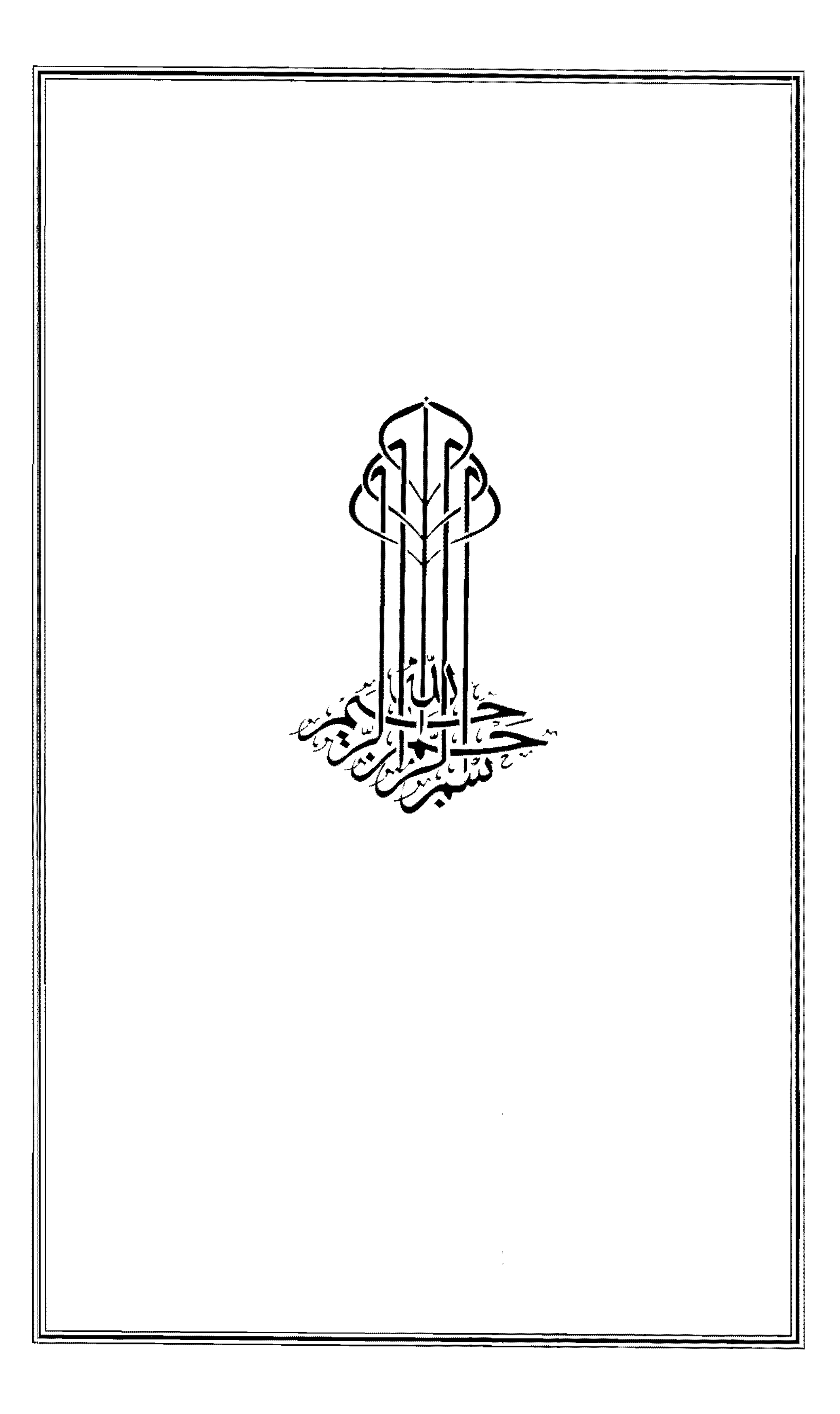
تأليف
عبد الحميد جاسم البلالي

أربعة أجزاء في مجلد واحد

مكتبة المنار الإسلامية


رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

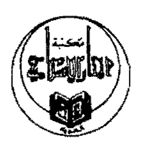
وقفات تربوية


بسم الله الرحمن الرحیم

وقفات تربوية

تأليف: عبد الحميد جاسم البلالي

أربعة أجزاء في مجلد واحد



مكتبة المنار الإسلامية

الطَّبعَةُ الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

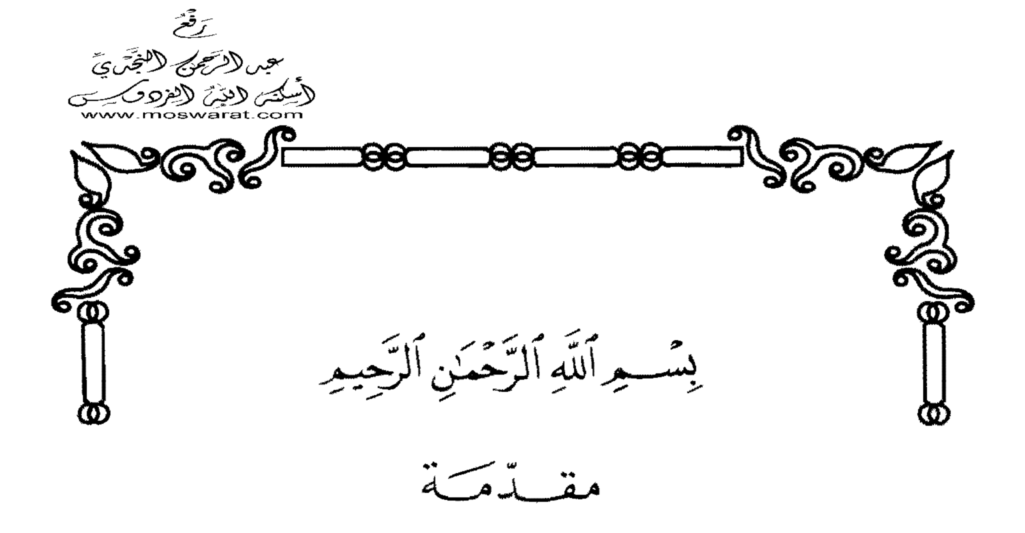


مكتبة المنار الإسلامية

طباعة ونشر وتوزيع الكتب والأشرطة الإسلامية

كويت - حولي - شارع المثنى - ص ب: ٤٣٠٩٩ - الرمز البريدي: 32045

تليفون: ٢٦١٥٠٤٥ - ٢٦٥٤٦٣٩ - فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤



مقدمة

تقول العرب «**إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى**» ويعني هذا المثل أن المُجد بالسير والمتعب لراحلته دون أن يأخذ قسطاً من الراحة لا بد أن يهلَك من التعب أو أنه يهلك دابته بإجهادها أكثر مما تحتمل، وبالتالي فهو لن يقطع المسافة التي أراد قطعها ولا أبقى الدابة التي عليها يعتمد. وكذلك الداعية إلى الله تعالى، لا بد أن يتوقف أثناء سيره، ليلتقط الأنفاس، وليقيّم ما قام بفعله، فيثبت على الصحيح ويزيد منه، ويبتعد عن السقيم ويتخلص منه، ليصفو له المسير من غير تكدير، ولهذا السبب كانت هذه الوقفات التربوية التي كنت أقفها مع إخواني قراء «المجتمع»، نتلمس الطريق، ونبصر من خلالها مواضع أقدامنا لنتأكد من بقائها على الصراط المستقيم، ومن الملاحظ في هذه الوقفات، أنها لم تتم في موضع واحد، لأن الطبيعة البشرية ليست متماثلة مع الماكنة الصناعية، فليس لها أوقات محددة للنشاط والهمة والكسل، ثم التوقف لإلتقاط الأنفاس. كما أنها أيضاً ليست بنبرة واحدة، فهي بين انخفاض وارتفاع بحسب تقلبات هذه الطبيعة البشرية، مما يجعلها أقرب للواقع الذي يعيشه الداعية في صباحه ومسائه، وأثناء الأزمات وبعدها، وأثناء الإنجاز والاخفاق، وأثناء الفرح والحزن. أسأل الله تعالى أن تكون هذه الوقفات التربوية محطات استراحة للدعاة

يتزودون منها كلمة أو كلمات أو شعوراً أو مشاعر من قلب يحب لهم الخير والسداد.

عبدالحميد جاسم البلالي



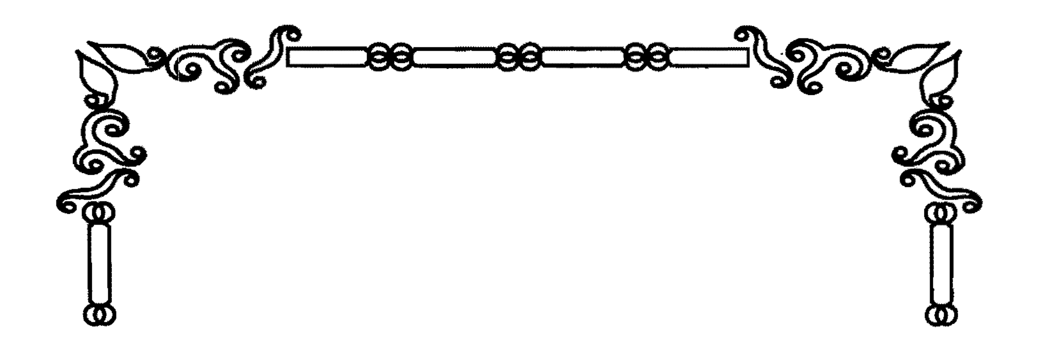


وقفات تربوية

(المجموعة الأولى)

تأليف

عبد الحميد البلالي



ألا يعتبرون؟

أجلس الآن أمام الكعبة ـ شرّفها الله ـ بعد صلاة الفجر، وأرى المسلمين يطوفون بالبيت من غير انقطاع، في دائرة ضد عقارب الساعة، فتذكرت أن هذا الدوران غير مقتصر على المسلمين في طوافهم حول الكعبة، بل هو سنة كتبها الله ـ تعالى ـ على كل كائن، من الذرة التي ثبت علمياً أنها تدور إلى أكبر الأجرام السماوية، كلها تدور حول نفسها، في إشارة لهذا الإنسان بأن الحياة لا تتم إلا بالحركة وأن الحركة هي عنوانها، ومن غير الحركة يكون السكون، والذي هو عنوان للموت، وأن الإنسان لا يحصل على معالي الأمور سواء كانت دنيوية أو أخروية إلا بالحركة، وأن معالي الأمور لا تتم بالتمني ولا بالقعود والاكتفاء بالكلام والنقد، كما يدل هذا الدوران المنتظم والذي لا يقبل في الطواف عكسه، ولا يكون في الذرات والكواكب أو النجوم أو المجرات خلافه، يدل على أهمية النظام لتحقيق الغايات، وأنه لا يمكن الوصول إلى الغايات وصولاً آمناً مضموناً من غير نظام، وأن الفوضى أو الاجتهادات الفردية من أكبر العوائق للوصول إلى الغايات.

وإن الدوران والحركة والنظام تقتضي كلها مركزاً تدور وتتحرك وتنتظم حوله، ومن هنا نفهم أهمية القيادة، وأنها أصل من أصول الحركة الصحيحة

والنظام الصحيح الذي يريد الوصول للغايات، فلا يمكن لمجموعة من المجاميع البشرية وحتى الحيوانية أن تتحرك من غير قيادة، وأن الفشل والاختلاف هو مصيرها من غير قيادة فلا بد إذن أن نعتبر عند طوافنا.

❊ ❊ ❊

الابتسامة

يقول النبي ﷺ: «**تبسمك في وجه أخيك صدقة**»[1]. فأي ابتسامة تلك التي تكون صدقة؟ وكيف يمكن استثمارها كوسيلة لكسب الآخرين؟ وقبل أن نتلمس الإجابة الصحيحة على هذين السؤالين لا بد من استعراض لأنواع الابتسامات لنحدد بعدها الابتسامة التي نريد.

أنواع الابتسامات:

١ ـ ابتسامة الفرح ـ وذلك عند حدوث ما يفرح الإنسان من أمان دنيوية كانت أو أخروية.

٢ ـ ابتسامة السخرية ـ يريد منها السخرية من الخصم وتحسيسه بفشل ما يقوم به وتحقيره.

٣ ـ ابتسامة النفاق ـ يقوم بها للحصول على بعض المآرب الدنيوية.

٤ ـ ابتسامة الخوف ـ يقوم بها تجنباً من شرور المقاتل، ودرءاً لفساده المتوقع.

٥ ـ ابتسامة الجنون ـ تحدث عند فقدان التحكم بالعقل.

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٨٩١) وحسنه الترمذي (١٩٥٦) وصححه ابن حبان (٤٧٤ و٥٢٩).

٦ ـ ابتسامة الحوادث المضحكة تحدث عند سماع بعض الحوادث المضحكة غير الاعتيادية.

٧ ـ ابتسامة الآخاء ـ والتي تنبع من قلب محب لأخيه لا لسبب سوى قربه من الله.

وواضح من هذا الاستعراض أن الابتسامة النابعة من قلب محب للآخر في الله هي تلك التي عناها النبي ﷺ، وتشابهها تلك الابتسامة النابعة من قلب مشفق محب للخير للآخرين، حريص على هدايتهم، أنها تبدو مشرقة على وجه المبتسم وهو يطلقها من غير ابتغاء لأي مصلحة من المصالح الدنيوية الزائلة، ولكن السؤال الذي يبقى مطروحاً، وهو كيف يمكن استغلال هذه الابتسامة في اكتساب الآخرين؟

وحتى تكون هذه الابتسامة هي الابتسامة المثالية، والتي لها قوة من التأثير والجاذبية لكسب الآخرين لا بد أن تتوافر فيها المواصفات التالية:

١ ـ أن تشعر المقابل أنها نقية من كل مقصد غير الحب الحقيقي والحرص على الهداية.

٢ ـ أن تتصاحب مع مصافحة أو عناق أو كليهما خاصة إذا كان غائباً أو مسافراً.

٣ ـ أن يصحبها كلمات الترحيب الجميلة والخالية من المبالغات الممقوتة.

٤ ـ أن يرفقها بالسؤال عن الأحوال والأهل والأبناء، وبعض مشاكله لخاصة واهتماماته.

٥ ـ أن يناديه بأحب الأسماء إليه.

فإذا ما تحقق ذلك تكون تلك الابتسامة فاعلة بإذن الله.

❊ ❊ ❊

دار الفراق

يقول الرسول ﷺ: «**أحبب من شئت فإنك مفارقه**»[1].

إنه منهج نبوي في التربية، يريد منه الرسول ﷺ تعليم المؤمن على عدم التعلق بغير الله تعالى، فكل موجود إلى زوال، ومهما بذل المحب من الأسباب لبقاء من يحب على هذه الأرض، فإنه لا بد أن يغادرها، وذلك تربية للمؤمن على عدم تعلقه بغير الله تعالى الدائم الذي لا يموت، ولهذا ربّى الصحابة الكرام من تبعهم على هذا النمط التربوي في العلاقة بين الأفراد، وهذا لا يعني أبداً إلغاء العاطفة والرحمة والتراحم، بل المقصود هو الاعتدال لهذه العاطفة التي بين جوانحنا، وإلا فإن الرسول ﷺ بكى وظهرت دموعه من مقلتيه عند موت ابنه إبراهيم، ولكنه قال: «**إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون**»[2].

هكذا إذن هو التصرف المعتدل في الحوادث التي نفقد فيها الأعزاء، حزن وبكاء، ولكن دون شق للجيوب، ولطم على الرؤوس والوجوه، واعتراض على القدر، وتعطل على كل أنشطة العمارة لهذه الأرض، والعبادة لله، ويمثل هذا النمط الخليفة الخامس الذي عندما جيئ له بخبر وفاة ابنه الذي كان يحبه، قال لكاتب الخلافة اكتب للأمصار: «هذا أمر قد وطنا أنفسنا عليه، فلما جاء لم نجزع».

وهكذا يجب أن يكون الدعاة، لا يتعلقون بأحد سوى الله تعالى، الحي الذي لا يموت، والثابت الذي لا يتغير.

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» وأبو نعيم في «الحلية» (٣/٢٥٣) وصححه الحاكم (٤/٣٢٤ ـ ٣٢٥) عن سهل بن سعد. وأخرجه الطيالسي (ص ٢٤٢) عن جابر. وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/٢٠٢) عن علي (الأحاديث الصحيحة حديث رقم ٨٣١).

(٢) أخرجه البخاري (فتح ٣/٤١٧) ومسلم (٢٣١٥) من حديث أنس.

قبل فوات الأوان

روى مسلم في صحيحه قول الرسول ﷺ: «**تصدقوا فيوشك الرجل يمشي بصدقته، فيقول الذي أُعطاها: لو جئتنا بالأمس قبلتها، فأما الآن فلا حاجة لي بها، فلا يجد من يقبلها**».

هذه علامة من علامات القيامة الصغرى، والتي يشير فيها النبي ﷺ عن استفاضة المال في آخر الزمان، حتى أن صاحب المال هو الذي يبحث عمن يقبل صدقته، ويسعى إلى بيته فلا يجد من يقبلها لكثرة المال في أيدي الناس في ذلك الزمان، ولذلك فالرسول ﷺ يوصي أمته بالصدقة قبل إدراك ذلك الزمان، وربما يستبعد بعض قارئي الحديث مجيء ذلك الزمان لما يرى من حاجة الفقراء الماسة، وقلة المال العام فيستبطئ بالصدقة، فتأتي الآيات القرآنية التي تحذره من مجيئ أمر أسرع بكثير من تلك العلامة التي تأتي في آخر الزمان، ألا وهو الموت، فيقول رب العزة:

﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ [المنافقون: ١٠، ١١].

ولما لم يكن للموت وقت معلوم، كان لزاماً على المؤمنين الإنفاق الدائم دون انقطاع، حتى إذا جاءه الموت وفاجأه يراه قد أعد العدة لما بعد الموت.

❀ ❀ ❀

سِيرُ العلماء

ذكر محمد بن الحسن الشيباني عن أبي حنيفة قال:

«الحكايات عن العلماء أحب إليّ من كثير من الفقه، لأنها آداب القوم وأخلاقهم»[(١)].

(١) تذكرة السامع والمتكلم ص ٥٠.

فقد يقرأ المرء الكثير عن بعض الأخلاق كالصدق والتقوى والإحسان والصبر والمجاهدة وغيرها من الأخلاق، ولكنه لن يتأثر مثلما يتأثر عند قراءة قصة لأحد العلماء عن تطبيقه في حياته لبعض هذه الأخلاق، فهي ترجمة عملية، وواقعية للأخلاق التي نقرأ عنها في آيات الله تعالى وفي سنّة نبيه ﷺ، ولذلك ينبغي لطلبة العلم، وللسالكين لطريق الهدى، وخاصة في بداية مراحلهم، قراءة تراجم هؤلاء العلماء، لمعرفة أخلاقهم عبر سلوكهم اليومي في حياتهم، وليكون ذلك باعثاً من بواعث تقليدهم لهذه الأخلاق، ومقنعاً لهم بإمكانية التخلق بمثل هذه الأخلاق، ومن أهم الكتب التي يرجع لها في هذا الفن:

١ ـ أخلاق العلماء للآجري.

٢ ـ سير أعلام النبلاء أو مختصره ـ نزهة الفضلاء.

٣ ـ تذكرة السامع والمتكلم.

٤ ـ تذكرة الحفاظ للذهبي.

٥ ـ الزهد للإمام أحمد.

٦ ـ عيون الأخبار لابن قتيبة.

٧ ـ الورع للإمام أحمد.

٨ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان.

❊ ❊ ❊

ظن العبد بالله

«في ليلة الاثنين، تردد بين التهيؤ للصيام ليوم الاثنين وبين الافطار، خاصة وقد شعر ببداية الصداع يتسلل إلى رأسه، وقبل أن ينام صلى لله ركعتين وقال في سجوده: «يا رب.. إنني قادر على أخذ ما يهدئ من

الصداع من الأدوية، ولكنني لا أريد أن يراودني حتى القليل من الخطرات بأنني شفيت من الدواء، وأعلق السبب بك أنت رب الأسباب، وليس بالأسباب، يا أرحم الراحمين يسر عليّ صيام الغد دون تعب ولا صداع ولا جوع».

يقول ذلك الأخ: فاستيقظت من منامي، ووجدت من النشاط ما لم أجده في أيام أخر، ولم أعرف الصداع أبداً حتى أفطرت، فتعجبت من قدرة الله تعالى، وتعامله مع عبده، وتذكرت الحديث القدسي الذي يقول فيه الرب سبحانه وتعالى: «**أنا عند ظن عبدي بي إن ظن خيراً فله، وإن ظن شراً فله**»[1].

نسأل الله تعالى أن يُقَوِّي صلتنا بالله تعالى، وثقتنا به.

❁ ❁ ❁

 حادث سيارة

وقع حادث أليم لابنة أحد الإخوة الكرام، ونتج عنه تحطم السيارة، وكسر في جمجمة الفتاة، وتشقق في وجهها، وتجلط لبعض الدماء في المخ.

يقول لي ذلك الأخ: لقد تألمت كثيراً للحادث، ولكنني عندما دخلت الجناح الذي ترقد فيه ابنتي ورأيت الحالات المتنوعة قلت: الحمد لله.

فعلى ذلك السرير فتاة فقدت الوعي تماماً، ولا تعرف من الزائرين أحداً، حتى أقرب الناس إليها، وأخرى حدث لها بسبب الحادث مرض نفسي تمزق كل ما تراه أمامها وتصرخ في كل لحظة، وأخرى وأخرى..

أنواع متعددة من الإصابات كانت ابنتي أقلهن إصابة، فتذكرت قولة

(١) أخرجه أحمد (٣٩١/٢) وصححه ابن حبان (٦٣٩).

ذلك الرجل الصالح: «من أراد أن تهون عليه مصيبته فليذكر من هو أشد منه مصاباً».

هكذا هو حال المؤمن، يستسلم لقدر الله تعالى، ويحول المحنة إلى منحة، والأحزان إلى أفراح ودروس في تقوية الإيمان وتجاوز الضعف.

* * *

الحرمان من الطاعة عقوبة

جاء رجل إلى الإمام الحسن البصري يسأله: «يا أبا سعيد: أعياني قيام الليل فما أطيقه!! فقال: يا ابن أخي استغفر الله، وتب إليه فإنها علامة سوء»(١)، وكان يقول: «إن الرجل ليذنب الذنب فيحرّم به قيام الليل»(٢).

فإذا كان الحرمان من نافلة بسبب ذنب فما هو الذنب الذي يسبب الحرمان من الفرض؟؟

هذا التساؤل لا بد للداعية أن يطرحه على نفسه عندما لا يوفق لقيام صلاة الفجر، أو لا يوفّق للصلاة في جماعة أو لا يوفّق لطلب العلم ويجد في نفسه مللاً من ذلك، أو لا يوفّق لبر والديه، أو لا يوفّق لغير ذلك من الفرائض.

فليست العقوبة الإلهية مقصورة على التلف الجسدي والمالي والاجتماعي والأمني للمذنب أو المقصر بل لا بد من التذكر دائماً أن الحرمان من الطاعات لون من ألوان العقوبة، ولكن المشكلة تكمن في القناعة التي يعيش بها بعض الدعاة من أن العقوبة الإلهية لا تكون إلا في نقص الأموال والأنفس والثمرات. وثبت أن من أشد العقوبات الإلهية، عدم التوفيق للطاعات، بل إنها تكون أوضح في عدم التوفيق للطاعة منها في الأمور الملموسة (كنقص الأموال والأنفس والثمرات) لأن في الثانية قد لا

(١)(٢) الحسن البصري لابن الجوزي ص ١٤.

تكون عقوبة بل قد تكون ابتلاء له حكم متعددة، فهل ينتبه الدعاة إلى ذلك؟!

❋ ❋ ❋

☜ عميل

إن من الإفرازات السلبية التي أفرزتها أزمة الكويت، أو من الاكتشافات الغريبة في حقل الدعوة الإسلامية، بروز نوعيات من الدعاة لها جرأة عجيبة باتهام علماء لهم أكبر الفضل بعد الله في هداية الآلاف من شباب الأمة، وربما دخل بعضهم السجون، وعُذب في سبيل نصرة الحق، وبعضهم قد شابت رؤوسهم في الدعوة إلى الله، لا لسبب سوى مخالفتهم لآراء أولئك الدعاة في أزمة الكويت أو في قضية أخرى ليست فيها نصوص في الكتاب أو في السنّة، أو مما فيه خلاف بين العلماء، فما أسرع أن يقول أحد أولئك الدعاة «الشيخ الفلاني عميل للنظام الفلاني» أو يقول: «الشيخ الفلاني دجال، أو انحرف» إلى آخر هذه الاتهامات الخطيرة التي سيُسأل عنها ذلك الداعية أمام الله يوم القيامة، وهذا إن دلك على شيء فإنما يدل على أن تلك الشريحة لم تتلق تربية أصيلة، وتتعمق فيها الأخلاق الإسلامية العامة، ولا حتى الأدب الإنساني العام، وربما لم تسمع أو لم تعِ قول الرسول ﷺ: «**وإن أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم**»[1] فإذا كان «**درهم الربا أشد عند الله من ست وثلاثين زنية**»[2] و«**الربا سبعون حوباً أيسرها أن ينكح الرجل بأمه**»[3] كما أشار النبي ﷺ

---

(١) أخرجه أحمد (١/١٩٠) وأبو داود (٤٨٧٦) والبزار (١٢٦٤) والبخاري في «الكبير» (١٠٨/٢/٤ ـ ١٠٩) و«الصغير» (٢٠٠/١) ويعقوب بن سفيان (٢٩٢/١) والهيثم بن كليب (٢٠٨ و٢٣٠) وصححه الحاكم (١٥٧/٤) من حديث سعيد بن زيد. وله شواهد عن جماعة من الصحابة.

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٥/٥) وصححه الألباني (الأحاديث الصحيحة ١٠٣٣).

(٣) صحيح الجامع الصغير (١٨٦/٣).

في الحديث الصحيح، فكيف يكون عقاب ذلك المستطيل بعرض العلماء؟؟.

إن هذه الظاهرة تدعو جميع القائمين على أمر الدعوة إلى التركيز والاهتمام بالقضايا الإيمانية والأخلاقية وإعطائها أولوية عن القضايا الفكرية والسياسية، لأنها هي الأصل والضابط الذي يحد من انحراف الدعاة إلى منعطف خطير قد يؤدي بكل تلك المجموعة للانحراف.

***

فتنة النساء

يقول الرسول ﷺ: **«اتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»**(١).

لقد قرأت هذا الحديث مئات المرات، ولأول مرة في حياتي ألتفت إلى تركيبة هذه العبارة في هذا الحديث العظيم، فلماذا أفرد الرسول ﷺ فتنة النساء لوحدها بينما جمع فتن الدنيا كلها من مال وبنين، ومنصب ودواب وقصور، وملك... إلخ في كلمة واحدة؟؟

إن إحساس الرسول ﷺ بعظيم فتنة النساء جعله يقارن فتنة النساء بفتن الدنيا كلها، بل ويذكر لنا أن ما جرى لبني إسرائيل من عناد وكفر وتكذيب وقتل لأنبياء الله، وما جرى لليهود من عقوبات متعددة من الله تعالى، كل ذلك كانت بدايته بسبب فتنة امرأة.

إن الداعية يجب أن يتذكر هذا الأمر دائماً، ويستحضره أينما ذهب، وألا يستصغره أبداً ما دامت تدب فيه الحياة، فكم من داعية رأيناه في القمة

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٢) من حديث أبي سعيد.

ثم رأيناه يتردى إلى القاع بسبب فتنة امرأة، وكم من عالم أحرق علمه بسبب فتنة امرأة، وكم من فتور كان وراءه فتنة امرأة...

إن فتنتها تبدأ من تساهل الداعية بإرسال طرفه لها، ثم تتعاقب حلقات الفتنة حتى السقوط، إلا أن يتذكر أثناء الهبوط فيرتفع بتوبة نصوح.

❋ ❋ ❋

متى سنرحل؟!

لو فاجأك مقر عملك بتكليف بسفر مفاجئ في الغد، كيف سيكون تحركك للتحضير لهذا السفر، وكيف سيتم الانتهاء من التزاماتك اليومية، وما كان عليك إنجازه؟ لا شك أنك ستتحرك بسرعة فائقة لإنجاز كل الالتزامات التي عليك، وسوف تنشغل بإعداد حاجاتك للسفر، ومع كل هذا، فسوف يكون من الصعب بمكان تذكر كل ما تحتاج إليه، ويكون من الصعب أيضاً إنجاز كل الالتزامات التي عليك، بل إنك ستضطر للاستعانة بالأصدقاء لإنجاز ما لم يسعفك الوقت في إنجازه، أو ربما وكلت أحد الأقرباء بالقيام بكل ما عليك أثناء غيابك، فكيف سيكون الحال لو قيل لك ستسافر بعد أربع ساعات؟ ربما يكون من الممكن إنجاز القليل جداً مما عليك قبل سفرك، ولكن تصور لوْ قيل لك ستسافر الآن، فماذا يمكنك عمله؟ الجواب: لا شيء البتة.

كذلك هو حال الإنسان، فإنه سيسافر يوماً من الأيام من هذه الدنيا إلى الآخرة، لكنه لن يخبر بموعد الرحيل، وربما يأتي من غير مقدمات فماذا يمكنه أن يعمل إذا لم يكن قد أعد نفسه، وهيأها لهذه الرحلة منذ أمد بعيد؟ الجواب: لا شيء.

لقد علّمنا الرعيل الأول من الصحابة الكرام الاستعداد ليوم الرحيل قبل مجيئه، فإن جاء فجأة فإنه سيرى رجالاً حزموا الحقائب، وأعدّوا العدة، وانتظروا حادي الركب يخبرهم بموعد الرحيل، وجعلوا هذا

الاستعداد لوناً من ألوان التقوى، إذ يقول أمير المؤمنين عليّ ـ رضي الله عنه ـ «التقوى هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل» لذلك فهم لا يسألون متى الرحيل؟ لأنهم دائماً في توقع للرحيل.

* * *

أيها الدعاة.. لا تيأسوا

في وسط أمواج الحجيج وهي تتقاذفني ميمنة وميسرة تذكرت حديث الرسول ﷺ الذي يتحدث فيه عن قيام الساعة، وأنها لا تقوم إلا على لُكَع ابن لكع ـ أي كافر ابن كافر ـ ولا تقوم وفي الأرض من يقول: «الله . . . الله».

أي أن القيامة لا تقوم وفي الدنيا من يلفظ بشفتيه كلمة «الله» بغض النظر إن كان مسلماً ملتزماً أو غير ذلك أو كان مستقيماً أو مخلطاً، وبمعنى أدق فإن القيامة لا تقوم وفي الأرض من فيه بقية من رائحة الإسلام أو ذرة من الخير.

والحديث الآخر الذي رواه البخاري والذي يتحدث فيه الرسول ﷺ عن هدم الكعبة قبل قيام الساعة من قبل «ذو السويقتين»، حيث يهدمها حجراً حجراً، والحديث الذي يخبر فيه النبي ﷺ عن الحرم النبوي حيث لا يدخله سوى السباع، فلا يوجد مُصَلٍ في ذلك الزمان، وعليهم تقوم القيامة.

تذكرت كل هذه الأحاديث والتي تترك عند قراءتها بصمات من الحزن والألم يعتصر قلب المؤمن، ولكنها من جانب آخر تبعث الفرح في قلبه وهو يرى أن الزمان الذي نعيش فيه بعيداً كل البعد عن ذلك الزمان الذي يسبق القيامة بالرغم مما يوجد في زماننا من بعد عن الله، ولكن الأمل يتدفق من هذه الأحاديث، وأقسم بالله غير حانث إني أكاد ألمس النصر

والتمكين لدين الله في الأرض جميعاً، وقريباً لكثرة ما أرى من إقبال على دين الله تعالى وعودة إليه، وما تزاحم الحجيج بهذه الأعداد، إلا مبشراً من مبشرات الخير، وبلسماً على قلوب الدعاة لكي لا ييأسوا، فإن أمتنا فيها خير كثير، وأن الله لن يخلف وعده، وفي الأرض ملايين من الذين يقولون أكثر من كلمة «الله . . الله».

❋ ❋ ❋

رسالة تربوية وجوابها!! (١)

الرسالة أسلوب تربوي ناجح في بناء الكثير من المفاهيم والقيم في الشخص المراد تربيته، أو في إنكار منكر ما، أو في النصيحة بين الإخوة، خاصة فيمن لا يملك الوقت الكبير للمواجهة، أو فيمن يرتبك عند المواجهة أو يستحي منها، أو يظن أن الذي يريد نصيحته ممن يصعب عليه تقبل النصيحة المباشرة وهذه رسالة مني لأحد الإخوة الأفاضل ممن ليس له وقت للجلوس معي وسماع نصيحتي، لكثرة انشغاله فكتبت له هذه الرسالة لغلطة وجدتها فيه، وكان الجواب على رسالتي متناسقاً مع الأثر الطيب الذي تركته الرسالة في نفسيته الطيبة:

الرسالة:

الأخ الحبيب. . . . .

يشهد الله أني أحبك في الله، وتعلم أن هذه الكلمة تقتضي حقوقاً وواجبات، من أبرزها الإعانة المشتركة، كي نصل سوياً إلى جنة عرضها السموات والأرض، وهذه المعونة إنما تتم بصور متعددة أشرفها ما ذكره الله تعالى في كتابه الكريم بقوله عزّ وجلّ:

﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣].

«فالتواصي بالحق» هو الميزة البارزة في هذا الإخاء، والذي ينم في

واقعنا العملي على صورة «التناصح» والذي يعني أن يقوم كل طرف بالعمل على تصفية أخيه مما شابه من شوائب تعيقه عن الوصول إلى الجنة.

❀ ❀ ❀

رسالة تربوية وجوابها (٢)

أخي الحبيب.. إن حبي لك في الله يدفعني للقيام بواجب النصيحة لمن أحب، فافتح لي قلبك لكلمات من أحبك، ليقول لك، وهو غير ناكر لصفاتك الكريمة الكثيرة التي لا تحصى.

«إني ألحظ فيك شيئاً من الغلظة والجفاف عند تعاملك مع إخوانك، والعاملين في محيطك، ومعي شخصياً، خاصة إذا حدث خلاف في قضية ما، والأصل يا أخي الحبيب عند الخلاف بين أخوين، خاصة فيما لا نص فيه هو «خفض الجناح»».

إذ يقول الله تعالى في كتابه الكريم مخاطباً نبيه ﷺ، ومن بعده من المؤمنين ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

ومن معاني خفض الجناح، اللين عند النقاش، والتنازل فيما بين الإخوة، حفظاً للمودة، ودرءاً لمداخل الشيطان ونزعاته.

أخي الحبيب... هذه ملحوظة صغيرة تذوب في بحر خصالك الحسنة، فإن قبلتها فهذا ظننا فيك، وهي خصلة تضاف إلى خصالك الحسنة، وإن لم تقبلها فحسبي أن ما قمت به هو الواجب الذي تلزمني به أخوتك..

أسأل الله العظيم أن يرفع من مقامك في الدنيا والآخرة، وأن يجعل عملنا كله خالصاً لوجه الله تعالى ليس للآخرين فيه شيء، وأن يختم بالصالحات أعمالنا، إنه هو السميع العليم..

أخوك أبو بلال.

«**الجواب**»:

الأخ الحبيب: أبو بلال ـ حفظه الله ـ.

أشكر لك حبك وحرصك ومودتك التي أبادلك إياها، سائلاً الله أن يجمعنا بها في مستقر رحمته، وآمل ألا تحرمني من نصائحك، ومن ودك، فضغوط العمل وهموم الرسالة التي نحملها تجعلنا في بعض الأحيان نفقد بعض الحقوق التي ينبغي أن نحفظها لأحبائنا، وحسبنا أنهم أحباب.

ونسأل الله أن يقينا العثرات، وأن يجعلنا من خافضي الجناح، الأذلة على إخواننا الأعزة على أعدائنا، وإنا والله نلمس في أنفسنا أحياناً بعض ما أشرت إليه ولا نرضى وجوده، ونستعين بالله عليه بالدعاء، ونعتذر عما بدر منا عن غير قصد، سائلين الله المغفرة لنا ولكم ولجميع الأحباب.. والسلام عليكم ورحمة الله.

* * *

 عبادة التأمل

لم يخلق الله سبحانه وتعالى شيئاً في الدنيا عبثاً، ومن الجهل العميق أن يظن المسلم أن الله خلق بعض المخلوقات من غير سبب، إن المعنى الإيماني الذي يجب أن يستقر في نفسية المؤمن، هو أن الله تعالى عندما أنزل الإنسان إلى الأرض لغاية العبادة، خلق ما في الأرض ليعين هذا الإنسان لتحقيق الغرض من الخلق، فخلق الجاذبية ليستقر الإنسان على الأرض فيستطيع العبادة، وخلق الأوكسجين ليستنشقه الإنسان فيكون معيناً لبقائه على الأرض ليعبد الله.. وهكذا، كما أنه سبحانه وتعالى عندما كلفنا بالعبادات، جعل لكل عبادة صلة بالآخرة، حتى يتذكر المسلم دوماً حقيقة وجوده على الأرض، ورسالته التي يجب أن يؤديها، ومآله بعد هذه الحياة، وهذا واضح من الدعاء الذي نقرؤه في الصباح والمساء، وحتى في أكبر

العبادات وأعظمها كالحج مثلاً، فأنت تقول أول ما تقوم من النوم «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور».

وتقول عندما تأوي إلى الفراش: «باسمك اللهم أموت وأحيا». ونرى في مناسك الحج على سبيل المثال صورة مصغرة ليوم القيامة، ففي الطواف ترى التزاحم يوم الحشر، وفي عرفة ترى الوقوف في أرض المحشر، وفي النفرة إلى مزدلفة، ترى انبعاث الناس من القبور.. وهكذا، والمطلوب من المؤمن التفكر في هذه العبادات والتأمل بمعانيها، فإن ذلك جزء من العبادات، فالله تعالى قد أكد هذه العبادة في آيات كثيرة في كتاب الله، ودعا عباده للتفكر في خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والدواب، والمطر، وغيره من مخلوقاته، والمتأمل في هذه العبادات والمخلوقات يجد لذة عجيبة يفقدها ذلك المؤمن الروتيني في ممارسته للعبادة، والذي لا يشعر بسوى حركات قد تعوّد على ممارستها، ولو تأمل لتغير حاله، فهل نحيي هذه العبادة؟؟



رجعوا كما ولدتهم أمهاتهم

يقول الرسول ﷺ: **«الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»**[1] وروى البخاري في صحيحه قول الرسول ﷺ: **«من حج، فلم يرفث، ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه»**، إن هذا الجزاء العظيم من الله لأداء هذه العبادة العظيمة إنما يتناسب مع الشرط الذي ذكره الحديث، «فلم يرفث ولم يفسق» والرفث كل ما يتعلق بالاتصال الجنسي، والفسق جميع المعاصي، صغيرها وكبيرها. وفي ذلك المكان، وذلك الزمان يتعرض الحاج إلى ابتلاءات من نوع عجيب، قد لا يتعرض لها طيلة حياته إلا في ذلك الموضع، وذلك

(١) صحيح الجامع الصغير: ٣١٦٥.

الزمان، حيث يفد على ذلك المكان خليط من مئات الآلاف من المسلمين، بألسنة مختلفة، وألوان مختلفة، وأفهام مختلفة، وثقافات مختلفة، تسبب في الكثير من الأحيان بعض الأذى للحاج في ذلك المكان، فهذا يدفعك أثناء الطواف، وآخر يركلك أثناء الرجم، وهذا يسبك لسوء فهم، وهذا يغضب عليك لتعثرك فيه أثناء نومه في ردهات المرجم أو تحت الجسور، وهكذا يتعرض الحاج لأصناف من البلاء، يختبر الله فيه قوة تحمله وصبره واحتسابه ما يلاقي في سبيل الله، بالإضافة لما يلاقيه من التعب والنصب، وقلة النوم، وتغير ما اعتاد عليه في بلده، وشدة الحر، خاصة في يوم عرفة، وخطورة التزاحم في المناسك، كل ذلك يستدعي منه صبراً كبيراً وتحملاً متميزاً، يجعله يتذكر الأجر العظيم الذي يلاقيه إن ملك لسانه وجوارحه أثناء تعرضه لهذه الأصناف من البلاء، حتى يستحق أن ينال الجائزة العظمى **«يرجع كما ولدته أمه»**.

وليس هذا هو المهم، بل الأهم من ذلك أن يحافظ على هذه الميزة بعد الحج، فلا يفسدها بالرجوع إلى ما كان عليه قبل الحج من عادات ومألوفات، بل لا بد أن يبني له حياة جديدة، ومنهجاً جديداً يحافظ من خلاله على هذه المنحة الربانية العظيمة.

❋ ❋ ❋

الغاية من الإخاء

يقول الإمام عبد الله بن المبارك: «المؤمن مرآة أخيه إن رأى فيه ما لا يعجبه سدده وقوّمه، وحاطه، وحفظه في السر والعلانية»[1].

تماماً كما يقف أمام المرآة يصلح من شأنه، يُرَجّل شعر رأسه ولحيته، ويعدّل ميمنة الرأس وميسرته، ثم يقوم بتعديل غطاء الرأس والعقال إذا كان

(١) الزهد ٢٣٢.

مائلاً، ويلاحظ في وجهه ما لا يحب أن يراه الآخرون فيقوم بإصلاحه، حتى إذا رضي بمظهره الخارجي قرر الخروج.

هكذا تكون ممارسته اليومية مع نفسه، ولكن لن تكتمل حقيقة إيمانه حتى يمارس نفس الدور مع إخوانه في الله، فيكون هو المرآة لهم ليروا فيها عيوبهم ثم يعكس هذه العيوب ليس لأبصارهم بل لقلوبهم حتى يدركوها ويغيروها، ليظهروا أمام الناس بأبهى صورهم، ويبعثون يوم القيامة بأنقى سرائرهم، وهذا من تمام الإيمان كما أشار إلى ذلك الرسول ﷺ بقوله: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**» متفق عليه.

هذه هي الغاية الرئيسة من الإخاء، وهي الغاية التي بسببها يتم استثناؤهم من الخسارة التي تشمل الناس جميعاً وذلك لقوله:

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١ ـ ٣].

فكان التواصي بالحق من أهم ما يستثنى الناس من هذه الخسارة التي أشار الخالق لها.

فنسأل الله تعالى أن يعيننا على ممارسة دور المرآة فيما بيننا.

❋ ❋ ❋

الإسلاميون والإرهاب

حجم الجماعات الإسلامية التي تحمل الفكر التكفيري يعتبر نقطة في محيط الجماعات الإسلامية الأخرى التي تحمل الفكر المعتدل، وتفهم الإسلام الفهم المتوازن، والمنضبط بالضوابط الشرعية المستقاة من الكتاب والسنّة وما عليه جمهور العلماء من السنّة والجماعة، ومع ذلك فإن انحراف التفكير عند الجماعات الإسلامية القليلة، والحاملة للفكر التكفيري والذي ينبني عليه ما تقوم به تلك الجماعات من ضرب معارضيها أو قتلهم حتى

وإن كانوا من الجماعات الإسلامية الأخرى، واستباحة دماء الشرطة والجنود في الأنظمة المعارضة لها، وغيرها من الأعمال، وما يترتب على هذه الأعمال من تعامل عنيف من الحكومات والأنظمة يفوق حد التصور مع أولئك القائمين بما يسمى بالإرهاب تجعل بعض أو أغلب الجماعات المعتدلة تتعاطف مع أولئك القلة لأسباب، من أبرزها ضرب تلك الحكومات جميع «الإسلاميين» وإن كانوا من جماعات معتدلة بالتفكير.

وثانيها: إن هؤلاء المعتدلين يعتقدون أن سبب انحراف هؤلاء الإسلاميين هو تلك الحكومات لكثرة ما تقوم به من استفزاز للمشاعر الإسلامية، ولمخالفتها للكثير مما أمر به تعالى.

وثالثها: أن معظم هذه الحكومات لا يفرق بين معتدل ومنحرف في التفكير، ما دام الجميع يلتقون على الإسلام الذي يخيف تلك الأنظمة، هذه المساندة المبالغ بها بعض الأحيان من الجماعات المعتدلة للجماعات المنحرفة في تفكيرها تفسر كثير من الأحيان من قبل الأنظمة الطاغوتية على أنها مساندة للإرهاب، وتتخذها تلك الأنظمة مبرراً لحملاتها ضد الجميع، لذلك كان من الحكمة والفطنة ألا تنجرف الجماعات المعتدلة في مساندتها للخطأ حتى تحسب في خانة أولئك، بل عليها أن تلعب دور الناقد للخطأ من الجانبين بحكمة بالغة وأعصاب هادئة.

❊ ❊ ❊



أثر الدعاء

توجهت لدائرة لقضاء بعض المعاملات فقال لي الطباع: إن معاملتك ناقصة لأوراق مهمة، وأبدى لي صعوبة الموافقة عليها من غير هذه الأوراق، فقلت له أتم طباعتها وسييسرها الله إن شاء، وحقيقة الأمر انني استثقلت الرجوع للبيت لجلب الأوراق الناقصة للحرج الكبير في تأخري عن الدوام، فابتدأت بقراءة دعاء الكرب الذي ورد في البخاري: «لا إله إلا الله

العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض والعرش الكريم».

وتوجهت بعدها للموظف المختص، وإذا به يذكر لي نقصاً آخر غير الذي ذكره لي ذلك الطباع، وقبل أن أرد عليه، تطوع هو بالدخول على المدير وأخذ منه استثناء، وموافقة على النقص، ثم فاجأني بقوله: «إن هذه المعاملة لا تنتهي إلا بعد اسبوع، ولكنني سأنجزها لك في يوم واحد» ولم أكن أعرف هذا الشخص من قبل، حيث كنت أسمعه يقول للمراجعين بأن يراجعوه بعد اسبوع، فقلت في نفسي سبحان من أمرنا بالدعاء وأرانا آثاره العجيبة.

❊ ❊ ❊

 أهل البلاء

لا يوجد على الأرض إنسان غير معرّض للبلاء، ولكن القليل من هؤلاء من يثبت عنده، ويستفيد منه، ويوظفه لصالحه، والكثير من الناس يتذمر عند وقوع البلاء، وتتغير طباعه وأخلاقه للأسوأ، وقد يدخل بعضهم دائرة الكفر من حيث يدري أو لا يدري، ولو تذكر هذا الإنسان أن هناك من الناس من هم أشد منه بلاءً لأصابته الطمأنينة والسكون، والرضا بما قدره الله عليه.

قمت بزيارة إلى احدى المدارس المختصة في تربية المعاقين عقلياً وجسدياً، حيث ألقيت محاضرة لأولياء أمور المعاقين والمعاقات، وقامت ولية أمر تسأل الدكتور المشارك معي عن طريقة التعامل مع أبنائها وبناتها المعاقات فقالت: «لي ابنتان معاقتان، وولد ثالث أشد إعاقة من أختيه، حيث إنه لا يعرف أنني أمه، إنه يأكل كل شيء يجده أمامه، فهو لا يميز بين ما يؤكل وما لا يؤكل، إنه يلحس كل شيء، الحائط، والأرض، أنه يخرج أصواتاً غريبة، فكيف أتعامل معه».

تركت السيدة تكمل سؤالها لزميلي المحاضر، وسرحت بعيداً عن جو المكان، وتساءلت في نفسي، كم من أهل البلاء يحسب أنه أكثر الناس بلاءً، ولو رأى من هم يزيدون عليه بالبلاء أضعاف أضعاف ما يعاني لهانت عليه مصيبته، وما أسمعه من هذه السيدة يمثل حالة من عظم البلاء، فلله درها على صبرها، وليعتبر الأسوياء، ومن يبتلهم بمثل ما ابتلاها، وليقوموا بحق الشكر لنعمة العقل والجوارح التي تكرّم بها الرب عليهم وعلى أبنائهم، والشكر لا يتم باللسان فحسب، بل بالعمل.

* * *

التسرع في قضاء الحاجات

في أحيان كثيرة تطرأ حاجة ماسة تدعو إلى البحث والتقليب فيقطع الأذان بحثك.

وهنا يتدخل الشيطان لتأخيرك أو تفويت الصلاة عليك مع الجماعة، فيقول لك «هناك وقت كاف للبحث حتى إقامة الصلاة» الأمر الذي يغريك بالاستمرار في بحثك من محل لآخر حتى تدركك الإقامة وأنت في بحثك، حتى إذا استعجلت امرك، وتركت البحث والجهد إلى المسجد القريب تجد أن عدداً من الركعات فاتك، أو تجد أن الصلاة قد قضيت ولا تدرك إلا آخرها وهنا يفرح الشيطان بفوزه عليك.

يحدث هذا الأمر للكثير منا إذا لم ينتبه إلى هذا المدخل الخبيث من إبليس، طرأت لي حاجة ضرورية ولا توجد إلا في مكان بعيد عن منطقتنا السكنية فتوجهت لذلك المكان قبل صلاة العشاء بقليل، ومررت على عدة محلات فلم أجد حاجتي، وكثير من المحلات مغلقة، وأذّن المؤذن أثناء بحثي فجاءني الشيطان يقنعني بالاستمرار بالبحث حتى الإقامة، وإلا فإنه لن تجد محلاً واحداً مفتوحاً بعد صلاة العشاء، فقلت في نفسي تلبية النداء مقدمة على كل شيء، وإذا ما قدم المرء ما يرضي ربه من أمر الآخرة،

على ما يرضيه هو في أمر الدنيا، فلا شك أن الله سييسر عليه أمره، فتوجهت حالاً إلى بيت الله بهذا الاعتقاد الراسخ، وما إن أديت الصلاة جماعة وخرجت من المسجد حتى مررت على المحلات، وإذا بي أجد حاجتي عند أول محل توقفت عنده، ولم يأخذ من وقتي دقائق معدودة، بينما قضيت ما يقارب الساعة قبل الصلاة أبحث عن حاجتي، وصدق الله العظيم الذي ينبّه عباده بقوله:

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

* * *

سوء الخاتمة

قال لي صاحبي:

كنت في مصر اثناء أزمة الكويت، وقد تعودت دفن الموتى منذ أن كنت في الكويت قبل الأزمة، وعرفت بين الناس بذلك، فاتصلت بي إحدى العوائل طالبة مني دفن أمهم التي توفيت فذهبت إلى المقبرة، وانتظرت عند مكان غسل الموتى، وإذا بي أرى أربع نساء محجبات يخرجن مسرعات من مكان الغسل، ولم أسأل عن سبب خروجهن وسرعتهن بالخروج لأن ذلك أمر لا يعنيني، وبعد ذلك بفترة وجيزة خرجت المرأة التي تغسل الأموات وطلبت مني مساعدتها بغسل الميتة فقلت لها إن هذا الأمر لا يجوز، فلا يحل لرجل أن يطّلع على عورة المرأة فعللت لي طلبها بسبب ضخامة جثة الميتة، ثم دخلت المرأة وغسلتها ثم كفنتها ثم نادتنا لحمل الجثة، فدخلنا نحو أحد عشر رجلاً وحملنا الجثة لثقلها، ولما وصلنا إلى فتحة القبر وكعادة أهل مصر فإن قبورهم مثل الغرف ينزلون من الفتحة العلوية بسلم إلى قاع الغرفة حيث يضعون موتاهم دون دفن أو إهالة للتراب، فتحنا الباب العلوي وأنزلنا الجثة من على اكتافنا وإذا بها تنزلق وتسقط منا داخل الغرفة دون أن نتمكن من إدراكها، حتى أنني سمعت قعقعة عظامها وهي تتكسر

أثناء سقوطها، فنظرت من الفتحة وإذا بالكفن ينفتح قليلاً فيظهر شيء من العورة فقفزت مسرعاً إلى الجثة وغطيتها ثم سحبتها بصعوبة بالغة إلى اتجاه القبلة، ثم فتحت شيئاً من الكفن تجاه وجه الجثة وإذا بي أرى منظراً عجباً رأيت عينيها قد جحظت ووجهها قد اسود فرعبت لهول المنظر، وخرجت مسرعاً للأعلى وأغلقت باب القبر وبعد وصولي إلى الشقة اتصلت بي إحدى بنات المتوفاة واستحلفتني أن أخبرها ما جرى لوالدتها أثناء إدخال القبر فأردت التهرّب من الاجابة، ولكنها كانت تصر علي لإخبارها، حتى أخبرتها، فإذا بها تقول لي يا شيخ عندما رأيتنا نخرج من مكان الغسل مسرعات فإن ذلك كان بسبب ما رأيناه من اسوداد وجه والدتنا، يا شيخ إن سبب ذلك أن والدتنا لم تصل لله ركعة، وأنها ماتت وهي متبرجة».

هذه قصة واقعية تؤكد أن الله سبحانه وتعالى يشاء احياناً أن يري بعض عباده بعض آثار الخاتمة السيئة على بعض عباده العصاة ليكون ذلك عبرة للأحياء منهم، إن في ذلك لعبرة لأولي الألباب؟؟



مصارحة النفس

أيها الداعية هلا جلست مع نفسك يوماً بعيداً عن أعين الناس بأنواعهم وأشكالهم، جلست معها متجرداً من كل اعتبار سوى مراقبة مالك السموات والأرض السميع العليم، والذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور؟.

في هذه الخلوة سل نفسك كم سنة مضت عليك وأنت في هذا الطريق؟

كم من البشر اهتدى بسببك؟. وكم من خطبة خطبت؟. وكم من خاطرة ألقيت، وكم من مناقشة ناقشت، وكم بشراً دعوت؟

وكم كتاباً قرأت؟ وكم كتاباً وزعت، وكم شريطاً استمعت؟ وكم شريطاً أهديت؟، وكم مجلس علم حضرت؟، وكم منكراً أنكرت؟

وكم معروفاً أمرت؟، وكم جماعة صليت؟ وكم يوماً صمت؟، وكم ختمة ختمت؟، وكم ليلة أحييت؟، وكم نصيحة استمعت؟، وكم درساً درست؟، وكم عدد زياراتك للمقابر؟ وكم ميتاً شيعت؟، وكم صدقة تصدقت؟، وكم مظلوماً نصرت؟، وكم مرة حججت واعتمرت؟، وكم ضعيفاً ساعدت؟، وكم من النوافل أديت؟، وكم وكم وكم.؟؟!!

هذا الكم الكبير من الأعمال الصالحة والتي كجبال تهامة، هل سألت نفسك يوماً كم منها كان لله خالصاً من غير أية شهوة للنفس، أو منافسة للآخرين، أو إبرازاً لعملك، أو لممارات السفهاء؟ أو مجاراة العلماء، أو لتضرب وجوه الناس إليك. وتذكر عند هذه الأسئلة قوله تعالى:

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقول الرسول ﷺ: «**أول من تسعر فيه النار يوم القيامة ثلاثة**.. الحديث»[1].

وقول ابن الجوزي: «قل لمن لا يخلص لا تتعب» فكم بقي لك مما قدمت؟

❊ ❊ ❊

هل نأمر بالمعروف؟؟

ما من نص شرعي ذكر «النهي عن المنكر» إلا وسبقه بعبارة «الأمر بالمعروف» ولكن لا أدري ما الذي جعل الكثير من الدعاة لا يمارسون سوى النهي عن المنكر ويتركون الشطر الأول من هذا الأمر العظيم، وهو المقدم على النهي، لأن الجاهل لا بد أن يعلم قبل أن ينكر عليه. كثيرة هي الظواهر الشاذة في مجتمعاتنا، والتي تخالف ما جاء به الشرع، ولكن لماذا يتبادر لذهن الكثير من الدعاة والكثير من المؤسسات الدعوية كيفية

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٨٢) وقال: حسن غريب.

الإنكار على هؤلاء، ولا يتبادر لأذهانهم كيفية أمرهم بالمعروف بالحكمة والموعظة الحسنة.

إن النفس من طبيعتها الرفض لمن يمنعها ما تعودت عليه وألفته، ولكنها لا تمانع من الاستماع وربما القبول لعلم لا تعلمه، وإن كان يدل بطريقة غير مباشرة على ترك المنكر الذي تزاوله، فهلا ابتدأنا بالأمر بالمعروف قبل نهينا عن المنكر؟

❋ ❋ ❋

هل ينفع مثل هذا؟؟

بعد إلقائي لإحدى المحاضرات الرمضانية سلّم عليّ شاب يافع وأدخل يده في جيبه ليخرج شريطاً مسجلاً، فسلمه إليّ وهو يقول لي «أسأل الله أن ينفعك به» فشكرته على ذلك، فعندما وصلت سيارتي ووضعت الشريط في مسجل السيارة لم أسمع في الشريط ما نفعني، بل سمعت ما آذاني كثيراً، فقد كان في الشريط من تناول معظم الجماعات الإسلامية العاملة، وأبرز العلماء الشباب بالسب والشتيمة والقذف وسوء الظن، فجماعة الإخوان خونة، والتبليغ ضلاليين، والجهاد جهلة، والعالم الفلاني يتظاهر بالسلفية ليجذب الشباب ثم يحولهم إلى فكره.. إلى آخر سلسلة السب. لقد آلمني كثيراً سماع مثل هذا الشريط. ولا أدري ما الفائدة المرجوة من نشر مثل هذه الأشرطة إلا مزيداً من غرس الأحقاد والتفرق، وترك أهل الباطل يضحكون علينا لانشغالنا ببعضنا، بينما ننشغل عن الإنكار عليهم بمناكرهم التي لا خلاف عليها.. إنني أنادي جميع الأخوة والأحبة في جميع الجماعات إلى نبذ خلافاتهم وبذل كل المستطاع لغرس المحبة والتعارف والتنسيق فيما يحب الله، والتناصح فيما بيننا بالأدب الذي علمنا ديننا الحنيف. أو ليس هذا أولى من التقاذف والتشاتم؟؟

❋ ❋ ❋

☜ اختفاء الدعاة

يتعجب المرء من اختفاء الدعاة تماماً من بعض المؤسسات ذات التأثير الكبير في المجتمع، وتركزهم في المؤسسات التي لا يوجد فيها الجهد الكبير في تبليغ الدعوة، مثل المساجد، والجمعيات الإسلامية ولجان الخير، والكليات الشرعية وغيرها من الأماكن التي يغلب عليها الطابع الإسلامي، ويطغى على مظاهرها سمت الالتزام الشرعي وكل ذلك محبب للنفس، لأن النفس من طبعها تجفل من التعب والجهد، وتؤثر الراحة، فإذا ما خاطبت بعض أولئك الدعاة عن سبب اختفائهم من المؤسسات الإعلامية، كالصحافة والتلفزيون والإذاعة، ووكالات الأنباء، قال لك إن تلك الأماكن مليئة بالفتن وأنا أخشى على نفسي من الفتن، ولنا أن نتصور لو كان هذا الجواب لكل الدعاة المختفين عن تلك الساحات كم من الخسارة ستجنيها الدعوة، وكم من التأثير سوف نفقده، بينما يتربع هناك خصوم الدعوة إلى الله يؤثرون في الملايين عن طريق الأغنية، والمسلسلة، والتمثيلية، والبرنامج، والتعليق، واللقطة، بينما يصر دعاتنا على التغيب عن تلك الساحات.

❋ ❋ ❋

☜ ما الفرق بيننا وبينهم؟!

سؤال ألح عليّ كثيراً، وعقدت المقارنة تلو المقارنة، حتى توصلت إلى قناعة تامة هي أن الفرق البارز بين الدعاة إلى الله وغيرهم من عوام الناس هو «الدعوة» ذلك لأن عوام الناس قد يكونون أكثر قياماً وصلاة وقراءة للقرآن، وأكثر إنفاقاً، ولكن الدعاة يتميزون عنهم بالإضافة لكل ما ذكر أنهم يدعون الخلق إلى ما يريد الله تعالى منهم، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، لا يخافون في الله لومة لائم، أما الآخرون فإنهم قد يفوقون الدعاة بعض الأحيان في العبادات، ولكنهم يترددون في أمر الدعوة مؤثرين السلامة على التعرض لما يحبه الناس من الشهوات، ومؤثرين أحياناً

أخرى الدنيا على الآخرة، فإذا ما تقاعس الدعاة عن أداء واجبهم في تبليغ الدعوة للآخرين، وتحمل الأذى في سبيل ذلك، فما الفرق بينهم وبين الآخرين؟؟

لا شيء.......!!

❊ ❊ ❊

عقوبة الأبناء

العقوبة أمر طارئ في تربية الأبناء، ويضطر لها الأب أو الأم حيث لا تنفع باقي وسائل التربية والتقويم، ولكن ما يؤسف له أن كثيراً من الآباء يعتمدون هذا الأسلوب وخاصة «الضرب» الأسلوب الوحيد في تقويم ومعالجة أخطاء الأبناء. عندما نقول مثل ذلك فإننا لا نلغي مثل هذا الأسلوب، وذلك لأن له أصل في الدين «**واضربوهم عليها لعشر**»[1] وإنما نعارض أن يكون هو الأسلوب الوحيد أو الغالب في تربية الأبناء. وأنواع العقوبات تتعدد وتتنوع ويستطيع الوالدان أن يأخذا منها ما يتناسب مع الخطأ، ويستحب التنويع في تناولها، حتى لا تفقد أي منها قيمتها أو تفقد فاعليتها، ومن هذه العقوبات:

- النظر للطفل بغضب.
- عدم التحدث معه (مقاطعته كلامياً).
- عدم أخذه معه في نزهة.
- التأنيب «على أن يكون لوحده وليس أمام إخوته».

(١) أخرجه أحمد (٤٠٤/٣) والدارمي (١٤٣٨) وابن أبي شيبة (٣٤٥٣) وأبو داود (٤٩٤) والترمذي (٤٠٧) وقال: حسن صحيح، وصححه ابن خزيمة (١٠٠٢) والحاكم (٢٠١/١ و٢٥٨) من حديث سبرة الجهني، وحسنه النووي (رياض الصالحين ص ١٥٦).

- التهديد.

- العتاب.

- الضرب «بحيث لا يكون على الوجه، ولا بمكان خطر، وألا يترك - أثراً أو جرحاً».

- الصرخة عليه وتبيان الغضب الشديد.

هذه بعض أنواع العقوبات، وكلها يجب ألا نلجأ إليها قبل تبيين الخطأ وتعليمهم الصواب.

❋ ❋ ❋

كيف نصل إلى هؤلاء؟

إذا كانت الحركة الإسلامية لم توفق في الوصول إلى بعض الشرائح في المجتمع الإسلامي، فلا بد أن تفكر باستراتيجية جديدة في نوعية الخطاب لهذه الشرائح، ولا بد أن تفكر بأساليب جديدة قائمة على بعض الأصول التي منها «أخف الضررين» والحق على العمل بالمباح خوفاً من الوقوع في المحرم الذي لا خلاف على تحريمه. ومثالاً على ذلك، حث الجهات المسؤولة عن الشباب للاهتمام بالرياضة بجميع أنواعها، وهذا خير ألف مرة من الاشتغال بملاحقة النساء وغشيان مجالس الإدمان، ومن الأمثلة أيضاً استخدام العامية في بعض المواعظ، خاصة تلك التي تنقل عبر التلفزيون والإذاعة، ولا يفهم من ذلك التشجيع على العامية، بل الهدف منها الوصول لمعظم شرائح المجتمع، على ألا يكون هو الأسلوب الدائم في المخاطبة، وهكذا تتوالى الأمثلة النابعة من تغيير الأسلوب والخطاب لتصل الدعوة إلى أكبر عدد من شرائح المجتمع، والحكمة ضالة المؤمن، وأخال ذلك من الحكمة، والله أعلم.

❋ ❋ ❋

زلزال لوس أنجلوس وكوبي

خلال دقيقة واحدة فقط انقلبت الدنيا رأساً على عقب في أغنى وأجمل ولاية في اميركا، وبالتحديد في أكبر مدنها على الإطلاق، وهي «لوس انجلوس» مدينة الأثرياء والمشاهير، وبلغت الخسائر حتى الآن: القتلى ما بين ١٦٨ ـ ١٨٠ والعدد قابل للزيادة، الخسائر المادية من ١٥ ـ ٣٠ مليار دولار، وما بين ٥٠ ـ ١٠٠ ألف إنسان بلا مأوى.

وتفجرت أنابيب الغاز في كل مكان، واندلعت بسبب ذلك النيران في كل مكان، وهرع الناس إلى الشوارع والطرقات بملابسهم فقط خوفاً ورعباً من سقوط المنازل على رؤوسهم، وانقطعت الكهرباء، وأعلنت مدينة لوس انجلوس منطقة كوارث، اتصل بي أحد الأخوة الأفاضل من قلب هذه المدينة بعد وقوع الحدث بعدة ساعات يطمئنني على حاله، ويقول لي: «لقد خرجت بعد الحادث من البيت مهللاً ومكبراً ومسبحاً لعظمة وقدرة الله على الخلق، بينما الناس منخرطون بالبكاء، فقلت الحمد لله الذي جعلنا نلجأ إليه عند الشدائد، بينما هم لا يعلمون من يلجؤون إليه».

وفي مطلع عام ١٩٩٥ ضرب زلزال مدمر مدينة كوبي في اليابان لمدة عشرون ثانية فقط، ذهب ضحيته ما يقارب الخمسة آلاف إنسان، وخسارة الملايين من الدولارات وجعل المدينة كومة من الاسمنت.

إن هذا الحادث وما يماثله رسالة للمسلمين في أنحاء العالم من الله تعالى بأنه قادر على أخذ أكبر قوة في العالم في مدة لا تتجاوز دقيقة واحدة أو أقل، بما لا يملكون إيقافه، وحتى توقعه، فقد اعترف العلماء هناك بأنهم لم يستطيعوا التنبؤ بوقوعه، بالرغم مما يملكون من التكنولوجيا، ولكنها قدرة الله العظيمة التي عطلت كل شيء، والله يذكر المسلمين بهذه الحقيقة عبر آيات كثيرة في القرآن الكريم منها قوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ

مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ [فاطر: ٤٤].

وهذه الكوارث التي تحدث في العالم، وخاصة العالم المعادي للإسلام وأهله، رسائل متكررة من الله العظيم تقول للمسلمين إن الله قادر على الانتصار على أعدائهم، لو أنهم نصروه شعوباً وحكومات وأن ما يملك البشر من الأسلحة والتكنولوجيا تتوقف تماماً أمام قدرة الله تعالى، فما عساها تفعل الطائرات والصواريخ والقنابل أمام زلزال، أو أمام إعصار أو فيضان فهل ندرك مغزى هذه الرسائل من الله تعالى؟؟!

* * *

الدعوة والأهل

إن مما يقطع القلب أن نرى أبناء بعض كبار الدعاة قد حادوا عن الجادة، ويزيد الألم عندما نرى أفواج الشباب يتحولون من حمأة الجاهلية إلى نور الإسلام بسبب أولئك الدعاة في الوقت الذي نرى أبناءهم قد تنكبوا الطريق. إن هؤلاء الدعاة أحد اثنين:

الأول: أن يكون ممن بذل كل ما يستطيع من جهد لإصلاح ابنائه، ولم يبخل بوقت من الأوقات في هدايتهم وتعليمهم، وغرس القيم والمبادئ في نفوسهم.

والثاني: هو الذي انغمس في أمور الدعوة، ونسي أبناءه، ولم يعط وقتاً لهم، وصرف معظم وقته في تربية الآخرين، بينما أهمل أبناءه، وتركهم للمؤثرات الخارجية تعبث بهم من كل صوب وحدب.

فالأول هو مثال بعض الأنبياء كنوح عليه السلام، وهؤلاء لا ملامة عليهم، ولا مؤاخذة، وهم في مأمن من سؤال الله يوم القيامة ما داموا قد أدوا ما عليهم.

والثاني هو ممن لم يع أولويات الدعوة، وقواعدها، وأصولها، والله تعالى يقول لنبيه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤].

وقديماً قال الدعاة:

«من لم ينجح في بيته، لا ينجح في خارجه» فهل نعي خطورة هذا الأمر؟؟!.

* * *

قصة من الأزمة

جمع ما استطاع مما قل وزنه وزاد ثمنه، ثم كدس في سيارته أمه وزوجته وأبناءه ثم انطلق نحو الحدود الجنوبية للبلاد بعد أن اشتد على الناس البلاء، وخاف الكثير منهم على أعراضهم وأنفسهم، وعندما وصل إلى مدينة «الوفرة» وهي من المناطق الحدودية رأى جندياً عراقياً بكامل سلاحه، واستغرب عندما لم يفعل لهم شيئاً بل دلهم على الطريق المؤدي للحدود السعودية، فانطلقوا نحو الطريق الذي دلهم عليه، وقبل أن تلوح لهم علامات الوصول للحدود قالت أمه له: يا ولدي ما الذي سوف نفعله بهذا الطعام الذي أخذناه معنا، ونحن مقبلون على خير وفير، لماذا لا نرجع إلى ذلك الجندي المسكين ونعطيه هذا الطعام؟ فغضب الولد وقال: كيف نعطيه الطعام يا أماه، وهو ممن جاء ليقتلنا ويهتك أعراضنا، ويدخل الرعب في قلوبنا؟!

فأصرت الأم على أن يعود للجندي ليعطيه الطعام، وأصر جميع من في السيارة على عدم العودة، فلما رأت الأم إصرارهم هددته بعدم الرضا إذا لم يعد، ولما رأى الابن إصرارها عاد للجندي وقال له رغبة أمه، ولكن الجندي شك في الأمر وطلب منهم أن يأكلوا أمامه، فلما أكلوا من حيث اختار لهم، اطمئن للطعام، وأخذه منهم، وشكرهم على صنيعهم، ثم

فاجأهم بقوله: ما دمتم قد احسنتم إلي، وأسديتم لي هذا المعروف، فاسلكوا الطريق المخالف للطريق الذي دللتكم عليه في المرة الأولى، لأنه يوصلكم إلى حقل ألغام، فتعجب الجميع لهذا الحفظ الرباني بسبب عمل الخير، وهكذا هي سنة الله، فهو يحفظ عباده الصالحين، بسبب أعمالهم الصالحة، وخير شاهد لذلك ما جاء في سورة الكهف عن حفظ الوالدين من ابنهما عندما قتله الخضر، وحفظ اليتيمين ومعرفتهما لكنزهما بسبب صلاح والديهما.

❋ ❋ ❋

ميزان الإخلاص

قال الإمام أبو يوسف (رحمه الله):

«يا قوم أريدوا بعلمكم الله تعالى، فإني لم أجلس مجلساً قط أنوي فيه أن أتواضع إلا لم أقم حتى أعلوهم، ولم أجلس مجلساً قط أنوي فيه أن أعلوهم إلا لم أقم حتى أفتضح»[1].

إنها النية التي يجب أن يراجعها الداعية في كل عمل يقوم به، وإنه السؤال الذي يحتاج إلى تجرد وصراحة بين الداعية ونفسه، هل ما يقوم به لله أم للسمعة، أو ليقال فلان عامل، أو للتفوق على فلان وعلان، والجماعة الفلانية، أو لإغاظة إخوانه من الجماعات الإسلامية الأخرى، أو لأي نية أخرى غير وجه الله الخالص؟؟.

والداعية يستطيع أن يتعرف على نيته بنفس الطريقة التي قام بها الإمام أبو يوسف، فعندما لا يرى توفيقاً في عمل من الأعمال، أو يرى نتيجة سيئة، أو يرى فضيحة، أو نقيصة فيه قد بدت للآخرين، أو يرى مفاسد قد

(١) تذكرة السامع والمتكلم ص ٦٩.

ترتبت على عمله، فليراجع نيته فلعلها لم تكن لوجه الله، فيرجع إليه ويستغفره ويجدد نيته ليجعلها خالصة لوجهه الكريم، وإلا فليتذكر بأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً.

❀ ❀ ❀

انتباه بعد غفلة

طلب مني بعض الأخوة الأفاضل إلقاء محاضرة في إحدى الديوانيات في يوم كان مزدحماً بالأعمال، وأعطيتهم وعداً بالحضور، ولكن أمراً طارئاً استدعى حضوري في الوقت الذي وعدتهم فيه، وخطر لي خاطر الاعتذار لأتفرغ تماماً للأمر الطارئ، وهنا سألت نفسي: «ما فائدة هذا اللسان إذا لم يستعمل في مرضاة الله، والدعوة إلى دينه؟؟».

«وما فائدة العلم إذا لم يستخدمه صاحبه في تطبيقه على نفسه ثم نشره للآخرين؟؟... وأمام هذين السؤالين وجدتني عاجزاً عن تبرير التخلف عن عمل فيه مرضاة له سبحانه، فعزمت على ترك ذلك الخاطر، وتوكلت على الله بالإسراع في الانتهاء من الأعمال التي كانت تزدحم في ذلك اليوم، فبارك الله في الوقت وأعان على الانتهاء من جميع الأعمال، ثم الذهاب إلى الأخوة الأفاضل لتأدية زكاة الجوارح التي منحها الله للإنسان.

❀ ❀ ❀

كيف نصعد بعد الهبوط؟

بعد انتهائي من محاضرة إيمانية ألقيتها على بعض الأخوة، سألني أحدهم، من المعروف في عقيدتنا «أن الإيمان يزيد وينقص»، فما الذي نقوم به عند نقص الإيمان؟ قلت له: إن تكملة النص تقول: «تزيد بالطاعات، وتنقص بالمعاصي» وعليه فإن العمل الذي يجب أن نقوم به عند

شعورنا بالضعف الإيماني، أن نبحث عن المعصية أو المعاصي التي سببت ذلك الضعف، فقد يكون بقطيعة صلة رحم، أو بمعاملة ظالمة للخادم، أو باحتقار للجنسيات الأخرى، أو بنظرة محرمة، أو ترك للصلاة في أوقاتها، أو بسبب الغيبة أو سقط القول، وغيرها من المعاصي الدقيقة والكبيرة... وذلك في جلسة اختلاء بينك وبين نفسك تراجعها بما فعلت وبما قالت حتى تعثر على تلك المعصية التي أهبطتك، وبعدها تعقد النية بالتوبة النصوح، ثم تبدأ بالعبادات التي لا تشق على النفس وترتقي رويداً رويداً حتى تصل إلى ما كنت عليه، ثم تتجاوز ذلك الأفق إلى آفاق أخرى من الإيمان، وذلك بزيادة نوافلك وقرباتك إلى الله تعالى، وإياك إياك أن تلزم نفسك بالشاق من العبادات في بداية التوبة بعد عثورك على المعصية.. ذلك أن طبيعة النمو تأبى إلا التدرج....

❋ ❋ ❋

عندما تتوقف النفحات

جاءتني رسالة من أحد القراء في الشقيقة السعودية يلاحظ صاحبها على بعض الوقفات هبوطاً في المستوى الذي عهده من قبل، وكم تأثرت بهذه الرسالة، ووقفت مع نفسي أتأمل عظيم خلق الله تعالى، وكيف أن الخواطر والكتابة سواء كانت مؤلفاً أو مقالات في الصحف اليومية أو الأسبوعية، أو حتى على شكل خواطر ومحاضرات وخطب تقال للمسلمين، إنما هي رزق من عند الله تعالى يوزعه على من يشاء من عباده، ويمنعه عمن يشاء، وإعطاء هذا الرزق وهذه النفحات الإيمانية يتناسب تناسباً طردياً مع زيادة الإيمان أو نقصانه، فكلما شفت الروح، وازدادت القربات والمناجات في جوف الليل، والعيش مع كتاب الله، وكثرة الجلوس في بيوته، مع المحافظة على الفرائض، وطالت السجدات، وقل الانشغال بزينة الحياة الدنيا، هبت تلك النفحات على القلب، حتى إنها لتتسابق على مداد القلم، بل وتنهمر عليه كأنها شلال، حتى إن عضلة اليد لتعجز وهي تكتب

ولا تنقضي هذه النفحات. فإذا ما ضمرت تلك القربات، وازداد الانشغال بزينة الدنيا، وتناقصت الخلوات مع كتاب الله، وفي بيوته، تضمر معها تلك النفحات، وينضب الخاطر، فلا تكاد تجد كلمة تكتبها، أو عبارة تعلق عليها، أو أثر لموقف مررت به، وهكذا يشعر أصحاب الفراسة بهذا النضوب المتلائم مع نضوب الروح، ونسأل الله تعالى أن يمن علينا من فضله، ويغيثنا من نفحاته، إنه هو السميع العليم.

❊ ❊ ❊

الظاهرة الأفغانية

كان آخر كلمات النبي ﷺ في خطبة الوداع «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» بهذه الكلمات الموجعة خاطب النبي ﷺ ما يقارب العشرة آلاف صحابي رضي الله عنهم، بعدما أتم رباط الأخوة بينهم، وقضى على كل نزغة من نزغات الشيطان بينهم، وبيّن لهم طريق السؤدد وقيادة العالم بالوحدة والمحبة وصفاء القلوب، مع إيمان يهز الجبال. . وتمضي الأيام والأشهر والسنون والقرون ونحرم من الخلافة، ونحكم بغير ما أنزل الله. . وينتشر الظلم والاضطهاد لمن يحمل كلمة التوحيد.

ويطاردون في أوطانهم وخارجها في معظم خارطة العالم. حتى إذا ما منّ الله عليهم ونصرهم في بقعة من بقاع الأرض تسمى «أفغانستان» دوى رنين كلمات النبي ﷺ بين جنبات جبال أفغانستان وأصم الذين كانوا يقاتلون من أجل نصرة دين الله آذانهم، وأصروا أن يضرب بعضهم أعناق بعض، وسالت دماء المجاهدين تروي أرض أفغانستان، ولكن هذه المرة على أيدي بعضهم البعض، والسؤال الذي يجب أن يطرح بجرأة على جميع موائد النقاش في الحركات الإسلامية «إذا كان الخلاف بين فصائل المجاهدين قبل تحرير أفغانستان هو السبب الرئيسي في القتال الدائر بينهم الآن فهل وجود

نفس هذا السبب بين الجماعات الإسلامية في كل قطر من أقطار العالم سيسبب القتال بينهم إذا تمكنوا من الحكم في قطر من الأقطار؟؟؟

هنيئاً لطغاة العالم هذه النتيجة.

❋ ❋ ❋

همة عكاشية

ما إن انتهى الرسول ﷺ من ذكر حديث السبعين ألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وذكر صفاتهم حتى قام الصحابي الجليل عكاشة بن محصن قائلاً: «ادع الله أن يجعلني منهم» فقال له الرسول ﷺ: **«أنت منهم»** ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: **«سبقك بها عكاشة»**[1].

بهذه الهمة، وهذا المبادرة نال الصحابي عكاشة ما بشره به النبي ﷺ.

لقد تعددت وتنوعت أسئلة الصحابة رضي الله عنهم في مجالات الحياة، فمنهم من يسأله عن الأهلة، وآخر عن الغنائم، وآخر عن المحارم، وآخر عن النفقة، وآخر عن تخفيف العذاب في مكة، وآخر لتكثير ماشيته، ولم يخطر على بال أحد منهم أن يسأله أن يكون مع هؤلاء السبعين حتى سبقهم عكاشة إلى ذلك، وهذا إن دل فإنما يدل على أن أمر الآخرة، والعيش في أحداثها، من نعيم وعذاب كان الهم الشاغل للصحابي عكاشة.

وكان التفاعل مع كلام الوحي وهو يتلى رائعاً، بل إننا كأننا نلحظ الصحابي عكاشة أثناء حديث الرسول ﷺ، وقبل انتهائه منّى نفسه أن يكون منهم، وكان يتحين فرصة السكوت ليعلن الأمنية أمام الحبيب فتكون أعظم هدية يعطاها في الدنيا. إن الدعاة الذين يريدون إعادة مجد الأمة على

(١) متفق عليه.

أسسها التي شيدت بسواعد الصحابة رضي الله عنهم، لا بد لهم من همة عكاشية، يتعلقون من خلالها بهم الآخرة، ومناظر الجنة والنار، وعرصات يوم القيامة، ليكون ذلك هو الدافع لهم لحركة لا تعرف الملل لنصرة هذا الدين، وليرددوا مع رسولهم ﷺ: «**اللهم لا هم إلا هم الآخرة، فاغفر اللهم للمهاجرين والانصار**».

❊ ❊ ❊

انتحار العزائم

يقول الإمام أبو حاتم الرازي: «أول ما رحلت أقمت سبع سنين، ومشيت على قدميّ زيادة على ألف فرسخ، ثم تركت العدد، وخرجت من البحرين إلى مصر ماشياً، ثم إلى الرملة ماشياً، ثم إلى طرطوس ماشياً ولي عشرون سنة»[1].

هذا إذا أخذنا بالاعتبار ندرة الكتب لصعوبة استنساخها بشكل متكرر لمعوقات كثيرة، من أبرزها الوقت الذي يستغرقه النسخ، وصعوبة نقل الكتاب من بلد إلى آخر، وارتفاع أسعار الكتب، وانعدام وسائل النقل، وما إلى ذلك من المصاعب.

ومع ذلك نرى مثل هذا التفاني الذي يشبه إلى حد بعيد بالأساطير في الأجيال التي سبقتنا، وبالمقابل نرى في عصرنا ثروة في عالم الطباعة، وأصبحت كبار المراجع بين متناول كل باحث بأسعار زهيدة، ومتوافرة في كل المكتبات، وقد أخرجت بصورة واضحة وسهلة ترغيباً لقراءتها، وتسهيلاً للبحث فيها، ومع كل هذه التسهيلات، نجد كسلاً وتهاوناً وتقاعساً بالهمم لم يصل له جيل كجيلنا، وانتشرت ثقافة الشريط والكتيب الصغير، وحتى هذا الكتيب الصغير نجد الكثير من الدعاة لا يعرفون عنه شيئاً. إذا كان

(١) تذكرة الحفاظ ٢/٢٣٣.

الجهل فينا نحن معشر الدعاة بهذه الدرجة، فماذا نتوقع من العوام؟! لست مبالغاً أو متشائماً إذا قلت بأن ثمة انتحاراً جماعياً لعزائم الكثيرين من الدعاة قد تم منذ أمد بعيد، وما هذا الذي نراه من التراجع إلا نتيجة من نتائج هذا الانتحار..

❊ ❊ ❊

☜ حوار مع النفس

عزمت على الصوم يوماً من الأيام، ووقتّ الساعة قبل الفجر بنصف ساعة لأتمكن من تناول السحور، ولكن النوم غلبني، ولم أستيقظ إلا على صوت المؤذن منادياً لصلاة الفجر، ومن اللحظة التي استيقظت فيها وحتى قبيل دخولي للمسجد وأنا في حوار مع نفسي:

قالت: كيف تصوم ولم تتسحر؟ أما تعلم أن هذا يسبب الجوع والصداع والكسل؟

قلت: ولكنني بذلك أخسر يوماً، وفرصة عظيمة من فرص الأجر، ويتقدم عليّ الآخرون.

قالت: أيام الله كثيرة، وما فاتك اليوم يمكن أن تعوضه بيوم آخر، ولكنك إن صمت، وأصابك الصداع فسوف يثنيك عن القيام بالكثير من العبادات الأخرى، وأنت بذلك تفوت عليك عبادات كثيرة في سبيل عبادة واحدة.

قلت: إذا علم الله بنيتي فإنه سيعينني أو يجعل ما أكلت بالعشاء كافياً ومانعاً للجوع والصداع.

قالت: ولكنك فعلت مثل هذا في اليوم الفلاني وأصابك الجوع والصداع والذي استمر معك يومين.

قلت: إن الله كريم، ولا يرد من يدعوه وسأستعين به وأدعوه بأن يعينني ولن يرد الله من يطلب العون منه، ولن أؤثرك على مرضاة الله أبداً.

وفجأة وجدتني أمام باب المسجد وقد أنار الله بصيرتي وزاد من عزمي وإرادتي، وقررت الصيام، ولم يصبني جوع ولا صداع في ذلك اليوم بفضل الله.

❊ ❊ ❊

☜ جرس إنذار

إن ما حدث في أفغانستان بعد انتصار المجاهدين، من صراع بين تنظيمات المجاهدين المختلفة يشكل نذيراً، ويحدث رنيناً عالياً في أوساط الدعاة في مختلف بقاع العالم منبهاً لهم بضرورة استدراك الأمر قبل أن تتكرر النتائج ذاتها في كل بقعة يأذن الله بها بانتصار، فما يحدث من صراع وخلاف حاد بين المجاميع الإسلامية في كل قطر، قد يمتد ويتحول إلى صراع بالسلاح بعد تمكن هذه الجماعات في مكان ما، ولا بد من البدء منذ الساعة بتصفية القلوب والنيات وفتح أبواب المصارحة والحوار، والتنسيق فيما يتفق عليه الجميع، والتعاون في بعض الأنشطة العامة، ووقف الأسس التربوية التي تقوم على تأسيس الحقد والكراهية بين الجماعات بعضها مع بعض، وإبعاد من يقوم بذلك، فلا يبعد أن يكون أمثال هؤلاء المؤججون لنار الفتنة والأحقاد مدسوسين على الحركة لإجهاضها، وجعلها في حالة صراع دائم مع من يماثلها في التوجه، لينشغل الجميع عن المنكرات العظيمة التي تقترفها بعض الأنظمة في الصراع فيما بينهم، فهل ينتبه «العقلاء المخلصون» لهذا الأمر ويستدركون قبل فوات الأوان؟؟

❊ ❊ ❊

☜ انتصار صلاح الدين

تحدث في كثير من الأحيان حوارات داخل جسم الحركة الإسلامية الممتدة في أرجاء العالم تتطرق لأحوال العالم الإسلامي والمآسي المخيمة عليه، فتجد من يطرح بقوة الحل الذي يراه العاصم من القواصم، وهو فراغ الساحة من قائد كصلاح الدين يقود الأمة إلى مجدها، وترى مثل هذا الطرح في الشعر الإسلامي والخطب، والمقالات، والحوارات، كلها تكرس ذلك الحل الغائب عن الساحة. وأظن والله أعلم أن التركيز على مثل هذا الحل دون الالتفات إلى النواحي الأخرى أمر ينقصه الكثير من النظرة المتكاملة في قضايانا، فمع الأهمية القصوى للقيادة في حياة الأمم والحضارات، إلا أن القيادة من غير قاعدة وجنود بمستوى تلك القيادة الفذة لا يمكن أن تفعل شيئاً. جاء رجل إلى الإمام علي رضي الله عنه يقول له: «لماذا يا إمام كثرت في عهدك الفتن، ولم تكن كذلك في عهد الفاروق رضي الله عنه» فرد عليه رد الخبير بالسنن الإلهية، وبمقومات النصر: «كان الفاروق يعتمد على رجال مثلي، وأنا أعتمد على رجال مثلك».

لقد وضع الإمام علي النقاط على الحروف في هذه القضية ونظر إليها نظرة شمولية، وأكد على أهمية التكامل بين القيادة والجنود، وعلى أهمية استكمال مواصفات الجندية قبل النواح والتباكي على غياب القيادة.



☜ التطلع لنعمة الغير

استمعت يوماً إلى أحد تجار الهيروين وهو في السجن يجيب عن سؤال السائل: «لماذا سلكت هذا الطريق؟» فرد قائلاً: «لقد كان زميلي فلان في نفس العمل، وكان يأخذ كلانا راتباً كأي موظف غير مؤهل في الدولة. وغاب عني ذلك الزميل لمدة سنة، وبعدها رأيته بسيارة مرسيدس آخر موديل، وساعة ماركة غالية الثمن، فأغاظني ذلك كثيراً، وتعجبت من

حصوله على هذه الثروة بهذه السرعة، وحسدته على الوضع الذي هو فيه، ولم أهدأ حتى سألته عن مصدر الثروة، فدلني على طريق المخدرات، وهذه هي نهاية العمل بهذا الطريق».

هذا نموذج حي لإنسان ضل الطريق، وضيع نفسه ومن يعول، بسبب عدم القناعة بالرزق الذي قدره الله له، وبسبب الحسد للآخرين، ولو أنه رضي بقدر الله عليه لما اضطره ذلك لسلوك هذا الطريق الذي أوصله إلى هذه النهاية البائسة، ولو أنه تفكر أن ما هو فيه ربما يكون خيراً مما عليه آلاف الأثرياء، لما سلك هذا الطريق.. إذ إن النعمة ليست مقصورة على المال فحسب، فالصحة نعمة، والزوجة نعمة، والأبناء نعمة، وعدم حاجتك للناس نعمة.. وهكذا تتعدد النعم لو تفكر الإنسان فيها.. يقول الفتح بن خاقان: «دخلت يوماً على المتوكل ـ الخليفة ـ فرأيته مطرقاً متفكراً، فقلت: يا أمير المؤمنين، ما هذا الفكر؟ فوالله ما على ظهر الأرض أطيب منك عيشاً، ولا أنخم منك بالاً.

فقال: يا فتح! أطيب مني رجل له دار واسعة، وزوجة صالحة، ومعيشة حاضرة، لا يعرفنا فنؤذيه، ولا يحتاج إلينا فنزدريه»[(١)].

ولهذا قال الأولون: «من نظر إلى من هو فوقه تعب، ومن نظر إلى من هو دونه شكر».

ولأن هذا التعب عائق يعوق الداعية عن تحقيق أهدافه التي أمر الله بها، وشاغلاً يشغله في أدائها.

كان التوجيه الرباني لرسوله ﷺ بالامتناع عن التطلع لنعمة الغير، فقال سبحانه وتعالى:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه: ١٣١].

❋ ❋ ❋

(١) تاريخ الخلفاء ص٣٥٣.

«وعن جسمه فيما أبلاه»

من الأسئلة التي يسأل عنها ابن آدم يوم القيامة، عن جسمه فيما أبلاه، أي فيما أتعبه واستعمله. والإنسان كل إنسان لا بد له من إتعاب الجسد، إذ يقول الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾ [الإنشقاق: ٦].

فكل إنسان، سواء كان كافراً أو مسلماً، فاسقاً أو مؤمناً، منفلتاً أو ملتزماً، الجميع يكدح ويتعب هذا الجسد.

ولكن شتان بين من يتعب هذا الجسد في سبيل نصرة دعوة الله وبين من يتعبه في طاعة الشيطان، شتان بين من يتصبب عرقه بين غدوة وروحة لتكون له خير من الدنيا وما فيها، وبين من تصيبه أمراض الأعصاب بشتى أنواعها لكثرة ما يجهد نفسه في السعي لنصرة الباطل والحصول على شهواته، وعبادة ذاته، شتان بين من يتعب جسده من أجل راحة الآخرين، وبين من يتعب جسده ليتعب الآخرين.

أخي الداعية.. تذكر عندما يتصبب منك العرق، ويصيبك الصداع والإجهاد إنك ستسأل أمام الله يوم القيامة عن ذلك التعب، وسيكون لك الشرف والفخر بأنك أتعبت جسدك في سبيله، فإذا أردت مثل هذا الجواب، فكن كذلك العابد الذي أكثر من قيام الليل حتى رأفت بحاله أمه، فقالت له: «كم تتعب نفسك»، فأجابها إجابة العارف بالله، والموقن بدقائق الموقف يوم القيامة: «راحتها أريد».

❊ ❊ ❊

لمن يوجه الكلام؟؟

جاء في صحيح البخاري قول عليّ رضي الله عنه: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذّب الله ورسوله»[١].

---

(١) أخرجه البخاري (فتح ١/٢٣٥ - ٢٣٦).

هذه إحدى القواعد الكبرى في الدعوة إلى الله، فلا بد للداعية من معرفة الوسط الذي يوجه إليه الكلام، ولا بد من معرفة الشريحة التي يتعامل معها، فمن غير المعقول أن يتحدث العلماء والدعاة لعوام الناس بما دق من أمور العلم، فإن ذلك فتنة لهم، إن مما يؤسف له أن نستمع إلى الكثير من الخطب المنبرية، والمحاضرات، والبرامج الإذاعية الدينية التي يقوم بها العلماء والدعاة الأفاضل، وخاصة عبر إذاعات القرآن الكريم، والتي لا تراعي السواد الأعظم من المستمعين أو المشاهدين، وهم من عوام المسلمين والذين لا يفرق غالبهم بين الركن والواجب والشرط والسنّة لأي عبادة من العبادات، فكيف بهم يدركون دقائق علم التجويد، وأصول الفقه، وأمور الخلاف وما شابهها من العلوم التي لا يستطيع العامي هضمها، فما الذي يفهمه العامي عند سماعه لمناقشة رسالة ماجستير وما الذي يلتقطه العامي عند سماعه لتفاصيل علوم الحديث..؟

فإذا كان هدفنا إيصال الحق الذي أمرنا به الله تعالى للناس، فلا بد من استخدام الحكمة في ذلك، وإن من الحكمة مخاطبة الناس على قدر ما تدرك عقولهم، وألا نكلفهم أكثر مما يستطيعون، ولا بد للدعاة أن يدركوا أن غالب من يخاطبونهم في المجالات العامة وخاصة الإذاعة والتلفزيون هم من فئة العوام فلا يستخدمون معهم ذات الأسلوب الذي يستخدمونه مع طلبة العلم، وطلبة الدراسات العليا. ونسأل الله أن يلهمنا الحكمة في تبليغ الدعوة.

❊ ❊ ❊

الإحساس بنعم الله تعالى

«مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه برجل مبتلى أجذم، أعمى، أصم، أبكم، فقال لمن معه:

هل ترون في هذا من نعم الله شيئاً؟

قالوا: لا.

قال: بلى، ألا ترونه يبول فلا يعتصر، ولا يتلوى، يخرج به بوله سهلاً، فهذه نعمة من الله»[1].

عندما تزداد المصائب على البعض منا، ابتلاء من الله تعالى، تضيق الدنيا بعينه، ويظن أنه أكثر الناس بلاءً، ولو أنه نظر قريباً منه بتمعن إيماني لأذهله جبال النعم التي حرم منها الكثيرون وأعطيت له، ولكن صدق الله تعالى عندما قال:

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

فمن أصابه الله في الرزق، ونقص في الأموال، وهو بلا شك بلاء عظيم، ولكنه لو نظر إلى نفسه، ورأى معافاة الله له من الأمراض الخطيرة، ومعافاة الله له من الأمراض الجنسية القاتلة، ومن المخدرات التي إن سلك الإنسان فيها طريقاً تحول إلى كتلة لحمية لا تعرف من أمر نفسها شيئاً تنام على إبرة وتصحو على إبرة، وهذه حياتها كلها، ولو أننا تبعنا منهج عمر رضي الله عنه بالإحساس بالنعم التي حولنا لخف علينا وقع المصائب.

* * *

 استغلال السؤال

عندما يتميز الدعاة بعلمهم وأخلاقهم ودعوتهم للآخرين. يكونون قدوات للآخرين، ويكونون محطاً لثقتهم في الخاص من أمورهم.

وهنا يتعرض هؤلاء الدعاة للكثير من أسئلة العوام والمحبين للدعوة والدعاة واستغلال أسئلة العوام في إيصال الدعوة هي اسلوب نبي الله يوسف عليه السلام، عندما استغل ثقة السجينين فيه، وأسئلتهما، فسلك من خلال حاجتهما لمعرفة الجواب في إيصال ما يريد من الحق، وهكذا كان الكثير من الأنبياء وجمعٌ كبير من الصحابة رضي الله عنهم.

---

(١) حياة الصحابة ٦٦٦/٢.

فهذا أبو ذر رضي الله عنه «دخل عليه رجل فجعل يقلب بصره في بيته.

فقال: يا أبا ذر ما أرى في بيتك متاعاً ولا أثاثاً؟

فقال: إن لنا بيتاً نوجه إليه صالح متاعنا.

فقال: إنه لا بد لك من متاع ما دمت ههنا.

فقال: إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه»[١].

فالدعاة يحتاجون إلى انتباه كانتباه أبي ذر رضي الله عنه، عرف كيف يذكر بالآخرة من خلال السؤال، والربط بين صورة يراها السائل في عينيه، وصورة غيبية لا ترى إلا من خلال التذكير، والتي يقوم عليها الدعاة الربانيون، الذين يذكرون الناس بما هم مقدمون عليه وهم غافلون.

❊ ❊ ❊

أحادية التحليل السياسي

إن من المؤسف حقاً أن نرى بعض الإسلاميين، ممن يشهد لهم في الكثير من أبواب العلم والدعوة إنهم عندما يحللون أحداث الواقع السياسي، والنكبات التي تمر بها الدول الإسلامية لا يجدون إلا سبباً واحداً وراء هذه الأحداث، ومثالاً على ذلك فعند البعض منهم أن (أمريكا) هي وراء كل المشاكل التي يتعرض لها العالم الإسلامي، والبعض الآخر يرى أن اليهود وراء كل شيء.. استمعت إلى أحد هؤلاء الأخوة وهو يحلل بعض الأحداث في منطقتنا فيقول: «تصور يا أخي أن الأمريكان هم الذين قتلوا السادات لانتهاء دوره، وهم الذين قتلوا تورجت أوزال عندما شعروا في أيامه الأخيرة من خلال تصريحاته بخطورته، وأخذ يفصل كيف أنه مات

(١) مختصر منهاج القاصدين ص٣٦٨.

مقتولاً وليس بالسكتة القلبية.. إلخ». إن التمادي بهذا اللون من التحليل، واعتماده كأصل لا يقبل النقاش من شأنه أن يجعلنا نلغي جميع الخصوم الآخرين للأمة، كما أن من شأنه أن يبرئ ساحتنا كشعوب تماماً مما ابتلانا الله به، ويجعلنا في تقوقع تام وبعيدون عن إدراك الأسباب الأخرى، سواء الرئيسية والفرعية في صناعة الأحداث. وكل هذا يجعلنا بالنهاية في معزل عن إدراك حقيقة ما يدور حولنا، وبالتالي يشل من قدرتنا في وضع وسائل الوقاية من شرور أعداء الله حتى يحيطوا بنا على حين غرة ونحن غافلون.

❊ ❊ ❊

الساعات الأربع

جاء في «عيون الأخبار» لابن قتيبة قول وهب بن منبه، قال: وجدت حكمة داود:

ينبغي للعاقل أن لا يشغل نفسه عن أربع ساعات.

ساعة يناجي فيها ربه.

وساعة يحاسب فيها نفسه.

وساعة يخلو فيها هو وإخوانه والذين ينصحون له في دينه، ويصدقونه في عيوبه.

وساعة يخلي بين نفسه وبين لذاته فيما يحل ويُحْمد، فإن هذه الساعة عون لهذه الساعات، وفضل بلغة، واستجمام للقلوب(١).

ألا ما أجمله من منهج تنقية وارتقاء، فهو يقوم بالعمل، ثم يحاسب نفسه على هذا العمل إن كان لله أو لغيره، أو ما كان فيه تقصير في هذا

(١) عيون الأخبار ١/٢٧٩ ـ ٢٨٠.

الجانب، وهذا يختص فيه، ولا يمكن أن يعلمه أحد من البشر سواه، ولكن هناك عيوباً لا يمكن أن يراها بنفسه، فيستعين بإخوانه ليرشدوه عنها، ويعينوه في إماطة الأذى عن الطريق الموصلة للجنة، ثم يراعي نفسه خوفاً عليها من الملل والارتداد، فيروّح عنها بما أحل الله.

ولكن هذا الترويح لا يشكل الغالب من وقته، إنما هو قسم من الأقسام الأربعة لا بد من القيام به لضمان القيام بالثلاثة الأول. فهو في تمحيص دائم مع ارتقاء دائم.

* * *

ذكاء داعية

هكذا دأب الدعاة الذين يعيشون هموم الدعوة في كل لحظة من لحظات حياتهم، ويتحرقون على واقعهم، مما يجعلهم في هم دائم، وتفكير لا ينقطع بالوسائل الجديدة، لإنكار المنكر، وإيصال دعوة الله للناس. أعرف أحد الدعاة من هذا الصنف. كان يعمل موظفاً في إحدى المؤسسات الحكومية. وقد ابتلاه الله بزملاء في قسمه لا يعرفون سوى سقط الكلام وبذيء العبارة، والفحش من الحديث. وكان صاحبنا هذا خطيباً ففكر في طريقة ينكر عليهم ما هم فيه فهداه الله إلى فكرة ذكية وهي استشارتهم بالمواضيع التي يمكن أن يتناولها في خطبته، وإذا به يتفاجأ بتفاعلهم مع هذه الفكرة وكل منهم يشخص له الواقع الأليم، وما يحدث من مناكر يرونها بأعينهم ويسمعونها من شركائهم. يقول ذلك الداعية لقد كسبت بهذه الطريقة أمرين: الأول أنهم أعطوني من المعلومات ما لا أستطيع الحصول عليه بمجهوداتي الفردية. وبسبب صعوبة ولوج من هو مثلي في تلك الأماكن المشبوهة.

الثاني: أنهم لم يعودوا يتحدثون بهذه الأمور بعدما شخصوها لي بالتفصيل.

ولا شك أن هناك أمراً ثالثاً حصل عليه صاحبنا، وهو إشعارهم بالثقة وبالمسئولية تجاه هذه الأمور، ورابعاً كسره للحاجز النفسي بينه وبينهم وإمكان مصارحته بقضاياهم الشخصية وهكذا يجب أن يكون الدعاة، يبحثون في كل طريقة مشروعة للوصول إلى غاياتهم.

* * *

تغيير الواقع

هل نستطيع تغيير الواقع؟ هذا سؤال مطروح لكل داعية، ومن خلال الاحتكاك بنماذج متعددة من الدعاة في جميع العالم تقريباً، يمكننا أن نعطي ملخصاً للإجابات الرئيسية من طبقات الدعاة على هذا السؤال. جمهور الدعاة يعتقدون أن تغيير الواقع أمر ممكن وذلك من خلال فهم دقيق لآيات الله تعالى، وسنّة نبيه ﷺ، واستقراء للتاريخ، ومشاهدات وتجارب للحركة المعاصرة، كلها تدل على إمكانية التغيير. والأصل الذي ينطلق منه هذا الجمهور من الدعاة، هو اعتقادهم بأن مالك التغيير هو الله تعالى، وإمكانية التغيير مطلقة لله تعالى ولكنه تعالى جعل لذلك سنناً، من أبرزها اختيار الإنسان بذاته عملية التغيير، وواجب الدعاة حتى يحدثوا عملية التغيير، هو تحفيز الناس وتوجيه طاقاتهم ليحدثوا التغيير في أنفسهم أولاً، وهذا هو الواجب الأساسي للدعاة لتغيير الواقع، وهذا ممكن من خلال دعوتهم للخير بالأساليب المتنوعة وبالزاد الذي استخدمه الرسول ﷺ، وصحابته الكرام، وبالتذكير بحقيقة وجود الإنسان على هذه الأرض وحقيقة الدنيا والهدف من خلقه على هذه الأرض، وما ينتظره بعد الموت. أما الفئة الأخرى من الدعاة وهم الأقلية، يرون أن تغيير الواقع عملية بالغة الصعوبة وهي إلى المستحيل أقرب، ويستشهدون على آرائهم بكثرة الأعداء، وكثرة الخطط الموضوعة من قبلهم، وكثرة وسائل التأثير التي يملكها الأعداء سواء في الإعلام أو الاقتصاد أو السلاح أو التكنولوجيا، بينما المسلمون متخلفون في كل هذه المجالات، عوضاً عن

الجهل المستشري بين المسلمين، وما يعانونه من الفقر والضعف، وهيمنة معسكر الصليب عليهم في كل الأمور، إضافة إلى اختلاف المسلمين وخاصة الدعاة فيما بينهم.. إلخ من المشاكل. كل هذه الحجج تبدو منطقية إذا استسلمنا لها ولم ننظر لآيات القرآن الكريم، وسنن الله في الأمم، وقدرته سبحانه على تغيير الواقع إذا بانت الأسباب لهذا التغيير والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

يقول الشاعر:

ما بين طرفة عين وانتباهها ... يبدل الله من حال إلى حال

❋ ❋ ❋

ابدأ بصفة الخير

لا يوجد إنسان في الدنيا لا توجد فيه خصلة من الخير، وإذا كانت هذه حقيقة مسلمة، لا خلاف فيها فإن الداعية الذكي هو الذي يعرف كيف يبحث عن خصال الخير في المدعو، خاصة إذا كان من خصوم الدعوة والدعاة، إذا كان الخط المستقيم هو أقرب الطرق بين نقطتين، فإن الابتداء مع المدعوين بالحديث عن الخصال الطيبة فيهم هي أقرب الطرق إلى قلوبهم لقبول الدعوة. ولكن الذي نراه من بعض الدعاة أنهم ينفقون أوقاتاً كثيرة في التنقيب عن المساوئ لا عن المحاسن، ولهذا فإنهم لا يجدون قبولاً لدعوتهم وقد يرى بعض الدعاة أن الابتداء بذكر محاسن المدعو قبل دعوته من قبيل المداهنة والمجاملة التي لا تليق بصاحب الحق. وهذا خطأ ظاهر، حيث أن المداهن يبالغ بذكر خصال الخير فيمن يرجو منه منفعة، وقد لا تكون هذه الخصال فيه، مبتغياً بعض المصالح الدنيوية. ولكن الداعية عندما يذكر خصال الخير في المدعو، فإنه لا يبالغ ولا يختلق خصالاً من عنده، ثم إنه لا يبتغي وراء ذلك مصلحة دنيوية، إنما يريد

تقريبه للصراط المستقيم المؤدي لمرضاة الله تعالى، ومن ثم فهو يريد إنقاذه من الظلمات إلى النور، ومن الواضح أنه لا يستوي هذا وذاك.

❁ ❁ ❁

التلقي للتنفيذ

ذكر سيد قطب ـ رحمه الله ـ في كتابه القيم (معالم على الطريق) في فصل «جيل قرآني فريد» بأن الذي ميز جيل الصحابة رضي الله عنهم في الأجيال التي أعقبتهم ثلاثة أمور رئيسية ألا وهي:

١ ـ الأخذ من المنبع الصافي، وهو القرآن الكريم والسنّة المطهرة دون خلطه مع ثقافات أخرى.

٢ ـ منهج التلقي للتنفيذ.

٣ ـ خلع ثوب الجاهلية تماماً عند الدخول في الإسلام.

وإذا كان من الصعب تحقيق الأول والثالث بسبب كثرة المؤثرات الخارجية التي تعمل ليل نهار في هذا الإنسان المسلم، فإنه لا عذر في عدم تطبيق السبب الثاني وهو منهج «التلقي للتنفيذ» ولو أننا طبقنا هذا الأمر وحده لكان كفيلاً بتحقيق الأمرين الأول والثالث، حيث إن الكثير منا يتلقى الوعظ أو يقرأ أو يناقش لمجرد الاستمتاع وتضييع الوقت، أو للترف الفكري، ذلك أنه يستسلم لقناعات محددة، وأهواء آسرة، لا يستطيع حيالها تغيير الخطأ الذي هو عليه، فلذلك يستمع إلى الموعظة بنفسية «إسقاط الواجب» فحسب، وليس بنفسية «التلقي للتنفيذ». مع أن تغيير الأمم مرتبط بالقرار الذي يتخذه كل فرد في الأمة لتغيير نفسه حيث يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

فأساس مشكلتنا لا يكمن في نقص العلم أو العلماء، إنما يكمن في

ضمور هذه النفسية التي تتلقى للتنفيذ. وهذا السر الذي بسببه قرن الله سبحانه وتعالى الإيمان بالعمل، فما ذكر الإيمان في موضع إلا وقرنه بالعمل، حيث إن الإيمان لا يكمل إلا بالعمل.

❊ ❊ ❊

الرأي الآخر

إن من أبرز الملاحظات على غالب الحركات الإسلامية أنها لم ترب أفرادها على تحمل وقبول الرأي الآخر فيما ليس فيه نص، وفيما يحتمل فيه تعدد الآراء.

هذه الظاهرة تلحظها بسهولة في المؤتمرات الكبيرة، والمحاضرات، والكتابات والمقالات، وبعض الآراء تطرح وكأنها مسلمات لا تقبل الجدال أو المناقشة، والأدهى من ذلك، أنه إذا ما وقف آخر يعارض الرأي الفلاني في القضية الفلانية اتهمه البعض بالقصور بالفهم، وبنقص الاطلاع، وبالتلقائية، وبالضحالة الفكرية، وبالعاطفية.

وأحياناً يتهم بما لا يليق، كل ذلك بسبب طرحه لوجهة نظر أخرى في قضية من القضايا التي أشيع فيها رأي واحد أصبح مع مرور الأيام كأنه مسلمة من المسلمات، والأمثلة في ذلك أكثر من أن تحصى، منها على سبيل المثال، الرأي بطريقة الإنكار على المتسلطين، وهل هو باليد أو بغيره من الوسائل، ومنها حقيقة موقف أمريكا في أزمة الخليج، ومنها موقف الحركات الإسلامية من هذه الأزمة. ومنها طبيعة العلاقة بين الحركة الإسلامية ورموزها مع حكام المسلمين وهل تكون هناك جسور أو لا تكون، وغيرها من الأمور التي تحتمل آراء كثيرة والسؤال المطروح على كل فرد في الحركة الإسلامية هل أنت مستعد لسماع واحترام الرأي المخالف لرأيك في قضية من القضايا دون اتهام الطرف الآخر بقائمة الاتهامات المعهودة؟

❊ ❊ ❊

متى تقف الحركة على قدميها؟؟

في زيارتي لإحدى دول الخليج سئلت عن تقييمي للحركة الإسلامية في العالم وأدائها في الوقت الحالي؟ وأعترف بأنني لست مؤهلاً للإجابة عن هذا السؤال الصعب الذي يحتاج إلى آخر أكثر تجربة، وأعمق علماً، وأوسع اطلاعاً، ولما كان السائل يلح بمعرفة رأيي المتواضع، ذكرت له كلمة سمعتها عام **١٩٧٧** فيما أتذكر للأستاذ المفكر محمد قطب أثناء زيارته لدار الرعاية في لندن حينما وصف الحركة الإسلامية وكيفية وصولها للهدف الذي رسمته بقوله فيما معناه: «ما زالت الحركة تكبو وتقف وتكبو وتقف وتكبو وتقف حتى يأتي اليوم الذي تقف فيه دون كبو، وحينها نقترب من موعد النصر» وهي من أدق الكلمات التي سمعتها في حياتي في هذا الموضوع، فالحركة ما هي إلا مجموعة بشرية تخطئ وتصيب، وهي قد رسمت لها أهدافاً تريد تحقيقها، ويأتي على رأسها «إعادة حكم الله للبشرية» بعد أن سلب في معظم بقاع العالم الإسلامي، وأمام هذا الهدف سيقف خصوم كثيرون منهم أعداء حقيقيون لهذا الهدف سواء من بني جلدتنا، أو من غيرهم، يخافون عودة الإسلام لكي لا يخسروا هيمنتهم على الشعوب.

ومنهم من لم يفهموا الإسلام على حقيقته، أو فهموه من خلال الصنف الأول، فلذلك هم يعادون كل من يرفع هذا الشعار ليس عداء للدين بقدر ما هو التباس بالفهم. وآخرون ليسوا أعداء الدين ولا لحملته، ولكنهم يخافون فقدان الكثير من المكتسبات التي يحصلون عليها في ظل الأحكام الوضعية.

وهؤلاء الخصوم لن يقفوا مكتوفي الأيدي لأطروحات وتحركات الإسلاميين بل سيتحركون بكل ما استطاعوا من قوة لإيقاف هذا المد. وبالتالي سيحدث الصراع الذي يختلف في شدته ونوعه من موقع لآخر. وعندما يستفيد الإسلاميون من أخطائهم في التعامل مع هؤلاء الخصوم فإنهم يقتربون من الوضع الذي أشار إليه الأستاذ محمد قطب وهو «عدم الكبو» وكلما أغفلوا الأستفادة من أخطائهم استمر مسلسل الكبو حتى حين. ومن

الخطأ الفادح أن نصنف جميع الناس الذين يرفضون طرحنا بأنهم أعداء، وبالتالي نخطئ بالتعامل معهم، وهذا من الأمور التي تجعلنا نستمر بالكبو، وإلى أن نفهم بما يتلاءم معها، ونترك التعميمات فإننا سنستمر بهذا الارتداد أو الجمود على ما نحن عليه.

❋ ❋ ❋

الدعوة الصامتة

كنت في لقاء مع رئيس لجنة التعريف بالإسلام، وبينما نحن في لقائنا وإذا بأحد الموظفين بقطع لقاءنا ليخبر الرئيس بأن ثلاثة من الجنسية الآسيوية جاءوا للجنة لإعلان إسلامهم، فاستئذنني الرئيس بقطع اللقاء لحضور إشهار إسلامهم، وعندما ذهبنا للقائهم، سألهم أحد الأخوة بعد إعلان الشهادة، عن سبب دخولهم الإسلام، فذكر الأول أن سبب إسلامه أنه كان عاملاً في أحد المخافر فلما أذن المؤذن قام جميع من في المخفر، الضابط والشرطة والمحققون والعمال، وصفوا جنباً إلى جنب لا فرق بينهم، وصلوا صلاة الجماعة، هزني هذا المنظر كثيراً، وعجبت كيف ساوى الإسلام بين هؤلاء جميعاً في الصلاة، بينما هم متفاوتون في المناصب والدرجات الدنيوية، فلذا قررت الدخول في هذا الدين. وقال الآخر: أنا عامل في إحدى الجمعيات التعاونية، فلما أذن المؤذن، وإذا بالجمعية تغلق الأبواب. ويفرشون السجاد في الساحة الداخلية، ويصطف الجميع للصلاة سواء، فتساءلت في نفسي لماذا يصلي الجميع وأنا لا أصلي، فأحببت الصلاة من حينها وقررت الدخول في الإسلام.

هاتان شهادتان لاثنين دخلا في الإسلام يصرحان فيهما أنهما دخلا في الإسلام لرؤيتهما المسلمين وهم يصلون، دون أي تأثير من محاضرة، أو موعظة، أو عمل فردي، أو قراءة كتاب، أو الاستماع إلى شريط، أو رؤية فيديو، إنما فقط برؤيتهما لصلاة الجماعة، وهذا يدل على ما في الالتزام بأوامر الله من الصلاة والصيام والزكاة والحج، وسائر الأخلاق الإسلامية من

الأثر العظيم على الآخرين، وإنها تشكل دعوة صامتة لغير المسلمين، ولو أن المسلمين اعتزوا بدينهم وأدوا ما عليهم من الفرائض في أوقاتها وفي كل الأماكن دون استحياء من أحد، أو تقديماً لأي أمر من أمور الدنيا عليها لكان للالتزام بذلك الأثر العظيم في انتشار الدعوة في غير المسلمين، ولقد انتشر الإسلام في كثير من الدول بسبب الالتزام بفرائض الله، والاعتزاز بالدين أمام الآخرين دون دخول فارس واحد على جواد وبيده سيف، فهل يمارس الدعاة هذا اللون من الدعوة؟؟

* * *

هؤلاء جواريهم.. فمن يكونون هم؟؟!

«ذكروا أن للحسن بن صالح جارية، فباعها من قوم، فلما كان جوف الليل قامت الجارية، فقالت: يا أهل الدار، الصلاة.. الصلاة.

فقالوا: أصبحنا، أطلع الفجر؟

فقالت: وما تصلون إلا المكتوبة؟

قالوا: نعم.

فرجعت إلى الحسن، فقالت: يا مولاي بعتني من قوم لا يصلون إلا المكتوبة، ردني.. فردها».

إذا كان هذا هو مستوى جواريهم فما هو مستواهم الإيماني والأخلاقي والتربوي؟!

ما كان أحدهم أنانياً يربي نفسه ويدع من يعول، بل كانوا يفهمون تماماً معنى حديث الرسول ﷺ: **«كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»**[(١)] الحديث. فكان أحدهم يربي زوجته وأبناءه وخدمه وصديقه وجاره، وهكذا

---

(١) متفق عليه.

كانوا يشعرون بعظم مسئولية الدعوة الملقاة على عواتقهم، وإن أي انحراف أو عقاب في المجتمع ربما يحدث بسبب تقصيرهم في أمر الدعوة. ومن هذا المنطلق أيضاً كانوا يحسنون الانتقاء للزوجات وللأصدقاء وللجيران، وللخدم أيضاً لتتكامل العملية التربوية. قرأت هذا وتذكرت نماذج كثيرة من الدعاة في هذا العصر كيف يسلكون أنماطاً غريبة في التربية.

فبعضهم يهتم بتربية نفسه ولا يهتم بتربية زوجته، وأبناؤه ضائعون لا يعرفون صلاة ولا قرآناً.

وبعضهم يهتم باختيار الزوجة الصالحة، وينشغل في أمور الدعوة، ويهمل الأبناء، فيصبح الشارع هو الذي يربيهم بدلاً منه.

وبعضهم يهتم بمحيط أسرته من الزوجة والأبناء، ولا يأبه باختيار الخادمة المسلمة المحجبة، والتي تخرج في ثياب النوم لتغسل سيارته في الصباح الباكر، وتخرج معه حاسرة الرأس، دون أن يرى أي حرج في ذلك.

وقليل منا من يفهم تلك التربية الشمولية لكل ما يحيط به من الأفراد في المجتمع الذي يتحرك فيه، ولذلك تقدم أولئك وتأخرنا نحن.

❊ ❊ ❊

 قصمت ظهر أخيك

جاء في السيرة العطرة للصحابة رضي الله عنهم، أن رجلاً مدح آخر في وجهه في حضرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال للمادح: «قصمت ظهر أخيك» كثير من الدعاة يمرون على هذه الحادثة مر الكرام، ولا يقفون عندها ليتأملوا ما فيها من الأسرار، ولا يتفكرون في الأسباب التي دعت الفاروق إلى أن يقول مثل هذه الكلمة. فما لا شك فيه أن المديح هو أحد الأسباب الرئيسية لبروز الطغاة المشهورين في التاريخ، وما من طاغية ذائع الصيت في القديم أو الحديث إلا وكان وراء بروزه

وتفرعنه شلة من المداحين، و«قصم الظهر» كناية عن الإهلاك أو السقوط، فالظهر أو العمود الفقري للإنسان بمثابة العمود للخيمة، والأساس للمنزل، فإذا ما سقط العمود أو الأساس، فإن هذا يعني السقوط للخيمة أو البناء، وكذلك الإنسان إذا ما أصيب عموده الفقري، والذي كني بالظهر عنه فإنه لا محالة يسقط ويصاب بالشلل النصفي أو التام، والذي لا يستطيع بعده حراكاً.

والمدح:

١ ـ إما أن يكون لخصلة موجودة في الممدوح.

٢ ـ أو يكون لخصلة غير موجودة في الممدوح.

٣ ـ أو يكون لخصلة نسبتها قليلة في الممدوح يتم تضخيمها.

وغالباً تكون النتيجة لجميع هذه الأنواع واحدة.

فالسقوط للممدوح للنوع الأول يبدأ عندما ينتابه الشعور الداخلي بالتكامل ونقص الآخرين.

وعندما يتوالى عليه المديح ترسخ هذه المشاعر كحقائق تتحول إلى كبرياء وتعال على الآخرين يرفض بعدها أي نصح من الآخرين، لأنه يحسبها بمثابة التوجيه من الناقص إلى الكامل.

أما الممدوح من النوع الثاني، فإنه في البداية يعرف أن ما يمدح فيه ليس فيه، ولكنه مع استمرار المدح يقنع نفسه بأن هذه الخصلة فيه، فيبدأ بالتعالي على الآخرين ويرفض نصيحتهم.

والثالث مثل الأول: وعلى هذا فهم مشتركون في السقوط، ومن هنا نفهم طرفاً من قول الرسول ﷺ عن المداحين: «**إحثوا في وجوههم التراب**»[1]. وقولة عمر لذلك الصاحب: «قصمت ظهر أخيك» وأولى بالدعاء الابتعاد عن هذه الخصلة السيئة. إلا فيمن يعلم على سبيل غلبة

(١) أخرجه مسلم (٣٠٠٢) من حديث المقداد.

الظن أن المدح لا يضرهم، وحتى في هؤلاء يفضل تركه خوفاً عليهم، ومحبة فيهم.

***

حدث في الطائرة (١)

في رحلة على متن إحدى الطائرت المملوكة لدولة من دول الخليج جلست خلف شاب وشابة من عديمي الإحساس بالآخرين، ومن المنفتحين على الآخر، كما يقولون، ودونما مراعاة «على الأقل» لمظهري ومظهر شقيقتي الخارجي، والذي يبدو فيه التدين، راحا في قهقهات مستمرة وكلام غزلي بذيء، ثم أخذا غطاء وغطيا جسديهما فيه إلى رأسيهما، ثم أسند كل منهما رأسه للآخر وراحا في غرام عميق، غلت الدماء في عروقي، بل وغلى كل شيء في جسدي، وثارت في رأسي وذاكرتي كل أحاديث الإنكار، ومصير الساكتين عن المنكر، وبعد أن تجمعت كل هذه الأحاسيس والدلائل والغيرة المشتعلة، دفعتني همتي لكي أبدأ بالإنكار، ولكنني توقفت سائلاً نفسي عدة أسئلة:

أي نوع الإنكار أريد أن أنكر؟

نفسي: طبعاً الإنكار بالقلب.. أليس هذا الإنكار يعتبر درجة مشروعة من درجات الإنكار التي ذكرت بالحديث.

قلت لها: ولكنها الدرجة الأخيرة ولا ننتقل إليها إلا إذا عجزنا أو حال حائل دون الدرجتين الأولى والثانية.

نفسي: إنك إن انتقلت إلى الدرجة الأولى أو الثانية أي باليد أو باللسان فإنك ستجمع الناس عليك، وستبدو أمام الجميع أنك متطرف وإرهابي، وتتدخل بشئون غيرك.. وبهذا ستسيء لنفسك ولدعوتك.

قلت لها: ولكن درجة الإنكار بالقلب وأنا أرى أمام عيني حرمات الله

تنتهك، وأنا قادر على استعمال إحدى الأوليين جريمة، بل وتعتبر جبناً، وإيثاراً للسلامة، وقعوداً عن أداء واجب تستطيع القيام به دون حائل أو ترتب مضرة وما المضرة التي تتحدثين عنها إلا ظنية وليست يقينية، ثم لماذا تتحدثين عن الإنكار باللسان على أنه يجلب المضرة التي وصفتها، وكأنه لا توجد «حكمة» أمرنا بها ديننا، تحول دون هذه المضرة التي توقعتها عند استخدام الدرجة الثانية في الإنكار بإذن الله.

* * *

حدث في الطائرة (٢)

تحدثنا في الوقفة السابقة عن الرحلة التي قمت بها على متن إحدى الطائرات المملوكة لإحدى دول الخليج وما ابتلاني الله به من الجلوس خلف شاب وشابة يفعلان ما نهى الله عنه أمامي دون استحياء، وتحدثت عن أسئلتي لنفسي قبل القيام والإنكار، وردودها علي ثم وصلنا عند قولها لي:

نفسي: ألست منزعجاً مما ترى أمامك عن المنكر؟

قلت: نعم جداً.

نفسي: أولاً تريد أن تنهي هذا الانزعاج لترتاح مما تعاني من ألم المنكر الذي ترى؟

قلت: أي وربي نعم..

نفسي: أو لست مصراً على استخدام اللسان بالإنكار؟

قلت: نعم.

نفسي: إن أقصر طريق لذلك أن تقوم الآن حالاً من مكانك وتتجه إليهما، وترفع صوتك مخوفاً لهما بالتهديد بالشكوى عليهما، وبتوبيخهما

على الملأ على ما يقومان به من المنكر، وتكون بذلك قد أزلت عن كاهليك الحمل، وأبعدت الانزعاج.

قلت: وهل سيزول المنكر بهذه الطريقة.

نفسي: إنهما سيخافان ويقلعان فوراً عما يقومان به.

قلت: ولكن من المرجح أيضاً أنهما سيتلاسنان معي ويرفعان صوتيهما، ويقذفانني بكل بذيء من السب والشتيمة، وفوق كل ذلك سيصران على معصيتهما تحدياً لي بسبب تدخلي بهذه الطريقة الفظة.

نفسي: وماذا ستفعل إذن؟!.

قلت: يقول الرسول ﷺ: «**ما كان الرفق في شيء إلا زانه، وما نزع من شيء إلا شانه**» وأنا أفضل الرفق واستخدام الحكمة على النصيحة المباشرة، التي قد تريح النفس لأنها أقصر الطرق ولكنها طريقة محدودة النتائج وربما يترتب عليها نتائج سلبية غير ما رجاه المُنْكِرُ للمنكر.

وبعد قناعتي بعد هذه المحاورة باستخدام الحكمة انطلقت لصديق ذلك الشاب وقلت له، بأنك من بلدي ومن جلدي وأنا أغار على حريمك كما أنت تغار على حريمي، وأنت لا تقبل أن يجلس أحد مع أختك بمثل ما يفعل صاحبك مع هذه أمام الناس، وحتى إن كانت زوجته فلا يجوز أن يقوم بما يقوم به أمام الناس، تأثر هذا الشاب ووعدني بنصيحته.

اكتشفت أثناء الرحلة أن التي كانت تجلس بقربه مضيفة ولكن ليست في فترة خدمتها، وقبل الوصول للبلد وبعد أن لبست لبس المضيفات وأرادت أن تذهب في مقدمة الطائرة أوقفتها وقلت لها: أختي أنت من بلد عربي نحبه ونقدر شعبه لأنهم من المسلمين وأنت الآن تمثلين هذه الدولة الخليجية المحافظة في عاداتها وتقاليدها وقيمها المستمدة من ديننا الحنيف وأهل هذا البلد لا يرضون أن يقوم أحد أمامهم بمثل ما قمت به مع هذا الشاب من «المغازلة» ولا بد للإنسان أن يحترم عادات وتقاليد وقيم البلد الذي هو فيه، خاصة أنك مسلمة وهم مسلمون.

أصغت إلي بكل انتباه، ودون مقاطعة ثم ذهبت لحال سبيلها، وأرجو لها وللشاب الهداية، ولكن يبقى سؤال نطرحه على جميع الدعاة.. هل الجميع يحاسب نفسه على عدم الإنكار مما يراه من المنكر في المجتمع مع قدرته على الإنكار؟؟

***

السبب الرئيسي في الخلاف

في سنة ١٩٧٢ وبالتحديد في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي الذي أقيم في مدينة (دالاس) استمعت إلى الشيخ الفاضل عبد الله العقيل، وقد قذف بجوهرة من جواهر خبرته الطويلة في مجال الدعوة إلى الله، وإن كانت تلك الكلمة ليست هي الجوهرة الوحيدة في ثنايا محاضرته الطيبة، حيث قال «إن السبب الرئيسي في الخلاف بين الفئات العاملة في الدعوة إلى الله هو عدم التثبت عند سماع الخبر» وصدق ذلك الخبير بما قال، فإن الذي يعيش أحداث وتاريخ الدعوة إلى الله، فإنه يلمس هذه الحقيقة، ويتألم كثيراً لعدم التزام مجاميع كثيرة من الداعين إلى الله هذا الخلق الذي حث عليه القرآن الكريم.

﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦].

وفي قراءة«فتثبتوا» فالكثير من المواقف والأحكام والبيانات والتحليلات والقناعات تتخذ من غير التزام بهذه القاعدة القرآنية العظيمة، ولا بشروطها الواضحة والتي من أبرزها:

١ ـ الاستماع إلى الطرفين.

٢ ـ الحياد والعدالة.

٣ ـ معاينة مكان الحادث.

٤ ـ التأني قبل اتخاذ الحكم.

ولو أن الدعاة إلى الله التزموا بهذه القاعدة، وبتلك الشروط لقطعوا شوطاً كبيراً في التقارب فيما بينهم، فهم أحق الناس باتباع تلك القاعدة، ويقول الرسول ﷺ: «**كفى المرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع**»[1] ونهى الرسول ﷺ عن «قيل وقال».

❊ ❊ ❊

ثقافة الأشرطة

استخدام التكنولوجيا الحديثة، وتسخيرها في مجال الدعوة إلى الله أمر مطلوب وأمر لا بد منه إذا اردنا منافسة أعداء الله، والذين لا يألون جهداً باستخدام أحدث ما تقدمه التكنولوجيا الحديثة إلى الأسواق، ولكن لإغواء الناس، وابعادهم عن الصراط المستقيم. والشريط المسجل، أو شريط الفيديو من ضمن الأساليب الحديثة في نقل المعلومة، ولا بد من التوسع فيه لنقل الدعوة إلى تلك الشرائح التي يصعب على الدعاة الوصول إليها، ولكن الجانب السلبي في هذا الأمر، أن جمهوراً كبيراً من الدعاة تعودوا أخذ ثقافتهم من الشريط، حتى تركوا حلقات العلم، وتركوا القراءة والمذاكرة، مما جعلهم بمنأى عن المنهجية الصحيحة في تعلم العلم، وترك هذا الأمر بصمات سيئة على طريقة نقاشهم، والذي يظهر فيه قلة العلم، وانقطاعه، ويظهر الاصرار والمكابرة لنصرة هذا الشيخ على ذلك الشيخ، وهذا الرأي على ذلك الرأي، من غير أي دليل سوى سماعه من ذلك الشريط. أيها الدعاة العلم لا يؤخذ من الأشرطة فحسب، وقديماً قال العلماء: «من كان شيخه كتابه قلّ صوابه، وكثرت أخطاؤه».

ونحن نقول اليوم نفس العبارة، ولكن بوضع الشريط مكان الكتاب.

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه مسلم (٥) من حديث أبي هريرة.

☜ هل تدركون ما معكم؟

أثناء دراستي في المملكة المتحدة بين عامي **١٩٧٤ ـ ١٩٧٨** في مدينة «بورنمث» لم أجد آنذاك من يعينني على الدين، التفت يمنة ويسرة فلم أجد أحداً من العرب، أو من بني بلدي من يعينني على الحق، ولم أجد في الساحة غير الأخوة الماليزيين، فهم كانوا آنذاك فرسان الدعوة وقادتها على المستوى الطلابي في الكثير من المدن.

فآخيتهم وأصبحت جزءاً منهم، ولم أقوَ على فراقهم وهم لم يقروا على فراقي، وما أجمل أن يعيش أحدنا في «عالمية الإسلام». كان الكثير منهم يقولون لي «إننا نغبطك على معرفتك لقراءة العربية وفهمها» وعندما أسألهم عن سبب هذه الغبطة لفهم العربية، يردّون علي «إنكم تملكون كنزاً لا تعرفون قيمته، يا ليتنا نعرف هذه اللغة لنقرأ الكنوز التي خلفها علماء السلف، والتي لم يترجم منها إلا القدر اليسير» كنت أقف أمام هذه الاجابة متندماً ومتحسراً ليس على واقع أمتي وعوامهم، بل على «وسط الدعاة» و«جمهور الدعاة» الذين لا يقرأون ولا يحبون القراءة، مما يجعلهم فعلاً أمام كنوز يزهدون بها، وخيول لا يجيدون امتطاء صهواتها. إنها والله نعمة سيسأل الدعاة عنها يوم القيامة، وصدق الله تعالى:

﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر: ٨].

❋ ❋ ❋

☜ غيبة الدعاة

الغيبة كما عرفها النبي ﷺ:

«**ذكرك أخاك بما يكره**»[(١)] واستثنى من ذلك:

(١) أخرجه مسلم (**٢٥٨٩**) من حديث أبي هريرة.

١ ـ المظلوم عندما يشكو سيده لدى القاضي.

٢ ـ الفاسق المجاهر بفسقه.

٣ ـ التحذير ممن يتظاهر بالدين وهو معاد له ولأهله.

وتشتد حرمة الغيبة خاصة في العلماء أو فيمن يبدو في ظاهرهم الصلاح، والعمل لدعوة الله، وغرس الفضائل التي أمر بها الدين. ولكن بعض من نحسن الظن فيهم وللأسف الشديد أضافوا استثناء آخر على ما ذكر في الأحاديث وهو «من خالفك في جماعتك» أو «من انتمى إلى جماعة ليست جماعتك» مهما يكن ذلك الشخص عالماً أو متعلماً، فيغدو ذلك الإنسان مباح الغيبة ليل نهار لا لذنب سوى إنه لم ينتسب لجماعة صاحب الغيبة، مع أن هؤلاء هم من اعرف الناس بخطورة الغيبة، وبأنها من الكبائر، والتي لا يغفرها الله إلا بتوبة نصوح، ويعلمون أن الله تعالى قد عنّف مقترفها أشد تعنيف إذ قال:

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٣].

فليتق الله أولئك النفر وليتركوا هذه الكبائر قبل أن يأخذ الله الإيمان من قلوبهم فيصبحوا على ما فعلوا نادمين.

❊ ❊ ❊



الكتب المُفَرِّقة

انتشر في المكتبة الإسلامية منذ فترة ليست بالقصيرة، وازداد في الآونة الآخيرة لون من الكتب التي يدور الحديث فيها عن «الجماعات الإسلامية» ولا أعني تلك التي يكتبها المستشرقون، والعلمانيون بشتى أصنافهم، ولا تلك التي تعدها المخابرات في الدول الغربية والإسلامية على حد سواء، إنما أقصد تلك التي يقوم بكتابتها «دعاة مسلمون» قد قضوا عمراً في الحركة الإسلامية. وأبرز سيئة في هذه الكتب، هي أن المؤلف يقوم بإبراز أخطاء وعيوب كل

الجماعات، ويبرؤ الجماعة التي ينتمي إليها من كل عيب وخطأ، وكأنه يعتقد ما يعتقد بعض الباطنية بعقيدة «العصمة» لغير رسول الله ﷺ، أو يعتقد بأن جماعته جزء من الملائكة الذين لا يجوز عليهم الخطأ، كما أن المقزز في هذه الكتب أن القارئ لها يخرج بشعور الكراهية لباقي الجماعات ما عدا جماعة المؤلف، وبالتالي فإن هذه الكتب تجعل مسافة الالتقاء مع الجماعات الإسلامية تزداد بعداً، وتجعل كمية العداء، والحقد تزداد حجماً، وتنمي العداء للجماعات الإسلامية الأخرى أكثر من العداء لأعداء الله من اليهود والنصارى ومن شابههم في معتقداتهم الباطلة.

وهذا لا يعني السكوت عن الأخطاء التي تقع فيها الجماعات الإسلامية على مختلف مشاربها، إذا ما اعتمدت بعض الشروط وهي كالتالي:

١ ـ الابتعاد عن الحزبية، والتي تغض الطرف عن أخطاء حزبها، بينما تقوم بتضخيم أخطاء الآخرين.

٢ ـ التماس العذر ـ وهو مبدأ مقرر في الكتاب والسنة.

٣ ـ حسن الظن وترك منهجية «الأصل سوء الظن» فإن قواعد «الأصول تقول الأصل في المسلم براءة الذمة».

٤ ـ الابتعاد عن العبارات والكلمات الاستفزازية أو ما يقترب من كلمات السب والشتيمة.

٥ ـ التثبت من النقول والحوادث.

٦ ـ العدالة.

ومن أبرز هذه الكتب التي لاقت قبولاً بين الناس وقد التزمت بهذه الشروط وأكثر منها، ما كتبه الشيخ الفاضل سلمان العودة في رده على فضيلة الشيخ الغزالي في كتابه «حوار هادئ» وما كتبه فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز رداً على فضيلة الشيخ علي الصابوني. . وهذان الكتابان يصلحان بأن يكونا نموذجين للآداب الإسلامية في حالة الخلاف.

❊ ❊ ❊

بين حلاقين

حلقت عند أحد الحلاقين فلم يكلمني كلمة واحدة سوى سؤاله عن نوع الحلاقة التي أريدها وكلمة نعيماً في نهاية الحلاقة، وبعد فترة ذهبت إلى حلاق آخر بعد أن رأيت عند صاحبي القديم ازدحاماً وكنت مستعجلاً لقضاء بعض الحاجات. وعندما دخلت عليه رحب بي وقدم لي كرسي الحلاقة وعندما ربط على صدري صدرية الحلاقة همس في أذني «صبحك الله بالخير» بلهجة خليجية مكسرة، ولاحظت عليه اهتمامه بكل داخل إلى محله، ويسميه بكنيته ويرحب به أجمل ترحيب، ويسأل عن خصائص حالته، فتعجبت من اهتمام وحافظة ذلك الحلاق، وشعرت بميل غير إرادي في الرغبة للذهاب إليه في المرات الأخرى، فإن النفس تحب من يقدرها ويشعرها بقيمتها، وهذا سر نجاح بعض أصحاب الأعمال، وبعض الدعاة في دعوتهم، إنه حسن الاتصال بالآخرين وفن التحسس باحترامهم والاهتمام بهم.



التألم على الساقطين

الراكب في قطار الدعوة إلى الله لا بد أن يلاحظ أثناء هذه الرحلة المباركة ظاهرة سقوط بعض الركاب، فيتألم لمنظر السقوط، خاصة إذا كان السقوط من راكب قديم. أو كان السقوط بحد ذاته سقوطاً عنيفاً أدى إلى تشوه جزئي أو كامل للساقط، أو لم يعد يقوى على المشي لكثرة ما تكسر من عظامه، وما تهتك من عضلاته. ولا شك أن الحزن والتألم أمر طبيعي يصيب الذين اصروا على البقاء في القطار بالرغم من جواذب الارتماء على جانبي القطار، بسبب طول العشرة مع الذين سقطوا، و بسبب ما يقيسوه بالحساب البشري إنه خسارة للدعوة، ونقص لراكبي القطار الدعوي، وانخفاض في عدد الخبرات والطاقات، خاصة إذا كانت قديمة، وفوق كل

هذا هو تحسر على أخ من اخوانهم ترك الارتقاء، وقبل بأن يكون من القاعدين، اللاهثين وراء أهوائهم ليس له هدف في حياته إلا ذلك.

وقد يسبب هذا الحزن للبعض نتائج سلبية في عمله وعطائه الدعوي، أو قد يصيب البعض شيء من الاحباط واليأس، وغيرها من النتائج السلبية، ولكن الداعية الفطن يجب أن يدرك عند سقوط البعض، بعض الأمور:

١ ـ أن في ذلك تصفية للصف من الشوائب.

٢ ـ حتى يكون التعلق بالحق وحده لا بالأفراد.

٣ ـ حتى يتأكد مفهوم الولاء والبراء.

٤ ـ ليكون حافزاً للمزيد من التحرك لتعويض النقص.

٥ ـ التسليم الكامل لحكمة الله وقدره.

٦ ـ لعل ذلك يكون محركاً للبحث عن أسباب السقوط وتداركها في الثابتين.

وتذكر هذه الأمور يخفف كثيراً من الألم والهم الذي يحدث عند سقوط البعض والذي قد يترتب عليه بعض النتائج السلبية، لذلك أشار القرآن الكريم لهذا المعنى عندما كان النبي ﷺ يتألم عندما يعرض على قومه الإسلام ويرفضونه. يقول تعالى:.

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف: ٦].



الحكمة في الانكار

صليت الفجر خلف إمام أزعجتني كثرة أخطائه في التلاوة، وتعجبت لسماح أهل المسجد بسكوتهم عن إمامة مثل هذا الإمام. وما إن انتهت

الصلاة وجلس الناس يسبحون، وكنت منتظراً أحد الإخوة الأفاضل، والذي له باع طويل في الدعوة إلى الله، وما إن خرج ذلك الإمام حتى تبعه ذلك الأخ الذي انتظر، ورأيته من بعيد يحادثه، حتى إذا ما انتهى من الحديث أقبل علي، وبعد السلام، قال لي قبل أن أبادره بتساؤلي «هذا هو المؤذن الجديد عندنا، وقد تقدم للإمامة عندما تأخر الإمام هذا الفجر، لقد قلت له، اسمي فلان، وبودي أن أتعرف عليك وأخبرك بأن اليوم قد صلى خلفك العالم الفلاني، والدكتور في كلية الشريعة الفلاني، والخطيب الفلاني، والمقرئ الفلاني، فتعجب كثيراً من هذا الخبر، وشعر بالندامة على تقدمه، واعترف دون أن يطلب منه بضعف حافظته للقرآن وإنه كان من المفروض أن يقدم أحد هؤلاء» أعجبني جداً أسلوب ذلك الأخ الداعية في الإنكار، والنصح، فهو لم يذكر له نقاط ضعفه، بل نصحه من زاوية أخرى لا تخدش شيئاً من كرامته، وهذه هي الحكمة التي نحتاجها في انكار المنكر.

❋ ❋ ❋

 عوائق الفهم (١)

يتعجب البعض عند حديثه للآخرين عدم فهمه ويُرجع السبب إلى أمر واحد وهو غباء المقابل، أو عدم قدرته على الاستيعاب، وبالرغم من أن هذا السبب قد يكون صحيحاً عند البعض ولكنه ليس صحيحاً عند الآخرين أو ربما لا يكون هو السبب الوحيد في هذه القضية، فلا بد من البحث عن أسباب عدم الفهم لأحاديثنا عند البعض أو ما يسمى بعوائق الفهم. ومن أبرز هذه العوائق:

١ ـ استخدام العبارات الصعبة.

خاصة تلك المفاهيم أو المصطلحات الأدبية أو السياسية المعربة من لغات أخرى مثل التكنقراط أو الكنفدرالية أو الشيوفونية وأمثالها من المصطلحات أو بعض العبارات الأدبية العميقة التي لا يفهمها الجميع.

٢ ـ مخاطبة الناس على أنهم ذو مستوى واحد سواء كان هذا المستوى المظنون هو مستوى ثقافي مرتفع أو متدن فالخطاب يجب أن يشمل الجميع لكيلا يحرم من فهمه البعض الآخر كأن يأتي في عرض حديثه «كما قال سيد في آية الربا» ولا يذكر ما قاله سيد اعتماداً على أن الجميع له نفس الخلفية الثقافية التي يملكها أو يقول «كما جاء في سبب نزول الآية الفلانية» ولا يذكر سبب النزول لنفس السبب.

٣ ـ نقص الأدلة: فالحديث عندما لا يدعم بالأدلة يكون ضعيفاً وقد لا يفهمه الكثير لأن الناس تختلف في قدراتها على الاستيعاب والأدلة تأتي لتسهل عملية الفهم عند هذه الفئات لما تجلبه من توضيح للفكرة المطروحة.

٤ ـ كراهية السامع للمتحدث: فالحاجز النفسي من أكبر عوائق الفهم وما لم يكن المتكلم مقبولاً على الأقل فإن حاجزاً يتكون بين السامع والمتكلم يحول دون الفهم الصحيح لذلك كان الرسول ﷺ عندما يختار رسله للملوك والأمراء يختارهم من أجمل الصحابة وجهاً وجسماً وفصاحة.

٥ ـ استعمال العبارات المطاطة: أو تلك التي تحتمل أكثر من تأويل تجعل المستمع في حيرة من المقصود وتحدث خلافاً بين المستمعين في مقصود المتحدث وكلما كان الكلام واضحاً والعبارات مباشرة كان الفهم أكبر عند المستمع.



عوائق الفهم (٢) انشغال المستمع بشيء آخر

٦ ـ فلا بد للقائمين على تنظيم المحاضرة أو المحاضر بذاته إن كان الكلام محفوفاً في بيته أو بيت زميل له، أو مكتبه، عليه أن يزيل كل ما من شأنه أن يشغل المستمع عن حديثه. ومثالاً على ذلك ألا يتحدث في مكان فيه من الزخارف والملفتات ما فيه، ويتعمد الحديث في بيوت الله، أو

القاعات المخصصة لذلك، إلا أن يكون الانشغال في قضايا تخص المستمع، فلا يملك المتحدث في هذا الأمر شيئاً إلا أن يكون المستمع قريباً له فيعالج ما يشغله عما يتحدث فيه إن استطاع.

٧ ـ مقاطعة المتحدث:

وهذه المقاطعة لها عدة صور كأن يقاطعه المقدم ليعلن إعلاناً أو لأي شيء آخر كتنبيه أو تحذير أو ما شابه، أو بمرور ساقي الماء أمامه، أو اعطائه قهوة أو شاياً أثناء حديثه.

أو حدوث جلبة في قاعة المحاضرة كتوزيع طعام أو شراء أو حدوث صوت مرتفع قريباً من مكان الحديث.

أو وضع مزهرية كبيرة تحجب صورة المتحدث عن المستمع، أو إنه يجلس في مكان منخفض أو متساو مع المستمعين أو صياح طفل، أو حديث بين اثنين وغيرها من الأمور التي تقاطع المتحدث وهذه من الأمور التي كان يحرص عليها الإسلام في آدابه في الحديث، وأيضاً نلحظ حرصه على أن يكون المتحدث في مكان مرتفع كما هي السنّة في خطبة الجمعة.

٨ ـ عدم اختيار الوقت المناسب.

فاختيار الوقت له أكبر الأثر في فهم المستمع فالحديث في منتصف النهار أو أوله ليس كالحديث في بداية الليل أو منتصفه، وكذلك يتأكد اختيار الوقت المناسب عند حدوث الظروف غير المواتية للحديث، كالحديث عن القبر وعذابه، في مناسبة الأفراح والأعراس والحديث عن الأفراح في مناسبة الموت والعزاء.



غضب الوالدة

علاقة الأم بولدها من أقوى العلاقات وأغربها، وأعجبها، ومنشأ هذه الغرابة والعجب في أن الله تعالى لا يعاقب في تصدع علاقة بين طرفين كما

يعاقب عندما تتصدع علاقة الولد بوالدته أو والده، فقد أوصى الخالق سبحانه بحسن العلاقة، وتهدد الذين يسيؤون لها، وعجل عقوبة المسيئ في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة من العقاب. يقول أحد الإخوة: قررت الذهاب مع أسرتي الصغيرة في رحلة على ساحل البحر في منطقة تبعد عن مركز المدينة وضوضائها، واستئذنا والدتي بذلك فأذنت ودعت لنا بالتوفيق، وعندما جاء الموعد حزمنا الحقائب وانطلقنا إلى مكان الرحلة، ولكنني كنت أشعر بانقباض وصداع بدأ يتسلل إلي، واستغربت ذلك الصداع، خاصة إنه يأتيني من غير سبب، كنقص في الغذاء أو النوم أو ارهاق العمل أو التوتر أو غيرها من أسباب الصداع، واستمر الصداع يشتد علي طيلة الليل وشطراً من صباح اليوم الآخر. يقول الأخ: حينها جاءني شعور وصل إلى درجة اليقين، أن هذا الصداع عقوبة إلهية سببها غضب الوالدة وعدم رضاها، وعندما رجعنا إلى البيت اتجهت قبل كل شيء إلى الوالدة أسألها عن صدق مشاعري فكانت المفاجأة بإجابتها «نعم كنت غاضبة عليك طيلة الليل» وسألتها عن سبب غضبها بعد استئذاني وموافقتها، فقالت «كنت أحب الذهاب معك ولم تَدْعُني».

فيجب الحذر الشديد من غضب الله تعالى وعقوبته الدنيوية في علاقتنا بوالدينا. يقول النبي ﷺ: «**رضا الرب في رضا الوالد**»[(١)].



طبقات الهم

للهم طبقات مختلفة، وهذا الاختلاف سببه اختلاف معادن الناس وقابليتهم لتحمل البلاء، واختلاف مستوياتهم الإيمانية والاجتماعية وغيرها من الأمور، وكل ذلك يساهم في تشكيل طبقات مختلفة من الهم. فقد تكون إحدى هذه الطبقات لا تشكل أدنى اهتمام للبعض، وقد تكون هي الهم

(١) أخرجه الترمذي (١٨٩٩) وصححه ابن حبان (٤٢٩) والحاكم (٤/١٥١ ـ ١٥٢) من حديث ابن عمرو.

الشاغل عند البعض الآخر، ففوات مشاهدة فيلم سينمائي أو مباراة لكرة قدم في التلفزيون يعتبر عند البعض هماً يغير نفسياتهم وبعض تصرفاتهم، بينما عند آخرين يعتبر أمراً تافهاً عوضاً عن أن يكون هماً من الهموم. وقد تسبب كلمة بذيئة، أو إتهام كاذب للبعض هماً يسلب قائلها نوم الليل، ويشغله عن أكل الطعام، بينما عند آخرين لا يشكل هذا الأمر بالنسبة لهم أي حيز من الهم.

وأحياناً يكون السبب في التفاوت بين الناس في درجات التأثر في الهم هو ذاته طبقات الهم، إذ إن الذي لا يتأثر تماماً أو تأثره أقل من الآخرين إنما ذلك بسبب مقارنته البلاء الذي أصابه ببلاء أشد منه، أو بالهم الذي أصابه بهم أعظم منه فتتضاءل طبقة الهم الصغير الكبير، وهذا علاج نفسي أقرّه الإسلام حين الاصابة بالهموم، فقد قال الرسول ﷺ: «**إذا أصاب أحدكم مصيبة فليذكر مصيبته بي فإنها من أعظم المصائب**»[1].

فهو يحث هاهنا على النظر لطبقة من الهم أكبر عند الإصابة بأي هم. وواضح ذلك في قوله تعالى:

﴿فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

فالغم الأصغر كان الهزيمة في أُحد وهو أول ما أصابهم، والهم الأكبر هو نبأ مقتل النبي ﷺ، فانشغالهم بالهم الأكبر أنساهم الهم الأصغر حتى إذا تبين كذب إشاعة مقتل النبي ﷺ انقشع كل الهم بفضل الله.

❋ ❋ ❋

علامات المخاض لولادة الدولة الإسلامية[2]

مع التألم الشديد الذي يصيبني عند سماع أي نبأ من أنباء المصائب التي تصيب العالم الإسلامي ينتابني شعور مواز لذلك الشعور، وهو شعور الفرح

(١) الأحاديث الصحيحة ١١٠٦.
(٢) سمعت هذا التعليق على الآية من الشيخ عبد المجيد الزنداني.

والاستبشار بقرب ولادة الدولة المرتقبة، وهي دولة العدالة التي لا يظلم فيها أحد، تلك الدولة التي يكون الحاكم فيها رب السموات والأرض. ولا يوجد تناقض بين الشعورين كما يظن البعض، بل إن الشعور بالتناقض يزول حين ندرك سنّة الله تعالى في أن الولادة لا بد أن يسبقها مخاض. ولو استعرضنا ما يحدث للوالدة قبل وضعها للوليد: من صداع، وآلام في جميع مناطق جسدها، واختلال بالتوازن، وقيء لما تأكل، وطفح جلدي في بعض مناطق جسدها، وانتفاخ في مناطق كثيرة من الجسد، وخاصة منطقة البطن. وتغير للمنظر العام للوالدة.. إلى إخر تلك الأعراض التي تصيب الوالدة قبل الولادة.. وهي سنّة من الخالق سبحانه اقتضتها حكمته البالغة للوالدة، فلا تلد إلا بعد ذلك المخاض وما قبل المخاض وما فيه من آلام متعددة ومتنوعة.

وهكذا سنّته أيضاً عند ولادة الدولة الإسلامية من جديد، فلا بد أن تسبقها، مصائب متنوعة في كل أرجاء البقعة الإسلامية، وهذه المصائب سبب رئيسي من أسباب نشوء الوعي والرجعة إلى الله، وسبب رئيسي في تجريد الولاء لله وحده، وسبب رئيسي في الاعتزاز بالولاء لله وحده، ذلك لأن الرخاء واليسر والترف يساعد في ذبول ونوم الإحساس للأمة... وكل هذا من البشائر المبكرة لولادة الدولة، حتى إنك لا تكاد ترى دولة إسلامية في هذه الأيام لم يصبها بلاء ومحنة، حتى أهدأ الدول التي لم يكن متوقعاً في المنظور البشري أن يحدث فيها شيء، تجد فيها ما يشيب له الولدان كما حدث في الكويت ويحدث في البوسنة والهرسك وغيرها.

ومع هذا الشعور بالفرح والاستبشار لا بد من تفاعل واستفادة من الأحداث والمصائب لتوجيهها الوجهة الصحيحة التي نريد أن يصل إليها المجتمع، لتكون سبباً في تقريب ولادة دولة العدالة المنتظرة.

❊ ❊ ❊



الجمود والتغيير

أصوات كثيرة تتعالى بين أوساط الدعاة تطالب بالتغيير والتجديد،

وأمام هذه المطالبات نجد دائماً فريقين الأول يرهب التغيير ويخشى التجديد.. بحجة المحافظة على الأصول من أن تمس، والفريق الآخر يرى التغيير في كل شيء، ويريد إحداث ثورة في كل شيء، بحجة المعاصرة وترك الجمود والروتين، ومن الاعتدال أن نختار الوقوف بين هذين الفريقين، فالتغيير والتجديد ليس حراماً ولا مكروهاً بل هو مطلوب شرعاً إذا ما انضبط بالضوابط الشرعية والتي من أبرزها عدم مخالفة النصوص الشرعية التي لا خلاف فيها والاعتماد على الشاذ من الآراء، والضابط الثاني أن نتذكر أن أهدافنا نبيلة، وبالتالي لا بد أن تكون وسائلنا نبيلة. وما دامت الوسائل مباحة، وخالية من الشبهة فالمجال واسع لاستخدام التكنولوجيا الحديثة السمعية والبصرية (التلفزيون، المذياع، المسجل، جهاز عرض الشرائح، الفانوس السحري، الفيديو، المسرح.. إلخ) كل ذلك من أساليب التجديد والتي لم نتعود عليها كتعودنا على الإلقاء المباشر لدروس العلم، ولا مانع من استخدام النظم الإدارية المبتكرة لكسر الروتين، ولا مانع من تغيير الهياكل الإدارية للمؤسسات الدعوية وحتى طرق التلقين ما دامت مباحة، إذا كان ذلك يخدم قضية إيصال الحق والتربية المثلى لأجيال الدعاة.

❋ ❋ ❋

 التقلبات في حياة الدعاة

الدعاة إلى الله جزء من البشر، وعلى هذا فكل ما ينطبق على البشر ينطبق عليهم، وكما أن البشر يثبتون ويسقطون، كذلك في عالم الدعاة سقوط وثبات، إلا أنهم أقل عرضة للسقوط من غيرهم لما بذلوا من أسباب الثبات، والقلب ما سمي قلباً إلا لكثرة التقلب ولا يملك أحد ضمان الثبات على الصراط، حتى أتقى الناس، وأكثرهم تعبداً وهو النبي ﷺ كان يكثر في دعائه: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**».

ولا يعني إيماننا بذلك أن نقف صامتين أمام هذا الأمر، فنرى تقلبات

البعض، دونما يحرك ذلك فينا مدارسة أسباب ذلك التقلب. فلا يمكن أن يتغير داعية كان في القمة لسنين طويلة فجأة دون مقدمات، ودون تدرج بالضعف، ولا يمكن أن يحدث هذا التغير السريع من غير أسباب.

وآخر كان في المؤخرة فيرتقي أعلى القمم بمدة وجيزة تكاد لا تصدق في الموازين البشرية.

وآخر يسقط بتدرج بطيء..

وآخر يثبت بتدرج بطيء..

لكل هؤلاء أسباب في تقلباتهم، ولا بد من دراسة متأنية تحيط بهذا الموضوع من جميع جوانبه.

ومن المفيد لمن يبحث في هذا الموضوع معرفة أن معظم أسباب التقلب إنما تنبع من أساسين مهمين، وهما:

١ ـ الإيمان العميق.

٢ ـ والفهم الدقيق.

ونقص أي منهما يسبب التقلب.

وقد لا يظهر التقلب على مدى سنوات كثيرة، فإذا ما واجه ذلك الداعية بلاءً عظيماً أظهر مذخور كل من ذلك الأساسين في نفس ذلك الداعية، وعلى مقدار تكاملهما أو نقصهما يحدث التقلب أو لا يحدث.

❊ ❊ ❊

التواضع للحق

قال إبراهيم بن الأشعث: سألت الفضيل عن التواضع؟ قال: «التواضع أن تخضع للحق وتنقاد له، ولو سمعته من صبي قبلته منه، ولو سمعته من

أجهل الناس قبلته منه»[1] وهذا من أبرز علامات الإخلاص والتجرد، حيث إن المخلص لا يهمه في عمله إلا وجه الله تعالى، ولا يشغله إلا ما يرضي خالقه سبحانه، وهو يفسر دائماً كل تعال عن الأخذ بالحق، صدوداً عن مصدره، لهذا فهو يخضع للحق من كل إنسان، حتى وإن كان من عدوه وهذا من معاني الإسلام، أي التسليم لكل ما أراد الله تعالى. إن مما يؤلم القلب ألا نرى هذه الصفة منتشرة بين الدعاة إلى الله، بل نرى في الكثير من الأحيان الانقياد للحزب أو الفئة، أو التجمع أكثر من الانقياد للحق.

فقد يرى الحق يكتبه ذلك العالم الذي ليس من حزبه فيشك فيه، ويقلب عشرات الكتب للبحث عن دليل ينقض ما ذهب إليه ذلك العالم، وقد ينصحه بعض من لا يملك أدب النصيحة، فيتكبر في الأخذ بها لسوء أدب الناصح، وإن كانت العلة فيه، وقد يهجر عن عمد الكثير من الحق المنشور في الخطب والكتب والمحاضرات وحلقات الذكر لأن الذي يقول ذلك ليس من جماعته، وكأن الحق انحصر في جماعته فقط.

إننا معشر الدعاة نحتاج إلى ذلك الخلق الذي أشار إليه الفضيل، لأن الحق أحق أن يتبع، ولأن الحق أعلى من الحزب والجماعة وجميع البشر.

❊ ❊ ❊

☜ صدق أو تصدق

داعية من دعاة الخليج المشهورين، أصيب بالشلل النصفي، بسبب خطأ في علاج ظهره. مات على أثره النصف السفلي لجسده، أرسل بعد ذلك إلى دولة من دول الغرب، وكان لا يفتر لسانه عن الدعاء يصحبه اليقين بإنجاز الله لما يريد منه، وكان يلح بالدعاء. بأن يشفيه الله تعالى، ولم تمض إلا أيام قلائل حتى أحس باحتياجه لإخراج البول، فضغط على

(١) -التواضع والخمول لابن أبي الدنيا ص ١١٨.

زر الجرس منادياً الممرض، وعندما جاء الممرض وأخبره بحاجته، لم يصدق الممرض ما يسمع من ذلك الداعية، وقال: لا يمكن أن يكون هذا، ولكن الداعية أصر على طلبه، وما يشعر فيه، واجتمع الممرضون والمرضات والأطباء وهم في دهشة من موقف لم يشاهدوه من قبل، كيف تعاد الحياة للجزء الميت من مصاب بالشلل النصفي؟؟! إنها قدرة الله العظيمة «يحيي ويميت» وإنها روعة الدعاء، وعظمة الاستجابة، وصدق الله إذ قال في الحديث القدسي: «**أنا عند ظن عبدي بي**»[1] الحديث.

إن الإله الذي أرجع لذلك الأخ الحياة لجسده الميت ما زال حياً لا يموت، وهو القادر على كل شيء، ولكن عطاءه، وكشفه للبلاء إنما يتحقق لأولئك المستيقنين عند دعائهم حق اليقين، لهذا جاء في الحديث الصحيح: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة**»[2].

❊ ❊ ❊

الطريق إلى الطمأنينة

يذكر الإمام ابن القيم في معرض حديثه عن الخشوع في كتاب مدارج السالكين، عن أسباب الحصول على الخشوع فيقول: «وكذلك يشهد أن ما زوى عنه من الدنيا، أو ما لحقه منها من ضرر وأذى فهو منة أيضاً من الله عليه من وجوه كثيرة، ويستخرجها الفكر الصحيح»[3].

ثم يستشهد بقول أحد السلف رضي الله عنهم «يا ابن آدم لا تدري أي النعمتين عليك أفضل. نعمته فيما أعطاك، أو نعمته فيما زوى عنك»[4].

(١) أخرجه أحمد (٣٩١/٢) وصححه ابن حبان (٦٣٩).
(٢) الأحاديث الصحيحة ٥٩٤.
(٣) (٤) مدارج السالكين ٥٢٠/٢.

هموم الدنيا كلها إنما مصدرها هذان الأمران:

١ ـ ما زوي عنها منها.

٢ ـ ما لحقنا منها من ضرر.

وإذا ما استطاع الإنسان إزالة هذين المصدرين فلا يبقى بعد ذلك إلا الطمأنينة والسكون، وخلو البال من كل شاغل، والذي يعقبه «الخشوع» والذي لا يمكن أن يأتي مع ما يشغل الإنسان من هموم الدنيا.

وطريقة إزالة هذين المصدرين تكمن في عملية واحدة، وهي استحضار واستيقان بأن الخير كل الخير ما قدره الله تعالى بما زوى عنك من الدنيا، وبما أصابك من أضرارها، وذلك بالتفكر بعاقبة الضرر، وبالنتائج المتوقعة لو أعطيت من الدنيا ما زوى عنك. ففي التفكر في عاقبة الضرر يكتشف المؤمن الكثير من الحكم والمصالح بعد زوال الضرر، والتي ما كان يكتشفها حين وقوع الضرر.. والمؤمن الذي يريد الحصول على الطمأنينة لا بد أن يدرب نفسه على عمق التفكر بعاقبة الضرر، ويكتشف بعقله الكثير من المصالح، والحكم، مما يساعده كثيراً في التخلص من جانب كبير من جوانب الهم الدنيوي، ثم يتبعه بالتفكر العميق في المصالح من زوي الدنيا عنه، فيعثر على كنوز من الحكم في ذلك. فيتخلص من الجانب الآخر من هم الدنيا، فيصبح خالي البال، مملوء القلب بالسكينة والطمأنينة، متهيئاً للخشوع.

وهكذا كان السلف رضي الله عنهم يربون أنفسهم، يقول أحد السلف رضي الله عنه: «نعمته فيما زوى عني من الدنيا أعظم من نعمته فيما بسط لي منها. إني رأيته أعطاها قوماً فاغتروا»[١].

❊ ❊ ❊

(١) تهذيب مدارج السالكين ٢٧٨.

☜ إنهم أناس يتطهرون

ذكر ابن عبد ربه في «العقد الفريد» عن الجعل قوله «الجعل إن دفنته في الورد سكنت حركته حتى تحسبه ميتاً، فإذا أدنيته من الروث تحرك ورجعت نفسه».

ذلك أنه تعود على العيش في هذه الأماكن النجسة، ولكون الأماكن الطاهرة النقية المعطرة، غريبة عليه، غير مألوفه له، فتأباها نفسه، وترفض التأقلم بمثل هذا الوسط.

كذلك هو حال الفاسدين والمفسدين من بني البشر، الذين عاشوا أوحال الأوساط القذرة المليئة بالعربدة والمجون والنجاسة بشتى أنواعها وألوانها وأشكالها، فإنه يشق عليهم العيش بغير هذه الأوساط وتكون الأوساط الطاهرة لديهم شاذة، ناقصة، يختنقون من مطرها ونقائها، لأنهم لم يتعودوا العيش في النقاء والطهارة، لذلك يعجب قوم لوط على حرص لوط عليه السلام على الطهر والنقاء فيقولون بعجب «إنهم أناس يتطهرون» ولا يكتفون بذلك بل إنهم لا يريدون أن يروا من يعيش في الطهارة، لأن ذلك معناه ظهور الضد عند المقارنة، لذلك فهم يريدون من الجميع أن يعيشوا معهم في العفن، حتى لا يتميز أحد عنهم، وإن كان هذا التميز هو الطهارة والنقاء.



☜ التقدم والتفرغ

لا يمكن أن تتقدم الدعوة إلى الله، وينجح الدعاة فيما أمرهم به الله تعالى دونما تفرغ، تفرغ باطني، وتفرغ خارجي، والباطني هو خلو القلب والفكر من أي شيء سوى الغاية، والخارجي عدم الانشغال بشيء سوى الغاية، وقد يكون التفرغ الخارجي صعباً على الحركة الإسلامية في العصر

الحديث بسبب الأوضاع الجاهلية التي نعيش فيها، ولكن لا تعذر الحركة الإسلامية بعدم الالتزام، وتربية أفرادها على النوع الأول من التفرغ، مع بذل الجهود لاستكمال النوعين من التفرغ، أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قوله: «غزا نبي من الأنبياء، فقال لقومه: لا يتبعني رجل قد ملك بُضع امرأة وهو يريد أن يبني بها ولم يبنِ، ولا آخر قد بنى بنياناً ولم يرفع سقفها، ولا آخر قد اشترى غنماً أو خلفات وهو منتظر ولادها» يقول الحافظ في الفتح «والغرض هنا من ذلك أن يتفرغ قلبه للجهاد، ويقبل عليه بنشاط، لأن الذي يعقد عقده على امرأة يبقى متعلق الخاطر بها، بخلاف ما إذا دخل بها، فإنه يصير الأمر في حقه أخف غالباً، ونظيره الاشتغال بالأكل قبل الصلاة».

ومثله المشغول في بناء بيت، ومن ينتظر ولادة غنم أو إبل، أو تجارة غير ذلك. ويقاس عليها كل ما يشغل المرء عن الغاية التي خلق من أجلها، فإن ذلك لا شك إنه يصرف جزءاً ليس باليسير من تفكيره لذلك الأمر، مما يؤدي إلى قلة العطاء لأمر الدعوة، وبالتالي تأخير إنجازات الدعوة، وتأخير النصر.



من عجائب سنن الله تعالى

من عجائب سنّة الله تعالى في خلقه أنه سبحانه وتعالى يختبر من ينصح الناس بأمر من الأمور بنفس هذا الأمر، فمن ينصح الناس بالإنفاق يختبره بموقف فيه انفاق ليرى سبحانه وتعالى تطبيقه لهذا الأمر.

وكذلك من ينصح بترك الغضب يبتلى بموقف فيه غضب لغير الله ليراه يغضب أم يصبر ويحتسب، ما دام لغير الله.

وكذلك من ينصح بالصبر يبتلى بموقف يحتاج إلى صبر. . وهكذا.

يذكر أحد الإخوة ممن درسوا في إحدى الدول الأجنبية، وكان ممن

يعظ الناس فيقول «ابتلاني الله ببلاء صعب ولكنه وحده أعانني على الخروج منه، وذلك أثناء دراستي في أمريكا، وبعد أن ألقيت محاضرة في «الفتن في حياة يوسف عليه السلام» وقد ركزت كثيراً على فتنة النساء، ويومها لم تكن زوجتي معي، وبعد المحاضرة بأيام قليلة، اتصلت بي إحدى الأمريكيات، وقالت لي بأنها تعرفني، وعندما بادرتها عما تريد، قالت أريد أن أفعل الفاحشة معك، صعقت لهذه العبارة التي أسمعها لأول مرة في حياتي، واستغربت هذه الجرأة وثارت عاصفة الشيطان تطرق علي كل باب موصد، واستعنت بالله تعالى، وتذكرت يوسف عليه السلام، وأجبتها بأن هذا الأمر لا يجوز في ديننا كما أن ديننا لا يبيح لنا أن نخون زوجاتنا، ثم أغلقت الهاتف في وجهها وتعوذت بالله من شياطين الإنس والجن».

والحمد لله الذي حفظ ذلك الأخ من السقوط في فتنة من أعظم الفتن، ليرى سبحانه مدى صدقه عند وعظه للآخرين.

❊ ❊ ❊

بين دخان البخور ودخان السجائر

يقول الرسول ﷺ: «**المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم**»[١].

هذا الحديث العظيم والذي يمثل أصلاً من أصول الدعوة، وعنصراً رئيساً في قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يغفل عنه الكثير من الدعاة، فالمخالطة مع الناس بوجه العموم تستوجب معرفة الداعية بأن الناس لا يتماثلون في أخلاقهم وطبائعهم وعاداتهم فمنهم من أخذ من الأخلاق

---

(١) أخرجه أحمد (٤٣/٢) والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٨٨) والترمذي (٢٥٠٧) وابن ماجه (٤٠٣٢) والبيهقي (٨٩/١٠).
قال الحافظ ابن حجر: «سنده حسن» فتح الباري ١٣/١٢٥ ـ ١٢٦.

العالية بالحظ الوافر، ومنهم من كان أسوأ من البهيمة، وبين هذا وهذا أصناف لا تعد ولا تحصى، فلذلك لا بد للداعية من توطين نفسه على هذا فيتهيأ عند مخالطته لتحمل دخان السجاير، والأرجيلة، وبعض العادات السيئة أثناء محاولته انتشالهم مما هم فيه، إلى عالم الطهارة والنقاء، وهيهات أن يتساوى من يتحمل هذا النوع من الأذى، وتلك المجالس من أجل إيصال دعوة ربه للناس، وبين من يتقلب من طيب إلى طيب، ومن مجلس بخور إلى آخر. وصدق ابن المبارك عندما قال مخاطباً الزاهد الفضيل بن عياض:

ريح العبير لكم ونحن عبيرنا   رهج السنابك والغبار الأطيب

وصدق «سيد» رحمه الله عندما قال مخاطباً المتقاعسين من الدعاة عن حمل الراية والأمانة، وترك الناس دون انتشال من حمأة الجاهلية.

أخي هل تراك سئمت الكفاح.
وألقيت عن كاهليك السلاح.
فمن للضحايا يواسي الجراح.
ويرفع رايتنا من جديد.

❊ ❊ ❊

متى يغضب الدعاة؟

جاء في ترجمة الإمام الجليل زين العابدين علي بن الحسين أن «جارية له سكبت عليه ماء ليتوضأ فسقط الإبريق من يدها على وجهه فشجه، فرفع رأسه إليها.

فقالت الجارية: إن الله يقول: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ فقال: قد كظمت غيظي.

قالت: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾.

فقال: عفا الله عنك فقالت: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

قال: أنت حرة لوجه الله».

«وسقط سفّود من غلام (عبد) لعلي بن الحسين وهو يشوي شيئاً في التنور على رأس صبي لعلي بن الحسين فقتله، فنهض علي بن الحسين مسرعاً، فلما نظر إليه قال للغلام: إنك لم تتعمد، أنت حر، ثم شرع في جهاز ابنه».

هكذا يجب أن يكون الدعاة متحكمين في أنفسهم، لا يغضبون إلا لله تعالى، وهذا من كمال التوحيد الذي يدعون إليه.

فالداعية يتعرض في حياته للكثير من الأذى من قبل فئات كثيرة في المجتمع. أهل الفساد، والجاهلين، وأصحاب السلطات، وأهل البدع والانحراف، وغيرهم، ولا بد أن يوطن نفسه على التحكم في نفسه وإحكام زمامها، ويتذكر دوماً قولة قدوته ﷺ: **«لا تغضب»**[1] فما دام السب والشتيمة والتشكيك والاستهزاء والتسفيه والاستعداء موجه للنفس فلا بد من الصبر وعدم الغضب.

ولا يعني أن نزيل الغضب تماماً من النفس، إنما هو مطلوب في غير الثأر للنفس، بينما يجب أن يكون عندما تنتهك محارم الله ويعلو صوت الفساد والمفسدين وتفوح رائحة المحاربة لله ولرسوله، والذي لا يوجد فيه هذا النوع من الغضب فهو على خطر عظيم، لأنه لا يملك الدافع الذي يدفعه لإنكار المنكر حتى ولو (في قلبه) وذلك أضعف الإيمان.



كيف تكسر النفور والغضب؟

في يوم من أيام يناير وأمام الكعبة المشرفة، وفي صلاة الفجر، كان يصلي إلى جانبي رجل ما كنت أعرف جنسيته، ولكنه لفت نظري

(١) أخرجه البخاري.

عندما صلى سجدتي سهو بعد الصلاة. فقلت له: أخي العزيز إذا كنت قد أخطأت في الصلاة فالإمام ضامن، ولا داعي لسجود السهو، فنظر إليّ نظر المغضب وقد تجهم وجهه، وقال بلهجة حادة: أنا شافعي وعندنا إذا ترك دعاء القنوت لا بد من سجود السهو، وتنحى عني جانباً على صورة من لم يعجبه ما قيل له. ثم نودي لصلاة الميت، وكانت فرصة بأنه عاد إلى مكانه بجانبي، وبعد انتهاء الصلاة، وضعت يدي اليمنى على كتفه وربت عليه وقلت له: يا أخي إنما أنا ناصح، ولا داعي للغضب، فإن كنت مخطئاً فبين لي خطئي، وليس هناك داع للغضب، بعد هذه الكلمات، انكسر شيء من غضبه وفورته، وبدأ يشرح لي ما فهم من مذهبه في هذه القضية. ورددت عليه بيسر وهدوء، وبينت له حبي للإمام الشافعي، وشرحت له باختصار شديد، «الإمام ضامن» أو كلام الإمام الشافعي رضي الله عنه «إن صح الحديث فهو مذهبي». وشكرني على ذلك ثم جلست بعيداً عنه، فما لبث بعد أن انتهى من التسبيح أن جاءني يعتذر، ويصافحني مصافحة المتأسف على موقفه السابق، وقال لي: يا أخي نحن أتراك قريبون من العراق، وفهمنا للعربية ركيك، وليس عندنا قدرة الاستنباط وفهم الاحاديث ومراميها، لذلك لا بد لنا من تقليد إمام ثبت. فأيدته على ذلك، وبينت له محبتنا للأتراك، وإنه لا فرق بين مسلم وآخر، وكلنا أخوة في الله ثم تحدثت معه عن تركيا وزيارتي لها، وبعض القصص التي حدثت لي هناك. فسر كثيراً لذلك، ثم ختمت له حديثي بالفرق بين المقلدين، وأن هناك تقليداً أعمى وتقليداً مبصراً، والتقليد الأعمى هو الذي لا يلتفت إلى الدليل حتى وإن وضح أمامه وضوح الشمس، فوافقني على ذلك، ثم بينت له ما يعني حديث السبعة الذين يظلهم الله بظله، وإن منهم: **«رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه»** وقلت له أرجو أن نكون منهما ففرح كثيراً بذلك، ودعا بذلك، ثم ودعني بحرارة وسرور.

* * *

☜ المدير الناجح (١)

لا بد للإنسان أن يتعرض لإدارة شيء ما في حياته، وبعض أنواع هذه الإدارات يكون ملازماً للإنسان كادارته لأسرته، وبعضه يكون مؤقتاً كأن يكون مديراً للجنة، أو لرحلة، أو لأي عمل ما، دعوياً أو غيره. ولا بد من الانتباه إلى ثمانية أصول لضمان النجاح في ذلك العمل الإداري، وهي بمثابة الأركان لكل عمل إداري، وعدم الالتزام ببعضها يؤدي إلى نتائج سلبية، أو تكون النتيجة ذات آثار إيجابية مرضية، هذه الأصول:

١ ـ وضع الخطة: وهذا يستلزم عدة أمور لضمان نجاح الخطة أولها: وضع الاستراتيجية وهي استقراء ما سيحدث في الفترة المحددة من قبل الخطة طبقاً للمعطيات الموجودة لدينا من الموارد والطاقات والإمكانات.

ثانيها: وضع الأهداف الرئيسة والمرحلية.

ثالثها: وضع الوسائل لهذه الأهداف.

٢ ـ التنظيم: والذي يعني توزيع التكاليف والمسؤوليات ووضع اللوائح والسياسات الضابطة.

٣ ـ وضع البدائل: وهو أحد الفوارق الرئيسية بين المدير الفاشل والمدير الناجح، إذ إن المدير الناجح لا يرتبك عنده البرنامج بسبب وضعه للبدائل في جميع برامجه وتكاليفه وحتى المسؤولين.

٤ ـ اللامركزية: فالمركزية في الأعمال الإدارية آفة عظيمة تؤدي في غالب الحالات إلى عواقب وخيمة.



☜ المدير الناجح (٢)

ذكرنا في الوقفة السابقة أربعة من أصول العمل الإداري الناجح والتي هي ١ ـ وضع الخطة ٢ ـ التنظيم ٣ ـ وضع البدائل ٤ ـ اللامركزية ونكمل في هذه الوقفة الأربعة الأخرى والتي هي:

٥ ـ الابتكار: والابتكار يشمل كل شيء سواء بطريقة الإدارة، أو طريقة الالقاء، أو في المكان أو طريقة الجلسة، أو في وسائل الإيضاح، أو في المحتوى وغيرها من الأمور، فلا بد للمدير الناجح أن يحدث هذا التغيير حتى يكون ذلك داعياً للاستجابة والتفاعل.

٦ ـ المتابعة: فالمدير الناجح ليس ذلك الذي يقوم بكل شيء فهو الذي يلقي المحاضرة، وهو الذي يقدم الضيوف، وهو الذي يشتري حاجات المؤسسة وهو الذي يتفق مع الجهات الأخرى وهو الذي بيده الميزانية، وهو الذي يوزعها على العاملين. إنما المدير الناجح هو الذي يوزع المسؤوليات ثم يتابعها معهم ويتأكد من السير الحسن للمؤسسة وذلك بالسؤال والتوجيه.

٧ ـ الناحية الأخلاقية: وهي بمثابة الاسمنت اللاصق للطابوق المرصوص، فلا بد من تملك الكثير من الأخلاق التي تساهم في تقوية الروابط بين أفراد المؤسسة ونعالج الكثير من المشاكل وتكون دافعاً للعمل ومحبته. ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

٨ ـ التقييم: والتقييم للخطة أو للعمل المنجز إما أن يكون مرحلياً أي بعد فترة قد تكون في منتصف مدة الخطة وهو ما يسمى بالتقييم الجزئي أو في نهايتها وهي ما يسمى بالتقييم الشمولي أو قد يكون بعد إنجاز أي عمل من الأعمال وذلك أدعى للنجاح.



حتى متى نبرر ضعفنا؟؟

إن مما يؤسف له في صفوف الدعاة، ما يسمع بين الفينة والأخرى من تبريرات لضعفنا وتأخرنا في الوصول إلى أهدافنا، باتهام الطواغيت

المتسلطين على رقاب المسلمين في العالم الإسلامي، وطواغيت العالم الغربي الذين يعملون ليل نهار ليحولوا دون وصول الإسلام إلى سدة الحكم. ومع وجاهة هذا المبرر في تأخير النصر والتمكين إلا إنه ليس السبب الحقيقي وراء ذلك التأخير، بل إن السبب الجلي في القرآن الكريم والسنّة المطهرة هو «قرار التغيير» في الفئة التي تريد النصر إذ يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

فحكمة الله اقتضت أن التغيير لا يمكن أن يحدث من الله تعالى حتى يبدأوا هم بتغيير أنفسهم، وما داموا لم يحققوا هذا الشرط فنتيجة الشرط تبقى معلقة حتى يتحقق الشرط.

آن لنا أن نستيقظ من رقادنا، ونلتفت لأنفسنا قليلاً لنبحث عن مواضع الداء كي نستطيع وصف الدواء، وألا تلهينا مقارعة الباطل وأهله عن أنفسنا. إن قيادة العالم بهذا الدين والتي نطلق عليها «الخلافة» شرف عظيم وأمانة كبرى لا يمكن أن يعطيها الله إلا لمن تجرّد تماماً له سبحانه وتعالى، وأفرغ كل ما في قلبه لغير الله من الشهوات، سواء شهوة المنصب أو الرئاسة أو المال، أو النساء، والعقار والدواب وغيرها من زينة الدنيا، ولم يجعل في قلبه سوى الله تعالى. لقد تعجب الكثير مما يحدث في أفغانستان، وما كان ينبغي لهم التعجب وهم يرون بعض هذه الشهوات تراود بعض قادة المجاهدين، وإنا لله وإنا إليه راجعون.



من صفات المخلص

جاء في ترجمة الإمام القدوة سفيان الثوري رضي الله عنه أنه «جاءه قوم يطلبون العلم على يديه، فقال له أحدهم: يا إمام إن الناس يأتون لك من المشرق والمغرب فينفرون منك لحدة في طبعك! فرد عليه الإمام: إذن

هم حمقى مثلك إذ يتركون ما ينفعهم لسوء خلقي».

إنه لا ينكر ولا يتنصل من طبع فيه ذكرته كتب التراجم وهو الحدة والغضب، ولكنه يلفت نظر السائل إلى قضية أهم من قضية حدة طبع العالم، وهي نية المتلقي، إذ إن المخلص في عمله والذي لا يبتغي إلا وجه الله تعالى في كل ما يقوم به مبتغياً الوصول إلى الغاية، لا يهمه بعض الصفات السلبية في المربي، ما دام يأخذ منه علماً صافياً بلا تكدير، ومثل هذا مثل ذلك الذي تعود الحضور لإحدى حلقات العلم فلما أخطأ في حقه أحد الحاضرين ترك طلب العلم من أجل ذلك. إن طالب العلم الحق والداعية المتجرد لا ينظر إلى نفسه وما تشتهي، فيفضل ما تشتهي وتريد على مراد الله إنما يهون عنده كل شيء في سبيل رضا ربه الجليل، وقديماً قال الإمام الجيلاني لتلميذه «لا تبتهج بلمعان الذهب حتى يفتن في النار» وخشونة بعض المربين والدبين والدعاة ابتغاء تربية أتباعهم لا تقارن بحرارة النار التي أخرجت الذهب البراق!. فهل نعي ما قال سفيان لمن أراد طلب العلم على يديه؟!.

❊ ❊ ❊

 مؤثرون أو متأثرون

يقول الرسول ﷺ: «**المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**»[1] وهذا معناه أن الإنسان يتأثر بمن يحب ويرافق، فهو إما أن يكون محبوباً وبالتالي يكون مؤثراً أو محباً فيكون متأثراً، والداعية الفطن هو الذي يحرص على أن يمثل دور الاثنين معاً، فهو يؤثر بالخير ويتأثر بالخير، ولكن كيف يصل إلى هذه المرتبة العظيمة؟؟

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٣٠٣ و٣٣٤) وعبد بن حميد (١٤٣١) وأبو داود (٤٨٣٣) وحسنه الترمذي (٢٣٧٨) وصححه الحاكم (٤/١٧١).

من الحديث السابق نستطيع أن نستلهم الإجابة، فإن الحديث ينص على أن التأثر إنما يكون بعد الخلة وهي درجة عالية من المحبة، وهذا يعني أن الذي يريد التأثير بالآخرين، لا بد له أن يعرف كيف يكسب حبهم ليتأثروا فيه، بل إنها النقطة الأولى التي يجب على الداعية أن يراعيها في دعوته للآخرين، ومن أبرز الوسائل لكسب محبة الآخرين:

١ ـ البشاشة والبشر عند اللقاء.

٢ ـ السؤال عن أبنائه ووالديه وأحواله الخاصة.

٣ ـ قضاء حوائجه بكل ما تستطيع.

٤ ـ تقديم المساعدة قبل السؤال عنها.

٥ ـ الاستماع إلى مشاكله واهتماماته وإبداء التأثر والاهتمام.

٦ ـ تقديم الهدايا.

٧ ـ إظهار المودة والمحبة قولاً وعملاً.

٨ ـ ترك الجدال والابتعاد عنه والتنازل عن الرأي إذا حدث خلاف فيما ليس فيه نص.

٩ ـ أداء حقوقه كمسلم، من عيادته إذا مرض هو أو أحد من أهله، وإفساح المجلس له، وتشميته إذا عطس، والسير في جنازته، ورد السلام، وغيرها من الحقوق.

أما مرتبة التأثر الإيجابي فتتم بالآتي:

١ ـ الاحتكاك بالصالحين من العلماء وطلبة العلم.

٢ ـ الدعاء لهم وطلب الدعاء منهم.

٣ - تقليل الاحتكاك بأصحاب الأهواء والمعاصي إلا إذا كانت هناك نية لدعوتهم أو اضطرار لنصرة دين الله.

وإذا أردت أن تكون مؤثراً ومتأثراً إيجابياً وبمنأى عن التأثر السلبي، لا بد أن تقوي الجانب الإيماني في نفسك وتراعي مراعاة شديدة قضية القدوة، والثبات بعد ذلك بيد الله وحده.

❋ ❋ ❋

لا تحقر ما لديك

كلام الوحي سواء كان قرآناً أو سنة أو ما اتصل بهما كله خير، وكله عزيز، والداعية الذي يملك هذا الخير يجب ألا يشعر يوماً من الأيام بقلة ما لديه كماً وكيفاً، فإن كلام الوحي وإن كان قليلاً فإن لديه من التأثير في النفوس ما لا يعلمه إلا خالق النفوس، فهو الذي خلق النفوس ويعلم ما ينفعها وما يؤثر بها وما يسعدها وما يشقيها.

وربما يمل الداعية لكثرة ما يردد على الناس مما لديه، أو يدخل الشيطان ذلك الملل على نفسه، ليجعله يتوقف عن قول الحق، خاصة إذا لم ير استجابة من الآخرين. والأمر ليس كما ظن، إذ إن كلام الوحي الذي يقوله للآخرين ربما لا تظهر آثاره في ذات الوقت الذي يتكلم فيه، بل ربما تأخر الأثر لشهر أو لسنة أو لسنين، كما هي شواهد الحال للكثير من الناس، فتراه يهتدي لتذكره بعض كلمات ذلك الداعية الذي سمعها منه السنة الفلانية، والتي مضى عليها عدد من السنين. فما على الداعية إلا البلاغ والله هو الذي يتولى أمر النتيجة، وكل من لديه خير فلا يبخل به على أحد، وإن كررت مرات كثيرة فلعل المطر الذي لا ينبت نباتاً في أرض ينبت نباتاً في أرض أخرى. ولله الأمر في كل شيء.

❋ ❋ ❋

☜ اعتزال أو اختراق (١)

هل نعتزل المجتمع؟ وهل يعيش كل منا وحده وبين أسرته وإخوانه الذين يسيرون على دربه المستقيم الذي اختاره امتثالاً لأمر الله تعالى، وإذا ما سنحت فرصة للقاء بأحد أعضاء المجتمع الذي نعيش فيه نقوم بواجب الدعوة والتذكير؟؟

أم نخترق المجتمع، ونحتك بجميع فئاته وشرائحه، ونبلغ الدعوة للقريب والبعيد، ونكسر الأبواب الموصدة، لإيصال كلمة الله تعالى لكل الناس، ولإقامة الحجة عليهم قبل أن يحتجوا بتركهم وعدم تبليغهم يوم العرض الأكبر؟

لا شك أن الاعتزال أسهل بكثير على النفوس، ويبدو للوهلة الأولى، ولأصحاب النظرة السطحية أنه أبعد عن الفتنة، وأقرب للثبات، وزيادة الإيمان، وازدياد الصلة بالله تعالى، ولذلك فإن الغالبية من الدعاة تفضل هذا الأمر، والإختراق صعب على النفوس التي اعتادت على الخير، وبالاحتكاك بأهل الخير، واغتنام الأوقات بقراءة القرآن، والصيام، والقيام، وقراءة الكتب الإيمانية، وتلقي العلم قراءة أو على أيدي العلماء في حلقات العلم والذكر، وما شابهها من القربات.

ومصدر الصعوبة الرئيسي، هو الخوف أولاً من الفتنة والسقوط بعد الهداية.

وثانياً الخوف من فقدان الشعور الإيماني، والذي لا يقدر بثمن أو قيمة توجد على الأرض.

وثالثاً الخوف من فقدان الأوقات التي كانت مخصصة لبعض القربات.

ورابعاً الخوف من الفشل في التجربة.

وخامساً: الخوف من التعرض للمهانة والسب والأذى من الآخرين حين دعوتهم.

وسادساً الخوف من التنازل عن بعض القيم والمبادئ إستدراجاً من الشيطان للفتنة.

وكل هذه المخاوف ليست مبررات للقعود والتخلي عن المجتمع، ذلك لأن تركنا للمجتمع دون اختراق يسبب الكثير مما يغضب الله تعالى.

❋ ❋ ❋

اعتزال أو اختراق (٢)

إن أبرز ما يغضب الله تعالى بتركنا إختراق المجتمع.

١ ـ إن أصحاب الأهواء، والأعداء التقليديين للدعاة هم الذين يحتكون بطبقات المجتمع، ومن ثم فهم الذين يؤثرون فيهم، وخاصة في أصحاب النفوذ والقرار في البلد.

٢ ـ وهؤلاء الخصوم هم الذين سيرسمون صورتنا بالتفاصيل التي يرونها، لتقديمها لأصحاب النفوذ والقرار، سواء كانت هذه الصورة هي التطرف، أو الجمود، أو الإرهاب، أو العمالة لدولة أخرى، أو الإخلال بالأمن، أو نية قلب النظام، وغيرها من الصور والتي عادة يرسمها أولئك الخصوم المخترقون لشرائح المجتمع، بعد أن تخلى الدعاة طواعية عن الاختراق.

ولا بد للدعاة أن يتذكروا أن الاختراق أمر أمرنا به الله تعالى، وهو الشغل الشاغل الذي كان يشغل الرسول صلوات الله وسلامه عليه كما أن الدعاة لا بد أن يتوقعوا تلك الخسائر التي توقعوها، ولكن

ليس معنى ذلك أن نتخلى عما أمرنا به الله تعالى، وإلا فمن للناس غيرنا؟

وماذا سنقول لربنا يوم القيامة؟

ولا بد أن ننتبه عند الاختراق الذي لا بد منه للدعاة لأمور منها:

١ ـ التذكر إن هذا الاختراق إنما نبتغي به وجه الله تعالى، وليس حظاً من حظوظ النفس، وتجديد النية لذلك دائماً.

٢ ـ الإلحاح بالدعاء بالحفظ والثبات قبل وأثناء وبعد الاختراق باستمرار، لأنه هو سبحانه مالك القلوب، وهو الذي يتصرف بها، فمن يثبت قلوبنا غير مالكها؟

٣ ـ زيادة القربات لله تعالى، وخاصة قراءة القرآن والصيام والقيام، وعدم التنازل عن ذلك لأي ظرف من الظروف، وذلك لأنها جزء رئيسي من الوقود الإيماني الذي يحتاجه الداعية أثناء الاختراق.

٤ ـ محاسبة النفس بعد كل اختراق، وحساب الربح من الخسارة، محاسبة دقيقة لتجنب أسباب الخسارة في المرات القادمة.

ونسأل الله تعالى أن يحفظ الجميع من السقوط.

❊ ❊ ❊

بمثل هؤلاء تنجح الدعوات

كنت معه في غرفته أثناء زيارته للكويت حينما رن جرس الهاتف من الجزائر ليخبره من كان على الطرف الآخر بأن فتوى خرجت للتو تكفره وتهدر دمه فقال الداعية الفاضل محفوظ النحناح رئيس جمعية الارشاد في الجزائر «ومن عفى وأصلح فأجره على الله»، وإذا كان الله قد كتب علينا الموت على يد أخوة لنا فالحمد لله.. ذهلت لهذه الأخلاق وأنا أسمعه

يرد على المتصل، ولا يمكن أن يكون هذا الرد التلقائي والمباشر والذي لم يتلكأ فيه نابعاً إلا من شخص قد عرف معالم الطريق، وكرّس حياته كلها من أجل الإسلام، هذا ما نعلمه عنه ولا نزكي على الله أحداً.. إننا نحتاج إلى دعاة على هذا المستوى لا يضمرون في قلوبهم لإخوانهم شيئاً، شعارهم دائماً شعار المؤمنين من قبلهم «ربنا أغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم».

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

إن قلوباً حاقدة على من يشترك معها في الهدف السامي، لا يمكن أن تصل إلى ما تريد، ولا يمكن أن توفق في مساعيها، لأنها اخطأت أخلاق الطريق، فالأخوة أدناها سلامة الصدر وأعلاها الإيثار فأين نحن من ذلك؟؟!!

❋ ❋ ❋

علاقتك مع الله عند المصيبة

«سأل رجل أحد الصالحين وهو يعظ الناس ما الذي أصنع، كلما وقفت على باب من أبواب المولى صرفني عنه قاطع المحن والبلوى؟

قال له: يا أخي كن على باب مولاك كالصبي الصغير مع أمه، كلما ضربته أمه ترامى عليها، وكلما طردته تقرّب إليها، فلا يزال كذلك حتى تضمه إليها»[١].

فهذا السائل يتحدث عن تصرف يقع فيه الكثير من الناس حين وقوع المصيبة. فقد يكون هذا الإنسان ممن يجاهد نفسه لحسن الصلة بالله

(١) بحر الدموع لابن الجوزي ص٧٦.

والتقرب منه، إلا أنه ينقطع عن الله والتقرب إليه عندما تنزل المصيبة ويقع في البلاء. بينما الواجب على العاقل أن يلجأ إلى من يخفف عنه وطأة المصيبة ويكشفها منه، ولا قادر سوى الله تعالى في كشفها، وأن يكون في المصيبة أقرب إلى الله منه في العافية، لأنه يشعر بالضعف.

ولقد ضرب ذلك العالم بمثال الأم مع ولدها ولله المثل الأعلى، وما المصيبة إلا اختبار من الله لعبده ليرى كيف يتصرف، فإن أقبل عليه، وزاد من تقربه، بعد كل مصيبة، فإنه يختاره، ويصطفيه، ويعلن محبته على الملائكة كما صح في الحديث.

وهذا هو كرم الله تعالى، فإنه يتقرب من العبد أضعاف ما يتقرب العبد منه.

* * *

لا تطروهم قبل أن يثبتوا

في أحد الحوارات التي أجراها الدكتور عبد الله الأهدل مع بعض المسلمين الأوروبين، ونشرها في سلسلة تحت عنوان (حوارات في الدعوة إلى الله) كان الحوار مع البروفيسور رجا جارودي، والذي جاء فيه جوابه عن سؤال من الشيخ الأهدل عن معتقده في اليوم الآخر فقال: «كل ما نحكيه نحن الآن عن الله عزّ وجلّ وعن الجنة والنار وهي أمثلة ـ خيالية ـ وليست حقيقية، لأني مهما أقول في الله عزّ وجلّ بمفهومي أنا فالله ليس كذلك، وحبي له غير حبي لزوجتي.

الأهدل: الأشياء التي في الدنيا تختلف عن الأشياء التي في الآخرة تماماً، وليست كما نرى أو نفهم، ولكن اليوم الآخر وما فيه من جنة ونار حقيقة.

(١) حوارات مع مسلمين أوروبيين ص ٢٠٦ ـ ٢١٠.

جارودي: الجنة والنار هنا في الحياة الدنيا، فالجنة تشعر بها عندما تسير في طريق الله.

الأهدل: هذا كلام ناس يصيبون ويخطئون، والقرآن والسنة يدلان على خلاف هذا الفهم أو الاعتقاد، وهم لا يقصدون من هذا أنه لا توجد جنة ولا نار، ولكن يقصدون أنهم من شدة إخلاصهم لله فإنهم يعبدونه حباً له بصرف النظر عن الجنة والنار[1].

هذا جزء من هذا الحوار، والذي يبدو فيه واضحاً انحراف المعتقد (باليوم الآخر) عند جارودي.

هذه الظاهرة ليست الأولى من نوعها، فقد سبقتها حوادث كثيرة جداً، وكان السبب الرئيسي في زوغان هؤلاء المسلمين الجدد، أو المهتدين من المسلمين، هو ما نبذله من اطراء، مبالغ فيه في المرحلة الأولى من هداية مغني أو مغنية أو ممثلة إغراء أو لاعب كرة أو مفكر غربي ـ كحالة جارودي ـ، أو رياضي مشهور، ونقدمه في الأيام الأولى كمحاضر في المساجد والجامعات، والمنتديات مما يجعله يشعر في نفسه، وخاصة إذا كان غريباً بأنه أصبح شيئاً كبيراً، ولا حاجة له للتعلم، فيبقى في تصوراته القديمة المنحرفة، بصورة إسلامية ظاهرية. والأصل عدم الاطراء والإبراز قبل التعليم والتربية، تعليمه صغار العلم قبل كباره.. لقد حدث مثل هذا الإطراء والإبراز المبكر لمحمد علي كلاي ولمحمد أسد، وليوسف إسلام، ومصطفى محمود، وللكثير من الممثلات التائبات من مصر مما أدى إلى غرور الكثير منهم وإظهار الكثير من التخبطات والافتاءات وهي أو هو بعد لا يعرف من الإسلام ألفه أو باءه.

❋ ❋ ❋

(١) حوارات مع مسلمين وأوروبيين ص ٢٠٦ ـ ٢١٠.

الدنيا قاعة اختبار (١)

هذه الدنيا الواسعة لا يسعد فيها إلا من عرف معناها، وسبب خلقها، والهدف من وجوده هو عليها، والذي لا يعرف ذلك فإنه يمارس حياته عليها كباقي الدواب التي خلقها الله، والتي لا تعلم عن الخلق ولا عن الدنيا التي هي منها شيئاً بسبب انعدام العقل. والفرق بين ذلك الإنسان الذي مارس حياته في هذه الدنيا وهو جاهل حقيقتها، وبين سائر الدواب، هو أنه يملك العقل ولكنه لم يستخدمه، بينما سائر الدواب لا تملك العقل، فلذلك رفع الله تعالى عنها التكليف. ويوم القيامة عندما يسأل خزنة النار هذا الصنف من البشر ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ يردون عليهم ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾. وقالوا: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ يردون عليهم ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠﴾ [الملك: ٨ ـ ١٠].

إذن سيدركون يوم القيامة أن أحد أهم أسباب إلقائهم في النار بعد ضلالهم هو أنهم لم يستخدموا عقولهم.

ولقد كثرت الآيات القرآنية والنصوص النبوية في تمثيل الدنيا لتقريبها لأصحاب الإيمان، وليكونوا أقدر على تحقيق الهدف من الخلق، وكثرت كذلك عبارات السلف رضي الله عنهم، وأسئلتهم عن تصوير الدنيا، وأحد هذه الأمثلة أن الدنيا تشبه إلى حد بعيد بقاعة الاختبار الكبيرة التي يمتحن فيها الطلبة ولكنها قاعة حدودها الأرض كلها بأشجارها وأنهارها وجبالها ومروجها وبلدانها. قاعة وزع فيها الرب سبحانه وتعالى الأسئلة وهي كل الأوامر والنواهي التي أمر بها في كتابه، وزعها على الممتحنين وهم الناس.

وحدد وقتاً للإجابة وهي مدة حياة كل واحد منهم.

والإجابة إنما هي ما يقوم بها هذا الإنسان من تطبيق لما أمره به الرب سبحانه، والابتعاد عما نهى عنه.

والمراقبون الذين عينهم الرب لمراقبة الممتحنين هم الملائكة الذين على أكتاف البشر.

﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق: ١٨].

فلا يفوتهم شيء من الغش بين الممتحنين إلا ويرفعوه للرقيب عليهم.

هذه أوجه التشابه بين قاعة الامتحانات للطلبة، وقاعة الامتحانات للناس جميعاً.

❋ ❋ ❋

الدنيا قاعة اختبار (٢)

تحدثنا في الحلقة السابقة عن تشبيه الدنيا بقاعة اختبار والطلبة فيها هم جميع الناس ونتحدث في هذه الحلقة في الفروق بين قاعة الاختبار الحقيقية للطلبة وبين قاعة اختبار الدنيا:

هناك فروق في هذه عن تلك منها أنه لا يوجد في قاعة الدنيا فرصة ثانية للعودة إليها بعد الرسوب، ولا توجد فرصة لترفع بعض المواد للسنة المقبلة، فإن الإنسان لا يرفع أصلاً إلى منزلة ما لم يكن ناجحاً في أصل الإمتحان، وإنما تختلف منازل الناس في الجنة بسبب كثرة الإجابات وجودتها عند البعض.

ومن الفروق أيضاً أن الإجابة يعرفها جميع الممتحنين، وإن الرقيب لا يمنع أحداً من نقل الإجابة من مصدرها، بينما يمنع ذلك في إمتحان الطلبة. وهذا الأمر يجعل البعض يسابق الزمن لتدوين الإجابة من مصدريها الكتاب

والسنّة، لأنه لا يعلم متى ينتهي الوقت وتسحب الأوراق، لإنه مستيقن أن الأوراق إذا سحبت لن تكون هناك فرصة أخرى أبداً.

ومن الفروق أيضاً أن النتائج لا تعلن في الدنيا، وإنما تعلن في اليوم الآخر.

فإما أن يكون من المتسلمين لشهادته بيمينه، وإما أن يتسلم شهادته بشماله. ولكن تظهر علامات الرسوب على البعض في الدنيا قبل الآخرة مثل:

- التقاعس عن الإجابة وهو يعرفها.

- الغش أثناء الإمتحان بما يقوم به من المخالفات التي نهى عنها الرقيب في بداية وقت الإمتحان.

- التعمد لكتابة الأجوبة الخاطئة.

- إساءة العلاقة بينه وبين باقي الممتحنين.

- إثارة الشغب والفوضى في قاعة الامتحانات.

- طريقة الخروج من قاعة الامتحانات، حيث يكون خروج معظم هؤلاء بطريقة مأساوية.

- كان يمزق أوراق الامتحان قبيل انتهاء وقته للامتحان بقليل.

- أو طرده من القاعة قبل إجابته للأسئلة بعدما يتم القبض عليه متلبسا بالغش.

- أو ضربه مع طرده من القائمة بسبب أحداث المشاكل مع الممتحنين.

ـ أو استدعاء الشرطة لإخراجه ذليلاً مهاناً. وهكذا تكون الخواتيم الدالة على ما يأخذه من علامات وما يتسلمه من نتيجة لما قام به في قاعة امتحان الدنيا.

❋ ❋ ❋

ضعف الإخاء

«كان الحسن إذا فقد الرجل من إخوانه أتى منزله فإن كان غائباً وصل أهله وعياله، وإن كان شاهدا سأله عن أمره وحاله، ثم دعا بعض ولده من الأصاغر فأعطاهم الدراهم، ووهب لهم، وقال: يا أبا فلان، إن الصبيان يفرحون بهذا».

وعن الحسن أيضا قال: «إن كان الرجل ليخلف أخاه في أهله بعد موته أربعين سنة» أين نحن من هذا اللون من الإخاء؟

أخوتنا أصبحت في الخطب والمحاضرات والمقالات، ولا تتجاوز في معظم حالاتها ذلك.

إن الأخ ليمرض الأيام الطوال والأسابيع ولا يعلم عنه أحد.

وإن الأخ ليموت أقرب الأقرباء منه ولا يعلم كثير من إخوانه به.

وإن الأخ ليعيش الزمان الطويل وهو في ضائقة دون أن يعلم أو تحسس بحاله أحد.

وإن الخلاف ينشب بين أخوين لأتفه المسائل، والضيق بالرأي المخالف هو الأساس في علاقاتنا.

وآخر شيء نفكر فيه متابعة أهل بعض الأخوة الذين يتوفاهم الله أو عيالهٓ من بعده.

وإن كثيراً من الأخوة يفضل السلفة من بنك، على ما فيها من المحاذير الشرعية خوفاً من التعرض لمواقف الذل عند طلبه من أحد إخوانه.

هذا إذا كان الأخوان في مجموعة واحدة، أما إن كان كل أخ في مجموعة فالأحقاد وسوء الظن، والغيبة والحسد والاستهزاء واللمز والغمز وعدم التماس العذر وغيرها من الآداب الفاسدة هي الأصل في العلاقة.

هذا هو الغالب في علاقة بعضنا ببعض والله المستعان.



الدعاة الظاهريون

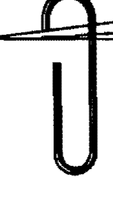
الظاهرية مذهب من مذاهب الفقه، رائده الإمام ابن حزم، والذي يعتمد في أحكامه الفقهية على ظاهر الحديث دون البحث عن أعماق الحديث ومراميه وما يتصل فيه من الأمور حتى اشتهر عن هذه الفرقة بالظاهرية. كذلك في حقل الدعوة الواسع توجد مذاهب، ومن بين هذه المذاهب، مذاهب الدعاة الظاهريين، حيث إن هذا الصنف من الدعاة يبنون أحكامهم وعلاقاتهم ومواقفهم للناس مما يبدو من ظاهر الناس، فإذا ما رأوا في وجه إنسان لحية، وعلى جسمه ثوباً قصيراً، وبيده مسواك حكموا على هذا الشخص بالصلاح، ووثقوا فيه أيما ثقة، دون التحقق من سيرة الشخص، وآرائه، وحياته العملية من أداء لحق الله عليه، وأداء لحق الناس، وغيرها مما نستطيع كبشر الحكم به على الآخرين، وإنْ رأوا حليقاً، أو مسبلاً للثوب، أو لابساً للبنطال، حكموا عليه بالنقص، والفسق والفجور، دون أن يجلسوا معه ويحدثوه ويستمعوا منه ويستمع منهم فلعل وراء هذا الإنسان جواهر غالية يغطيها

ذلك المظهر. ومن هنا تحرم هذه الفرقة نفسها من شرف الدعوة إلى الله بوضع هذه الحواجز، ويحرم أيضاً من خيرها أولئك الذين في أعماقهم خير كثير لو اقتربنا منهم، وحاولنا أن نراهم عن قرب، فرب كلمة من قلب داعية طاهر، متصل بالله لمثل من هم بظاهرهم علامات الزيغ، تنير القلوب، وتقلب الموازين، وتجعل من هؤلاء مشاعل خير، ومصابيح هدى، ومنافحين عن دين الله. فهل نقترب منهم ونراهم على صورتهم الحقيقية عن قرب، أم نؤثر أن نكون من الدعاة الظاهرية؟؟.







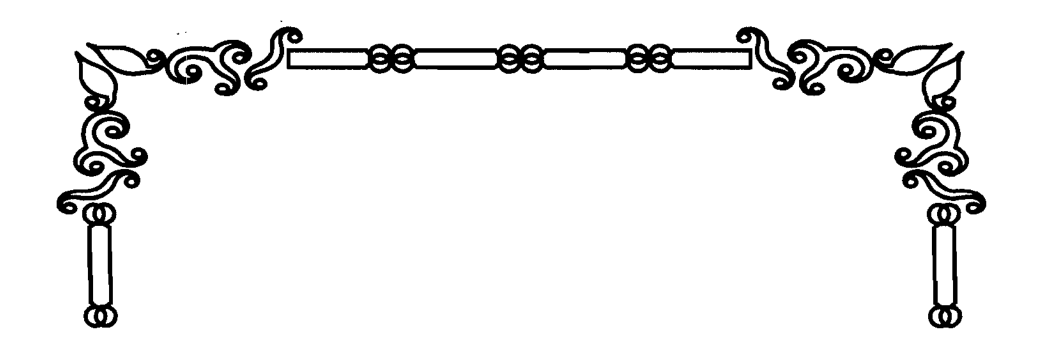


وقفات تربوية

(المجموعة الثانية)

تأليف
عبدالحميد جاسم البلالي





عائق وهمي

يتردد بعض الدعاة في خوض بعض المجالات الاجتماعية، أو زيارة بعض أعيان البلد وتجارها، أو غشيان بعض المنتديات، بحجة أن المتدين غير مقبول في المجتمع، وأن الناس يتوجسون منه خيفة، وأن الشبهات تملأ نفوسهم ضده، وغيرها من الحجج التي تصب في مصب واحد، والتي نشأت من كثرة المهاجمين في الصحافة للحركة الإسلامية، بسبب أخطاء يقع بها بعض الإسلاميين في بعض الدول، أو بهتان ألصق بتاريخهم من بعض الطغاة، أو أكاذيب تنسب إليهم من بعض الحاقدين من العلمانيين أو بقايا اليسار وحلفاءهم، وهي بمجموعها تشكل ضغطاً على أنفس بعض الدعاة، وتجعلهم يصلون إلى تلك القناعة غير الواقعية بأنهم مرفوضون من المجتمع، والحق أن هذا الأمر ليس له وجود بهذا الحجم المتصور، نعم إنه يترك أثراً في أنفس البعض، ولكنه لا يصل إلى تشكيل رأي عام في المجتمع، فما زال المتدين في مجتمعاتنا له هيبة واحترام وله تقدير ووقار، وإن شذ البعض في كراهية المتدين فلا يحمل الشذوذ على أنه هو القاعدة.

❋ ❋ ❋

حوار مع الكعبة (١)

في وسط صحن الحرم المكي ما زالت هذه الكعبة شامخة منتصبة، يطوف جولها دون انقطاع آلاف المسلمين، صليت قريباً منها وجلست أتأملها بعد صلاة الفجر، وأسأل نفسي: كم من الأحداث مرت على هذه الكعبة؟ وكم من البشر شاهدت؟ وكم من العصور عاصرت؟ وكم من عظائم الأمور تحقق وسيتحقق حولها؟ وأنا أسأل نفسي هذه الأسئلة، فإذا بها وكأنها ترمقني، وأنا أتساءل مع نفسي، وكأنها أحست برغبتي في حوارها، وهي التي أخفت تحت هذه الكسوة السميكة مئات الآلاف من الأحداث والأسرار، فقالت: أيها الغريب سل ما بدا لك.

فقلت: أيتها الكعبة المشرفة ـ زادك الله شرفاً وبهاءً ـ أيُّ أيامك كان أسعدها منذ بناك سيدنا إبراهيم عليه السلام وحتى يومك هذا؟

قالت: أسعد أيام حياتي كان عند مجاورة سيد البشر محمد ﷺ، وصلاته بقربي، وطوافه بي، وتقبيله لحجري الأسود، وطواف الصحابة الكرام حولي.

قلت: وأي الأيام كان أحزن؟

قالت: أحزن أيام حياتي عندما جاء ذلك الكافر القرمطي واقتلع الحجر الأسود من خاصرتي، وأباح الدماء، ولم يرعَ حرمة لي، فقتل المصلين وهم متعلقون بأستاري.

قلت: مما تستغربين؟

قالت: أستغرب من مسلم يطوف بي سبعاً، ويقبل الحجر الأسود، ويبكي، ويعاهد الله على التوبة، فما يلبث أن يعود إلى معاصيه عندما يرجع إلى بلده وتخالط زينة الحياة الدنيا قلبه.

❋ ❋ ❋

☜ حوار مع الكعبة (٢)

سألتها وقد بلغت متعتي ذروتها وأنا في حواري معها: هل تغضبين من شيء؟

قالت: نعم! أغضب عندما يطوف بي أولئك الطغاة، الذين ولغت أيديهم بدماء الدعاة الأطهار وعلقوهم على أعواد المشانق، لا لذنب اقترفوه سوى أنهم قالوا «ربنا الله» فاتهموهم بما ليس فيهم ليشوهوا سيرتهم أمام الشعوب ثم تخلصوا منهم، وأزالوهم من طريقهم.

أغضب لأن هؤلاء يمارسون النفاق، فهم في باطنهم يمقتون الإسلام، ومن يتمسك به، ولكنهم يقومون بتمثيل دور الطواف والركوع والسجود حتى يخدعوا الغوغاء من شعوبهم بحبهم للإسلام.

قلت: هل من أيام سعيدة تنتظرينها؟

قالت: نعم، فسيأتي شاب من نسل فاطمة ـ رضي الله عنها ـ في آخر الزمان بعد أن تملأ الأرض ظلماً وجوراً، ويلوذ بي، ولكن الناس يجبرونه على البيعة بين الركن والمقام، ويبايع بالخلافة ليملأ الأرض أمناً وعدلاً ويمكث فيكم ثمانية.

قلت: وهل من أيام حزينة ستأتي عليك؟

قالت: نعم! ففي آخر الزمان، وعندما يقبض المؤمنين، فلا يبقى في الأرض إلا لكع ابن لكع، ويهجر الحرم، ولا يدخله إلا السباع، حينها يقدم رجل من الحبشة يسمى «ذو السويقتين» يقلعني حجراً حجراً، ولئن منع الله جدهم أبرهة من هدمي عام الفيل إكراماً لمقدم سيد البشر ﷺ، الذي أُنزل عليه هذا الدين العظيم، فإنه يدع ذو السويقتين يهدمني لأنه لن يكون مسلماً آنذاك يستحق البيت أن يحفظ من أجله، فهذا أحزن الأيام التي أنتظرها.

قلت: أسأل الله ألا يحييني لأيام حزنك، وأن يبقيني لأيام فرحك وأنت شامخة عزيزة بتدافق المسلمين عليك من كل صوب وحدب.

❊ ❊ ❊

أين هؤلاء؟

قال علقمة بن لبيد العطاري لابنه: «يا بني إذا نزعتك إلى صحبة الرجال حاجة، فاصحب منهم من: إن صحبته زانك، وإن خدمته صانك، وإن أصابتك خصاصة مانك[1]، وإن قلت صدق قولك، وإن صلت شد صولك، وإن مددت يدك بفضل مدها، وإن رأى منك حسنة عدها، وإن سألته أعطاك، وإن سكتَّ عنه ابتداك، وإن نزلت بك إحدى الملمات واساك، من لا تأتيك منه البوائق، ولا تختلف عليك منه الطرائق، ولا يخذلك عند الحقائق، وإن تنازعتما منفساً[2] آثرك»[3].

إن حالنا يقول أنه من أصعب الأمور العثور على أخ فيه هذه الصفات أو حتى نصفها أو ربعها. لقد علا الران على أخوتنا، فما عاد هناك إحساس متبادل، ولا سؤال عند الغياب، ولا تتبع للأحوال، ولا إعذار عند الخطأ أو التقصير، ولا استعداد للتضحية عند الحاجة إليها، أو الإيثار عندما يتطلب الأمر ذلك، إلا في القليل القليل من الإخوة.

❊ ❊ ❊

التهيؤ للبلاء

نهى الرسول ﷺ عن تمني البلاء، ولكن التهيؤ للبلاء والاستعداد إليه صفة لازمة من صفات المؤمنين، والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم﴾.

فواجب المسلم الاستعداد دائماً للفتن والبلاء حتى إذا جاءت لا يجزع ولا يفزع، فصيام التطوع يُعوِّد المؤمن على الجوع، ويهيؤه لتحمل البلاء،

(١) أنفق عليك.

(٢) عظيم القيمة.

(٣) عيون الأخبار ٣/٤.

وقيام الليل يُعوِّده على الصبر ومقاومة النفس الأمارة بالسوء، ويهيئه للصبر على البلاء، وزيارة المقابر والإكثار من ذكر الموت - كما أوصى رسول الله ﷺ - يُعَوِّد المسلم على توقع الموت والمبادرة قبل مجيء سكراته، ويهيؤه للبلاء، وهكذا باقي العبادات تصقل المؤمن وتهيئه للبلاء، لذلك قال تعالى مبيناً أن الأصل في الإنسان الجزع ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾[(١)].

ثم استثنى من الهلع من استعد للبلاء من المؤمنين بالعبادات، والتي على رأسها الصلاة فقال: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾[(٢)] هذا الصنف من المؤمنين هم الذين يثبتون إذا ما حل البلاء، وهم الذين يضربون أروع الأمثلة في الصبر والثبات، وهم الذين يكونون نبراساً لمن تبعهم من المؤمنين.

❊ ❊ ❊

☜ (هذا تأويل رؤياك)

قالت لأبيها: (يا أبت إني رأيت في المنام كأني ممسكة بيد أخت لي في الله نمشي في حديقة مظلمة.وبينما نحن نمشي فإذا ببوابة تلوح لنا من بعيد، فما إن اقتربنا منها حتى سمعنا ضوضاء المعازف وأصوات الغناء، وضجيج آلات الملاهي تنبعث في داخل تلك الحديقة، وعندما دلفنا بالداخل تعثرت فأقامتني أختي، ثم تعثرت هي فأقمتها. ونحن مبهورات للأنوار الملونة وللألعاب والملاهي المختلفة من كل نوع، ثم ابتعدنا عن زحمة الناس وإزعاج أصوات الغناء والآلات وجلسنا بعيداً على كرسي في أطراف الحديقة، وإذا بصديقة قديمة أعرف أنها غير ملتزمة أقبلت علينا تدعونا بإلحاح لأن نشاركها في اللعب، وترغبنا بكل ما أوتيت من فنون

---

(١)(٢) المعارج: ١٩ - ٢٣.

الترغيب وما كانت تقوله لنا «أنتما ما زلتما صغيرتين فلماذا لا تتمتعا» فصرخنا بصوت واحد في وجهها «لا.. لا». ثم ذهبت تلك الصديقة، فالتفتُ إلى أختي في الله وقلت لها لا تتركيني فقبضت كل واحدة منا يد الأخرى، وقالت لن أتركك أبداً. ثم استيقظت من الحلم..) فما تأويل رؤياي؟؟

قال لها أبوها: إنها رؤيا صالحة، فحديقة الملاهي تمثل الدنيا بما فيها من الزينة والزخارف وأنواع الجواذب، والصديقة القديمة تمثل الرفقة السوء، وأباليس الإنس والجن، وأختك في الله تمثل الأخوة في الله.

وتعثرك في الحديقة إنما يدل على أن السقوط والتعثر والانجذاب نحو زينة الدنيا وارد، ولكن لا بد من الأوبة بسرعة والتوبة إلى الله، والاعتصام بالأخوات في الله، فهي التي أقالتك من عثرتك، وإقالتك لعثرتها إنما يدل على وجوب النهي عن المنكر، وأن هذا الطريق هو الذي أضاءه الله لك فالتزمي به، وقولي دوماً للباطل: «لا وألف لا».



من صفات القائد

«قال معاوية رضي الله عنه لعرابة الأوسي: بم سُدت قومك؟ قال: كنت أعطي سائلهم، وأعفو عن جاهلهم، وأسعى في مصالحهم، فمن فعل مثل فعلي فهو مثلي، ومن زاد عليه فهو خير مني، ومن قصَّر عنه فأنا خير منه»[1].

هذه بعض الصفات القيادية الأساسية في القائد المؤثر أياً كان موقعه، فالمربي في الدعوة إلى الله عندما يريد أن تلتف القلوب حوله لا بد أن يتلمس حاجتهمْ قبل أن يسألوه، فإذا سألوه بادر بالعطاء بوجه بشوش،

(١) الجليس الصالح ٣/٢٤٨.

ونفس مشرقة، وإن أخطأ أحدهم بحقه أو بحق نفسه عفا عنه، وإن كسل أو اعتذر راعاه والتمس له العذر، وأعانهُ على القيام من كبوته، وإن لاحظ عليه ضعفاً أو غياباً أو تثاقلاً عن حضور البرامج التربوية اتصل به، وفتح له باب المصارحة ليدلي بما في نفسه، فهذا يسعى لزواجه، وهذا يسعى للحصول له على وظيفة مناسبة، وهذا يذهب معه ليشفع له عند آخر، وهذا يساعده في بعض أموره الخاصة، وهكذا يعيش المربي القائد الناجح دائماً في صحبة من يربيه، وبهذه الصفات يكون قائداً مؤثراً محبوباً من أتباعه يُشَكِّل فيهم من الخصال ما يريد..

* * *

اختبار الرسول ﷺ القيادي

جاءني في البريد كتيب بالإنجليزية صغير الحجم كبير الفائدة. بعنوان: «القيادة مع اللمسة البشرية» يستشهد فيه الكاتب باختبار للقيادة كان يجريه «رونالد ليرد» وهو أحد العلماء البارزين، وذلك بطرح خمسة أسئلة، وهي كالتالي

١ ـ هل يمكنك أن تتلقى التوبيخ من غير أن تغضب؟

٢ ـ هل يمكنك استقبال الخذلان من غير أن تثبط عزيمتك؟

٣ ـ هل يمكنك أن تضحك مع الآخرين عندما تكون النكتة عليك؟

٤ ـ هل يمكنك بالاحتفاظ بمعنويات عالية عند الفشل؟

٥ ـ هل يمكنك أن تكون هادئاً في حالات الطوارىء؟

ثم ينهيها بقوله: «إذا كانت إجابتك «نعم» لجميع الأسئلة السابقة فأنت على طريق القيادة.

ولكن الرسول ﷺ اختصر كل هذه الأسئلة بعبارة واحدة قبل أربعة عشر قرناً، وذلك بقوله: «ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد من يملك نفسه عند الغضب».

فالقائد الحق، القوي، ذو التحمل والسيطرة على النفس هو الذي يسيطر على نفسه عند الحالات التي تستدعي الغضب، وإذا كان هذا الأمر من أصعب الأمور على النفس البشرية، فكذلك هم القادة الناجحون، هم القلة في المجتمعات، وفي الدعوات، وصدق رسول الله ﷺ عندما قال: **«الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة»**.

❋ ❋ ❋

أدْرِكْهُ قبل أن يُدْرِكك

إنه الوقت الذي لا يتوقف لينتظر أحداً من الناس كائناً من كان، فقد ينام الإنسان ويكسل، ويتوقف، ويلهو، وينسى، ويفتر، ويثقل، ولكن الوقت يمضي دون انتظار، فمن أدرك أهمية الوقت، واستيقن سرعة حركته وانقضاءه، سابقه واستغله خير استغلال، وملأ صحائف أعماله بالخيرات بما أدرك منه، فإذا ما جاءت لحظات الفراق، تجده مسروراً فرحاً بما قدم، غير نادم على ما ضيع من ساعات اللهو والغفلة والنسيان، ولهذا كان الصالحون يسابقون الوقت ليدركوه قبل أن يدركهم ويتجاوزهم، فهذا الإمام الشافعي يقول: «الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك».

فهو آلة حادة قد تُميتَك إذا لم تكن منتبهاً لخطورته، وقطعه إياك، بأن ينتهي من غير استغلال فتموت بانقضاء وقتك في هذه الحياة، ويمضي ليختبر غيرك، إما أن يقطعه أو يدركه الإنسان فيبادر إلى قطعه، ولله در رابعة العدوية عندما نصحت الإمام سفيان الثوري، موصية له بأهمية استغلال الوقت «إنما أنت أيام معدودة، فإذا ذهب يوم، ذهب بعضك، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل، وأنت تعلم فاعمل»[١].

فهل يدرك دعاة اليوم الوقت قبل أن يدركهم؟! وهل ينتبهون من سباتهم

(١) وفيات الأعيان ٢/٢٨٦.

وغفلتهم عن أهمية الوقت، فيشغلوه بما يقربهم من الرحمٰن، وما يعلي من مقامهم في دار الخلود، أو يشغلوه بما يرفع مقامهم في دار الفناء؟!

❊ ❊ ❊

☜ هل قمت بواجبك؟

رحم الله الإمام سفيان الثوري، فقد جاء في ترجمته أنه «كان إذا رأى المنكر بال دماً» وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على الغضب الشديد من الحرقة التي تضطرم في قلبه عندما تنتهك حرمة من حرمات الله تعالى، وذلك بسبب الإيمان العميق الذي يعمر ذلك القلب، فعلى مقدار الإيمان يكون الإقدام في عملية الإنكار، لذلك جاء في بعض ألفاظ الحديث عن الذي لا ينكر المنكر حتى في قلبه: «**وما بعد ذلك من الإيمان حبة خردل**».

إن مما يؤسف له أن كثيراً من الدعاة أخلدوا في إنكارهم إلى «وذلك أضعف الإيمان» والبعض منهم بالغ في السلبية في السكوت عن الإنكار إلى مستوى حبة الخردل أو أقل، وما ذلك إلا بسبب ضعف الإيمان، واعتقاد البعض بأن مهمة الإنكار تختص بالعلماء، وأعلام الدعاة، وليس ذلك داخل في شأنهم، متحججين بقلة العلم، وضعف البيان، والخجل عند المواجهة، ولم يكلفوا أنفسهم مشقة التفكير بأن ألوان الإنكار لا تعتمد على العلم واللسان فقط، بل تتعداها إلى أساليب يصعب حصرها، منها البرقية والمقال، والفاكس، والهاتف، وإهداء الشريط، وغيرها من الأساليب، وأمام هذا الكم من الأساليب يجب أن يسأل كل داعية نفسه «هل قمت بواجبك؟».

❊ ❊ ❊

☜ إنجاز العمل

يشتكي الكثير من الدعاة من «ضيق الوقت» وعدم قدرتهم على

إنجاز الكثير من الأعمال، وبالتالي يكون ذلك مشجباً يعلقون عليه توانيهم بالقيام ببعض الواجبات الدعوية، وبعض الحقوق الإسلامية تجاه الآخرين، وخاصة الأقرباء وصلة الرحم، وحضور العزاء، والتواجد مع الأبناء وتربيتهم أو تدريسهم، إلى آخر هذه الواجبات المعطلة، وضيق الوقت عذر براق فيما يبدو عند أول وهلة، ولكنه في حقيقة الأمر، وفي الكثير من الأحيان عذر ليس له وجود في أرض الواقع، بينما السبب الرئيسي في عدم القيام بالواجبات سواءً الدعوية، أو الشخصية إنما يكمن في عدم تنظيم الوقت من جانب، وعدم معرفة في ترتيب الأولويات من جانب آخر، فكثير من الأحيان نبذل الوقت الكثير في أمور ليست لها أولوية، حتى إذا ما جاء أوان الأعمال التي لها أولوية لم نجد الوقت الكافي لأدائها، وفقه هذا الأمر واستحضاره في كل عمل يُسهِّل علينا تنظيم الوقت بل وإنجاز جميع الأعمال وسيترك لنا مساحات ليست بالقليلة لنلتقط فيها الأنفاس ولتصفى فيه النفوس والأذهان للتفكير السليم فيما يجب أن نقوم به وما لا يجب ويترك لنا مساحة لتقويم الأعمال، ومعرفة السليم منها من المكلوم.

❊ ❊ ❊

الاتزان في حياة الدعاة

روى البخاري في صحيحه عن عون بن أبي جحيفة عن أبيه قال: «آخى النبي ﷺ بين سلمان، وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة (ملابسها خلقة بالية) فقال: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً، فقال: كل فإني صائم، فقال: ما أنا بآكل حتى تأكل، فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم فقال: نم فنام، فلما كان آخر الليل قال سلمان: قم الآن. قال: فصليا، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك

حقاً، فأعط كل ذي حق حقه، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: **«صدق سلمان»**[1].

إن المشكلة التي يعاني منها الكثير من دعاة وداعيات الحركة الإسلامية الممتدة في أصقاع العالم، هي انعدام الاتزان بين هذه الواجبات التي ذكرت في الحديث، ومن النادر أن ترى داعية يوازن بين هذه الأمور، فما نراه في حياتنا الدعوية أنماطاً من الدعاة بعضهم يهتم بدعوة الآخرين ويشغل معظم وقته حتى لا يترك وقتاً لتربية أبنائه أو رعاية زوجته، وفي المقابل نمطاً آخر يقضي معظم وقته مع أبنائه وزوجته ولا يعطي إلا الفتات من وقته للدعوة، وآخرين يهتمون كثيراً في تربيتهم الإيمانية وتكون على حساب التحصيل الشرعي أو على حساب العمل الحركي أو على حساب رعاية الأبناء، إننا نريد دعاة يعرفون فن التوازن ونقول لهم ما قاله سلمان ـ رضي الله عنه ـ لأخيه أبي الدرداء: «إن لربك عليك حقاً، وإن لنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً فأعط لكل ذي حق حقه».

❋ ❋ ❋

التهيؤ للعداء

عندما أخذت خديجة ـ رضي الله عنها ـ رسول الله ﷺ إلى ورقة بن نوفل، وأخبره ما حدث له، قال له ورقة كما جاء في صحيح البخاري: «هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى: يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: **«أو مخرجي هم؟»** قال: نعم. لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً»[2].

(١) رواه البخاري (الفتح ١٠/ ٥٣٤).

(٢) رواه البخاري (الفتح ١/ ٢٢).

لا بد أن يتذكر كل من يسير في طريق الدعاة قول ورقة لزعيم الدعاة عليه الصلاة والسلام «لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عودي» والسبب في ذلك أن الداعية إلى الله، يدعو الآخرين للالتزام بما أمرهم به الله واجتناب ما نهاهم عنه، وقد يكون الابتعاد عما نهاهم عنه فيه خسارة كبيرة سواءً كانت «مادية أو معنوية» قد كسبوها بطرق لا تتناسب بل وتتعارض مع أوامر الله.

أنه ينهاهم عن أكل المال الحرام وهم يجمعون المال بالسرقات، وينهاهم عن النظر والاختلاء بما حرم الله، وهم يزنون لإشباع شهواتهم، وينهاهم عن الظلم وهم يصلون إلى مناصبهم ويثبتون فيها بالظلم.

وبهذا فهو يعارض أهواءهم ومكاسبهم التي يصلون إليها بالحرام، فلا بد أن تكون النتيجة هي «العداء» الموصل أحياناً إلى البلاء، فلا يستغرب الداعية عداء الآخرين له، ولا يستبعد ذلك ما دام يدعو إلى الخير، فلم يأت أحد بما أتى به النبي ﷺ إلا عودي، وليس له إلا الصبر وسلوك الحكمة للوصول إلى الأهداف.



نداء للجميع

إلى جميع الجماعات الإسلامية أوجه هذا النداء، فبعد أن اتفق الجميع إلا القليل جداً، على ضربكم والتخلص منكم هل ستستمرون في التشرذم، والتقاتل، وبذل الجهود الكبيرة في الصراع فيما بينكم، وتكفير، وتفسيق، بعضكم بعضاً؟!

أنتم جميعاً في نظرهم «إرهابيون، أصوليون، متطرفون» سواء المعتدلون منكم أم المتجاوزون، وعندما يضعون الخطط لا يستثنون أحداً،

فخير لكم الانشغال فيما تلتقون عليه، بدلاً من تضييع أوقاتكم في البحث عن النصوص التي تخطئون فيها بعضكم بعضاً.

خير لكم أن تنشغلوا بالخطر الكبير القادم، ألا وهم اليهود، والعمل على توعية الناس بخطرهم، ونصيحة أمتكم من دسائسهم.

خير لكم أن تنشغلوا بترسيخ القيم الإيمانية العقائدية في نفوس الناس ليواجهوا الأخطار القادمة عليهم من كل صوب وحدب.

خير لكم أن تنشغلوا بتبليغ الدعوة لمن لا يعرفها من المسلمين وغيرهم.

خير لكم أن تدركوا ما يخطط لكم ليدعوكم ذلك للتفكير الجدي بالالتقاء ولو على بعض الأمور.

خير لكم أن تطووا صفحات الماضي، وتبدؤوا حياة أخوية ملؤها المحبة والتعاون.

أو ليس هذا أحب إلى الله، من التناحر والتقاتل؟!

***

أين العلماء الموسوعيون؟

جاء في تذكرة الحفاظ للإمام الذهبي ترجمة الإمام الزهري قوله: روى أبو صالح عن الليث قال: «ما رأيت عالماً قط أجمع من الزهري يحدث في الترغيب فنقول: لا يحسن إلا هذا، وإن حدث عن العرب والأنساب قلت: لا يحسن إلا هذا، وإن حدث عن القرآن والسنة: كذلك».

لقد مليء التاريخ الإسلامي بأمثال هؤلاء العلماء الذين كانوا يحسنون ويتقنون فنوناً متعددة من العلم، كالإمام ابن الجوزي، وابن تيمية، وابن القيم وغيرهم كثير.

ولذلك كان هؤلاء منارات علمية، بل جامعات تدب على الأرض. إن من المحزن ألا نرى أمثال هؤلاء في زماننا، وإن كانوا موجودين فلا يمكن رؤيتهم إلا بالمجاهر المكبرة آلاف المرات، وإن من المحزن أيضاً أن يقنع بعض علمائنا الأفاضل بلقب الدكتوراه، فلا يطورون أنفسهم، ولا يلجون علوماً أخرى، ويشغلون أنفسهم بالمهم على الأهم، ولذلك ندر جداً أن نرى عالماً يفقه في أمور السياسة، أو التخطيط والإدارة، أو الأمور الاقتصادية الحديثة، وإذا علم أحدهم أمراً من هذه الأمور تجده ضعيفاً في الأمور الأخرى، وانجر هذا الأمر على الدعاة فأصبح من العسير جداً أن نرى داعية ملماً بأطراف العلم، كما كان يوصي الإمام البنا ـ رحمة الله عليه ـ عندما نصح الدعاة بأن يقرؤوا طرفاً من كل باب، إننا لا نقول بوجوب هذا الأمر على الجميع، ولكن لا بد للحركة الإسلامية في كل قطر أن توجد أمثال هؤلاء ليكونوا منارات يرجع إليها حينما يكثر ضباب الفتن وتنعدم الرؤية.

❋ ❋ ❋



هذه الظاهرة

لا أظن أن ما يصيب المسلمين في هذا الوقت من الزمان من إبادة في أماكن مختلفة في العالم يشكل المصيبة الأعظم، أو حتى مصيبة عظيمة، بل إن أعظم من هذه المصيبة هي تلك الظاهرة التي بدأت تستشري في جسم الحركة الإسلامية الممتدة في العالم كله، إلا وهي ظاهرة استرخاص دم المسلم، والاستخفاف بعرضه، والاستهانة بتكفيره وتفسيقه، والتي جاءت على صور متعددة، منها ما حدث في الجزائر من «ذبح» بعض العلماء على أيدي بعض الجماعات الإسلامية المسلحة لا لسبب سوى خلاف في الرأي حول الحوار من عدمه مع الحكومة.

وما حدث في أفغانستان بين المجاهدين من سفك لدماء بعضهم

بعضاً، وما حدث ويحدث في مناطق أخرى في العالم الإسلامي من إصدار كتب ونشرات تكفر وتفسق علماء مشهود لهم بالصلاح والعمل الصالح.

أقول إن هذه إن لم تكن المصيبة الأعظم فهي بلا شك من أعظم المصائب، والتي يرجع سببها الرئيسي إلى عدم تمكن وتغلغل الإيمان الصادق في نفوس الدعاة والانشغال بالتمدد الأفقي على حساب تعميق المعاني الإيمانية في النفوس، مما أوجد فراغاً إيمانياً في القلوب مليء بالهوى والانتصار للنفس أو الأشخاص، أو الحزب. ولو كانت القلوب عامرة بالإيمان والتقوى والورع لما حدث مثل هذا التخبط، وهذا يدعونا أن نراجع حساباتنا وأن نستدرك ما فاتنا، ونعتمد منهجية «التعميق الإيماني» في النفوس، حتى لا تعترضنا مفاجئات في الطريق لم نكن نتوقعها.

* * *

قبل أن تغضب
هل قمت بالواجب؟!

توجهت إلى بعض الدوائر الحكومية لقضاء بعض الحاجات، فقابلني أحد الموظفين وأساء إليَّ، ثم اعتذر بعد ذلك، إلا أنني عندما خرجت من تلك الدائرة أخذت أفكر بيني وبين نفسي، وأتساءل ما الأسباب التي دعت ذلك الموظف ليسيء إليَّ مع أنني لم أقترف ما يستحق تلك الإساءة؟

حاولت أن أجد إجابة على تساؤلي، فلم أجد، ثم تذكرت قصة ذلك التابعي الذي أهانه أحد العامة ولما هم أحد أتباعه بالرد عليه قال له دعه، واستقبل القبلة ورفع طرفيه إلى السماء قائلاً: «اللهم اغفر لي الذنب الذي سلطت بسببه هذا عليَّ».

فتفكرت في نفسي عما اقترفت فيه من تقصير، وما لم أقم به من الواجبات، فتذكرت أنني لم أصلي الفجر جماعة في صباح ذلك اليوم، ولم أدع عند خروجي بالدعاء المأثور «اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أضل أو

أزل أو أزل، أو أظلِمَ أو أُظلَم، أو أجهل أو يُجهَل عليَّ»..

إننا نحتاج أن نقف مع أنفسنا وقفة إيمانية عندما نتعرض لبعض أنواع البلاء قبل الغضب، فربما كان ذلك بسبب ذنوبنا وعدم القيام بالواجب.

❋ ❋ ❋

احذروا المهلكات الثلاث

صدق رسول الله ﷺ عندما ذكر الأمر الذي من تمسك به لن يحيد عن الطريق، ويضمن ثباته بإذن الله على الصراط المستقيم، وذلك بقوله: **«تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة رسوله»**[1].

فالكتاب والسنة فيهما من الضوابط ما يجعل المسلم في أمن وأمان من الزيغ، وتجعله دائم النظر إلى الأمام، وتجنبه محبة الالتفات إلى الوراء أو إلى جانبي الطريق، وإذا ما اختطف الشيطان منه نظرة من هنا أو هناك، ترى تلك الضوابط ترجعه سريعاً إلى الصراط ليواصل المسير والارتقاء، ومن هذه الضوابط قول النبي ﷺ فيما رواه البزار بإسناد حسن: «**ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه**» فقلة الراتب تدعو إلى الشح، والتورط بالكماليات يدعو إلى الشح، والنفقات الأسرية تدعو إلى الشح، وحب النفس للمال يدعو إلى الشح، فهل يستطيع الداعية النجاة من هذه الجواذب كلها التي تدعوه للشح، فإن فعل فقد نجا من الأولى، ثم تأتي نفسه التي ترغبه لفعل ما لا يرضاه الله خاصة إذا تعارض مع ما يريده الله أو رأى الحق مع غيره، فلم يقف مع الحق تماشياً مع هواه، وانتصاراً لنفسه، فهل ينجو من ذلك الهوى، فإن فعل فقد نجا من الثانية.

ثم يأتي المهلك الثالث وهو يعمل ليل نهار في الدعوة إلى الله تعالى،

---

(١) رواه مالك في الموطأ. يقول الألباني: وهو معضل، لكن له شاهد من حديث ابن عباس بسند حسن، أخرجه الحاكم (المشكاة ١/ ٦٦).

يتكلم ويفعل، ويرى الإنجازات تلو الإنجازات، ويرى الثمار اليانعة ويسمع ثناء الناس على فعله مما يجعله يعجب بما قام به، أو بما تحدث عنه، وينسى خلال نشوته هذه توفيق الله له، وتسهيل المولى لأعماله، وأنه لا حول له ولا قوة، وأن الحول كله لله تعالى، مما يوصله إلى أخطر الأمور، حيث يستشعر بأنه لولاه لما نجح العمل الفلاني، أو لما ظهرت تلك النتائج الباهرة، فإن نجا من كل ذلك، وتذكر بأنها مهلكات ثلاث، قد تحرق العمل كله الذي قام به، ونسب الفضل كله لله تعالى كان من الناجحين الثابتين على صراط الله المستقيم.

* * *

أيها الداعية.. ربما تكون أنت

يقول تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[1] وقوله ﷺ في الحديث الصحيح: **«إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»**[2].

وعن ثوبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **«لأعلمن أقواماً من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة، بيضاً، فيجعلها الله عز وجل هباءاً منثوراً»**، وعلّل الرسول ﷺ سبب ذلك بقوله: **«أما إنهم إخوانكم، ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل ما تأخذون، ولكنهم أقوام إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها»**[3].

هذه الآيات والأحاديث يقرؤها كثير من الدعاة قراءة سطحية ويستبعدون خلال قراءتها بأنهم ربما كانوا هم المقصودين بذلك بل يقرؤنها، وهم يتصورون صورة عبد الله بن أبي ورفاقه من المنافقين،

---

(١) الفرقان: الآية ٢٣.

(٢) رواه مسلم: ٢٥٦٤.

(٣) رواه ابن ماجه، وصححه البوصيري (٢/١٤١٨).

ولا يمتد بهم التفكير ليصلوا إلى واقعهم الذي يعيشون فيه.

أيها الداعية أما سألت نفسك يوماً أنك ربما تكون أنت أحد المقصودين بهذه الآيات والأحاديث؟

هل حاسبت نفسك يوماً، وسألتها إن كانت أعمالك أمام إخوانك في الظاهر هي ذاتها عندما تقبع في بيتك بعيداً عن رقابتهم؟ هل سألتها يوماً إن كانت أخلاقك مع إخوانك هي نفسها التي تلازمك وأنت مع أمك وأبيك وزوجتك وأبنائك؟؟ هل أنت ملَكٌ - بفتح الميم - أمام الناس، وشيطان في بيتك؟ إذا كنت ممن يعظ الناس بالالتزام بالسلوك الحسن واختيار أطيب الكلام، والابتعاد عن ظلم الآخرين، ثم تأتي لبيتك وتهجر والديك، أو تظلم زوجتك، وتسب أبناءك، وتحرم النفقة لمن تعول فربما تكون من أولئك الذين ذكروا بالآيات والأحاديث، فكن جريئاً في محاسبة نفسك، فإن العلماء يقولون في تعريفهم للإخلاص «هو استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن، والرياء أن يكون ظاهره خيراً من باطنه، والصدق في الإخلاص أن يكون باطنه أعمر من ظاهره»[1].



معرفة أصناف الناس

من الخطأ الكبير الذي يقع فيه بعض الدعاة هو دعوتهم لجميع أصناف الناس بطريقة واحدة، فنفس العبارات، ونفس الأسلوب يتعامل به مع الجميع، ولا يدرك أن الناس يختلفون باختلاف المعادن التي في باطن الأرض، كما أشار لذلك النبي ﷺ، وقد أشار عليه الصلاة والسلام في حديث آخر بأن الناس بعضهم يقبل الماء وينبت الكلأ، وبعضهم يمسك الماء فينتفع الناس منه، ومنهم كالقيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأ.

(١) تهذيب المدارج ٣٢٢.

فإذا ما استقر هذا الأمر في يقيننا، لا بد من اتباع الآتي:

١ ـ تنويع لغة الخطاب ونوعه عند الحديث مع العامة.

٢ ـ عدم اليأس والقنوط عندما لا يتفاعل المخاطبون ـ بفتح الطاء ـ مع ما نعرض عليهم من الحق، فقد يكونون جميعاً من نوع القيعان التي لا تنبت كلأ ولا تمسك ماءً.

أو قد يكون ذلك بسببنا ولضعف فينا أو في إخلاصنا.

٣ ـ تنويع الأساليب، فقد يصلح الأسلوب الفلاني مع الشريحة الفلانية، ولكنه قد لا يصلح للشريحة الأخرى.

٤ ـ تنويع وجوه الدعاة مع شريحة ما، فلعل ذلك يساعد في تجانس بعض الفئات مع الوجه الجديد وتفاعلهم.

❋ ❋ ❋

أقفال القلوب

يقول تعالى في كتابه الكريم: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾[1] وجاء في تفسير ابن عطية: «إن وفد اليمن وفد على النبي ﷺ وفيهم شاب، فقرأ النبي ﷺ هذه الآية فقال الفتى: عليها أقفال حتى يفتحها الله تعالى ويفرجها، قال عمر ـ رضي الله عنهم ـ فعظم في عيني، فما زالت في نفس عمر حتى ولي الخلافة فاستعان بذلك الفتى»[2].

وذكر الإمام ابن القيم ما ذكره مقاتل: «كأن القلب بمنزلة الباب المرتج، الذي قد ضرب عليه قفل، فإنه ما لم يفتح القفل لا يمكن فتح

(١) محمد: الآية ٢٤.

(٢) المحرر الوجيز ١٣/٤٠٩.

الباب، والوصول إلى ما وراءه، وكذلك ما لم يرفع الختم والقفل عن القلب لم يدخل الإيمان ولا القرآن»[١].

وأصحاب هذه القلوب المقفلة يستمعون للقرآن والمواعظ، ويحتكون بالصالحين، ويسمعون ويرون منهم ما لا يستفيدون منه في تغيير واقعهم، والسبب في ذلك وجود تلك الأقفال على قلوبهم، فكلما جاءت كلمات الوحي تريد دخول قلوبهم وجدت تلك الأقفال، فرجعت القهقري، وما لم يقرروا هم كسر هذه الأقفال بتوبة نصوح، فإنها تستمر بقفل قلوبهم حتى يغادروا هذه الحياة، وقد تكدست طبقات الران عليها بالإضافة إلى تلك الأقفال، والأقفال كثيرة ومتنوعة، فحب الدنيا وتفضيلها على الآخرة قفل، ونسيان الموت قفل، وهجران القرآن قفل، وقلة الذكر قفل، وضعف المحاسبة قفل، وترك الصدقات قفل، وعدم العمل بالعلم قفل، وكثرة الاحتكاك بأهل الغفلة قفل، وتضييع الأوقات فيما لا ينفع قفل، وعدم أداء الفرائض قفل، والظلم قفل، وعدم الاكتراث بالنوافل قفل، وجميع المعاصي أقفال. وهكذا تتنوع الأقفال، وتختلف في أشكالها وأحجامها، ولكنها كلها تؤدي مهمة واحدة وهي منع هذا القلب من تدبر كلام الله تعالى، ولا يكسرها إلا إقبال وعزيمة وتوبة لا رجعة للذنب بعدها.

❋ ❋ ❋



الابتسامة الآسرة

كم من غليظ فظ قاسي القلب أسرته ابتسامة من قناص للقلوب، إنها رسالة من غير حروف تقول للمقابل إن ابتسامتي عنوان قلبي، ومن من البشر لا يهفو لقلب لا يعرف إلا الابتسامة، إنه فن لا يجيده الكثير من الدعاة، وإنه أسلوب لا يحتاج إلى كثير من العلم والجهد، إنما يحتاج

---

(١) التفسير القيم ٤٣٩.

لداعية يتذكر أنه يحصد الأجر في بسط عضلات في وجهه ليصنع الابتسامة «وتبسمك في وجه أخيك صدقة».

وإنه يحتاج إلى داعية يتمنى الهداية للجميع، فتنبع الابتسامة من وجهه شفقة وتمنياً لجذب ذلك الإنسان بقلبه قبل أن يتفوه بكلمة واحدة منه.

والابتسامة لا تخرج إلا من قلب راضٍ، عامر بالإيمان محتسبٌ لما أصابه في سبيل الله، ولا شك أنها خصلة من خصال الكرم، فكريم المال يعطي بيده، وهذا يعطي بوجهه.

يقول حاتم:

أُضَاحِكُ ضيفي قبل إنزال رَحْله ... ويُخصِبُ عندي والمحل جديبُ
وما الخصبُ للأضياف أن يكثر القِرى ... ولكنما وجه الكريم خصيب[1]

أيها الدعاة.. هل تريدون أن تأسروا القلوب؟؟ عليكم بالابتسامة لمن تدعونهم.

❀ ❀ ❀

لا تقطع مفاصلك!

يقول محمد بن أبان:

إذا أنا لم أصبر على الذنب من أخٍ ... وكنت أجازيه فأين التفاضل
إذا ما دهاني مفصل فقطعته ... بقيت ومالي للنهوض مفاصل
ولكن أداويه فإن صح سرني ... وإن هو أعيا كان فيه تحامل[2]

فما دمنا بشراً فنحن معرضون للصواب والخطأ، ومعروف لدى العقلاء

(١) العقد الفريد ١/٢٣٦.
(٢) العقد الفريد ٢/٣١٠.

بأن الكي هو آخر الدواء، والأحمق هو من يبدأ به قبل تجريب الأدوية الأخرى، والأخ لأخيه كالمفصل في الجسم، فهل من المنطق السليم أن تعمل على قطع هذا المفصل عندما تشعر بألم فيه؟ أم تبادر لعلاجه ومراعاته وعدم إجهاده حتى يبرأ مما أصابه؟، وإن لم تفلح في ذلك، فليس أمامك سوى التحمل والتحامل لأنه في كل الأحوال خير من القطع المفضي إلى الكساح المانع من النهوض.

إن من المؤلم حقاً أن نرى انتشاراً لظاهرة عدم التحمل لأخطاء بعضنا البعض، وعدم التماس الأعذار، ومراعاة الظروف المعرَّض لها كل منا، وإلا فكما قال محمد بن أبان «فأين التفاضل» وقبله قال سيد البشر ﷺ: «**فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام**» فكن أنت الأفضل، وكن أنت البادىء بالسلام، وأجرك إنما ترجوه من الله تعالى، حيث يقول: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[1].

❊ ❊ ❊

هل التوبيخ أسلوب تربوي؟

«يا غبي يا أحمق، يا فاشل، أخوك أحسن منك، لا ترجى منك فائدة . . إلخ».

هل هذه العبارات التي يستخدمها الكثير من الآباء والأمهات أسلوب ناجح أو مؤثر في تغيير بعض طباع أبنائنا وبناتنا؟!

كثير من أولياء الأمور لا يفعل ذلك كعادة تعوَّد عليها، بل يقوم بها لأنه يعتقد أنها أسلوب ناجح ومحفز لتغيير الطبع.

الواقع يقول غير ذلك، حيث إن هذا «التوبيخ» من شأنه أن يرسخ في أعماق الأطفال بأنهم يحملون هذه الصفات، ومع الوقت يبدأ الطفل أو

(١) الشورى: الآية ٤٠.

المراهق بتقمص حقيقي لهذه الصفات فيصبح غبياً أو فاشلاً أو كسولاً أو محبطاً أو بائساً إلى آخر هذه الصفات التي كان يوصف بها.. والأصل أن يقول الآباء أو الأمهات إن رأوا ضعفاً في فهم أبنائهم «أنت ذكي وممتاز، وحاول أن تجيب على هذه المسألة» أو يقول له «خطؤك لم يكن نابعاً من غباء، إنما أنت ذكي جداً، ولكنك لم تركز، وكل ما في الأمر قليل من التركيز».

أو يقول له عندما يخطىء بالتعامل مع الآخرين «الإنسان الناجح هو الذي يستفيد من خطئه في الصواب» وأنت إنسان مؤدب، وخلوق، ومحبوب، ومن كانت فيه هذه الصفات سهل عليه أن يتخلق بالخلق الفلاني، وهكذا يغرس أولياء الأمور صفات الخير ويعمقونها في نفوس أبنائهم، حتى تكون طبعاً فيهم وسجية من سجاياهم.

* * *

صنفان من الدعاة

بسبب الأحاديث المتواترة والكثيرة في فضل تعلم العلم، يتجه جمع من الدعاة نحو كتب العلم يغترفون منها ما يستطيعون ليبددوا ظلام الجهل بنور العلم.

وقد يوفق بعضهم «وهم قليل جداً» بالعثور على عالم يتعلمون العلم على يديه بمنهجية وأصول علمية، أو الدراسة في أمهات الجامعات الإسلامية، أما الذين لم يوفقوا لذلك، وهم الأكثر، فإنهم يتجهون إلى كتب العلم والأشرطة اعتماداً على أنفسهم، فإذا ما جهلوا أمراً لم يفهموه رجعوا إلى بعض العلماء يستوضحون منهم ما غم عليهم، ومن هؤلاء وأولئك يخرج صنفان من الدعاة:

الصنف الأول: هم أولئك الذين تخرجوا من الجامعات العلمية الشرعية بالدراسات العليا وما دونها، وتتلمذوا على يد بعض المشايخ

بالطرق العلمية المنهجية، فبعض هؤلاء يعتقد أنه هو العالم ودونه جاهل لا يفهم من العلم شيئاً وأنه لا يمكن تحصيل العلم إلا بهذه الطريقة، والتي قد تكون متعسرة على معظم الدعاة، وإلا فلا يتعبوا أنفسهم، ويبالغ في ذلك إذ أنه يستكثر عليهم حتى اسم «طالب علم» فيضيق بذلك واسعاً، ويصرف الدعاة عن طلب العلم بصورة غير مباشرة دون أن يشعر.

والصنف الآخر: هم جمهور الدعاة، والذين تعلم بعضهم العلم من بطون الكتب والأشرطة، وسؤال العلماء، فبعض هؤلاء يظنون أنهم قد وصلوا إلى أعلى الدرجات من العلم.

فيقومون بتسفيه رأي العالم الفلاني والعالم العلاني، ولا يقبلون من أحد نصيحة، اغتراراً منهم بسبب كثرة ما قرؤوا.

كلا الصنفين من الدعاة قد سلك طريق الغلو، وكلاهما مغرور، والعلم الحقيقي هوَ الذي يجعل صاحبه متواضعاً، كما أنه ليس حكراً على أحد، وليس مستحيلاً على أحد تعلمه، وليس طريقه عسيراً كما يصوره البعض إذا ما خلصت النيات، وابتغى بطلبه وجه الله تعالى.



ضوابط الفهم الأخوي

روى أبو قدامة المقدسي في كتاب المتحابين في الله «أن فتحاً الموصلي جاء إلى منزل صديق له يقال له عيسى التمار، فلم يجده، فقال للخادمة: أخرجي إليّ كيس أخي، فأخرجته، ففتحه، وأخذ منه درهمين، وجاء عيسى إلى منزله، فأخبرته الخادمة بمجيء فتح، وأخذه الدرهمين، فقال: إن كنت صادقة فأنت حرة فنظر، فإذا هي صادقة فعتقت»[1].

هذا الخبر وأمثاله يستخدمه كثير من الدعاة استخداماً خاطئاً، وينبني

(١) كتاب المتحابين في الله ص٧٧.

على هذا الاستخدام نتائج سلبية كبيرة وخطيرة في حياة الدعاة، والسبب في ذلك تجريد مثل هذه الأخبار من الضوابط والأصول التي تحكم العلاقة الأخوية، ومن هذه الضوابط أن الأصل في المال الحرمة، ولا يجوز لأحد أن يعتدي على مال الآخر، وأن من مقاصد الشرع الخمسة حفظ المال، ومن فروع هذا الأصل قول الرسول ﷺ: «**لا يحل مال امرىء مسلم إلا بطيب نفس منه**»[1] ومن هذا نفهم أنه لا يجوز الأخذ من مال أخيك إلا عن طيب نفس منه، أي إلا إذا بلغت العلاقة بينك وبينه إلى درجة عالية من الإخاء تستيقن أنه «يفرح ويتمنى» أن تأخذ من ماله، وأنه يعتبر ذلك ممارسة عملية وتعبيراً عن صدق المحبة والإخاء، أما إذا لم تعلم منه ذلك، ولم تصل العلاقة إلى هذه الدرجة فالأصل في ذلك الحرمة، ولا يجوز أن يختبر بعضنا الآخر في هذا الأمر، ثم يكون التقييم مبنياً على هذا الأمر، حيث إن القلوب لا يملكها الإنسان، كما كان الرسول ﷺ يحب عائشة ـ رضي الله عنها ـ أكثر من باقي نسائه، ولكنه كان يعدل بينهن جميعاً.

❋ ❋ ❋

 عندما تفسد علاقتك بالناس

ما دمنا موجودين على هذه الأرض ونتعامل مع البشر، فلا بد أن نتعرض للظلم يوماً، ولأذى الناس يوماً، ولحرماننا من حقوقنا يوماً، وللمعاملة القاسية يوماً، وللمخاصمة يوماً، وهكذا كل يوم لا ينفك الإنسان من خير يحصل عليه من الناس، أو أذى يصيبه منهم، وغالب الناس يلجؤون إلى أصحاب الجاه والقوة لينصفوهم ويرجعوا إليهم حقوقهم عندما يتعرضون لذلك الأذى من الآخرين أو يتصنعون ويداهنون من آذاهم ليحصلوا منهم ما يريدون، وهكذا حال معظم الناس، ومع ذلك فإن النتائج لذلك الصنيع لا تكون مضمونة في جميع الأحوال، وحتى لو نجحت فإن

---

(١) رواه أبو داود وصححه الألباني في المشكاة (٢٩٤٦).

القائم بالمعروف يستعبد من أسدى إليه المعروف، ويرى دائماً أنه صاحب فضل عليه أو ربما أخذ منه مقابل تلك الخدمة شيئاً ما، وينسى الناس سلوك طريق مضمون النتائج أسهل بكثير من اللجوء إلى البشر وطريق لا يكلف صاحب الحاجة إراقة ماء وجهه، ولا كثرة التعب الذي يحصل عليه جراء جريه وراء الناس، إنه الطريق إلى الله تعالى، فلا عليه سوى إحسان العلاقة بينه وبين الله تعالى، فيحسن الله علاقته بالناس، إنه ميزان إيماني كان يتعامل به الصحابة الكرام، ومن تبعهم من جيل التابعين، واصغ لسيد من ساداتهم الإمام القدوة شيخ المدينة سلمة بن دينار وهو يقول لمن اختلت عندهم الموازين: «لا يحسن عبد فيما بينه وبين الله، إلا أحسن الله ما بينه وبين العباد، ولا يعوِّر فيما بينه وبين الله ـ عز وجل ـ إلا أعور فيما بينه وبين العباد. ولمصانعة وجه واحد أيسر من مصانعة الوجوه كلها، إنك إذا صانعت هذا الوجه، مالت الوجوه كلها إليك، وإذا أفسدت ما بينك وبينه، شنئتك الوجوه كلها»[1] أوليس هذا الطريق أسهل بكثير من اللجوء إلى البشر؟.



مشيئة الله في نشر الفضيلة

نتألم معشر الدعاة عندما نتعرض للفتن، سواء كان ذلك التضييق في المنع من الكلام أو النشر، أو تقيد الحركات بإيقاف النشاط أو أحياناً بإيداع البعض في السجون لمنعه من التحرك في سبيل الله، وتغيب عنا في زحمة هذه الفتن الحكم الكثيرة التي يريدها الله سبحانه وتعالى من ورائها، فمن أعجب الحكم التي تغيب عن الكثير من الدعاة أن بعض هذه الفتن تكون سبباً في نشر الخير والحق الذي منع الدعاة من نشره، وهذا واضح في قصة الغلام المؤمن مع الملك الظالم، فقد كان قتل الغلام بسهمه سبباً في دخول

(١) صفة الصفوة ٢/ ١٥٧.

جميع الناس في الإسلام عندما سمعوا الملك يقول: بسم رب هذا الغلام قبل أن يرميه بالسهم، ولم يستطع قتله من قبل. لقد دخل كثير من الغربيين والأمريكان الإسلام عندما شاهدوا فيلم «الرسالة» بالرغم مما حواه من الإساءة، ودخل الكثير من الأمريكان في الإسلام عندما اشتد الإعلام ضد الإسلام في أمريكا بسبب حادثة الرهائن الأمريكية في إيران، ودخل آلاف الشباب المسلم في الحركة الإسلامية عندما زج بقيادات العمل الإسلامي في الستينات والسبعينات في السجون العربية، وكما انتشرت كتب الأستاذ سيد قطب عندما منعت وصودرت.

يقول الشاعر حبيب الطائي:

وإذا أراد الله نشر فضيلة	طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت	ما كان يعرف طيبُ عرف العود

فإننا نرى النار ناشبة بالعود لكن طيبه لا يخرج منه إلا عندما يتعرض للنار الحارقة، هذه هي سنة الله عندما يريد نشر بعض الفضائل.

❊ ❊ ❊

اغترار الدعاة

ما دام الداعية إلى الله إنساناً فهو معرض للعجب بأي عمل يقوم به، أو نعمة يغدقها الله عليه، ما لم ينتبه ويرجع الفضل إلى الله تعالى، خوفاً من أن يكله إلى نفسه، ومن وكله الله إلى نفسه فقد خسر، لذلك كان الرسول ﷺ يقول في دعائه: «**ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين**».

إن القرآن الكريم يعلمنا هذا الخلق من خلال أنبيائه ورسله، فهذا سليمان ـ عليه السلام ـ يرى ذلك الملك الذي لم يعطه الله أحداً من خلقه، فلا يتعالى، ولا يعجب ويطغى، ولا يكل هذه النعم إلى نفسه طرفة عين بل يتذكر المنعم، وينكسر بين يديه حين يقول: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ

﴿ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[(١)].

إن الله سبحانه وتعالى يغار على عباده، حينما يغفلون عن هذا الأمر ولو للحظات قلائل.. فيظهر لهم عظمته وقدرته عليهم حتى يعودوا ولا يغتروا بما يروا من التوفيق والنجاح وسائر النعم، لنسمع إلى أحد أعلام العلماء وهو يمر في تلك اللحظات الخطرة من عمر الدعاة، وماذا أراه الله سبحانه وتعالى.

فقد جاء في ترجمته أنه قال: «ما سمعت شيئاً قط إلا حفظته، ولا حفظت شيئاً قط فنسيته، ثم قال: يا غلام، هات نعليَّ، فقال: هما في رجليك» يقول صاحب العقد معلقاً: «ففضحه الله».

❊ ❊ ❊

اللهم اجعلنا من الأقِلِّين

استغرب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ دعاء أحدهم في عهده، وهو يقول: «اللهم اجعلني من الأقلين» مما حدا به أن يسأله عما يعني بهذا الدعاء، فقال له الرجل: سمعت الله يقول: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[(٢)] وقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾[(٣)]... وذكر آيات أخرى فقال عمر: «كل أحد أفقه من عمر».

قد يضيق صدر بعض الدعاة، وهم يرون أنفسهم قلة في كثير من أهل الأهواء والملل، وقد يصيب بعضهم الإحباط بسبب هذه القلة، ويدخل الشيطان على أحدهم بأن ذلك بسبب ضعف فيهم أو في المنهج الذي

---

(١) النمل: الآية ١٩.
(٢) هود: الآية ٤٠.
(٣) سبأ: الآية ١٣.

يتبعون، وقد تكون هذه أسباب في قلتهم، ولكنها ليست رئيسية، حيث إن سنة الله تعالى اقتضت أن يكون أصحاب الحق دائماً هم «القلة»، وهذه هي الحقيقة التي غابت عن أمير المؤمنين وفهمها ذلك الرجل الصالح.

يقول الحكماء: «الكرام في اللئام كالغرة بالفرس».

ولهذا فأغلى الخيول هي تلك التي فيها الغرة، ومن فيها البياض في عنقها أو رأسها، لأنه يزيدها جمالاً وجاذبية، يقول الشاعر حبيب الطائي:

إن الجياد كثيرٌ في البلاد وإن   قلّوا كما غيرهم قُلٌّ وإن كثُروا
لو لم تصادف شيات البَهْم أكثر ما   في الخيل لم تحمد الأوضاع والغُررُ

وهكذا هم الدعاة، فإنهم من الصنف النفيس من الناس، فلا بد أن يكونوا قليلاً.

* * *

التعامل مع المغالين

المغالي هو ذلك الإنسان الذي يتجاوز ما جاء به الشرع، ويحسب أن ما يقوم به هو عين الصواب، مما يسبب نفور الكثير من الناس عنه حتى من أقرب الناس إليه، وغالباً ما يؤدي ذلك إلى سقوطه، وعودته للباطل، بسبب معاندته للفطرة، ومشادته للدين، وعدم الدخول فيه برفق، **«وما شاد الدين أحد إلا غلبه»**.

ولمثل هؤلاء معاملة من نوع خاص، حتى ننجح في معالجتهم، فلا ينبغي التربيب على ظهورهم، ومجاملتهم، والسكوت عن مغالاتهم، بل لا بد من مجابهتهم بخطئهم، ومصارحتهم، إنقاذاً لهم قبل السقوط أو الانحراف الشديد عن المنهج الوسط، وعندما نقوم بمثل هذا قد نسمع منهم كلاماً جارحاً وتعالياً عن النصح، وإصراراً على الخطأ، ولكن لا بد لنا من القيام بهذا الواجب درءاً لمفسدة قد تجر بحراً متلاطماً من الفتن عند

السكوت عنهم، ولقد حدث للإمام الأعمش مثل ذلك، وابتلاه الله بأحد هؤلاء، ولكنه تحمله، ورد عليه بما يتناسب مع عناده وإصراره، «فقد صلى في مسجد قوم فأطال بهم الإمام، فلما فرغ، قال له: يا هذا، لا تطل صلاتك، فإنه يكون خلفك ذو الحاجة والكبير والضعيف، قال الإمام: وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين، فقال له الأعمش: أنا رسول الخاشعين إليك، إنهم لا يحتاجون إلى هذا منك»(١).

ومثل هذا الموقف الحاسم مع المغالين وقفة واعظ الرشيد ابن السماك قائلاً لمن يلبسون الصوف إظهاراً للزهد، وكانت تلك الظاهرة قد انتشرت في ذلك العصر: «والله لئن كان لباسكم وفقاً لسرائركم فقد أحببتم أن يطلع الناس عليها، وإن كان مخالفاً لها فقد هلكتم»(٢).

إن حركات متطرفة كثيرة سفكت الدماء، وأحدثت فتنة لم تهدأ حتى الآن، إنما كان السبب الرئيسي في زيادتها وانتشارها عدم الوقوف في وجوه مبتدعيها من المغالين، فزادت بدعتهم وغلوهم مع الأيام متصاحباً مع هوى في النفوس، وظلم من الحكام.



معرفة الفضل وأهله

«كان أبو موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ خطيباً بالبصرة، يبدأ بذكر عمر في الخطبة قبل أبي بكر أيام خلافته ـ فقال له رجل في ذلك، فشكاه أبو موسى إلى عمر ـ رضي الله عنه ـ فطلبه عمر ـ رضي الله عنه ـ وقال: ما أغضب أميرك عليك؟

فأخبره الرجل بتأخر ذكر أبي بكر عن عمر ـ رضي الله عنهما ـ في

(١) العقد الفريد ٢/٣٧٣.

(٢) العقد الفريد ٢/٣٧٣.

الخطبة ـ فبكى عمر ـ رضي الله عنه ـ وقال: والله أنت أوفق منه وأصوب، والله ليوم وليلة من أبي بكر خير من عمر وآل عمر»[١].

لقد كان هو الخليفة، وهو يعلم أن القرآن قد وافقه في كثير من المواضع، ويتذكر ما قاله الرسول ﷺ فيه، كما أن عهده تمت فيه الكثير من الفتوحات، وتوسعت رقعة الدولة الإسلامية، وغيرها من الفضائل، ولكن كل ذلك لم ينسه الفضل ولا أهله السابقين، وما جعله ينساهم أو يتجاهلهم، بل إنه يتذكر أيامهم وسبقهم، وتحملهم في سبيل الله، فيقول قولته المشهورة «ليوم وليلة من أبي بكر خير من عمر وآل عمر» نعم إنها الأصالة، والوفاء والأدب ووضع كل فرد في موضعه اللائق به، إن قوماً من الدعاة جاءوا متأخرين ولحقوا بقطار الدعوة وتعلموا شيئاً من العلم، وتقلدوا بعض المناصب في الدعوة، فراحوا يطعنون في جيل التأسيس، ومن سبقهم في حقل الدعوة، ويسلكون طريق التجريح دون ذكر للتعديل، ودون ذكر لما قدم أولئك الكبار السابقون من تضحيات وجهد في سبيل نصرة هذا الدين قبل أن يكسر هؤلاء الدعاة الصغار جدار البيضة ويتعرفوا على عالم الدعوة الفسيح.. إننا نحتاج إلى أخلاق الأوائل في معرفة الفضل وأهله.



فقه التعامل مع الناس

بعض الدعاة ينظرون إلى الناس بمنظار واحد، إما أسود أو أبيض، ولا يستطيع أن يرى الناس بما يحملون من حسنات وسيئات، فإذا ما رأى إنساناً يغلب عليه الشر، فإنه يهيىء نفسه ويعوّدها على التعامل معه دائماً تعاملاً سلبياً، وكذلك العكس، فإن رأى من يغلب عليه الخير، فإنه يعامله دائماً تعاملاً إيجابياً، ويغض طرفه عن أخطائه إذا ما رآها يوماً، والأصل في

(١) مختصر المحاسن للصفوري ص ٤٥.

الداعية العدل في تعامله مع الآخرين، منطلقاً من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾[1]، فإن رأى خيراً أيده، ووقف بجانب صاحبه، وإن رأى شراً أنكره ونصح صاحبه بالإقلاع عنه، كائناً من كان ذلك الإنسان، ومن الخطأ الجسيم إغفال جوانب الخير عند الناس مهما ولغوا بالشر واتصفوا به، وفي هذا يقول ابن عباس رضي الله عنه: «لو أن فرعون مصر أسدى إليَّ يداً صالحة، شكرته عليها».

وقال بعضهم: «إذا قصرت يداك عن المكافآت، فليطل لسانك بالشكر»[2].

فقد يكتب علماني مشهور بعدائه للإسلام والإسلاميين يوماً فقرة أو مقالة يدعّم فيها أمراً من أمور الخير، فلا ينبغي تجاهله، وإساءة الظن فيه، بل يجب شكره والثناء على موقفه في تلك القضية، لنشجع فيه عامل الخير، ولعل ذلك يكون جسراً يصل إلى قلبه، فلا يخلو إنسان من ناحية من نواحي الخير، إذا استطعنا أن نكشفها فيه.

❋ ❋ ❋

 دروس من حادث الهجرة

إنه الحادث الذي غير مجرى التاريخ، وجعله يتغاضى عن إمبراطوريات العالم في ذلك الزمان ليلتفت إلى تلك الدولة الوليدة في أرض جزيرة العرب.

إنه الحادث الذي حول أعراباً في الصحراء تدوم الحروب بينهم عشرات السنين من أجل ناقة أو دجاجة إلى خير أمة أخرجت للناس.

---

(١) المائدة: الآية ٨.

(٢) حدائق الأزاهر ٢٧٨.

إنه الحادث الذي حول الضعف إلى قوة، والظلم إلى عدالة، والقلة إلى كثرة، والجهل إلى علم، والعناد إلى وداعة، والتشتت إلى وحدة.

ما أكثر العبر والدروس من هذا الحادث العظيم، وأول هذه العبر، والتي يجب على كل داعية أن يقف عندها ويتملاها طويلاً، هي «حتمية البلاء لكل من سلك طريق الدعوة»، فلقد وطن رسول الله ﷺ نفسه على هذ الأمر منذ أن حذره ورقة بن نوفل عندما أخبره الخبر، فقال له: «يا ليتني كنت فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك.. فقال له: **أو مخرجي هم**؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي»[1]، فتحمل السب والشتيمة، والاستهزاء، والتكذيب، والتجويع، فلما جاءت مؤامرة دار الندوة لم يستغربها، بل أعد العدة لذلك اليوم.

وخطط فأحكم التخطيط، وكذلك الدعاة يجب أن يعوا أن خصومهم لن يفرشوا الزهور في طريقهم، وسيتعرضون للسخرية والتهكم، والتكذيب والطرد والمطاردة والسجن وأنواع البلاء، وسوف تُعقد المؤتمرات والندوات والاجتماعات المغلقة، التي يتضاءل أمامها اجتماع دار الندوة ودهاء وخبث وحقد المجتمعين فيها، فصراع الحق والباطل لن ينتهي حتى قيام الساعة.

وما على الدعاة إلا الانتباه، وعدم الوقوع فريسة لهذا الاستفزاز، بل عليهم التأني والتفكير العميق، والتخطيط الذكي في كيفية الخروج من هذه الفتن بأقل الأضرار، أو تحويل تلك الفتن إلى نجاح في مضمار الدعوة، كما حول رسولهم ﷺ في حادث الهجرة تلك المؤامرات إلى نجاح في تأسيس الدولة.



☜ انتبه قبل فوات الأوان

عندما ينتقل الإنسان من عالم الضلال أو الغفلة إلى عالم الإيمان

---

(١) رواه البخاري: الفتح ١/ ٢٢.

والعلم، ويغترف من معين العلم الذي لا ينضب تصاحبه بعض الأحيان شهوة الإجابة عن كل ما يسأله عوام الناس، خاصة وهو يرى البون الشاسع بين ثقافته وثقافتهم، وعلمه وعلمهم، ويزداد هذا الشعور عندما يتوغل بالعلم ويأخذ شهادة فيه من شيخ أو جامعة، ويصبح من الصعب على بعض الدعاة أن يعتذر عن الإجابة، أو يقول: «لا أعلم»، وينسى أن فوق كل ذي علم عليم.

وعندما يصل إلى هذه الدرجة فقد ابتدأ السير في منطقة الخطر والذي قد يصل به إلى ما لا تحمد عقباه إذا لم يتنبه ويتواضع لله تعالى، وهذا هو دأب الداعية الرباني، فإنه إن زلَّ يوماً راجع نفسه فاستيقظ. ومما يرويه إبراهيم الحربي عن مقاتل بن سليمان أنه قعد يوماً بين الناس فقال «سلوني عما دون العرش»؟

فقال له رجل: آدم ـ عليه السلام ـ حين حج من حلق رأسه؟ فانتبه عندما سمع مثل هذا السؤال!.

فقال له: ليس هذا من علمكم، ولكن الله تعالى أراد أن يبتليني لمَّا أعجبتني نفسي[(١)].

فعلى الداعية أن ينتبه لتزيين الشيطان له علمه، وأن يتواضع ولا يدعي علم ما لم يعلم، وأن من تواضع لله رفعه، يقول أبو يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة:

«أريدوا بعلمكم الله تعالى، فإني لم أجلس مجلساً قط أنوي فيه أن أتواضع إلا لم أقم حتى أعلوهم، ولم أجلس مجلساً قط أنوي فيه أن أعلوهم إلا لم أقم حتى أُفتضح»[(٢)].

❊ ❊ ❊

(١) وفيات الأعيان ٥/ ٢٥٥.

(٢) بستان العارفين ٨١.

أفضل الناس

كان من المؤسسين للعمل الدعوي في الكويت، وقد شاب رأسه في الدعوة، يعلوه الوقار، ولا تغادره الابتسامة، التقيت معه في إحدى الرحلات، وإذا به يسبق القوم بحمل إبريق الشاي ليوزع عليهم، ثم يبادر الآخرين بتوزيع الفاكهة على إخوانه، ثم يطوف عليهم واحداً واحداً ليجمع قشور الفواكه، بالرغم من وجود الكثير ممن يصغرونه بالسن، بل ممن لم يمض على وجودهم أكثر من سنتين في عالم الدعوة، وكان دائماً يقول: (أريد أن أربي هذه النفس بخدمة إخواني).

ذكرني ذلك قول أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان عندما سُئل عن أفضل الناس؟ قال: «من تواضع عن رفعة، وزهد عن قدرة، وأنصف عن قوة»[1].

وهكذا كان دأب أفضل الناس في عهد الصحابة رضي الله عنهم، ابتغاء تربية نفوسهم على التواضع، فمما جاء في ترجمة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه حمل قربة على عنقه، فقيل له في ذلك، فقال: «إن نفسي أعجبتني، فأردت أن أذلها»[2].

إن من الأهمية بمكان أن يبادر البارزون من الدعاة لتربية نفوسهم على التواضع بمثل هذه الأمور، لأنهم أكثر الناس عرضة للإعجاب بالنفس لكثرة ما يلاقون من ثناء العوام.

❋ ❋ ❋

ذم الآخرين

تفهم طائفة من الدعاة أن إنكار المنكر هو البحث والتنقيب عن عيوب الآخرين، وفضحهم أمام الخلق إما تصريحاً أو كتابة،

(١) تاريخ الخلفاء ٢١٩.
(٢) تاريخ الخلفاء ١٢٩.

وكأنهم بعد ذلك قد انتهت مهمتهم عند ذلك، وكفى الله المؤمنين القتال..

هذا الفهم الخاطىء لميكانيكية الإنكار يجعل هذه الفئة تستمرىءُ النقد من غير أية ضوابط شرعية، مما يوقعها في الكثير من المخالفات الشرعية دون أن تشعر، ومن أبرز هذه المخالفات.

١ - قذف الآخرين من غير تثبُت أو دليل.

٢ - الحقد على أهل التوحيد ممن لا يبدو في ظاهرهم إلا الخير.

٣ - الغيبة لمن لا يباح غيبته.

٤ - الظن السوء.

٥ - الطعن بالنيات.

وعادة تكون هذه الفئة من الدعاة غارقة بالأخطاء، قليلة الورع، جاهلة بالعلم الشرعي، غير بصيرة بعيوبها، تفرح عند سماعها أخطاء الآخرين. لقد ذكر عند التابعي الجليل أحدهم بسوء فقال للمتكلم: «ما أنا عن نفسي براضٍ، فأتفرغ من ذمها إلى ذم الناس، إن الناس خافوا الله في ذنوب العباد، وأمنوا على ذنوبهم»[1].

لقد زاغت أعين هؤلاء بعيداً عن العيب القريب، وذهبت تنقب عن العيب البعيد، أو أنها علمت به فتغافلت عنه وانشغلت بعيوب الآخرين، كأنها أخذت أماناً من الله بالعفو عن عيوبها، إن هذا لا يعني دعوة لعدم الإنكار على الآخرين، ولكنها دعوة بعدم الغفلة عن عيوب النفس، والانشغال فقط بذم الآخرين، والقاعدة تقول: «الأقربون أولى بالمعروف».

❋ ❋ ❋

(١) الورع ص ٤٢.

«عندما يمدحك الآخرون»

كثيراً ما يتعرض المرء للمديح من قبل الآخرين، إما لعمل صالح قام به، أو رغبة من المادح للتقرب من الممدوح، أو درءاً لشره، وهي فرصة كبيرة للشيطان ليدخل على ابن آدم لحظة الثناء لينفث فيه سمومه بالانتفاش تارة، وبالتعالي على الخلق تارة أخرى، وأسوء ما يصل إليه من هذا المدخل أنه يوقفه عن العمل الصالح إذا خلا من الثناء، وقد يدخل في جدال عميق مع الآخرين إذا افتقد عندهم الثناء، وكأنه حق مكتسب قد سلبوه منه، وعندما يصل المرء إلى هذه الدرجة فقد وضع قدمه على شفير جهنم، حيث أنه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له سبحانه وتعالى.

وعلاج هذا الأمر إنما يتم بمحاسبة المرء لنفسه، وعدم الاتكال على ما يقوله الناس في حقه، وألا يصرفنه الثناء في حقيقة ما يعرفه عن نفسه، فهذا هو الطود الأشم من التابعين محمد بن واسع يقول بكل تجرد وتواضع ومعرفة لدواخل نفسه، «لو أن للذنوب ريحاً ما جلس إلي منكم أحد» وظل هذا الأمر يراوده حتى في لحظاته الأخيرة من عمره، وهو على فراش الموت يوقن بأن ما ناله من ثناء الناس لن ينفعه وهو يغادر من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة، حيث يقول: «ما يغني عني ما يقول الناس إذا أخذ بيدي ورجلي فألقيت في النار»[1]. هكذا يجب أن تكون حساسية الداعية، وفرق أن يكون سيداً لنفسه أو عبداً لها.

❀ ❀ ❀

كم نطبق من كلامنا

ما أكثر ما نتكلم، وكم من الحروف تخرج من أفواهنا، وكم يتحرك هذا اللسان الذي بين فكينا، ولكننا ننسى في زحمة هذه الأطنان من

(١) الورع ص ٩١.

الحروف والعبارات أن نسأل أنفسنا كم نطبق مما نقول؟!

لله در ذلك القشيري الذي فقه قول النبي ﷺ عندما قال: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»**.

فقد أطال الصمت في أحد مجالس العرب، فقال له بعضهم: بحق سميتم خُرس العرب.

فرد عليه: «يا أخي! إن حظ الرجل في أذنه لنفسه، وحظه في لسانه لغيره»[1].

وعندما تحول هذه الكلمات بيننا وبين العمل فإنها تكون بمثابة السم الذي لا يترك للإنسان فرصة أن يوصي كما دلنا على ذلك أكثم بن صيفي حيث قال: «مقتل الرجل بين فكيه».

أو قول حليم العرب الأحنف بن قيس عندما تطابقت عبارته مع عبارة أكثم لما ذكر بأن «ضعف الرجل مخبوء تحت لسانه»[2].

إننا نحتاج إلى وقفة مع أنفسنا نراجع الكثير مما نتفوه به، ونقوم بعمل نسبة مئوية بين ما نقوله وما نطبقه من ذلك القول ليتبين لنا الأمر قبل فوات الأوان فنكون صرعى لهذه الألسن.

❋ ❋ ❋

«سرعة التوثيق»

التوثيق أمانة، خاصة إذا ترتب عليه أمر من الأمور المصيرية كقيادة الجيش، أو التكليف بمهمة عظيمة، أو بزواج، أو بحفظ أموال المسلمين

---

(١) عيون الأخبار ٢/١٧٧.

(٢) عيون الأخبار ١/٣٣١.

وغيرها من الأمور، وبهذا فلا يجوز التسرع بالتوثيق دون تثبت وصدق وأمانة بالنقل عما رأيته من ذلك المسؤول عنه.

«قال رجل لأمير المؤمنين عمر ابن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إن فلاناً رجل صدق،

قال: سافرت معه؟

قال: لا.

قال: فكانت بينك وبينه خصومة؟

قال: لا.

قال: فهل ائتمنته على شيء؟

قال: لا.

قال: فأنت الذي لا علم لك به، أُراك رأيته يرفع رأسه، ويخفضه في المسجد»[1].

وما فائدة دين لا يغرس خلقاً في نفس صاحبه؟ ولو كانت الصلاة وحدها كافية بالتوثيق، لما قال النبي ﷺ في الحديث «**إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه..**»[2] فقد يكون الشخص مرتاداً المساجد، محافظاً على الصلوات، ولكن خلقه سيىء.. إننا نحتاج الكثير من التريث والتجرد عند السؤال عن توثيق أحدهم، لكي لا يترتب على تعجلنا ما لا تحمد عقباه فنكون من المساهمين في مآسي الآخرين، أو خسارة المسلمين.

❋ ❋ ❋

 بركة المساجد

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**الملائكة تصلي**

(١) عيون الأخبار ١٥٨/٣.

(٢) رواه الترمذي بإسناد حسن (١٠٨٤).

على أحدكم ما دام في مصلاه الذي صلى فيه ما لم يحدث، تقول: اللهم اغفر له اللهم ارحمه»[1].

يقول ابن بطال معلقاً على هذا الحديث: «من أراد أن تحط عنه الذنوب بغير تعب فليغتنم ملازمة مصلاه بعد الصلاة ليستكثر من دعاء الملائكة واستغفارهم له، فهو مرجو إجابته لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[2].

هذا باب عظيم لمن أراد رقة القلب، وتنمية الإيمان، وصحيح أنه كما قال ابن بطال: «من غير تعب»، ولكنه صعب على النفوس، حيث أنها جبلت على التفلت وعدم حب الالتزام وجاذبية زينة الدنيا تجذبها بقوة إلى خارج المسجد مجرد انتهاء الإمام، ولهذا السبب شبهها النبي ﷺ في بعض الأحاديث «بالرباط» إنه شعور إيماني عظيم، أن يستحضر المؤمن دعاء الملائكة له، واستغفارهم كلما زاد بالمكوث بعد الصلاة، وهو باب من أبواب تربية النفس وترقيقها لمن وجد فيها شيء من القسوة، فبيوت الله تعالى مدرسة إيمانية عظيمة، ورافد لا ينضب من روافد الإيمان، وملاذ لمرضى القلوب ليعالجوها في رحابه، ومن تعلق قلبه فيها، فهو من السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله.

❊ ❊ ❊

الحوافز الإيمانية (١)

سألني أحد الإخوة الفضلاء بعد إلقائي لدرس عن همم التابعين في العبادة قائلاً: «إن هؤلاء الأفذاذ من جيل التابعين لم يبرزوا هذا البروز، ولم يتميزوا هذا التميز في عبادتهم إلا بسبب الأجواء التي عاشوا فيها، والبيئة

(١) رواه البخاري ١/١٢١، الفتح ٤/٣٣٩.
(٢) جواهر البخاري ١٠٣.

التي تربوا فيها، فساعدتهم على هذا التميز والبروز، بينما لو فعل أحدنا فعلهم هذه الأيام لما استطاع، وذلك لعدم وجود تلك البيئة المعينة، وحتى لو استطاع لاتهم بالنقيصة» ثم طلب مني التعليق على هذا الأمر.

قلت: إن ما ذكرت من الأجواء المساعدة أمر صحيح لا شك فيه، وإن معظم البارزين في المجالات المختلفة خاصة في الغرب إنما برزوا بسبب الأجواء المتوفرة هناك، والحوافز التي ساعدت في بروزهم في جميع المجالات، وعدم بروزنا نحن في بلاد المسلمين ليس لأننا أقل منهم ذكاءً، ولا أقل عقلاً، ولكن بسبب عيشنا بأجواء قاتلة للإبداع، وكاتمة لأي بروز، ولهذا السبب عندما يذهب بعض المسلمين إلى تلك الديار يبرز لوجود الأجواء المساعدة، وكذلك الحال بالنسبة للبروز في العبادات والعلم الشرعي الذي ذكرناه في قصص التابعين، فأجواءهم التي عاشوا فيها تعتبر حوافز مساعدة، وهذا لا يعني أننا في هذا العصر قد عدمنا هذه الحوافز، ومن هذه الحوافز أن الرسول ﷺ أخبر عن زماننا بأن عمل العامل فينا كخمسين من أعمال الصحابة رضي الله عنهم، وهذا حافز عظيم من المفترض أن يدفع بنا للبروز، وحافز آخر أننا أمام تركة علمية من كتب العلم ميسرة ومطبوعة ومتوفرة، وتباع بأرخص الأثمان، بينما كانوا يجدون مشقة بالحصول عليها.

❋ ❋ ❋

الحوافز الإيمانية (٢)

إننا وقبل أن نلجأ إلى شماعة التبريرات التي نعلق عليها ضعفنا عندما نفتضح بذكر نماذج من عبادة التابعين، ونستبعد إمكانية بروز نماذج مثلهم بسبب عدم توفر الأجواء المساعدة، لا بد أن نكون في غاية الصراحة والصدق مع أنفسنا، عندما نسألها هل نحن منظمون لأوقاتنا، أم أننا نعيش في فوضى لا حدود لها؟، ولذلك لا نجد الوقت لأي شيء، لا نجد وقتاً

لدعوتنا ولا لأبنائنا، ولا لوالدينا، ولا لعبادتنا، ولا لثقافتنا، ولا لأقربائنا، ولا حتى لأعمالنا الشخصية.

إننا أسرى لبعض الأوهام التي جعلنا منها مُسلَّمات يصعب علينا التخلص منها، ومثال ذلك عدد الساعات التي يجب أن ننام فيها يومياً، فلا أدري من أين جاءت تلك القناعة الزائفة بأن الجسم يحتاج إلى سبع ساعات نوم حتى يؤدي وظائفه كما ينبغي، بينما نسأل الأطباء عن ذلك، فيثبتون لنا خطأ هذه النظرية، وأن عدد ساعات النوم يعتمد على طبيعة كل إنسان على حدة، فالبعض يكفيه خمسة ساعات، والبعض أربعة، والبعض ثمانية، والبعض تسعة، وهكذا، فكل إنسان يستطيع أن يكيف نفسه بعدد الساعات التي يحتاجها.

فلو أن شخصاً عوَّد نفسه على أن يؤخر نفسه عن النوم نصف ساعة كل يوم يقوم خلالها ببعض الركعات لله، أو قراءة بعض كتب العلم، لحصل على كم كبير من العلم والإيمان، أو أنه عوَّد نفسه على الوضوء قبل مغادرة المنزل والصلاة ركعتين في وقت الضحى، لنال من الإيمان الشيء العظيم، وهكذا في باقي الأمور نحتاج إلى تنظيم لأوقاتنا حتى نستطيع أن نعطي لكل ذي حق حقه، ثم أننا لا ننسى أن هذه النماذج الفذة لم تكن مقصورة على فترة التابعين، بل إنها تظهر في كل جيل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولكن البصير هو من يبصرهم.

* * *



نموذجان

أسوق هذين النموذجين لمن يستبعد أن تتكرر مواقف ونماذج الصحابة والتابعين، خاصة في مجالات العبادة، أول هذه النماذج لعمتي، والتي كانت بمثابة الجدة، فلا أتذكر منذ أن فتحت عيني على الدنيا أنني استيقظت في ساعة من ساعات الليل منذ أن كنت صغيراً قبل البلوغ وحتى توفيت

رحمها الله وأنا في الخامسة والثلاثين، إلا ورأيتها قائمة تصلي بالليل، تناجي ربها، ولا أتذكر أنها أفطرت في يوم من الأيام إلا في الأعياد، وحتى إذا جلست أحياناً مع الناس فإن لسانها لا يفتر عن ذكر الله تعالى، وكأنها من جيل التابعين في زماننا هذا.

والنموذج الآخر هو نموذج أحد مشاهير الدعاة في زماننا هذا، إنه عبد الله عزام، والذي نحسبه من الشهداء إن شاء الله، يخبرني حارسه الخاص، الملازم له عندما زار أمريكا عام **١٩٨٩**م، يقول ذلك الأخ: ما فتحت نافذة الغرفة التي كان يرقد فيها في الفندق في ساعة من ساعات الليل إلا ورأيته قائماً يصلي، حتى أذن الفجر فخرج من الغرفة متجهاً للمصلى، وأنا متعجب، متسائلاً في نفسي: كيف نام؟ ومتى نام؟

إن هذه النماذج حجة على الكسالى من أمة محمد ﷺ، وخاصة الدعاة منهم، الذين يريدون أن يقيموا دولة الإسلام وهم يحملون هذه النفوس ذات الهمم الضعيفة، وفاقد الشيء لا يعطيه.

*** *** ***

تأمل أيها الإنسان

في هذه اللحظات التي أعقبت صلاة الفجر من يوم الاثنين **١٩٩٥/٨/١٤**م، استلقيتُ على ظهري في كوخ أبدع صانعه، في وسط جزيرة لا ترى فيها إلا الخضار، والأشجار تحفنا من كل جانب، وتطل على أكبر بحيرة في ماليزيا، ولا يوجد في الجزيرة أحد سوانا مع الطاقم المشرف على هذا المنزل الجميل، مما يعطي الجو مزيداً من الإحساس بالجمال البكر، الذي لم تعبث به يد إنسان، كما لا يوجد ذلك الإنسان الذي يُحيل هذا الجمال الذي أبدعه الخالق إلى مناظر تقشعر منها النفوس السوية لقبحها.

أستمع في هذه اللحظات إلى تغاريد الطيور من أنواع مختلفة، فئة تمد في صوتها، وفئة ترسل التغريد متقطعاً، وأخرى تخلط بين المد والتقطيع،

في أصوات يرد بعضها على بعض، وتختلط بعضها مع الأخرى، في جو لا يُذكِّرك إلا بالجنة، حتى تُحدِّث نفسك قائلاً: إذا كان هذا الجمال في الدنيا، فكيف هو في الجنة؟ التي أخبرنا عنها الرسول ﷺ بأن: «**فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**».

كما يُذكرني ذلك التغريد بواجب التسبيح الذي فطر الله عليه ذلك الطير البهيج، فلا ينساه في سفر ولا حضر، ولا ينام عنه، ولا يتردد بالقيام به، وهو الذي خُلق من غير عقل، فكيف بهذا الإنسان الذي خلق الله له العقل ليعرف من خلاله ما يضره وما ينفعه؟ فكيف يغفل عن تذكر الذي أبدع كل شيء؟، ويقول بعد الاستغراق في التأمل لخلق الله «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»، يقول تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾[1].

* * *

شخصية أبنائنا (١)

هل سأل أحد منا نفسه يوماً من الأيام عن سبب خجله من التحدث أمام الناس قلوا أم كثروا؟، ولماذا لا يستطيع ابنه أو ابنته أيضاً التحدث أمام أصدقائهم في المدرسة أو أمام طابور الصباح؟ في الوقت الذي نرى جميعاً أبناء الغرب، خاصة من درس منا في بلاد الغرب، وهم يملكون الجرأة في الحديث أمام الناس الغرباء وفي مدارسهم، وفي التجمعات البشرية.

لو رجعنا إلى الماضي قليلاً وتذكرنا أنماط التربية السائدة في المجتمعات الشرقية، وخاصة العربية، والمنطلقة من قناعات خاطئة ليس لها أي أصل شرعي، أو أنها ناتجة من فهم خاطىء لبعض الأخلاق الإسلامية، ثم ورثنا نحن الآباء هذه الأنماط الخاطئة، لأدركنا الكثير من أسباب هذه

(١) الأعلى: الآيات ١٠ ـ ١٣.

الظاهرة، ومثال ذلك مفهوم (الاحترام للكبير)، فهُم من أجل ترسيخ هذا الأمر يسلكون طرقاً تؤدي إلى نتائج بالغة الخطورة من الناحية التربوية، وتنتج شخصيات مهزوزة، ضعيفة، مترددة، غير واثقة من نفسها، لا تستطيع القرار وتفضل أن يقرر الآخرون لها.

ومن هذه الأساليب الخاطئة، منعهم الأطفال من الجلوس مع الكبار في المجالس، أو أماكن التجمعات تحاشياً للإزعاج أو خوفاً من التعدي على الكبار، ومنها منع الصغار من الحديث في حضرة الكبار، وإذا ما حاول التحدث أو التعبير عن نفسه حتى في الجلسة الأسرية سمع من أبويه كلمات وعبارات التسكيت والتحقير لأن الوالدين لا يريدان أن يقطع الصغار عليهما متابعة بعض البرامج التليفزيونية، أو يريدون الحديث لهم فقط.

وإذا جاء الصغير من المدرسة وأراد أن يتحدث عما جرى له من أحداث وخناقات، واختلافات مع زملائه، أو ما حدث في اختباراته لا يجد أذناً صاغية من كلا الوالدين. هذا (التكتيم) المستمر في اليوم والليلة يولد بعد ذلك إنساناً أبكماً لا يعرف التحدث، ويخاف من الخطأ، ولا يثق بنفسه، ولا شك أن الجاني في هذه الجريمة هم الآباء والأمهات.

* * *

شخصية أبنائنا (٢)

كان الرسول ﷺ يردف ابن عباس خلفه على بغلته وهو غلام لم يبلغ الحلم ويلقنه أعظم دروس في العقيدة.. وذلك ما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي «**يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله**.. الحديث»[١] ولم يقل هذا غلام صغير كيف سيفهم هذه الأمور العقائدية الكبيرة، بل مضى في

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٥٧).

تلقينه إياها ليبني منه شخصية عظيمة بالحوار وإعطاء المفاهيم والقيم منذ نعومة أظفاره، وفعلاً كان ابن عباس ممن يشار إليه بالبنان.

في دراسة حديثة أجرتها بعض المعاهد المتخصصة تبين أن معظم العباقرة في العالم يشتركون معاً في سبب واحد، وهو «تلقيهم لمعلومات أكبر من أعمارهم وهم في سن الطفولة».

والسيرة تخبرنا أن الرسول ﷺ كان يشرك أولاد الصحابة في مجلسه وفي أسئلته، ومنهم عبد الله بن عمر الذي كان حاضراً عندما سأل الرسول أصحابه عن الشجرة التي تشبه المؤمن، فخاض الصحابة ولم يعرفوا أنها النخلة، وعرف ابن عمر ذلك ولكنه خجل أن يتكلم في حضرة أشياخ بدر، فلما انفض المجلس أخبر عبد الله أباه بأنه كان يعرف الجواب، فقال له الفاروق «كان أحب إليَّ لو قلتها» هكذا إذن هي تربية الأبناء لتكون لهم شخصية قوية، يجب إعطاؤهم المجال للحديث في المجالس، وعدم مقاطعتهم، وإظهار الاهتمام بحديثهم، ومناقشتهم، وفتح الحوار معهم بجميع القضايا، والابتعاد عن عبارات التسكيت والتحقير، وإحضارهم مجالس الكبار وتلقينهم وهم صغار معلومات كبيرة وأخذ آرائهم في القضايا البيتية والوطنية والإسلامية، ومشاورتهم وعدم الفرض عليهم باختيار الحلوى والشوكولاتة والملابس التي يريدونها. كل ذلك من شأنه تقوية شخصياتهم وتفتيق ألسنتهم والقدرة على المواجهة للجميع دون خجل.

❋ ❋ ❋

الألم المحسوس واللذة المغيبة (١)

عندما سُئل سيدنا بلال ـ رضي الله عنه ـ عن السر في تحمله للعذاب الشديد الذي تعرَّض له في بداية انتشار الإسلام قال: «كنت أمزج حلاوة الإيمان بمرارة العذاب، فكانت حلاوة الإيمان تتغلب على مرارة العذاب فلا أشعر بالألم»، إن تحمل أعباء الدعوة التي أبت السموات والأرض والجبال

أن يحملنها، والآلام الناتجة عن التبليغ لها والصبر عليها تحتاج إلى المبالغة بالشعور بلذة أعظم وأعمق من ذلك الألم المؤقت في البقعة المؤقتة، حتى يزول ذلك الألم المحسوس عندما يتغلب عليه الشعور باللذة المغيبة مما أعده الله لعباده السائرين على دربه.. وهذ ما دأب القرآن الكريم والسنة المطهرة على ذكره وتأصيله في نفوس أتباعه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾[1].

فأبلغ ألم يتلقاه الإنسان في الدنيا أن يراق دمه ويقتل، ولكنه يُقْبِل على هذا الألم بكل حماسة وهو يعلم أنه أبلغ الألم، عندما يخلط ذلك بالشعور باللذة الغيبية بأنه يموت فقط في عرف البشر، ولكنه لا يموت أبداً عند الله، بل يحيا ويرزق خيراً من رزق الدنيا، ويفرح فرحاً لم يعهده في دار الدنيا لما يرى من الفضل والنعمة التي أعدها الله له من التأمين من الفزع الأكبر ومن التزويج باثنتين وسبعين من الحور العين، ومن تاج الوقار الذي يوضع على رأسه، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ومن المغفرة التامة عند أول دفقة دم، ومن التشفيع بسبعين من أقاربه، وغيره من النعم، هذا الشعور هو الذي جعل الصحابة الكرام ومن بعدهم من الصالحين يتسابقون على الموت في سبيل الله بحماسة منقطعة النظير.

❊ ❊ ❊

الألم المحسوس واللذة المغيبة (٢)

تحدثنا في الوقفة السابقة عن أثر الشعور بالسعادة التي أعدها الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين في الآخرة بتخفيف الألم الذي يلاقيه السائرون في طريق الحق.

---

(١) آل عمران: الآيتان ١٦٩ ـ ١٧٠.

وأن القرآن، والسنة المطهرة ملئت بالحديث في هذا الأمر، فلم يعلق هذا الدين أتباعه بسعادة زائلة مؤقتة، بل علقهم بسعادة خالدة لا تزول، مما أوجد نماذجاً من الرعيل الأول ومن تبعهم يستهينون بعذاب الدنيا لأجل ما سيصيبون من لذة الآخرة، فهذا عمير بن الحمام يسمع رسول الله ﷺ في بداية معركة بدر يحث الجيش بقوله: «**والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً، مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة**، فقال: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض؟! قال: **نعم**. فقال عمير: بخ بخ.. قال رسول الله: **وما يحملك على قول بخ بخ؟** قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها! قال: **فإنك من أهلها**.. فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن، ثم قال لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه، إنها حياة طويلة، فرمى ما كان معه من التمر ثم قاتلهم وهو يقول:

ركضا إلى الله بغير زاد ... إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد ... وكل زاد عرضة النفاد
غير التقى والبر والرشاد

فقاتل حتى قتل - رضي الله عنه -».

وتذكر سعادة الآخرة التي جعلت جعفراً - رضي الله عنه - يقول وهو يواجه الموت في معركة مؤتة.

يا حبذا الجنة واقترابها ... طيبة وبارد شرابها

وجعل ابن رواحة يقول في نفس المعركة عندما رأى من نفسه تردداً «مالي أراك تكرهين الجنة»، هذا الاندفاع نحو الموت عند التفكر بسعادة أعلى وأكبر من سعادة الأرض تتصاغر أمامها آلام الدنيا بأسرها لم يأت من فراغ، بل جاء منذ أول درس غرسه الرسول ﷺ في نفوس آل ياسر وهو يراهم يعذبون في دروب مكة ويسمع أنينهم فيقول لهم وهو يمر بهم «**صبراً آل ياسر إن موعدكم الجنة**».

وجاء عندما سأل المبايعون الأوائل في بيعة العقبة الكبرى ماذا لنا؟ قال: لكم الجنة.

❊ ❊ ❊

اللذة المحسوسة والألم المُغيَّب

يقول تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[٢]، فمن حكمة الله تعالى أنه خلق الخير والشر ليختبر الإنسان، فيظهر الصادق من الكاذب عندما يتساقط الكثير أمام بريق الشر وزينته المحسوسة لغياب الإحساس بالألم والعذاب المغيَّب في الآخرة.. لذلك جاءت التوجيهات القرآنية والسنة النبوية لتوجيه المسلم بالتعلق بالآخرة ومعرفة ما أعد الله للمخطىء من العذاب حتى يقلع عن ممارسة الحرام الذي يشعر بلذته في الدنيا، فدعوة امرأة حسناء لشاب يافع وقد تعطرت ووضعت كل ما تستطيع من مساحيق تزيدها جمالاً وأنوثة، وهي ذات منصب وجاه، نستطيع أن تخفي جريمتها، إذا اكتشفت فما الذي يمنع شاب من الإقدام على مثل هذه اللذة المحسوسة سوى ما يتذكَّره من الألم المغيَّب بالآخرة، وهذا تماماً ما حدث لسيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾[٣] وكذلك أكل مال الربا سعادة دنيوية فهي زيادة يأخذها الدائن من المدين، ولكن الله سبحانه وتعالى قال فيمن يصر على أخذها: ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ﴾[٤] أي هكذا يحشرون يوم القيامة، فمن تذكر هذا الألم المغيب أقلع عن الربا، والاستيلاء على أرض ليست لك، صورة من صور اللذة والربح الدنيوي إلا

---

(١) الكهف: الآية ٧.

(٢) يوسف: الآية ٢٤.

(٣) البقرة: الآية ٢٧٥.

أن ذلك المستولي لو تذكر قول رسول الله ﷺ «**من أخذ شبراً من الأرض ظلماً طُوِّقه إلى سبع أرضين**»[1] متفق عليه، ليخشى أن تمتد يده لأقل من شبر ليست له.. بهذا الإحساس بالألم المغيَّب عاش الرعيل الأول ومن تبعهم، فتساقطت لذائذ الحرام أمام إيمانهم.

***

احذروا الحالقة

في شهر رمضان تزداد فرص الأجر فيما لا تتوفر في وقت آخر، وبالرغم من ذلك فإن هناك فئة من المسلمين يقومون ببعض ما يغضب الجليل مما يسبب زوال ما يجمعونه من الثواب، وسمى رسول الله ﷺ هذه المعاصي «بالحالقة» وعلى رأسها «الهجران» وهي أن يهجر المسلم أخاه ولا يكلمه أو يجلس معه ويمتلىء قلبه بالشحناء عليه.. حيث يقول الرسول ﷺ فيما رواه أبو داود بإسناد حسن: «**لا يكون لمسلم أن يهجر مسلماً فوق ثلاث، فإذا لقيه سلم عليه ثلاث مرات، كل ذلك لا يرد عليه فقد باء بإثمه**»[2] وأخطر من هذه النتيجة للقاطع ما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود بإسناد صحيح قول الرسول ﷺ: «**لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، فمن هجر فوق ثلاث فمات دخل النار**»[3]، فأية خطورة تنتظر أولئك القاطعين، خاصة إذا كانت هذه القطيعة بين الأقارب، فالرحم كما جاء في الحديث الصحيح معلقة بالعرش تقول: «**اللهم صِلْ من وصلني، واقطع من قطعني**»..

إن من أكبر الأعمال التي يقوم بها المسلم هذه الأيام أن يرجع المياه إلى مجاريها، ويصلح بين المتخاصمين، وإن درجته عند الله تعلو درجة الصائم والمصلي والمتصدق، حيث يقول الرسول ﷺ في الحديث الذي

(١) متفق عليه، (اللؤلؤ والمرجان ١٠٣٨).
(٢) رواه أبو داود وحسنه الألباني (صحيح الجامع ٧٧٧٥).
(٣) رواه أبو داود وحسنه الألباني (صحيح الجامع ٧٦٥٩).

أخرجه الإمام أحمد بإسناد صحيح: «**ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟**» قالوا بلى: قال: «**إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين هي الحالقة**»[1]. وفي رواية: «**لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين**» فكل ما يجمعه من الأجر تحلقه هذه المعصية.. والعاقل من لا يرضى بأن تذهب أعماله سدى، لمجرد رضوخه لتزيين الشيطان له بالاستمرار بالقطيعة بحجة «ما أنزل رأسي لهم» و«كرامتي أعلى من كل شيء».

❋ ❋ ❋

لحن الأفعال ولحن المقال

قال الإمام ابن الجوزي:

«حضر بعض النحوية في مجلس بن سمعون الواعظ، وكان من الزهاد، فكأن النحوي أخذ على الشيخ لحناً في لسانه، وغلطاً في كلامه، فانقطع عنه النحوي، ولم يأت إلى مجلسه، فكتب إليه ابن سمعون: مالي أراك من الإعجاب (أي بنفسك) رضيت أن تقف دون الباب، أما سمعت رسالة بعض العارفين إلى بعض المتأدبين: كتبتُ إلى من اعتمد على ضبط أقواله، ولحن في أفعاله أنك رفعت وخفضت وجزمت ونصبت وانقطعت، ألا رفعت إلى الله جميع الحاجات، ألا خفضت صوتك عن المنكرات، ألا جزمت نفسك عن الشهوات، ألا نصبت بين عينيك ميراث الممات، أما علمت أنه لا يقال غداً للعبد لِمَ لَمْ تكن مُعرباً؟، وإنما يقال له لِمَ كنت مذنباً؟، يا هذا ليس المرغوب الفصاحة في المقال وإنما الفصاحة في الأفعال، ولو كانت الفصاحة محمودة في المقال دون الأفعال، لكان هارون أولى بالرسالة من موسى ـ عليه السلام ـ قال تعالى إخباراً عن قول موسى: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ فجعلت الرسالة لموسى لفصاحة أفعاله والله أعلم حيث يجعل رسالته»[2].

---

(١) رواه الإمام أحمد (٦/ ٤٤٤) بإسناد صحيح.

(٢) بحر الدموع ١٧٠.

لم يعنِ ابن سمعون كما قد يظن البعض إهمال الفصاحة بالأقوال، وأنها غير مطلوبة، إنما أراد أن يوصل رسالة لأتباعه عن طريق رسالته لذلك النحوي، بأن الاهتمام بالأفعال هو الغاية المطلوبة، وهو الذي سنسأل عنه يوم القيامة، وتنقية أفعالنا من اللحن هو المقدم على كل أمر، وكل معصية صغرت أم كبرت لحن في لغة أفعالنا تشوهها وتنقصها في عين الله، وقد يزداد اللحن حتى ترفض تماماً فلا تقبل عند الله، وأعظم اللحن في أفعالنا ما كان لغير الله، وما كان على غير السنة.

* * *

حتى لا نهدم ما بنيناه

الحركة الإسلامية المعتدلة شيدت البناء الإسلامي الجديد للأمة بعد أن هدمته جحافل المد العلماني بجميع أنواعها، وتوجت ذلك الهجوم بإسقاط الخلافة، هذا البناء الذي شيدته الحركة الإسلامية المعتدلة والروح الجديدة التي بثتها بين شباب الأمة وشيبها، حتى غدا الإسلام هو الخيار للأمة متى ما أتيح لها المجال لأن تقول كلمتها.

هذا البناء مهدد بالسقوط إذا ما غضت هذه الحركة المباركة الطرف عن أعمال بعض المتحمسين من الشباب الإسلامي الذين تجاوزوا الحدود، واستحلوا دماء بني جلدتهم وملتهم باجتهادات خاطئة وفهم عقيم للإسلام الذي يحرم دم المسلم إلا بإحدى ثلاث: «**الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة**» وبغير هذا فلا يجوز إهدار دم المسلمين، وحتى هذه الأمور الثلاثة لا يجوز أن يقيم الحد فيها أفراد المسلمين وإلا لعمت الفوضى..

فالسكوت عن هذا التخبط وعدم إدانته، والقيام بنصيحة هؤلاء بإيقاف هذه المهازل سيفسر بأنه قبول ورضا بهذه الأعمال، وسيستغلها خصوم التيار الإسلامي بتشويه سمعة ومسيرة الجميع، وتحميل أعمال هؤلاء الجهلة على

عموم الحركة الإسلامية المعتدلة.. ما يتسبب في هدم ما بنيناه وبذلنا فيه الكثير من الجهد، لقد فهم جيل الصحابة والتابعين وأعلام العلماء هذا الأصل فتعاملوا مع المتطرفين في الفهم تعاملاً واضحاً لا لبس فيه، ولا مجال في ذلك للتأويل على حساب الجهود المضنية التي قام بها المعتدلون، فقد روى عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل أنه سمع أبا معمر يقول: «كنا عند وكيع، فكان إذا حدَّث عن حسن بن صالح أمسكنا أيدينا، فلم نكتب، فقال: ما لكم لا تكتبون حديث حسن؟ فقال له أخي بيده هكذا ـ يعني أنه كان يرى السيف فسكت وكيع»[1].

وحسن بن صالح هذا الذي لم يكتبوا عنه كان أحد الرواة ممن لا يرى الجهاد ولا الصلاة يوم الجمعة وراء أئمة الجور، وكان ممن يرى الخروج عليهم.. وهو رأي يخالف رأي أهل السنة والجماعة ويخالف عقيدتهم.. حيث يرون الصلاة وراء البر والفاجر، ولا يرون الخروج على أئمة الجور إلا إذا رأوا منهم كفراً بواحاً فيه من الله برهان، فلم يجاملوا بذلك بل كفوا حتى عن الأخذ منه.. هكذا يجب أن نكون حتى لا نضيع ما بنيناه.

❋ ❋ ❋

 أوقفوا هذه الخصومة حالاً

لا تجلس في مجلس من المجالس وتسأل عن فلان من نفس العائلة إلا وتجد الرد «فلان من العائلة ولكن ليس لنا شأن فيه»، ونادراً جداً أن تجد عائلة لا توجد بين أفرادها القطيعة، حتى غدت القطيعة سمة من سمات هذا العصر. لماذا يقتفي الأبناء والأحفاد خطى أجدادهم في القطيعة، لتستمر الأحقاد والضغائن ولا ينبري أحدهم إلى إعادة المحبة

(١) سير أعلام النبلاء ٧/ ٣٦٤.

والوئام بين الجسد الواحد.. إذا كانت أبواب الجنة تفتح كل يوم في رمضان، فإنها تفتح كل يوم اثنين وخميس في غير رمضان، ويغفر الله فيهما لكل مسلم لا يشرك بالله تعالى إلا متخاصمين حتى يصطلحا، كما جاء في الحديث: «**تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس، فيغفر فيها لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً، إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: انظروا هذين حتى يصطلحا**»[1].. إننا مدعوون جميعاً لترك العناد والإصرار، وتقديم العفو والغفران، والسهولة واللين، ومن كانت فيه هذه الصفات حُرِّمت عليه النار، كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي: «**ألا أخبركم بمن تحرم عليه النار غداً؟ على كل هين، لين، قريب، سهل**»[2]، فأية نتيجة سنحصل عليها باستمرارنا في القطيعة؟ إلا زيادة في البغضاء، والآلام وزوال المثوبات لما تلحقنا به هذه القطيعة من حلاقة الأجر الذي نجمعه من صلاتنا وصيامنا وصدقاتنا وتطوعاتنا كلها دون أن نشعر، ولنتذكر دائماً قول الرسول ﷺ عندما يزين لنا الشيطان العناد والاستمرار بالقطيعة.

«إياكم وسوء ذات البين، فإنها الحالقة»[3].



ثلاثة أسباب

يقول الإمام ابن القيم: «دخل الناس النار من ثلاثة أبواب: باب شبهة أورثت شكاً في دين الله، وباب شهوة أورثت تقديم الهوى على طاعته ومرضاته، وباب غضب أورث العدوان على خلقه»[4].

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد، ورواه الترمذي وصححه الألباني (صحيح الجامع ٢٩٧٠).
(٢) رواه الترمذي وصححه الألباني (صحيح الجامع ٢٦٠٩).
(٣) رواه الترمذي وحسنه الألباني (صحيح الجامع ٢٦٨٣).
(٤) الفوائد، ٥٨.

هذه الأبواب الثلاثة التي تدخل الناس النار هي ذاتها أسباب ثلاثة تمنع الناس من الولوج بكل خير، كما أنها هي ذاتها الأسباب التي تدعو الكثير من الناس لمعاداة هذا الدين أو حملة هذا الدين، كذلك هي الأسباب التي تمنع الناس من الدخول والانتماء لهذه الدعوة المباركة، فإما أن تكون شهوة تمنعهم من الالتزام بمبدأ يعتقدون أنه سيقيد حرياتهم عن الانطلاق في عالم الشهوات، وإما أن تكون شبهة أو شبهات، قد سمعوها من خصوم ومبغضين لم يتثبتوا من صحتها، حتى غدت مسلَّمة من مُسَلَّماتِهِم، مما تجعلهم يشكون في زمرة الحق، وتمنعهم من الدخول معهم، أو غضب بسبب معاملة خاطئة من أحد الدعاة في لحظة من لحظات الضعف سببت غضباً ممن أسيىء له، حال دون تصديق أصحاب الدعوة، وجعله يعمم ذلك الخطأ على الجميع، وبهذا تتحدد أدوار الدعاة مع الخائفين والمترددين من الدخول معهم بهذه العناصر الثلاثة، وذلك بإزالة الشبهات عن طريق الإقناع والحوار، وتبيين خطورة الشهوات المؤدية للحرام وإثبات خطورة وخطأ التعميم بالتعامل الأخلاقي بما يتناسب مع دورهم كدعاة ومنقذين وقدوات في المجتمع.

* * *

«أثقل الإخوان»

الإخوان في الله أنواع وطبقات، منهم من يملك الكثير من صفات الكمال والأصول، وأداء الواجبات والحقوق الأخوية، فيجبرك على حبه والتضحية من أجله بالغالي والنفيس، ومنهم من يملك شيئاً من هذه الصفات، فيكون حبك له بمقدار هذا الشيء، ومنهم من يملك القليل من هذه الصفات ويفرط في الأكثر، فيكون حبك له وتقربك منه بمقدار هذه القلة من هذه الصفات.. وهكذا تتعدد درجات ارتباطك بإخوانك على حسب ما يملكون وما يطبقون من صفات وحقوق تجاهك. والحديث عن أخلاق الأخوة يتشعب ويطول، إلا أن من أبرز هذه الأخلاق هي الثقة

وحسن الظن والتي ينتج عنها رفع التكلف والحرج - في حدود ما أمر الله تعالى - بسبب هذه الثقة وحسن الظن، فيقول ما شاء دون حرج التأويل والظن السيِّىء، وعكس هذه الصفة ذلك الأخ الحساس الذي يحاسبك على كل كلمة وفعل مما يؤدي إلى تضايقك من اللقاء به، أو الحديث معه لكثرة الحرج الذي تعانيه عند الاحتكاك به.. هذا الإحساس ينقله لنا جعفر بن محمد حيث يقول: «أثقل إخواني عليّ من يتكلف لي، وأتحفظ منه، وأخفهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدي»[1].

فانظر إلى نفسك، فلعلك تكون من هذا الصنف، لكي تعرف سبب نفور الكثير من إخوانك منك دون إدراك العلة التي تكون أنت أحد أسبابها.

***

الثواب والعقاب (١ - ٥)

الثواب والعقاب عنصران رئيسيان في العملية التربوية، بل هما عنصران أساسيان في رعاية الرعية وقيادة أية مجموعة بشرية، حيث أننا لا يمكن أن نتصور مؤسسة ناجحة من غير لوائح الثواب والعقاب للعاملين فيها، ولا يمكن أن نتصور مؤسسة ناجحة تعامل الموظف المجد المبدع، كزميله الكسول غير المنتج، دون أن تعبأ بالفروقات الشاسعة في إنتاجية كل منهما، ولو أننا تخيلنا على سبيل الافتراض أن مجتمعاً من المجتمعات قرر إلغاء العقوبات أو الثواب لعمت الفوضى وازدادت الجريمة، وانعدم الأمن، وتوقف الناس عن العمل، وتحول ذلك المجتمع إلى غابة كبيرة يفترس فيها القوي الضعيف.

والأسرة في المجتمعات هي الخلية الأساسية التي يتكون منها المجتمع، ومتى ينجح الأبوين في تسيير دفة هذه الأسرة، وتربية أبنائهما

(١) مختصر منهاج القاصدين ١٠٠.

تربية صحيحة بمخرجات سليمة لا بد من اعتماد مبدأ «الثواب والعقاب» وعندما نبدأ حديثنا عن الثواب نتذكر قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾[1]، للتدليل على أصالة هذا المبدأ الإلهي، الذي يقتضي مكافأة المحسن في الدنيا، والذي اجتهد وتعب وضحى وجهد وبذل كل ما لديه من طاقة في سبيل تحقيق ما أمره به الله في الدنيا فيجزيه الله الجنة وما بها مما لم تسمع به أذن ولم تره عين، ولم يخطر على بال بشر. هذا هو الأمر الذي يجعل العاملين في سبيله يتحملون الصعاب في هذه الدنيا وينجزون أعظم الإنجازات البشرية، ويقفون المواقف الرائعة في سبيل الحصول على الجنة.. ولم يكن الرسول ﷺ يملك ما يعطيه لمن بايعه في العقبة الثانية إلا هذا الأمر.. وذلك عندما سألوه بعد البيعة «وماذا لنا إذ ناصرناك وآويناك حتى يظهر أمرك، قال: **لكم الجنة**، فقالوا: مد يدك لا نقيل ولا نستقيل».

❋ ❋ ❋

الثواب والعقاب (٢ ـ ٥)

تحدثنا في الوقفة السابقة عن مبدأ الثواب كأساس تربوي يعتمد عليه الأبوان في تنشئة أبنائهما، وذكرنا بأن الله تعالى وعد العاملين في سبيله والسالكين لصراطه بالجنة، كلون من الثواب لما قاموا به في الدنيا.. كذلك الأبوان لا بد لهما من اعتماد هذا المبدأ لتحفيز أبنائهما على فعل الخير، ولتأصيل القيم والمبادىء الصحيحة في نفوسهم.. فنكافئهم عندما يقومون بالفعل الحسن. والثواب ينقسم إلى قسمين «معنوي ومادي».

والمعنوي لون من المكافأة لا يلمسها بيده بل يحسها بشعوره، أما المادي فهو لون من المكافأة يلمسها بيده.

والمعنوي ينقسم إلى قسمين: مباشر، وغير مباشر.

(١) الرحمن: الآية ٦٠.

والمباشر هو الذي يتعامل معه الإنسان في حياته، وغير المباشر فهو يتعلق بأمور لا يتعامل معها مباشرة في حياته إنما تحدث له بعد حين، أو أنها تتعلق بأمور غيبية كالوعد بالجنة وما يتصل بها من رضا الله تعالى وغيرها.

أولاً: المباشر.. ومعظم أنواع الثواب المعنوي المباشر تندرج تحت لافتة التقدير «Appreciation» «والتقدير» حاجة أساسية للإنسان كحاجته للطعام وباقي الحاجات، والإنسان منا يحب أو يكره الآخرين بسبب مقدار ما يعطونه أو يحرمونه من هذه الحاجة، فيحب فلاناً لأنه يقدره، ويبغض الآخر لأنه لا يقدره، فما هي أنواع هذا التقدير؟!.

النوع الأول: التشجيع، فالطفل يقوم بأنواع كثيرة من السلوكيات بعضها يقوم بها عشوائياً لاكتساب التجارب الحياتية، وبعضها تقليداً للأفراد الذين يراهم في محيطه، أو ما يراه في الأجهزة المرئية، وواجب الأبوين ملاحظة هذا السلوك وتعديل الخاطىء منه، وتشجيعه على ما كان صواباً كأن يقال «عبد الله ولد شجاع عندما يتصرف بشجاعة» أو يقال له «أنت ولد مؤدب عندما يتصرف بما يوحي هذا السلوك مع والدته أو إخوانه» أو أنت ذكي.. فهذه بمجموعها رسائل إيجابية تحدث له بتواليها عليه قناعة بصحة ما يفعل وفائدة ما يقوم به فيستمر فيه.

❊ ❊ ❊



الثواب والعقاب (٣ ـ ٥)

تحدثنا في الوقفة السابقة عن أنواع الثواب المعنوي المباشر وأثرها في تربية الأبناء، إن معظم أنواعه يندرج تحت لافتة «التقدير» وتعرضنا للنوع الأول وهو «التشجيع».

- **أما النوع الثاني فهو «الاستماع»**.

فالاستماع يعتبر من أعلى درجات التقدير، وللاستماع شروط وآداب لا يمكن أن يكون فعالاً من غيرها، وأهم هذه الآداب:

١ ـ النظر إلى وجه الطفل أو الابن وهو يتكلم، وعدم الالتفات عنه إلى أمور أخرى، فإن ذلك يترك لديه انطباعاً بعدم اهتمامك بما يقول.

٢ ـ إبداء التفاعل في قسمات الوجه، وباقي الجوارح من غير تكلف لما يقول، لإيصال رسالة له بتقديرك له، وتأثرك بما يقول.

٣ ـ عدم مقاطعته أثناء الحديث وترك الفرصة كاملة له للانتهاء مما يقول، وإن كان ما يقوله تافهاً أو لا يدخل في دائرة اهتمامك، ولكنه بالنسبة له يعتبر قضيته الرئيسية.

٤ ـ مشاركته بوضع الحلول لهذه المشكلة، أو القضية، وإثارة بعض الاستيضاحات والتساؤلات معه، ليشعر باهتمامك بموضوع الحديث.

● **النوع الثالث: القبلة.**

ولا شك أن تقبيل الأبناء لون من ألوان الثواب المحببة إليهم، وهو رسالة عملية بارزة عن التقدير والحب، وهي عند الطفل أحب إليه من كثير من ألوان المكافآت، لأنها تعني حبه من قبل من يقبله، لقيامه بعمل صائب.

* * *

الثواب والعقاب (٤ ـ ٥)

ذكرنا في الوقفات السابقة ثلاثة أنواع من الثواب، وهي التشجيع والاستماع والقبلة، وذكرنا أثر هذه الأنواع في عملية التنشئة التربوية للأبناء، ونتحدث اليوم عن بقية أنواع الثواب المعنوي المباشر وهي:

● **النوع الرابع ـ التكليف:**

فقد تعود الأبناء رؤيتهم للتكاليف تسند إلى الأم أو الخادمة، فعندما يقوم الأب أو الأم بتكليفهم بعض الأمور نراهم يتسابقون للقيام بها، لأن ذلك يشعرهم بثقة الوالدين بقدراتهم، وبالتالي يعتبرون التكليف مكافأة كبيرة

على قيامهم ببعض السلوك الحسن، كأن يكلف أحدهم ترتيب الصالة، وآخر ترتيب سفرة الطعام، وآخر شراء بعض الحاجات من فرع الجمعية.. ولا تنتهي القضية عند ذلك، بل إنه يكافأ بالتشجيع عند إنجاز التكليف، فيقال على سبيل المثال: «فلان ممتاز بالشراء، ويعرف كيف يتصرف» أو يقال: «فلانة تجيد الطبخ وتتقن الطبخة الفلانية، وتحب مساعدة والدتها».. وهكذا.

● **النوع الخامس ـ اللعب معهم:**

يفرح الأبناء كثيراً، وخاصة الأطفال منهم عند رؤيتهم والديهم يلعبان معهم، ويعتبرون ذلك جزءاً من عملية التقدير، ويتألمون عندما يلاحظون اللامبالاة من والديهم باللعب معهم، ويعتبرون ذلك جزءاً من عدم الاهتمام والتقدير. لذلك تجد الحماسة الكبيرة من أحدهم عندما يقول له الأب كلون من الثواب: «إذا ذاكرت دروسك جيداً وانتهيت من ذلك قبل موعد النوم فسألعب معك اللعبة الفلانية».

الثواب غير المباشر:

هذا الثواب يتعلق بأمور لا يلمسها الأبناء، وتنقسم إلى قسمين: كالوعود بمكافآت مؤجلة، ومثالها قول أحد الوالدين للأبناء: «إذا نجحت في الاختبار وحصلت على درجة «ممتاز» فسأشتري لك دراجة» أو أي وعد آخر.

والقسم الثاني والذي يتعلق بالأمور الغيبية، كقول أحد الوالدين للأبناء: «إذا بررتم والديكم فسيرضى الله عنكم، ويدخلكم الجنة. وإذا ساعدتم الفقراء وأنفقتم من أموالكم لهم، فيسؤجركم الله أجراً عظيماً».

هذه هي أهم أنواع الثواب المعنوي المباشر وغير المباشر، وهي بمجموعها تشكل أحد الأسس المهمة في عملية التنشئة التربوية وصياغة شخصية الأبناء صياغة متينة.

❊ ❊ ❊

الثواب والعقاب (٥ ـ ٥)

تحدثنا في الوقفات السابقة عن الثواب وأنواعه كأحد الأسس المهمة في تنشئة الأبناء وصياغة شخصياتهم ونتناول اليوم قضية العقاب كشق مكمل لعملية الثواب.

يقول الأستاذ حسن عشماوي في كتابه «كيف نربي أولادنا» «إن العصا وجارح القول لا يخلقان إنساناً صالحاً أبداً.. قد يخلقان قرداً مدرباً تبدو على حركاته وسكناته مظاهر الأدب، ولكننا نريد أولادنا بشراً لا قروداً» وهذا يجعلنا نؤكد أن عقوبة الأبناء، وخاصة الأطفال منهم ليست هي الأصل في العملية التربوية، بل إننا نلجأ إليها على سبيل الاضطرار، ولأننا نريد من العقاب تقويم سلوك الأبناء، فلا بد من أخذ الحيطة الشديدة عند التعامل مع هذا الأسلوب من التقويم، حتى لا تترتب أي نتائج عكسية لهذا الأمر، وهذا يدعونا إلى أن نلفت أنظار الوالدين لبعض الضوابط قبل البدء بعملية العقاب:

١ ـ أن تستنفد باقي الطرق العلاجية لتقويم الخطأ كالنصيحة والحوار، والتنبيه ومعرفة سبب القيام بالخطأ وغيرها من الطرق.

٢ ـ لا يعاقب الأبناء على الأخطاء من أول مرة.

٣ ـ أن يكون في سن يتلائم ويتفاعل مع هذا اللون من التربية، مثال ذلك قول الرسول ﷺ: «**مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرّقوا بينهم في المضاجع**».

٤ ـ معرفة نوع الخطأ.. ومثاله:

الخطأ الناشىء عن الجهل بأن هذا التصرف خطأ أو عدم معرفة التصرف الصحيح فيه.

❊ ❊ ❊

الثقة بالله

جاء في ترجمة يونس بن عبد الأعلى في إحدى حكاياته «أن رجلاً جاء إلى نحاس، فقال له: أسلفني ألف دينار إلى أجل.

فقال النحاس: من يضمن لي المبلغ؟

قال: الله تعالى.

فأعطاه ألف دينار، فسافر بها الرجل يتَّجر، فلما بلغ الأجل أراد الخروج إليه، فحبسه عدم وجود رياح، فعمل تابوتاً، وجعل فيه ألف دينار، وأغلقه وسمَّره، وألقاه في البحر، فقال: اللهم هذا الذي ضمنته لي.

فخرج صاحب المال ينتظر قدوم الذي معه المال، فرأى سواداً في البحر، فقال: ايتوني بهذا.

فأتي بالتابوت، ففتحه، فإذا فيه ألف دينار»[(١)].

إن المرء وهو يقرأ هذه القصة يتملكه العجب من ثقة ذلك الرجل بالله تعالى، ويقينه بأن الله تعالى الذي جعله ضامناً للنحاس أنه سيرد مال النحاس إليه بخلق من خلقه، هذه الثقة بالله واليقين بقدرته لا تستقر في قلب من يعظِّم غيره، أو يشرك معه أحداً في محبته، إنما تتربع في قلب قد طهره صاحبه مما سواه، فأضاء النور في جنباته لطهارة المكان، يقول سهل بن عبد الله: «حرام على قلب يشم رائحة اليقين، وفيه سكون إلى غير الله تعالى، وحرام على قلب أن يدخله النور وفيه شيء مما يكرهه الله تعالى»[(٢)]، إنها قلوب الرعيل الأول التي صفت لله تعالى وحده، وأخرجوا منها كل رواسب الجاهلية، بجهاد للنفس، كانوا يستلذون بطعمه مع الجهد الذي كان يكلفهم، ومثال ذلك ما رواه أبو نعيم في الدلائل عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: عَرَض لعليٍّ رجلان في خصومة، فجلس في أصل

---

(١) وفيات الأعيان ٧/ ٢٥٢.

(٢) بستان العارفين، للنووي ١٠٥.

جدار فقال له رجل: الجدار يقع عليك، فقال علي: إمضي كفى بالله حارساً، فقضى بينهما، فقام، ثم سقط الجدار[1] إنها ثقة بقدر الله تعالى ويقين بقدرته وقضائه، جعلت منهم جيلاً فريداً لا يتكرر.

***

حياة القلوب

يقول عبد الله بن المبارك أمير المؤمنين في علم الحديث:

رأيت الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذل إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانها

فالقلوب تموت داخل أجساد حية تدب على الأرض، إذا انقطع عنها أسباب حياتها، وتسرب إليها الميكروبات والفيروسات القاتلة والمكونة من الذنوب الصغيرة، والكبيرة، فما من ذنب يقترفه الإنسان إلا ونكت فيه نكتة سوداء كما أخبر الصادق المصدوق، وكلما حلت فيه بقعة سوداء ارتفعت بمساحتها بقعة بيضاء، حتى ينتشر السواد فيحجب القلب عن نور الحق وماء الوحي، فيذبل ثم يموت، وإذا كانت الذنوب هي السبب الرئيسي في موت القلوب فإن في تركها سر الحياة وعودة النبض والضخ لباقي أجزاء الجسد، والترك وحده لا ينعش القلب إلا إذا تصاحب مع فعل الطاعات التي كالماء إذا نزل على الأرض اليابسة المتشققة، حيث يقول تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[2]، ما أكثر القلوب التي ماتت فأحياها الله بماء الوحي فعادت الحياة لها، وما أكثر القلوب الحية التي ماتت بالذنوب والغرور والكسل والتواني.. اللهم أحيي قلوبنا بطاعتك.

***

(١) تاريخ الخلفاء ١٧٨.

(٢) الحج: الآية ٥.

☜ ألا يوجد شيء لله؟!

يقول أحد الأخوة بأن أحد المسؤولين في اللجنة الثقافية لإحدى وزارات الدولة طلب منه المشاركة في ندوة تتحدث عن بعض القضايا الاجتماعية فوافق على ذلك.. واتفقا على موعدها.. ثم اتصل ثانية لأخذ موافقته على إدارة ندوة أخرى بنفس الأسبوع فاعتذر عن ذلك بسبب انشغالاته وإذا به يفاجئه بعبارة كانت كالصفعة له، وربما كانت الصفعة أهون لو فعلها معه... حيث قال: «ولكن التقديم بـ ٣٠ ديناراً كويتياً، وكذلك المحاضرة»، ولم يكن صاحبنا يتوقع مثل ذلك، أبداً.. فقال له بانفعال: «نحن لا نعلِّم الناس الخير وننقل لهم العلم بمقابل مادي»، وإذا كان مسؤولوك قد قالوا لك ذلك، فأرجو أن تفهمهم بأن يزيلوا من دفاترهم وذاكرتهم هذا الأمر، فإننا لا نعمل إلا لله تعالى.. يكمل هذا الأخ: وفي نفس الأسبوع اتصلت وزارة الأوقاف بي لتسألني عن تاريخ ذهابي للحج كمرشد ديني وتاريخ القدوم، فلما سألتها عن سبب هذا السؤال، قال لي المتحدث.. «لأن الوزارة تريد صرف مكافأة للمرشدين الدينيين» فاستأت أشد الاستياء، واعتذرت عن قبول ذلك.. ماذا حدث لنا؟! ألا يوجد شيء لله تعالى؟! حتى بعض الدعاة الذين نذروا أنفسهم للدعوة إلى الله بدءوا يفكرون بالمقابل المادي عند إعطائهم للدروس والمحاضرات، وأصبح المال هو المحفز الأول، وإذا غاب المال، ماتت الهمم وفترت العزائم.. كيف يحدث التأثير الإيجابي ممن ينقل كلمة الخير بدافع مادي؟! ولا يحركه الحافز الإيماني، لأنه لا يلمسه بيده، كيف ندعو الناس للإيمان بالغيب، ونحن لا يحركنا هذا الاعتقاد لأن نكون مثل ذلك الأعرابي الذي أعطاه الرسول ﷺ بعض الغنيمة بعد إحدى المعارك، فرد عليه «ما تبعتك على هذا.. إنما تبعتك لأقتل ها هنا أو ها هنا» وأشار إلى عنقه وقلبه.

أو يحركنا مثل قول الرسول ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذي: «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم**» ثم قال: «**إن الله وملائكته**

وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت ليصلون على معلمي الناس الخير»[1].

❊ ❊ ❊

☜ ابتسم

أجرى «بول إيكمان» من جامعة كاليفورنيا تجربة تم فيها الطلب من المتطوعين أن يبدلوا تعابير وجوههم وإيماءاتها حسب مشاعرهم.

وقد ركز على ستة أنواع من المشاعر، وهي: الخوف والاشمئزاز والغضب والدهشة والحزن والسعادة، ثم قام بتوصيل أسلاك إلى المتطوعين من معدات تستطيع أن تسجل أي تبديلات في الحرارة، وحالة القلب، ومقاومة الجلد، وتوتر العضلات، ثم ضبط كل تعبير مدة عشر ثواني.

وكان مطلوباً من المشاركين أن يثبتوا أوضاع العضلات الوجهية وأن يتذكروا كل شعور ووضعية الوجه المعبرة عنه، فكانت النتيجة أن التعبيرات الوجهية المعبرة عن السلبية والقلق ينتج عنها ردود فعل تظهر على شكل توتر واضح في الجهاز العصبي، وينتج عن الغضب تبدلات في وظائف وأعمال كل أجزاء الجسم، فالقلب تزداد ضرباته وترتفع درجة حرارة الجسم، أما الوجوه السعيدة تعطي الشعور بالهدوء، ويهدأ معها الجسم، ويستمر الهدوء إلى ما بعد الحدث المفرح.

لا نستغرب بعد ذلك عندما يجعل الرسول ﷺ الابتسامة نوع من أنواع المعروف حيث يقول: «**لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق**»[2].

---

(١) رواه الترمذي وصححه الألباني (صحيح الجامع ٤٢١٣).

(٢) رواه مسلم ٤/٢٦٢٦.

والابتسامة نوعان، نوع يخرج من أعماق القلب المستقر، والراضي بما أنجز وحقق، من القلب الذي يحب الآخرين ويتمنى لهم الخير، والنوع الآخر من الابتسامة تلك التي تخرج من الوجه وليس من أعماق القلب يتصنعها صاحبها لكسب مصلحة مادية، أو أنها جزء من البروتوكول اليومي الذي لا يتم نجاح العمل إلا به. لا يحب صاحبها إلا نفسه، ولا يرى الخير إلا لنفسه، لذلك ترى ذلك الإنسان دائم التوتر، كثير القلق، يكره أكثر مما يحب، ليس للمبادىء والقيم والأخلاق الإنسانية مساحة كبيرة في نفسه.. وإسلامنا يريدنا أن نكون من أصحاب الابتسامة الأولى، فالرضى هو الذي يملأ قلب صاحبها، ولا يعرف السخط إلى نفسه سبيلاً، لذلك تخرج منه ابتسامة تعرف صدقها في قسمات وجهه.

* * *

كيف نتحرر من الكآبة؟!

يقول العالم النفساني «روبرت زاجونك»: «إن جريان الدم أثناء الحزن والغضب لا يمنع وصول الأوكسجين إلى الدماغ فحسب، إنما يولد أيضاً عدم توازن كيميائي من خلال منع وصول وسائل هرمونية حيوية، إن أدمغتنا تتذكر أن الابتسام يترافق مع كوننا سعداء، وإن الضحك أو الابتسام يجعل الدماغ يتحرر من الكآبة، ويتحول إلى السعادة»[١].

لقد علَّم الرسول ﷺ صحابته الكرام خطورة الغضب لما فيه من النتائج السلبية في الدنيا والآخرة.. وقد أدرك ذلك الصحابي الجليل الذي قال له النبي ﷺ «**لا تغضب**...» ثلاث مرات خطورة هذا الأمر عندما جلس مع نفسه متفكراً بصغر هذه الوصية، فقال «تفكرت فيها فوجدت أن الشر كله ينبع منها» فإذا كان الشر الذي عناه ذلك الصحابي هو الشر في

(١) شخصية جليسك ٧١.

الدين، فالعلم يخبرنا هذه الأيام بالشر الذي يلحق بصحة ذلك الغاضب، وعلاج الغضب إنما يتم بتذكر التقدير الذي قدره الله على العبد بحكمة منه، وليس للعبد أن يعترض، إنما يحمد الله على قدره، فيقول «الحمد لله على كل حال»، ويقول «قدَّر الله وما شاء فعل» ويتم بالصبر الذي يجزى عليه الجزاء الكبير ويحب من يقوم به حيث يقول تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1]، ويتم بالاستعاذة من الشيطان الرجيم من أول لحظات الغضب، ويتم بالوضوء لإطفاء نار الغضب، ويتم أيضاً بالابتسامة في وجه من تحبه في الله لتدخل السرور إلى نفسك ونفسه وتؤجر لقيامك بهذا المعروف، حيث يقول الرسول ﷺ: «**لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق**»[2].

❋ ❋ ❋

كيف ننمي «صناعة القرار» عند الأطفال (١ من ٣)؟

إن من أهم الصفات القيادية التي يحوزها الناجحون في هذه الحياة هي «صناعة القرار»، ومن غير هذه الصفة لا يمكن الوصول للأهداف، ولا يمكن النجاح في جميع المهام الملقاة علينا في هذه الحياة.. وكما أن هذه الصفة تعتبر من الصفات الأساسية للشخصية القوية والناجحة، كذلك فإن الضعف باتخاذ القرار يعتبر من أسوأ الصفات في الفاشلين في هذه الحياة و«صناعة القرار» ليس دواء يعطى على جرعات فيتحول المرء من متردد ضعيف إلى متخذ وصانع للقرار بل لا بد من تنشئة الإنسان منذ نعومة أظفاره على هذه الصفة حتى تكون طبعاً فيه ويطورها كلما توغل في هذه الحياة وزادت سنوات خبرته. الدكتور فيرنوت جونسون تناول هذا الموضوع

(١) آل عمران ١٩٦.
(٢) رواه مسلم ٤/٢٦٢٦.

المهم والشائق في كتابة الحديث «Chemical dependence»[1] ولخص «صناعة القرار» عند الأطفال في عشر نقاط تعتبر من أجمل وأعمق ما كتب في هذا الموضوع:

١ ـ القدوة بصناعة القرار:

تحدَّث مع الأطفال عن القرارات التي واجهتك في الحياة واشرح لهم الخطوات التي اتبعتها بصناعة القرارات، وافسح لهم المجال بالمشاركة بصناعة القرارات التي نواجهها.

٢ ـ كن مصدراً لصناعة القرار:

بدلاً من إعطاء الأطفال الحلول والتوجيهات، ولأننا نعرف ما هو الأفضل يجب أن نقوم بدور المصدر أو المستشار لمساعدتهم على القيام بالخطوات الأربع لصناعة القرار، وهي:

أ ـ تعليمهم نتيجة التأثيرات للشيء الذي سيختارونه على المدى الطويل.

ب ـ تعليمهم كيفية تقييم هذه النتائج والتأثيرات وما يترتب عليها على المدى الطويل.

جـ ـ الصبر والتدريب على تعليمهم كسب هذه المهارات لأنه ليس من السهل أن يهضم الطفل عملية اتخاذ القرار على هذه الأسس.

د ـ نحتاج إلى ما هو أهم من الصبر، وهو استمرار التفكير بطرق عملية لتعليم أطفالنا هذه المهارات.

❊ ❊ ❊

---

(١) «Chemical dependence» ص ٤٣٦ ـ ٤٤٢.

☜ كيف ننمي «صناعة القرار» عند الأطفال؟ (٢ من ٣)

تناولنا في الوقفة السابقة ما ذكره د. فيرنون جونسون في كتابه القيم «Chemical dependence» الخطوات العشر لتنمية «صناعة القرار» عند الأطفال، حيث ذكرنا منها الخطوة الأولى «القدوة بصناعة القرار»، والثانية «كن مصدراً لصناعة القرار».. ونتحدث اليوم عن الخطوة الثالثة حتى السادسة كما يلي:

٣ ـ «ماذا لو؟».

شجع الأطفال على البحث عن العواقب والحلول الأفضل بطريقة «ماذا لو؟»، وعلى سبيل المثال يقول الطفل لنفسه ماذا لو سألت كذا وكذا لصديقي؟، وماذا لو سُئلت عن كذا وكذا؟، أو حدث كذا وكذا؟!.. أي تعليمه قانون الاحتمالات.

٤ ـ إعطاء فرصة للخطأ:

إعطاء فرصة للأطفال لعمل الأخطاء، فنحن لا يمكن أن نتعلم كيف نقود العجلة إذا تجنبنا خطورة الوقوع عدة مرات، لذلك يجب إعطاء الأطفال الفرصة لبعض الخيارات التي لا توافق أنت عليها.

٥ ـ مجاميع الأطفال:

شجع أطفالك للدخول في مجاميع أطفال أو الدخول بأنشطة يومية تتيح لهم فرص صناعة القرار ومساعدة غيرهم لصناعة القرار.

٦ ـ ابحث عن الفرص:

ابحث عن الفرص التي تستطيع من خلالها التحدث عن صناعة القرار لأطفالك، خاصة في الأجواء الخالية من الخطورة حيث لا تترتب أي خطورة عند اتخاذ قرار خاطىء، بعض البرامج التليفزيونية والأفلام، والكتب

المسلية المضحكة والصحف اليومية، كل هذه الوسائل تعرض الكثير من الفرص لخيارات متعددة اتخذها الآخرون.

❊ ❊ ❊

كيف ننمي «صناعة القرار» عند الأطفال؟ (٣ من ٣)

نختتم هذه الوقفة بباقي الخطوات العشر التي ذكرها د. فيرنون جونسون في كتابه «Chemical dependence» لتنمية «صناعة القرار عند الأطفال»:

٧ ـ التشجيع:

اهتم بالنتائج على المدى البعيد لما يقوم به الأطفال، وشجعهم بالهدايا وباقي المكافآت لتكملة ما يقومون به من المشاريع والأنشطة التي بدءوا بها، ذلك لأن الكثير من الأطفال يبدءون بحماسة عظيمة لا تلبث أن تخمد.

٨ ـ المساعدة في مشاريعهم:

في الحقيقة فإن العمل جنباً لجنب مع الأطفال في مشاريعهم يحتاج للكثير من المعاناة والصبر حتى إتمامها، ولكن لا بد من مساعدتهم في بداية مشاريعهم وذلك عن طريق سؤالهم عن أفكارهم لإتمام هذا المشروع وعن طريق إفساح المجال لهم لصناعة خيارات صعبة كاختيار المواد والألوان.

٩ ـ تجنب صناعة القرار:

لا بد من تجنب اتخاذ قرارات من المفروض اتخاذها من قبل أطفالك كنوعية الملابس التي يريدون شراءها، أو توفير المصروف اليومي أو شراء شيء فيه، حتى وإن كنا نعرف ما هو الأفضل لهم، ولا بد من إدراك أنه

ليس من المجدي التنصل في الخيارات التي تقع من ضمن مسؤولياتهم حيث إن هدف الأبوين بعد كل ذلك هو تربية الأطفال لمواجهة الحياة بحقائقها، لذلك لا بد لنا من إشراكهم في أعمال تؤهلهم لتعلم مهارات الحياة والتي سوف تساعدهم على التعامل الفعال مع جميع الظروف اليومية.

١٠ ـ لا تحاضر:

لا تحاضر وإنما استمع، فقاعدتنا في عمليات تنمية «صناعة القرار» عند أطفالنا هي أن نكون مصادر ومراجع، ذلك لأن الأطفال يتعلمون بالعمل. (انتهى).

هذه الخطوات العشر في تنمية «صناعة القرار» عند الأطفال من الأمور الأساسية لصياغة الشخصية القوية لأطفالنا، لتلافي الصفات السلبية التي تكثر في أطفالنا بسبب عدم العمل بهذه الخطوات العشر، والتعامل مع الأطفال كالعرائس الخالية من الأرواح، نحركها كيفما نشاء، ومتى نشاء، وأينما نشأ.

لذلك كثر عندنا نوعية من الأطفال أقرب إلى المعاقين منهم إلى الأصحاء يعتمدون في كل شيء في حياتهم على والديهم وخادماتهم.

❋ ❋ ❋

سهر العيون

من الأمثلة السائرة والمشهورة على ألسن الناس، قولهم «من طلب العلا سهر الليالي» ولكن ليس كل ساهر يبتغي طلب المعالي، فكثير من السهارى إنما يطلبون بسهرهم معاصي الله تعالى، ويقلبون سنة الله تعالى الذي جعل الليل لباساً والنهار معاشاً، فينامون معظم النهار، ويسهرون الليل، ولكن هناك فئة قليلة من عباد الله يغتنمون هدأة الليل، وسكون الخلق، مضحين بجزء من الليل يغط فيه عامة الناس بنوم عميق، بينما يقف أحدهم يناجي ربه، ويسهر عينه إرضاءً لمولاه، وطمعاً لما عنده من نعيم يلقاه في الدنيا والآخرة..

طوبى لمن سهرت بالليل عيناه   وبات في قلق في حب مولاه
وقام يرعى نجوم الليل منفرداً   شوقاً إليه وعين الله ترعاه[1]

إنهم كزهور الروض يزينونه في النهار بينما هم يزينون الليل الدامس بجمال ما يقومون به.

هذا ما وصفهم به ابن الجوزي حيث قال: «زينوا روضة الدجى بأزهار التهجد»[2]، إنها أزهار من نوع آخر لا يرى جمالها في ذلك الظلام إلا من لا تأخذه سنة ولا نوم.

إن هذه الزهور تزداد روعة وجمالاً وتألقاً عندما يحلق قائم الليل بعيداً عن طينة الأرض، ويشعر بقرب الله تعالى منه، فيناديه في دعائه «اللهم ارحم غربتي في الدنيا، وارحم مصرعي عند الموت، وارحم قيامي بين يديك»[3].

ذلك لأنه يشعر في هذا الظلام أنه وحده يناجي ربه، فهو غريب في عمله، غريب في مشاعره، غريب في نومه، غريب في يقظته، ولكنها غربة تعقبها جنة عرضها السموات والأرض، لا يستحقها إلا من استعد لها مع رحمة الله عند الممات، ويوم تعرض الأعمال.

❋ ❋ ❋



القلوب ثلاثة

يقول الإمام ابن قيم الجوزية: «القلوب في الولادة ثلاثة:

١ ـ قلب لم يولد، ولم يأن له، بل هو جنين في بطن الشهوات والغي والجهل والضلال.

(١) بحر الدموع، ابن الجوزي ٣٥.
(٢) بحر الدموع، ابن الجوزي ١١٦.
(٣) من دعاء عطاء السليمي ـ سير أعلام النبلاء ٦/ ٨٧.

٢ ـ وقلب قد ولد وخرج إلى فضاء التوحيد والمعرفة وتخلص من مشيمة الطباع وظلمات النفس والهوى، فقرت عينه بالله، وقرت عيون به وقلوب، وأنست بقربه الأرواح.

٣ ـ وقلب ثالث في البرزخ ينتظر الولادة صباحاً ومساءاً قد أصبح على فضاء التجريد، وأنس من خلال الديار أشعة التوحيد، تأبى غلبات الحب والشوق إلا تقرباً إلى السعادة كلها بقربه، وتأبى غلبات الطباع إلا جذبه وإيقافه وتعويقه، فهو بين الداعين تارة، وتارة قد قطع عقبات وآفات، وبقي عليه مفاوز وفلوات»[١].

إن القلب الذي يجب على الدعاة الاهتمام به ومعرفة طرق الولادة لإخراجه مما هو فيه، هو صاحب القلب الثالث الذي ما زال في البرزخ، وذلك أنه محتار بين مؤثرين: مؤثر الخير، ومؤثر الشر، ولا بد على الدعاة من التفنن في تقوية مؤثر الخير، وذلك بالإكثار من الاتصال به، وغض الطرف عن بعض هفواته وهناته وتردداته، والصبر على كبواته، حتى يكتمل نموه، ويقترب من الشهر التاسع ليتسنى لهم إخراجه من غير عملية قيصرية ولا إخراج في وضع مقلوب، ليخرج لنا كامل النمو صحيح الجسد، معافى من الأمراض، يستطيع بعد ذلك أن يعيش في مجتمعنا، ويأكل من غذائنا، ويشرب من ضرعنا، ومن غير ذلك فإننا نتركه للتأثير الآخر الذي يجذبه فيخر صريعاً، فربما التف حوله المصير فيقتله أو يأتيه طعام مسموم فتكون فيه خاتمته.



مقام الخفافيش

«الزهاد في مقام الخفافيش، قد دفنوا أنفسهم بالعزلة عن نفع الناس، وهي حالة حسنة إذا لم تمنع من خير من جماعة، واتباع جنازة، وعيادة

(١) طريق الهجرتين ٢٦.

مريض إلا أنها حالة الجبناء، فأما الشجعان فهم يتعلمون ويعلمون وهي مقامات الأنبياء عليهم السلام»[1].

هذه العبارة العميقة، لم أكن أصدِّق أن قائلها هو الإمام أبو الفرج بن الجوزي، والمتوفى في القرن الخامس الهجري، ولولا تأكدي أن ما أقرؤه كان كتاب «صيد الخاطر» الذي ثبتت نسبته إليه، لظننت أنها لأحد الدعاة المعاصرين الذي يحترق قلبه على أولئك الدعاة الذين انشغلوا بإصلاح أنفسهم عن إصلاح الغير، وتخلوا عن واجب الدعوة إلى الله فآثروا السلامة على خوض غمار هداية الأنبياء والرسل.. وإن كان لذلك سبب، فإنما هو وحدة المشاعر بين دعاة الأمس ودعاة اليوم، ووحدة الهم المشترك الذي عانى منه الأقدمون والمعاصرون، كما ويؤكد وحدة المنهج الذي ينتج رجالاً يحملون مشاعر موحدة تجاه مشاكل تتكرر في أجيال الدعاة على مر العصور.. لقد آثر جمع من دعاة اليوم السلامة، بعيداً عن الأذى الناتج عن الاحتكاك والتبليغ، من مراقبة الطغاة لهم والتضييق عليهم بالرزق، والعمل، والاعتقالات والتعذيب، وتشويه الصورة والاتهام بغير حق، وتركوا أبناء جلدتهم يرتعون في أوحال الجاهلية والانحراف والتخبط بعيداً عن صراط الله المستقيم، وهم يرون الدعاة الخفافيش ينظرون إليهم من أبراجهم العاجية دون أن تحرك فيهم مناظر السقوط أي دافع من دوافع الغيرة والحمية لإنقاذهم.. هيهات هيهات أن يكون هؤلاء كمن جرَّد نفسه وعرضها للمخاطر وخاض بها الغمرات من أجل إنقاذ بني جلدته، وقبل بأن يضع نفسه بمقامات الأنبياء عليهم السلام.

أيها الدعاة كونوا على جادة هؤلاء تصلوا وتذكروا ما قاله ابن القيم:

وخذ قبساً من نورهم ثم سر به   فنورهُمُ يهديك ليس المشاعلا

أي وربي يهديك ليس المشاعلا، نورهم النابع من نور الهداية الربانية،

---

(١) صيد الخاطر ٢٠٣.

ومن ابتعد عن طريقهم فمآله إلى السقوط يقول تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ۝٤٠﴾[1].

❋ ❋ ❋

السبيل إلى الجنة

لو تذكر المؤمن عند البلاء الحكمة من وراء ذلك لهان عليه ما يجد، بل لفرح بما أصابه كما كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ عندما أصابهم الطاعون كانوا يُقبِّلون أيديهم ومواضع الطاعون فيهم، لاستشعارهم بشارة الرسول ﷺ بالشهادة لمن مات بالطاعون، فتذكرهم لفضل الشهادة هوّن عليهم ألم ذلك الوباء، بل صيَّره إلى فرح.

وإنما نصاب بالغم والهم والتوقف عن العمل لله عندما تغيب عنا حكمة البلاء، يقول الإمام ابن القيم: «إن الله سبحانه اقتضت حكمته أنه لا بد أن يمتحن النفوس ويبتليها، فيظهر بالامتحان طيبها من خبثها، ومن يصلح لموالاته وكراماته ومن لا يصلح، وليمحص النفوس التي تصلح له، ويخلصها بكير الامتحان، كالذهب الذي لا يخلص ولا يصفو من غشه إلا بالامتحان، إذاً النفس في الأصل جاهلة ظالمة، وقد حصل لها بالجهل والظلم من الخبث ما يحتاج خروجه إلى السبك والتصفية، فإن خرج في هذه الدار وإلا ففي كير جهنم، فإذا هذب العبد ونقي أذن له في دخول الجنة»[2].

لذلك كان من صفات «المتواصين بالصبر» تذكير بعضهم بعضاً هذه المعاني، وتصبير بعضهم بعضاً عند الإصابة بالبلاء.. وما ترديد كلمة «طهور» إلا تذكيراً للطهارة من الذنوب ليتهيأ المؤمن لدخول الجنة من غير خبث يمنعه من الدخول.

❋ ❋ ❋

(١) النور: ٤٠.

(٢) زاد المعاد ٣/١٨.

☜ يا من انحرف عن جادتهم!!

الضعف صفة بشرية وما من إنسان إلا ويشعر بالضعف في فترة من الفترات، لذلك كان من عقيدتنا السلفية «أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي» ولكن الناس حيال هذا الضعف والنقص نوعان، أحدهما من يستسلم لوساوس الشيطان، ويتمادى في ضعفه ونقصه دون أن يتدارك نفسه، وآخر يكون هذا الضعف والنقص سبباً في انطلاقه وارتقائه أضعاف أضعاف ما كان عليه قبل ذلك الضعف.. وأجواء الدعوة إلى الله تعالى من خلال العمل الجماعي تُصيب بعض أفراده بشيء من ذلك الضعف والنقص بسبب المعاصي أو الإقلال من بعض الطاعات، فيأتي الشيطان لأحدهم قائلاً: «لو كنت تستحق البقاء مع هؤلاء الأتقياء لتخلقت بأخلاقهم، ولكانت همتك مثل هممهم، ولما تاقت نفسك للمعاصي، فمكانك بعيداً عن هؤلاء فيبدأ يقنع نفسه بمثل هذه الأقاويل حتى يقرر الابتعاد والانحراف عن جادتهم.. لمثل هؤلاء وجَّه ابن القيم تحذيره منادياً «يا من انحرف عن جادتهم كن في أواخر الركب، ونم إذا نمت على الطريق، فالأمير يراعي الساقة»[1].

نعم إذا شعرت بضعف أو فتور فلا تفارقهم، ولا تقطع الصلة بهم، وكن معهم حتى في حالات ضعفك، فإن أيدي المربين لا بد أن تنشلك مما أنت فيه، حتى ولو كنت في المؤخرة.

❊ ❊ ❊

☜ أوجعتنا يا ابن الجوزي

جاء في كتاب بستان الواعظين لابن الجوزي تعليقه على قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حين وفاته: «والذي لا إله

(١) الفوائد ٥٧.

غيره، لو أن لي ما طلعت عليه الشمس وغربت لافتديت به من هول المطلع»، قال: فإذا كان هذا قول عمر ـ رضي الله عنه ـ إمام السنة وحبيب الأمة، وسراج أهل الجنة في الجنة، قال هذا عند الفراق والانقطاع، وأشفق من هول المطلع، فكيف بأهل اللهو واللعب والبهتان والكذب أمثالنا الذين قطعوا أعمارهم في الذنوب، وأفنوا أيامهم في معصية علام الغيوب، وغفلوا عن القبور، ولم يتفكروا في هول يوم النشور؟!».

إذا كان الإمام أبو الفرج ابن الجوزي الذي لم يُر في وقته فسحة إلا للعبادة والعلم يقول عن نفسه وعن أهل زمانه «أهل اللهو واللعب والبهتان والكذب أمثالنا» فماذا نقول نحن الذين نعيش في أواخر القرن العشرين حيث إن أكثر ما نسمعه ونراه يقربنا إلى النار ويباعدنا عن الجنة من نساء ملأن وجوههن بالمساحيق، وأجسادهن بالعطور، ولم يغطين أجسادهن إلا بالنذر اليسير من الثياب، ومن ربا أحاط بنا من كل جانب، ومن صور عارية في التلفاز والصحافة غزتنا في عقر دارنا، ومن دنيا جاذبة أوقعت وتوقع في شباكها الكثير ممن كانوا معنا على الطريق.. لقد أوجعتنا يابن الجوزي، ونكأت جراحنا.. نسأل الله الثبات وحسن الخاتمة.

❋ ❋ ❋

 مناداة الأرض للناس

لا ندري إن كانت الأرض أو السماء تتكلمان، ولا نعرف كيف يكون ذلك إذا حدث، ولكن ابن عباس دعانا معه لنتخيل الأرض وكأنها تنادي كل يوم مَنْ عليها ولكنهم لا يسمعون، فيقول واعظاً: «ما من يوم إلا والأرض تنادي بخمس كلمات»:

ـ «يا ابن آدم تمشي على ظهري ومصيرك إلى بطني.

ـ يا ابن آدم تضحك على ظهري وسوف تبكي في بطني.

ـ يا ابن آدم تفرح على ظهري وسوف تحزن في بطني.

- يا ابن آدم تُذنب على ظهري وسوف تعذَّب في بطني.

- يا ابن آدم تأكل الحرام على ظهري وسوف يأكلك الدود في بطني»[1].

إن افتراض كلام الأرض ومحاسبتها لابن آدم ـ وهو لاهٍ عن مصيره الذي ينتهي إلى هذه الأرض، وهو يذنب ويلهو، ويأكل الحرام ـ تجعله في حذر دائم عند كل كلمة وكل فعل تقترفه جوارحه، خائفاً أن تشهد عليه يوم القيامة بما اقترف عليها: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾[2] فهي شاهد حي سيشهد يوم القيامة، والعاقل من أخذ أهبته، ووعى كلامها وتحذيرها له قبل القيامة، فلا يعمل عليها إلا الخير لتكون شاهدة بهذا الخير، فلا يفاجأ ولا يعترض عند سماعها، بل يفرح لهذه الشهادة الغالية، بينما الذين غفلوا واقترفوا عليها ما حرَّمه الله يكونون في ذهول لسماعها وهم يقولون محتجين في ذعر: «ما لها.. ما لها..».

* * *

توازن الداعية

التوازن في حياة الداعية من أبرز الصفات التي يجب على الداعية الحرص على تأصيلها في حياته، وهو بهذا يترجم الآية الكريمة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[3] فلا ينبغي للداعية أن يكون خاشعاً في المسجد، مطمئناً في صلاته، وشارد الفكر ناقراً للصلاة في بيته، ضاحكاً ممازحاً لأصحابه خارج البيت، عابساً مقطباً لوجهه داخل بيته وبين زوجته وعياله، رائع الأخلاق خارج البيت، سيئها داخله.

(١) بستان الواعظين ٢٨١.
(٢) الزلزلة: الآية ٤.
(٣) البقرة: الآية ١٤٣

كان الرعيل الأول يعدُّون هذا التناقض من نواقض الإخلاص، وأقرب إلى النفاق والمنافقين.

وليس من التوازن التركيز على واجب والتقصير في باقي الواجبات، من هنا جاءت موعظة سلمان الفارسي لأخيه أبو الدرداء عندما لاحظ منه اختلالاً في توازنه العبادي والاجتماعي فقال له: «إن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه»[١] الحديث، ثم يقول في آخره: «فآت كل ذي حق حقه»، هكذا تعلمها الصحابة ونقلوها إلى جيل التابعين من أمثال ابن سيرين الذي جاء في ترجمته ما يدل على تأصل صفة التوازن في حياته.. يقول عنه ابن الجوزي : «وقد كان ابن سيرين يضحك بين الناس قهقهة، وإذا خلا بالليل فكأنه قتل أهل القرية»[٢].



بها تتكشف المعاصي!!

المعاصي والذنوب عراقيل تمنع وتؤخر صاحبها من دخول الجنة، وإذا زادت ربما أرجعته جرياً إلى الاتجاه المعاكس في نار جهنم.. والمعاصي والتجاوزات يستطيع المرء الحريص أن يكتشفها قبل أن تستفحل بطرق كثيرة، ومن أبرزها إخبار الآخرين لك عنها، وهذا الأمر لا يمكن أن يتأتى من غير صحبة صالحة في جماعة متعاهدة على الخير ونشره.

وبالتالي فإن كل فرد فيها يقوم بدور المرآة لصاحب المعصية قياماً بحق الأخوة الذي يفرضه الدين عليهم، ومن غير هذا الطريق يغدو من الصعب أن يستكشف المرء عيوبه بعيداً عن هذه الجماعة، لأن الإنسان

---

(١) رواه البخاري، (الفتح ١٠/ ٥٣٤).

(٢) صيد الخاطر ٨٣.

الوحيد والمعتزل للعمل الجماعي لخوف من الانتماء، أو شبهة عالقة في ذهنه، أو خلافاً كان سبباً للفراق، تتكاثر عنده الأخطاء والمعاصي الدقيقة التي يأولها الشيطان له فيستبعدها من دائرة المعصية، وهكذا تنمو يوماً بعد يوم حتى تهلكه وتضعفه دون أن يشعر بذلك، قال الرسول ﷺ: «**الجماعة رحمة والفرقة عذاب**»[1] عذاب بكل ما تحمل هذه الكلمة من معانٍ.. لقد تشربت هذه الأحاديث النبوية في نفوس ودماء الرعيل الأول فكان لا يستغني أحدهم عن الآخر ليدله على أخطائه وينصحه بما لا يعلم من الخير.

وكم هو محروم من منع نفسه هذا الخير، والذي يؤكده لنا التابعي الجليل مطرف ابن الشخير عندما قال: «لأنا أحوج إلى الجماعة من الأرملة، إني إذا كنت في الجماعة عرفت ذنبي»[2].

❊ ❊ ❊

من أراد الله به خيراً

يقول التابعي الجليل محمد بن كعب القرطبي: «إذا أراد الله بعبد خيراً جعل فيه ثلاث خصال: فقهاً في الدين، وزهادة في الدنيا، وبصراً بعيوبه»[3].

كثيرون هم الذين يتخرجون من كليات الشريعة في العالم الإسلامي، وأكثر منهم من يقرؤون الكتب الشرعية في العلوم المختلفة، وكثيرون أيضاً الذين يتلقون العلم على أيدي جهابذة العلماء في العالم الإسلامي، ولكن أين الأثر الإيجابي في الأمة من كل هذا الجيش؟!

لعل هناك أسباباً كثيرة قد يتناولها غيري، ولكنني أظن والله أعلم أن

(١) جزء من حديث أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/٢١٧ وصححه.
(٢) الزهد لأحمد ٢٤٥.
(٣) صفة الصفوة ٢/١٣٢.

من أهم هذه الأسباب هو غياب «الفقه» بهذا الكم من العلم الذي يتلقاه معظم هؤلاء الطلبة، وعدم الحرص أو بالأحرى عدم التوفيق الإلهي للبحث عن هذا الفقه، وذلك للاهتمام بالحصول على شهادة التخرج أكثر من الحصول على فقه هذا العلم، ونور هذا العلم. والتوفيق للعمل به لا يعطى إلا لمن أخلص نيته لله تعالى.. فإذا ما تمكن الفقه في القلب أورثه العلم حقيقة الدنيا وحقارتها، لما عند الله تعالى فزهد فيها، وجعلها في يده ولم يمكنها من قلبه، وأيقن بعد ذلك أن العيوب عوائق تعيقه عن الوصول لمرضاة ربه، ولما أعد للفائزين، فانشغل بالبحث عنها في نفسه، وإن أعياه ذلك استغاث بإخوانه ليدلوه على عيوبه، فيتخلص منها أولاً بأول لئلا تتراكم عليه فتثقله، ويدعو لمن أرشده لعيب فيه بالرحمة كما فعل الفاروق عندما قال: «رحم الله إمرأً أهدى إليَّ عيوبي».

❁ ❁ ❁

الحرص على الأوقات

دخل ابن التابعي الجليل «ثابت البناني» عليه وهو يحتضر ليلقنه الشهادتين فقال له: «دعني فإني في وردي السادس»[١].

في هذه اللحظات التي يشتد فيها الألم على الإنسان، والتي استعاذ منها النبي ﷺ وعلَّم أمته الاستعاذة منها بقوله: «**إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير، فليتعوذ بالله من أربع: من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر المسيح الدجال**»[٢] حيث يتمثل الشيطان في هذه اللحظات للإنسان المحتضر ويرغبه بالكفر ليختم به حياته، فتكون من أعظم الفتن، والتي يصاحبها آلام خروج الروح من الجسد، والتي تشابه سحب جذع مليىء بالشوك من أخمص القدم إلى أعلى الرأس، وكأن

(١) صيد الخاطر ٥٠.

(٢) صحيح مسلم (٥٨٨).

الإنسان يستنشق الهواء من ثقب إبرة كما وصفها سعد بن أبي وقاص لابنه عند احتضاره.. حتى في مثل هذه اللحظات يستحضر هؤلاء العظام أهمية الوقت فلا يضيعونه بالتأوه والأنين بل يذكرون الله تعالى، ويتلون القرآن، ليضربوا بذلك المثل لآلاف المسلمين، وخاصة للدعاة الذين يضيعون آلاف الساعات في حياتهم في أمور لا تزيد في صحائفهم شيئاً، بل ربما كانت وبالا عليهم عندما يترتب عليها ضياع لواجب من الواجبات، أو أداؤه بجسد من غير روح.

* * *

سر السقوط بعد الهداية

يتساءل الكثيرون عن السر وراء سقوط بعض السالكين لطريق الهداية بعد أن مضوا في هذا الطريق ردحاً من الزمان، كان بعضهم فيه شعلة من النشاط والدعوة إلى الله وقوة الالتزام، وكيف لم يحفظهم الله وينفذ وعده فيهم حيث قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[1]؟!، يجيب على هذه التساؤلات الإمام ابن القيم حيث يقول: «وأما كون الرجل يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فإن هذا عمل أهل الجنة فيما يظهر للناس، ولو كان عملاً صالحاً مقبولاً لأحبه الله ورضيه ولم يبطله عليه، وقوله لم يبق بينه وبينها إلا ذراع يشكل على هذا التأويل، فيقال لما كان العمل بآخره، وخاتمته لم يصبر هذا العامل على عمله حتى يتم له، بل كان فيه آفة كامنة، ونكتة خذل بها في آخر عمره، فخانته تلك الآفة والداهية الباطلة، في وقت الحاجة، فرجع إلى موجبها، وعملت عملها، ولو لم يكن هناك غش وآفة، لم يقلب الله إيمانه»[2].

فلينظر كل منّا إلى أعماق قلبه، ويبحث عن تلك الآفات التي يرفض

(١) محمد: الآية ١٧.

(٢) الفوائد ٢١٣.

إخراجها من قلبه، وليراجع كل منَّا توبته ومدى صدقه فيها، حتى لا يكون ذلك سبباً في النكوص والختم على القلب ثم الخاتمة السيئة بعد سلوك طريق الهداية.

❋ ❋ ❋

تسوُّل الدعاة

ما أصعب حال الدعاة في هذا الزمان، وما أشد ما يلاقونه من مصاعب عندما يريدون القيام بمشروع من مشاريع الخير يحتاج إلى مال فإنهم يضطرون لمد أيديهم للآخرين وإهراق ماء وجوههم في سبيل قيام ذلك المشروع الخيري، والذي لا يتعدى كفالة الأيتام أو الدعاة أو حفظ القرآن، أو بناء المساجد والملاجىء والمستشفيات، وتربية النشء وما تحتاجه من أنشطة مدعومة بالمال، فهذا يعطيهم وذاك يردهم، وهذا يشك فيهم ويرتاب في أمرهم.

بينما كان هناك رجال في القرون الأولى يبحثون هم عن أصحاب الحاجة دون أن يقدموا عليهم، وهم الذين يتاجرون من أجل دعم الدعاة والعباد والمجاهدين لا من أجل أنفسهم، كان من هؤلاء أمير المؤمنين في الحديث عبد الله ابن المبارك، حيث كان يقول للعابد الفضيل بن عياض «لولاك وأصحابك ما اتجرت»[1].

إننا في زمان يشترط عليك حتى الذي يعين الدعوة بماله بألف شرط يجعلك تندم على سؤالك إياه إلا من ندر وهم قليل في زمن تسوُّل الدعاة، ولو أن الدعاة انتبهوا منذ البداية للعمل في التجارة لما اضطروا إلى سؤال من لا يستحق.. فإن زمن ابن المبارك قد انقضى، ولا يحك ظهرك مثل ظفرك.

❋ ❋ ❋

---

(١) صفة الصفوة ٤/١٤١.

☜ القيادة والجندية
في سورة الكهف (١ من ٢)

يقول تعالى في كتابه الكريم: ﴿قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾[1].

في هذه الآيات نموذج رائع للشروط والآداب التي تكون بين القيادة والجنود، والنتائج المترتبة على مثل هذه القيادة الناجحة، والجنود الذين تتوافر فيهم أخلاق الجنود والالتزام بشروط القيادة من غير معصية لله تعالى، ويلاحظ أن هذه الآيات تنقسم إلى شقين: الأول: يخص القوم الذين نادوا ذا القرنين ليحل لهم الإشكال بينهم وبين يأجوج ومأجوج، والثاني: يخص العمل والنتائج التي ترتبت بعد هذه المناداة والقبول من ذا القرنين.

الشق الأول: إن طلب القوم مساعدة ذي القرنين يمثل عدة أمور:

١ ـ الثقة بقدرة القائد.

٢ ـ إقرارهم بوجود مشكلة عجزوا عن حلها.

٣ ـ قبولهم اتخاذه قائداً لهم.

٤ ـ قبول ما يتخذه القائد من أسباب لحل المشكلة.

الشق الثاني: يتكون من عدة أمور:

١ ـ طلب العون منهم فالقائد لا يمكن أن يحل المشكلة وحده دون عون منهم.

(١) الكهف: الآيات ٩٤ ـ ٩٧.

٢ ـ تحديد القائد لنوعية العون الذي يريده منهم وهو «بقوة» أي ليس بتثاقل وكسل واتكالية.

٣ ـ إذا ما تحقق العون بنوعيته التي أرادها القائد كانت النتيجة قبول القائد بالمسؤولية التي أنيطت به، وهي هنا قبوله لبناء السد.

❊ ❊ ❊

القيادة والجندية
في سورة الكهف (٢ من ٢)

تحدثنا في الحلقة السابقة عن بعض صور القيادة والجندية في بعض الآيات من سورة الكهف، ونكمل في هذه الوقفة بقية ما في الشق الثاني من الأمور وهي:

٤ ـ الطاعة فيما يطلب القائد منهم وإن كان شاقاً ما داموا قد وافقوا على الشرط الذي اشترطه عليهم ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾، ﴿ٱنفُخُواْ . . .﴾».

٥ ـ إن مما يُسهل العمل الشاق الذي يقومون به ـ بناء السد الحديدي النحاسي ـ ما يتذكرونه من آلام المشكلة ونتائجها التي سيكتوون بنارها لو لم يقوموا بما أمرهم به القائد.

٦ ـ إذا ما تم النجاح والوصول للأهداف الموضوعة «بناء السد» فلا ينسب الفضل لقوة ذي القرنين ولا لقوة وطاعة الجنود، ولا للتخطيط الدقيق، والذكاء الخارق، إنما ينسب أولاً لله تعالى وتوفيقه «هذا رحمة من ربي».

إنها أصول في غاية الأهمية للقائمين بالعمل الجماعي في مجال الدعوة إلى الله تعالى، ولا يتم الوصول للغايات بغيرها، فلا بد من القيادة، ولا تنجح القيادة من غير جنود، ولا بد للجنود من طاعة في غير معصية طبعاً، والطاعة تكون في المنشط والمكره، وتنفيذ الخطة لا يتم بالكسل والخمول، إنما يكون «بقوة»، ولا بد من تذكر النتائج الخطيرة عند التقاعس

عن دعوة الله والتخلي عن طاعة القيادة لهوى في النفس، ولا بد أخيراً أن تتذكر أننا لا نوفق إلا بعون الله تعالى.

❋ ❋ ❋

«الداعية النحلة»

يذكر الإمام ابن القيم حواراً بين أحد الزهاد الدعاة وبين أحد العباد، حيث قال ذلك الزاهد: «ما علمت أن أحداً سمع بالجنة والنار، تأتي عليه ساعة لا يطيع الله فيها بذكر أو صلاة أو قراءة أو إحسان، فقال له ذلك العابد: إني أكثر البكاء.

فقال: إنك إن تضحك وأنت مقر بخطيئتك خير من أن تبكي وأنت مدل بعملك، وإن المدل لا يصعد عمله فوق رأسه.

فقال: أوصني.

فقال: دع الدنيا لأهلها، كما تركوا هم الآخرة لأهلها، وكن في الدنيا كالنحلة، إن أكلت أكلت طيباً، وإن أطعمت أطعمت طيباً، وإن سقطت على شيء لم تكسره، ولم تخدشه»[1].

إنه يحدد في هذه الوصية الغالية صفات رئيسية في الداعية تمتلكها تلك الحشرة التي مدحها الله في كتابه الكريم وأنزل سورة كاملة باسمها، تشريفاً لها، وتنبيهاً للمؤمنين لينظروا في صفاتها، فالداعية الناجح هو الذي لا يأكل إلا من الحلال، ولا يبحث إلا عن الحلال، ويتحرى ما يرضي ربه وإن أغضب الناس، وإن تكلم فلا يتكلم إلا بما يصعد، وإن احتك بالناس فلا يؤذيهم بلسانه ويده، ويقدم التغافر على العتاب، والعفو على العقوبة، ولكنه ينقلب إلى نحلة لاسعة هائجة عندما تنتهك محارم الله تعالى.

❋ ❋ ❋

(١) الفوائد ١٥٣.

النظرة السوداوية

يقول الرسول ﷺ: «**إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم**»[1].

يشير النبي ﷺ إلى فئة من الناس يكثرون من ذكر عيوب الآخرين، ولا يرون في المجتمع إلا العيوب، ولا ينظرون إلى فئات المجتمع إلا من خلال النظرة السوداوية، فلا تسمع في مجالسهم إلا لغة اليأس من المجتمع، فالحكومة سيئة، ومؤسساتها لا يرجى لها الشفاء، وأفراد المجتمع فاسدون جهلة، وأحوال البلد من سيىء إلى أسوأ.

إن الداعية الحق هو الذي ينظر إلى مجتمعه نظرة تفاؤل وأمل وثقة بالله وبأحاديث رسول الله ﷺ المبشرة ببقاء طائفة من أمته على الحق لا يضرهم من خالفهم إلى يوم القيامة.

وهو الذي ينظر إلى مساحات الخير، ومساحات الخير ومساحات الشر بعين واحدة، ولا يقصر نظره على مساحات الشر حتى لا يصيبه اليأس، فمن تعود على النظرة السوداوية، فإنما ذلك يدل على يأسه من رحمة الله تعالى، وعلى تعاليه وعجبه بأعماله، واحتقاره لأعمال الآخرين، لذلك قال عنه النبي: «فهو أهلكهم» إشارة وتأكيداً على التفاؤل، وترك النظرة السوداوية، فما زال في مجتمعاتنا الإسلامية الكثير من جوانب الخير، والكثير من مساحات الخير، والفاشل هو الذي لا يرى تلك المساحات فيؤثر الانغلاق والاعتزال يأساً من الإصلاح.

❋ ❋ ❋

حقيقة العزلة

يخطىء بعض الدعاة عند قراءتهم لبعض الأحاديث التي أشار فيها الرسول ﷺ بالعزلة عند الفتن؛ كحديث حذيفة بن اليمان وغيره، أو عند

(١) رواه مسلم ٢٦٢٣.

قراءتهم لبعض الكتب الإيمانية غير المنقحة، والتي يحث فيها بعض الصالحين على العزلة لصيانة دينهم، مما يجعلهم يقررون عزلة المجتمع، والتقوقع في المنازل، والتخلي عن الكثير من الواجبات.

بينما يقول الرسول ﷺ : **«المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»**[(١)] ويتحدث الإمام ابن الجوزي عن نفسه وتزيينها العزلة له فيقول: «ما زالت نفسي تنازعني بما يوجبه مجلس الوعظ، وتوبة التائبين ورؤية الزاهدين، إلى الزهد والانقطاع عن الخلق، والانفراد بالآخرة، فتأملت ذلك فوجدت عمومه من الشيطان، فإن الشيطان يرى أنه لا يخلو لي مجلس من خلق لا يحصون، يبكون ويندمون على ذنوبهم، ويقوم في الغالب جماعة يتوبون ويقطعون شهور الصبا، وربما اتفق خمسون ومائة، ولقد تاب عندي في بعض الأيام أكثر من مائة، فكأن الشيطان لبعد غوره في الشر رآني اجتذب إليَّ من أجتذب منه، فأراد أن يشغلني عن ذلك بما يزخرفه ليخلو هو بمَن اجتذبهم من يده»[(٢)].

وحتى عند الفتن الكبرى التي يخاف فيها المرء على دينه، يجب ألا تفهم نصوص العزلة بمعنى الانقطاع عن الخير، بل يجب أن تفهم على أنها تحث على الانقطاع عن الشر، هكذا بيَّنها ابن الجوزي في موضع آخر حيث يقول: «وأما الانقطاع فينبغي أن تكون العزلة عن الشر لا عن الخير، والعزلة عن الشر واجبة على كل حال، وأما تعليم الطالبين، وهداية المريدين، فإنه عبادة العالم، وإن من الخطأ الذي وقع فيه بعض العلماء إيثاره التنفل بالصلاة والصوم عن تصنيف كتاب، أو تعليم علم ينفع، لأن ذلك بذر يكثر ريعه ويمتد زمان نفعه»[(٣)].

❊ ❊ ❊

(١) رواه الإمام أحمد، وصححه الألباني (صحيح الجامع ٦٦٥١).
(٢) صيد الخاطر ٤١.
(٣) صيد الخاطر ٤٢.

الخوف من الشهرة

بينما أناس من أمة محمد ﷺ يسعون بأيديهم وأرجلهم، ويهلكون أنفسهم من أجل الشهرة، فيسلكون كل مسلك من أجل ذلك، حتى وإن خالفوا الأصول والثوابت، وأنكروا بعض الكتاب وآمنوا بالبعض الآخر، أو أنكروا السنة أو بعض منها، أو حتى سبوا الله ورسوله وصحابته وأمهات المؤمنين، فقط للوصول إلى الشهرة، كما فعل الأعرابي الذي بال في بئر زمزم ليشتهر، هناك صنف آخر من المؤمنين الذين لا هم لهم سوى رضا الله تعالى، والمحافظة على قلوبهم من التغير والتقلب، لذلك كان سيد المتقين رسول الله ﷺ يكثر من قوله: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»[1]، وهكذا تعلَّم منه صحابته الكرام، وهربوا من كل ما يغيِّر قلوبهم، ولم يكتفوا بذلك، بل نقلوا تلك الخشية لمن بعدهم، ففي ذلك الزمان كان الصحابي عملة نادرة، خاصة إذا كان من البارزين من الصحابة، كابن مسعود رضي الله عنه، فما يحط قدمه في مكان ويسمع به الناس إلا تراكضوا وراءه، ولكنه لم يكن من الصنف الذي يأنس لهذه الجمهرة، فما يغنيه هذا الجمهور عندما يتغير قلبه، لذلك نراه يلتفت إليهم ويقول: «علام تتبعوني؟ والله لو تعلمون ما أغلق عليه بأبي، ما اتبعني منكم أحد»[2]، وحتى عندما انقرض جيل الصحابة، كان الناس يبحثون عن التابعين في كل مكان، وينقل لنا التاريخ صورة من هذا التجمهر حول التابعين وتضايقهم من ذلك خوفاً من شهرة تغيِّر قلوبهم، فقد جاء عن الحسن البصري أنه خرج يوماً فاتبعه قوم، فالتفت إليهم فقال: هل لكم من حاجة؟ وإلا فما عسى أن يُبقى هذا من قلب المؤمن؟[3] «أي ماذا ستبقي هذه الشهرة من قلب المؤمن، وهو يرى ذلك التجمهر العظيم حوله أينما غدا وأينما راح».

❊ ❊ ❊

(١) رواه الترمذي وصححه الألباني (صحيح الجامع ٧٨٦٤).
(٢) التواضع ٧٨.
(٣) التواضع ٧٩.

الحماس الظاهر

جاء في ترجمة الإمام طاووس عن ابنه قال: كنت لا أزال أقول لأبي: إنه ينبغي أن يخرج على هذا السلطان، وأن يفعل به، قال: فخرجنا حُجَّاجاً، فنزلنا في بعض القرى، وفيها عامل ـ يعني لأمير اليمن ـ يقال له: ابن نجيح، وكان من أخبث عمالهم، فشهدنا صلاة الصبح في المسجد، فجاء ابن نجيح، فقعد بين يدي طاووس، فسلم عليه، فلم يجبه، ثم كلمه فأعرض عنه، ثم عدل إلى الشق الآخر، فأعرض عنه، فلما رأيت ما به قمت إليه، فمددت يدي، وجعلت أسائله، وقلت له: إن أبا عبدالرحمن لم يعرفك، فقال العامل: بلى معرفته بي فعلت ما رأيت، قال: فمضى، وهو ساكت لا يقول لي شيئاً، فلما دخلت المنزل قال: أي لكع، بينما أنت زعمت تريد أن تخرج عليهم بسيفك، لم تستطع أن تحبس عنه لسانك[1].

إنه من الأهمية بمكان ألا يغتر الآباء والمربون والقادة بحماسة الأبناء والطلبة والأتباع، فيحمّلونهم أكثر مما يطيقون قبل أن تشتد سواعدهم وأعوادهم، حيث يعرضونهم بذلك إلى فتنة أكبر منهم، وقد تكون سبباً في انتكاسهم ونكوصهم، بل الواجب تجربتهم بأمور تتناسب مع قدراتهم بين فترة وأخرى، والتدرج معهم خطوة خطوة، دون ضجر وضيق صدر لنمو بعضهم البطيء، فإنهم ما داموا على الطريق فسيصلون إن شاء الله.

* * *

لا حول ولا قوة إلا بالله

جاء في حديث البخاري قول النبي ﷺ لأحد صحابته الكرام: «**ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله**»[2]

(١) سير أعلام النبلاء ٤١/٥.

(٢) رواه البخاري.

فهي كنز من كنوز الجنة لأن قولها والاعتقاد بها اعترافٌ من العبد أن الحول والقوة بيد الله وحده لا بيد أي إنسان مهما بلغ من الذكاء وحسن التدبير والتخطيط والتفكير، كما أنه سلوك إيماني رفيع بإرجاع الفضل لله وحده.

إن رسولنا ﷺ يُعلِّم صحابته في هذا الحديث عدم الانتفاش والغرور عندما يحقق الله تعالى على أيديهم بعض الكرامات أو الانتصارات والإنجازات، وأن يتذكروا دائماً صاحب الحول والقوة الذي وفقهم لهذا الأمر، لقد تربى مطرف بن الشخير على يد والده الصحابي الجليل عبد الله ابن الشخير على هذه المعاني الرفيعة، فمما جاء في ترجمته «أنه قد حدث خلاف بينه وبين رجل فكذب ذلك الرجل عليه، فقال مطرف: اللهم إن كان كاذباً فأمته، فخر ميتاً مكانه، فرفع ذلك إلى زياد «الأمير» فقال: قتلت الرجل، قال: لا، ولكنها دعوة وافقت أجلاً»[1].

إنه لم ينتفش ويزهو بهذه الاستجابة السريعة من الله، بل أرجع الأمر لله وحده ولموافقة القدر.

❀ ❀ ❀

قلب الداعية

جاء في ترجمة معروف الكرخي، أحد أعلام الزهد والعبادة في التاريخ الإسلامي أنه «كان قاعداً يوماً على دجلة ببغداد مع أصحابه، فمر بهم صبيان في زورق، يضربون بالملاهي، ويشربون، فقال له أصحابه: أما ترى هؤلاء يعصون الله تعالى على هذا الماء فادع عليهم، فرفع يده إلى السماء، وقال: إلٰهي وسيدي كما فرحتهم في الدنيا أسألك أن تفرحهم في الآخرة، فقال له أصحابه: إنما سألناك أن تدعو عليهم، ولم نقل لك أدع

(١) سير أعلام النبلاء ٤/ ١٨٩.

لهم! فقال: إذا فرَّجهم في الآخرة تاب عليهم في الدنيا، ولم يضركم ذلك»[1].

ما أكثر المناكر في زماننا هذا، وما أجرأ مرتكبيها، وما أكثر الظلم والظالمين، مما يجعل بعض الدعاة الذين نذروا أنفسهم لإصلاح مجتمعاتهم من الفساد.. يرفعون أكفهم إلى السماء ويدعون على هؤلاء المفسدين، لكثرة ما يرون من جرأتهم في انتهاك محارم الله، والمجاهرة بما نهى الله عنه من أنواع الفساد.

وكم سمعنا في جلسات بعض الدعاة من يدعو على المفسدين، وإذا بصوت ينبري هنا وهناك يذكرون ذلك الداعي بأن يدعو لهم بالهداية، فإنها أحب إلى قلوبنا من ضلالهم.

إن الداعية إلى الله عندما يصل إلى درجة الدعاء على أصحاب المناكر فقد وصل إلى درجة اليأس من صلاحهم، واليأس صفة مذمومة في القرآن الكريم، بل إن الأمل والثقة بالله هما الوقود الذي يحرك الدعاة للاستمرار بدعوة الآخرين، حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[2]، وما زالت مجتمعاتنا فيها الخير الكثير...

فحري بدعاة اليوم أن تتسع صدورهم وقلوبهم لاستيعاب من حاد عن الطريق بدلاً من الدعوة عليهم وتمني الخلاص منهم، إننا نحتاج إلى قلب داعية كمعروف الكرخي رحمه الله.



قواعد التخلص من الهم

لا يوجد إنسان إلا ويصاب بالبلاء، والناس حيال هذا الأمر صنفان، الأول من يتسخط القدر، ويصيبه الغم والهم، ويهلك نفسه كمداً وحسرة،

(١) المستطرف ٢١٥.
(٢) يوسف: الآية ٨٧.

يوقفه ذلك عن ممارسة دوره في الحياة، والصنف الآخر هم أولئك الذين يتقبلون البلاء بنفوس مشرقة، مؤمنة بقدر الله تعالى، صابرة على ما أصابها، محتسبة الأجر عند مليك مقتدر، وذلك لاعتمادها على عدة قواعد ساعدتها للتخلص من تلك الهموم المكبلة للإنسان عن الانطلاق، من أهمها:

١ ـ تذكر الجوانب الإيجابية للبلاء، فلعلها أن تكون هي الراجحة والغالبة للجوانب السلبية ـ كما حدث في قصة موسى مع الخضر.

٢ ـ تذكر الأجر المترتب على ذلك البلاء للحديث «**ما يصيب المسلم من هم ولا غم**. . الحديث».

٣ ـ تذكر حقيقة الدنيا وما هو المطلوب منا فيها، وأن أي هم يعطل أداءنا وتحقيقنا لما هو مطلوب منا.

٤ ـ ابحث في أسباب الهم، فقد تكون أنت سبباً لذلك.

٥ ـ شتت التوتر بالرياضة.

٦ ـ حاول أن تتذكر من هم أكثر منك ضرراً.

٧ ـ اعتمد على الرسائل الإيجابية الي ترسلها إلى نفسك ومن أبرزها أذكار الصباح والمساء والتي منها «**اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن**».

٨ ـ التوقع والاستعداد للخير والشر.

❋ ❋ ❋

 «تركته لأنه أغضبني»

يتعرض الدعاة إلى الله في حياتهم الدعوية للكثير من الاحتكاك بخصومهم من التيارات الأخرى، ومن عشاق الدنيا، وعبيد الهوى، وينتج عن هذا الاحتكاك الكثير من التعدي ضد الدعاة، سواء كان ذلك باليد أو اللسان، ونتيجة لهذا التعدي فإن الدعاة لا يقفون مكتوفي الأيدي، بل إنهم

يردون على من تعدى عليهم، ويختلط أثناء رد الدعاة الغضب لله .بالغضب للنفس، ولا يوفق للتفريق بينهما من الدعاة إلا من اتقى الله حق تقاته، وكان من المحاسبين لأنفسهم ويلومها على ما فعلت وما قالت، وبعضهم يتمادى في ذلك فيكون غضبه لنفسه أضعاف ما يكون لله تعالى، والأصل في هذه المسألة أن يكون غضب الدعاة لله وحده، وما كان للنفس فإنه يقدم فيه العفو والإعراض، ليكون عفوه وإعراضه لوناً آخر من ألوان الدعوة إلى الله التي تجذب القلوب رغماً عنها، هكذا يجب أن نتعلم من الرعيل الأول رضي الله عنهم، ومن مدرسة الفاروق نقتطف صورته «وهو يرى سكراناً فيأخذه ليعزره، فيشتمه السكران، فيرجع عنه، فقيل له: يا أمير المؤمنين لما شتمك تركته، قال: إنما تركته لأنه أغضبني، لو عزرته لكنت قد انتصرت لنفسي، فلا أحب أن أضرب مسلماً لحمية نفسي»[1].

يجب أن نكون صادقين مع أنفسنا، ونسألها سؤالاً صريحاً هل كل التعدي الذي نتلقاه من خصوم التيار الإسلامي هو تعدي ضد الشريعة ذاتها أم ضد ذواتنا وجماعاتنا؟؟ ولتكن الإجابة بنفس مستوى صراحة السؤال لكي نميز بين الغضبين، ولنتذكر أن الله لا يقبل إلا ما كان له خالصاً.

❊ ❊ ❊

كيف نطلق هممنا؟ (١)

يتأثر المسلم بالكثير من العوامل الخارجية والداخلية والتي ينتج عنها خمول بعد همَّة، وفتور بعد نشاط، وسكون بعد حركة، وقد يصعب على البعض استعادة هذه الهمة التي يتحسر عليها كلما تذكرها، أو رأى من يُذكِّره بها. . لا شك أن تحريك الهمة فينا أو في غيرنا له سبل يعرفها أولئك القادة الأفذاذ، وعلى قمتهم رسولنا ﷺ، ومن أبرز هذه السبل التي

(١) المستطرف ٢٧٩.

استخدمها رسولنا ﷺ في تحريك همم الصحابة رضي الله عنهم في أول لقاء بين معسكر الكفر والإيمان:

١ ـ **التحميس**: حيث خطب في الصحابة محمساً، وذكَّرهم بفضل الشهادة والشهيد، وكان مما قاله: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» ومن ذلك إيصال الرسائل الإيجابية للأبناء أو الأتباع لتحفيزهم وتحريك هممهم، كترديد القائد أو الأب لابنه «أنت شجاع» «أنت مطيع» «أنت ذكي» «أنت تحب القراءة».

٢ ـ **الغبطة**: وهي خلط ما تريد تنفيذه بعمل مباح تشتهيه الأنفس، كاللعب والطعام، والمسابقات والمنافسات والهدايا والرحلات، وغيرها من الأمور.

٣ ـ **مقاومة الأفكار السلبية**: ولقد علمنا الإسلام كيف نقاوم هذه الأفكار السلبية التي تضغط علينا صباح مساء بترديدنا أذكار الصباح والمساء والتفكر بمعانيها لتكون لنا زاداً ليومنا وليلتنا من الأفكار السلبية المثبطة، ومن أمثال هذه الأذكار «الاستعاذة من الدَّين والهم والحزن».

* * *

كيف نطلق هممنا؟ (٢)

تناولنا في الوقفة السابقة ثلاثة سبل لإطلاق هممنا أو همم غيرنا بعد الركود والخمول، وهي:

١ ـ التحميس.

٢ ـ الغبطة.

٣ ـ مقاومة الأفكار السلبية.

ونتناول في هذه الوقفة ما تبقى من السبل وهي:

٤ ـ **محاسبة النفس** والبحث عن العوائق.. لا بد للمؤمن من وقفة مع

نفسه ليحاسبها في الدنيا قبل حساب الآخرة، وليكن معها صريحاً أشد المصارحة، ليبحث عن العوائق التي تعيق انطلاقته في مدارج السالكين، وكل إنسان أدرى بنفسه من غيره.

٥ ـ **قراءة قصص أصحاب الهمم**.. المكتبة الإسلامية مملوءة بتراجم الأعلام، أصحاب الهمم العالية، فلنقرأ في أوقات فراغنا ما يحرك هممنا النائمة لعلها تستيقظ بموقف أو كلمة لأولئك الأعلام.

٦ ـ **الاحتكاك بأصحاب الهمم**.. ما من بلد أو قطعة في العالم إلا وفيها الصنفان: أصحاب الهمم العالية والدانية، ومن أراد تحريك همته فعليه بالاحتكاك بأصحاب الهمة العالية، وليغش مجالسهم، «**فالمرء على دين خليله**» كما أخبرنا ﷺ، وليقاطع مجالس الكسالى والمثبطين والباحثين عن عيوب الآخرين من غير عمل.

٧ ـ **تذكُّر محدودية العمر**.. كلنا لنا عمر واحد، وفرصة واحدة في هذه الحياة، مَنْ استغلها ربح، ومن ضيعها ندم، فهل تحب أن تكون من النادمين؟

❋ ❋ ❋

«إخوة رغم الخلاف»

يقول يونس الصدفي حكاية عن الإمام الشافعي: ناظرته يوماً في مسألة، ثم افترقنا، ولقيني فأخذ بيدي ثم قال: «يا أبا موسى ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق»[1].

ما أكثر الجماعات الإسلامية في ساحة الدعوة الواسعة، وما أكثر الخلافات التي تدب بينها حتى تصل إلى درجة تكفير بعضهم للبعض الآخر، وأقلها الحقد والكراهية والقطيعة بسبب خلافات بالفروع وليس

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/١٦.

الأصول، وبالاجتهادات البشرية في وسائل تبليغ الدعوة، وليس فيما اتفق على حلاله وحرامه، حتى غدا الأسلوب الأمثل لمعظم هذه الجماعات المتناحرة في كسب الأتباع هو الطعن في الجماعة المنافسة لها، والتشكيك في صحة منهجها، والوقوع في أعراض قادتها، بالرغم أن من أبجديات الإسلام الأولى تعليم المبتدىء حرمة الغيبة والنميمة والقذف وترك الغلظة والشدة إلا على أعداء الدين، وهكذا وصفهم المولى عز وجل ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[1].

إن ما تلتقي عليه هذه الجماعات أكثر بكثير مما تختلف فيه، فلم لا تلتقي هذه الجماعات على ما اتفقت عليه ويكونون إخواناً وإن لم يتفقوا؟

***

نعم.. أنت فاشل

أرفع إصبعي «السبابة» وأوجهه إليك دون تردد، وأنظر إليك بتركيز كامل، وأرفع صوتي بأعلى نبرة أقدر عليها، لأقول لك «نعم.. أنت فاشل» في حياتك الأسرية.. هذا الاتهام قطعاً لا أوجهه للجميع، بل لفئة محددة، موجودة في كل مجتمعات الدنيا يشتركون معاً بصفات مشتركة، والتي منها، النجاح بأعمالهم الوظيفية، والتي يتبوءون من خلالها أعلى المناصب وزير، وكيل، وكيل مساعد، مدير، عضو مجلس إدارة، صحفي ناجح، أو عالم دين وداعية بارز... إلخ، ولكنهم فاشلون في حياتهم الأسرية، فأبناؤهم منحرفون، وزوجاتهم يلعنّ الساعة التي اقترنّ بهم فيها، ويعشْن لحظات العذاب كل ثانية، فاسمها زوجة فلان، ولكنها لا تراه في اليوم أكثر من «ست ساعات» خمسة منها يقضيها بالنوم... هؤلاء جميعاً يعيشون في بحبوحة مالية كبيرة، وقد يغرقون زوجاتهم وأبناءهم بالمال ورغد العيش،

---

(١) الفتح: الآية ٢٩.

إلا أنهم لا يقدمون لهم شيئاً يذكر من الحياة الزوجية، أو الأبوة.

هؤلاء يقضون في أعمالهم من الساعات أضعاف ما يقضونه مع زوجاتهم وأبنائهم، وحتى إذا وصلوا إلى بيوتهم فإنهم ينقلون بعض أعمالهم إلى أجواء البيت، إنهم «عبيد للعمل» يستخدمهم أرباب الأعمال وقوداً يحرقونه لإدارة آلات المؤسسة، حتى إذا ما شارف ذلك الوقود على النفاد قذفوه بأقرب سلة للمهملات دون أن يذكره أحد منهم بخير، وأحياناً لا يطلب منهم أرباب العمل ذلك، بل هم يتطوعون بحرق أنفسهم من أجل كسب الشهرة أو المال أو المنصب وخسارة أبنائهم وزوجاتهم. أناشد هذه الشريحة من عبيد العمل الرجوع إلى بيوتهم فربما لم يبق في الحياة أكثر مما مضى، واسألوا أنفسكم ماذا يساوي هذا النجاح أمام تلك الخسارة؟؟

❋ ❋ ❋

«إسلامي ديلوكس»

هو ذلك الإسلامي الذي لا يتحمل سهام خصوم الإسلام من العلمانيين والملحدين والحداثيين وغيرهم، فيتنازل عن الكثير من الملتزمات الدينية، ويتساهل في الكثير من أمور الشرع، فيحلق لحيته، أو يخففها حتى لا تكاد أن ترى، ويطيل ثيابه، ويلبس أفخر الثياب، ويبحث عن الماركات في لباسه، وما من مناسبة إلا وكال السب والانتقاد لإخوانه في الدعوة، كل ذلك حتى يقال عنه «معتدل» و«متفتح»، أو للحصول على منصب في الدولة لاعتقاده أن الملتزمين يُبعدون ـ بضم الياء ـ عن المناصب، فيحاول التخفف من مظاهر الالتزام ليبعد عن دائرة التصنيف، هذا الصنف من الدعاة يسيئون لأنفسهم قبل إساءتهم لإخوانهم ولدينهم، حيث إن الناس جبلوا على احترام من يحترم مبدأه، ومن يطابق قوله فعله، والأرزاق لا علاقة لها بالمظهر، ولن يؤخرها إذا قدرها الله كائن من البشر، وقد كتبت على ابن آدم منذ أن كان جنيناً في بطن أمه.

هذه المظاهر لا تظهر على الدعاة إلا عندما يضعف إيمانهم ويبتعدون عن النبع الصافي، فتمتلىء قلوبهم بحب الدنيا أكثر من حبهم لما أعده الله لهم في الآخرة.. نسأل الله لنا ولهم الثبات وحسن الخاتمة..

❋ ❋ ❋

تقسيم وقت الداعية

لا يستطيع أحد أن ينجز ما يريد إنجازه من غير تنظيم لوقته، فلا يطغى وقت على وقت، ويعطي لكل ذي حق حقه، إن الإنجاز الضعيف في حقل الدعوة، أو التأخر في التنفيذ، أو عدم التنفيذ لمتطلبات الدعوة ناتج من انعدام التنظيم للأوقات عند الكثير من الدعاة، وإن مما يرويه لنا التابعي الجليل وهب بن منبه عن بعض حكم نبي الله داود عليه السلام قوله:

«وجدت في حكمة داود: ينبغي للعاقل ألا يشغل نفسه عن أربع ساعات:

ساعة يناجي فيها ربه.

وساعة يحاسب فيها نفسه.

وساعة يخلو فيها هو وإخوانه، والذي ينصحون له دينه، ويصدقُونه عن عيونه.

وساعة يخلي بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويحمد، فإن هذه الساعة عون لهذه الساعات، وفضل بلغة، واستجمام للقلوب»[1].

إن معظم من نراهم من الدعاة يركزون على إحدى هذه الساعات دون الساعات الأخرى، ولهذا السبب تبرز العيوب فيما قصر فيه في الساعات الأخر، إن الإنتاج الصحيح والمستمر والمؤثر لا ينتج إلا ممن عرف كيف يقسم أوقاته، فهل ننتبه لهذا الأمر؟

❋ ❋ ❋

(١) عيون الأخبار ١/ ٢٨٠.

قاعدة إيمانية

القواعد مقاييس يقيس بها الناس مسائلهم البشرية، فالقاعدة الرياضية تطبق لمعرفة المبهم من المسائل ليوضع بعد ذلك الحل لتلك المعضلة، وكذا هي القاعدة الإيمانية يستنبطها العلماء الربانيون من القرآن والسنة ليقيسوا من خلالها بعض الظواهر التي تطرأ عليهم أو على غيرهم، فيتوصلوا إلى معرفة لغز تلك الظواهر التي تطرأ بين حين وآخر، وهذا الإمام الرباني ابن الجوزي يبين لنا إحدى هذه القواعد الإيمانية التي نستدل من خلالها على أحد مظاهر الضعف الإيماني إذ يقول «يا مطروداً عن الباب، يا محروماً من لقاء الأحباب، إذا أردت أن تعرف قدرك عند الملك فانظر فيما يستخدمك، وبأي الأعمال يشغلك، كم عند باب الملك من واقف بقصة، لكن لا يدخل إلا من عني به، ما كل قلب يصلح للقرب، ولا كل صدر يحمل الحب، ما كل نسيم يشبه نسيم السحر»[1]. فإذا أراد المرء أن يعرف أين هو من الله تعالى، فلينظر إلى حاله، وبما هو مشغول به، فإذا كان مشغولاً بالدعوة وأمورها، وفي إنقاذ الخلق من النار، بالعلم والدعوة ومساعدة الضعيف والمحتاج فليبشر بقرب منزلته من ملك الملوك، فلا يوفق للخير إلا من يحب، وإذا كان منصرفاً عن الدعوة، مبغضاً للدعاة، بعيداً من فعل الخيرات، منشغلاً بالدنيا وتحصيلها، وقيل وقال وكثرة السؤال، مع قلة العمل، أو متبعاً هواه وشهواته، فليعلم أنه بعيد عن الله، مبغضاً له، قد حرم مما يقربه إلى الجنة، إذ يقول تعالى في كتابه الكريم: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾[2].

* * *

(١) روح الأرواح ٦٦.

(٢) الإسراء: الآيات ١٨ ـ ١٩.

قُرَّاء القُرآن

يُشخص الإمام الحسن البصري المتعاملين مع القرآن من المسلمين، ويصنفهم إلى ثلاثة أقسام، هم في واقع الأمر الأقسام التي نراها في حياتنا اليومية، حيث يقول: «قراء القرآن ثلاثة:

- رجل اتخذه بضاعة ينقله من مصر إلى مصر، يطلب به ما عند الناس.

- وقوم حفظوا حروفه، وضيَّعوا حدوده، واستدروا به الولاة، واستطالوا به على أهل بلادهم.

- ورجل قرأ القرآن فبدأ بما يعلم من دواء القرآن، فوضعه على داء قلبه، فسهر ليله، وهملت عيناه، تسربلوا الخشوع، وارتدوا بالحزن، وركدوا في محاريبهم، وجثوا في برانسهم، فبهم يسقي الله الغيث، ويُنزل القطر، ويرفع البلاء، والله لهذا الضرب في حملة القرآن أقل من الكبريت الأحمر»[1].

وصدق أبو سعيد فيما قال، حيث إن هناك شريحة ممن يتسمون بالدعاة يستخدمون هذا القرآن للتكسب، فيقرؤون على هذا وذاك، هذا يخرجون منه الجن، وآخر لعلاجه مما أصابه من مرض، وتارة يقرؤون على زجاجات الماء والزيت ويبيعونها بأضعاف ثمنها الأصلي، بحجة أن في الزجاجات ماء مقدساً قد قرأ عليه الشيخ، وهكذا أرخصوا القرآن، وغالب الناس من الصنف الثاني الذين يحرصون أشد الحرص على ختم القرآن وقراءته، ولا يوجد مما يقرؤون شيء في واقعهم، فيستمرون على أخلاقهم الرديئة، وعاداتهم السقيمة، وأهوائهم المقيدة لهم من الانفلات نحو العلياء، وأقل الناس هم أولئك الأفذاذ الذين لم يُحلوا لأنفسهم تجاوز القرآن

(١) عيون الأخبار ١٣٣/٢.

حناجرهم قبل العمل بما يقرؤون، أولئك هم المصاحف المتحركة بين الناس، بهم تنجح الدعوات وتتقدم.

❊ ❊ ❊

خطورة الترخّص

هناك صنف من الدعاة يترخصون كثيراً في المحظور، وخاصة فيما يتعلق بالنساء، فتراهم في الاتحادات الطلابية، أو مؤسسات الدعوة التي تحتاج إلى تنسيق مع النساء، لا يراعون الضوابط الشرعية في ذلك، كالاقتصار في الحديث بما يخص العمل الدعوي، أو عدم الجلوس على طاولة واحدة، أو وضع ما يمنع من المواجهة المباشرة ما أمكن.. ويقابل هذا الصنف أيضاً صنف من الداعيات انكسر عندهن حاجز الحياء، فتراها تملك من الجرأة في الحديث مع الدعاة، والجلوس قريباً منهم من غير غطاء للوجه، وقد تكون فاتنة الجمال دون مراعاة لهذه الجوانب الشرعية المهمة.

لقد امتنع النبي ﷺ عن مصافحة النساء في البيعة خوفاً من الفتنة، وأخبرنا بأن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء، وأخبرنا بأنه ما ترك فتنة أشد على رجال أمته من النساء، كل ذلك ليكون نموذجاً عملياً لأمته بالحذر من فتنة النساء والابتعاد ما أمكن عن الاختلاط الذي يؤدي إلى ما يغضب الله سبحانه وتعالى.

يقول عمر بن عبد العزيز: «لا تخلون بامرأة حتى ولو كنت تحفظها القرآن»، ويقول التابعي ميمون بن مهران: «ثلاث لا تبلون نفسك بهن، لا تدخل على سلطان، وإن قلت: آمره بطاعة الله، ولا تصغين بسمعك إلى هوى، فإنك لا تدري ما يعلق بقلبك منه، ولا تدخل على امرأة، ولو قلت: «أعلمها كتاب الله»»[1].

❊ ❊ ❊

(١) سير أعلام النبلاء ٥/٧٧.

يَسلمون ونَسلم

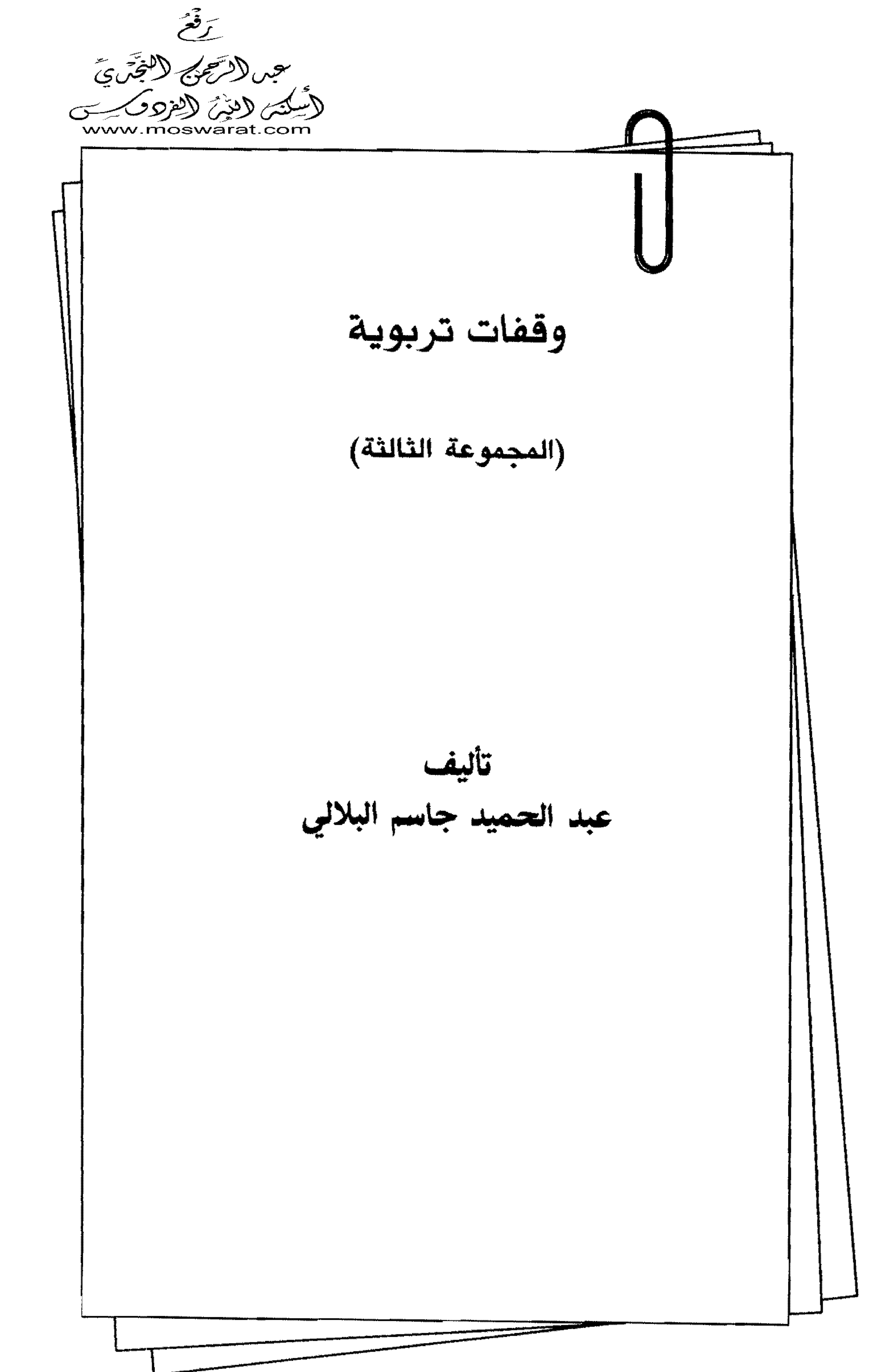
عدم التسبب في إثم الآخرين خُلُقٌ قل من يفطن إليه من الدعاة لدقته، ولكن الأعمش فطن له عندما «سار في طريق، فلقيه إبراهيم النخعي، فانصرف معه، فقال إبراهيم: الناس إذا رأونا قالوا: الأعمش والأعور، فقال: وما عليك أن يأثموا، ونؤجر، قال: وما عليك أن يسلموا ونسلم»[1].

ما أرقها من قلوب يحملها أولئك العلماء الدعاة، إنهم يحافظون على الناس إلى درجة يخشون فيها أن يكونوا هم السبب في اقتراف الآخرين للإثم حتى ولو كان هذا التسبب هو ما خلقهم الله عليه من الخِلْقَة، والتي ليس لهم دخل فيها... كثيرة هي الأمور التي يتسبب فيها بعض الدعاة في إثم الآخرين دون أن يشعروا بذلك، من أبرزها الحديث مع العوام بما لا يستوعبون، أو الحديث مع عامة الناس في أمور دقيقة من أمور العقيدة والعلم حتى يتسببوا في كراهية العوام للعلم، أو إنكار بعض ما جاء فيه من أمور لا تستوعبها عقولهم، لذلك قال علي ـ رضي الله عنه: «حدِّثوا الناس بما يعقلون... أتريدون أن يُكذب الله ورسوله» وقديماً قالوا: لكل مقام مقال.



(١) حدائق الأزهار ١٠٣.



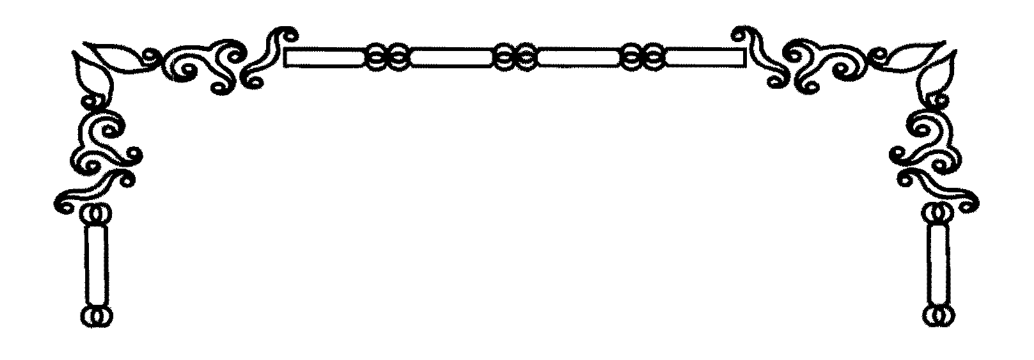


وقفات تربوية

(المجموعة الثالثة)

تأليف
عبد الحميد جاسم البلالي





بقايا الجاهلية

كان الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري من خيرة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وكان من أكثر الصحابة زهداً وورعاً، ومع ذلك فقد فوجئ النبي ﷺ ببلال يشتكيه إليه بسبب إقدام أبي ذر علىٰ التلفظ ببعض الألفاظ التي لا تليق بصحابي كأبي ذر، حيث قال لبلال بعد خلاف بينهما: «يا بن السوداء» أو كلمة قريبة منها، فناداه الرسول ﷺ وقال له: «**إنك امرؤ فيك جاهلية**».

قليل جداً من الدعاة الذين تتلقفهم الدعوة وهم صغار قبل أن يلجوا في الجاهلية، ويأخذوا من صفاتها، ولكن الكثير منهم هم الذين دخلوا في الدعوة بعد مرورهم ببعض سني الجاهلية.

ويتدرج هؤلاء في سلالم الدعوة المباركة ومسؤولياتها، ويتخلصون يوماً بعد يوم مما التصق بهم أو ألصقوه هم من أمور الجاهلية، إلا أن بعضاً منهم لا يتخلص تماماً من هذه الجاهلية، فتبقىٰ فيه بعض الصفات التي يعرفها من الجاهلية ولكن لا يستطيع التخلص منها لضعف إرادته، أو أنه يعتبرها تافهة لا تؤثر علىٰ مسيرته الدعوية فيهملها، أو أنه تختلط عليه فلا يميزها ويحسبها جزءاً من أخلاق الإِسلام.

هذا الصنف من الدعاة هم الذين يتساقطون في الطريق، عندما تنمو هذه الصفات الجاهلية فيهم دون أن يشعروا، ويزداد حجمها حتىٰ تثقل

هؤلاء الدعاة وتسقطهم في لحظة من اللحظات، إلا أن ينتبهوا في الطريق، ويقفوا مع أنفسهم وقفة جادة صارمة، ويصارحوا أنفسهم، أو يصارحهم إخوانهم بهذه الصفات الجاهلية، فلعلها تكون لحظة إنقاذ تنتشلهم من القاع الذي كادوا أن يتساقطوا فيه، إنها لحظة الاستيقاظ التي لا يوفق لها إلا المخلصون.

❊ ❊ ❊

العزوف عن طلب العلم

تُرىٰ هل فكّر الدعاة في جميع الأقطار الإسلامية في أسباب عزوف الناس عن حضور دروس العلم، وقلة أعدادهم في المحاضرات عمّا كانوا عليه قبل عشرين سنة أو ثلاثين؟

لقد حضرت الكثير من هذه المناقشات حول دراسة ظاهرة عزوف الجماهير عن دروس العلم، وكانت معظم الأسباب التي يذكرها الدعاة تكمن في الجمهور نفسه، فتارة يقال إن المادية غلبت علىٰ الناس، فما عادوا يهتمون بأمور الآخرة، وتارة يقولون إن انشغالات الناس في أمور الحياة اختلفت عما كانت عليه في السابق، وقليل جداً ما تذكر الأسباب المتعلقة بالدروس ذاتها أو في طريقة الإلقاء، وحتىٰ في أساليب دعوة الجمهور، علىٰ الرغم من أن ما يتعلق بالدروس وأساليب دعوة الآخرين لها، ومكان إلقاء الدروس أسباب جوهرية تكاد تكون أهم بكثير مما يتعلق بالجمهور نفسه...

كثيراً ما يفهم الدعاة بأن القضية الإعلامية مقتصرة علىٰ عمل بوسترات تعلق في الشوارع والمساجد وإعلانات في الصحف تذكّر الناس بالدرس الفلاني للشيخ الفلاني... وكفىٰ الله المؤمنين القتال، فيفاجؤون بقلة الحضور علىٰ الرغم مما أنفقوه علىٰ الإعلانات والإعدادات.

لقد جرب بعض الدعاة في بعض الأقطار طريقة في دعوة الجمهور عن طريق إرسال بطاقات خاصة لهم، فكان عدد الحضور لا يصدق. . . وجرب آخرون طريقة الاتصال المباشر بالجمهور وحضهم علىٰ الحضور، فكان حضوراً جماهيرياً غير مسبوق.

وآخرون فكروا في تغيير المكان من مكان قديم يكاد يتساقط علىٰ من فيه، إلىٰ صالة حديثة فزاد الجمهور، وآخرون جربوا وسائل حديثة في عرض المحاضرة فزاد عدد الحضور.

إننا نحتاج إلىٰ التفكير في أساليب حديثة لجذب الجمهور للخير الذي عندنا، وألا نجمد علىٰ الأساليب القديمة التي ما عادة بمقدورها أن تنافس الوسائل الحديثة التي تسرق الجمهور منّا.

* * *

جهاز الحكمة

يقول الله تعالىٰ: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] يقول الإمام مجاهد: «الحكمة: الإصابة في القول والفعل»[١].

ويقول سيد قطب: «أوتي القصد والاعتدال، فلا يفحش ولا يتعدىٰ الحدود، وأوتي إدراك العلل والغايات فلا يضل في تقدير الأمور، وأوتي البصيرة المستنيرة التي تهديه للصالح الصائب من الحركات والأعمال. . وذلك خير كثير متنوع الألوان»[٢].

إذن، فالحكمة جهاز يودعه الله تعالىٰ في عقول بعض عباده، هدية منه سبحانه بسبب تقرّب ذلك العبد له، وقوة إخلاصه في العبادة، ووصوله

(١) تفسير ابن عطية ٤٥٦/٢.

(٢) الظلال ٣١٢/١.

درجة الإِحسان في السر والعلن، يستطيع بذلك الجهاز تقليل نسبة الخطأ إلىٰ درجة تكاد تنعدم فيه، لأنه يقوِّم ما سيقول أو يفعل قبل الإِقدام، فإذا ما رأىٰ أن فيه نسبة الضرر أكثر من النفع امتنع فكان خيراً له، لذلك فإن (الحكمة) كلمة مشتقة من مادة (حكم) والتي تدل علىٰ المنع للإِصلاح، وسمي اللجام حكمة ـ بفتح الحاء والكاف ـ وما أجمل تعليق الشيخ أحمد الشرباصي علىٰ هذه الآية بقوله: «التفسير الذي ترتضيه النفس لفضيلة الحكمة، هو أنها فضيلة تمنع صاحبها من الجهل في القول والعمل، وتصده عن سوء التصرف والمعاملة، وتحذره رذيلة الاندفاع والعجل، وتعلمه أن يضع كل شيء في موضعه»[١].

❋ ❋ ❋

أركان الحكمة

يقول الإِمام ابن القيم الجوزية: «للحكمة ثلاثة أركان: العلم، والحلم، والأناة، وآفاتها وأضدادها: الجهل، والطيش، والعجلة، فلا حكمة لجاهل، ولا طائش ولا عجول، والله أعلم»[٢]، فالحكمة التي هي كما قيل: «فعل ما ينبغي، علىٰ الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي»، لا بد لها من أركان وأسس تقوم عليها حتىٰ تكون نتيجتها بمثل هذه الدقة بالأداء، لتعود علىٰ صاحبها بهذا الخير الكثير كما ذكر الله، تعالىٰ: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، هذه الأركان كما ذكرها الإِمام ابن القيم هي:

١ ـ **العلم**: فلا يقوم بعمل إلا ويعلمه، وإذا كان جاهلاً به، يسعىٰ لتعلمه، ولا يقول قولاً إلا ويعلم معناه، وأثره علىٰ الآخرين، ومتىٰ يقال، ولا يقدم علىٰ شيء من أمور الدنيا والآخرة، إلا ويسعىٰ لتعلم تفاصيله،

(١) موسوعة أخلاق القرآن ٣/٨٨.

(٢) مدارج السالكين ٢/٤٨٠.

متىٰ يجنب نفسه الوقوع بالخطأ ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلاً، ولا يأمر بالمعروف ولا ينهىٰ عن المنكر إلا بعلم.

٢ ـ **الحلم**: فيتحلىٰ بالصبر علىٰ ما يلاقيه من أذىٰ الناس وجهلائهم، ليس ضعفاً منه بل تعقلاً ألا يصيب بذلك معصية، وترفعاً من النزول إلىٰ من نزلت أخلاقه، يقول أبو حاتم البستي: «لو لم يكن في الحلم خصلة تُحمد إلا ترك اكتساب المعاصي، والدخول في المواضيع الدنسة، لكان الواجب علىٰ العاقل ألا يفارق الحلم ما وجد إلىٰ استعماله سبيلاً»[١].

٣ ـ **الأناة**: فلا يتسرع باتخاذ الأحكام أو القرارات، خاصة فيما يتعلق في أمور الدنيا، قبل أن يتبين ويتثبت، ويدرس الأمور بإيجابياتها وسلبياتها، ومصالحها ومفسداتها، ويستشير أصحاب الخبرات، وأصحاب الدين والورع والتقوىٰ، فالاستشارة في الأمور من أبرز صفات الحازم، حيث تقول العرب: «أول الحزم الاستشارة».

والحزم من أبرز صفات العقلاء، ومن استشار في أموره قلّت أخطاؤه، لأنه يستفيد من تجارب الآخرين، ما أحرىٰ الدعاة والمصلحين والحكام والمربين أن يتفكروا بهذه الأركان ليقللوا من أخطائهم، فينعكس أثر ذلك علىٰ من يعولون ويربون.



من هو العاقل؟

يقول الثَّعالبي: «العاقل من يَرْوِي، ثم يُرْوِي، ويُخْبَر ثم يُخْبِر، ويشاهد ثم يشهد، ويعلم ثم يعمل»[٢].

هذا هو العاقل حقاً، فهو عندما يروي عن ربه أو عن نبيه ﷺ

(١) روضة العقلاء: ٢٠٩.

(٢) المبهج: ٨٥.

يستحضر النية الخالصة لوجه الله الكريم، فتخرج الكلمات من قلبه، وتدخل في قلوب المستمعين، لذلك، فكلامه كأنه الماء الذي تحتاجه الشجرة الظامئة في يوم صائف شديد الحرارة، ولا يتكلم ليماري العلماء، ويجاري السفهاء، أو ليضرب وجوه الناس إليه.

وهو عندما يستمع إلىٰ العلم لا يكتفي بفائدته بنفسه، بل ينقلها إلىٰ الآخرين، وخاصة القريبين منه كالزوجة والأبناء والأقرباء، ليعم الخير، وتزداد رفعته، ويزيد من أجره.

وهو عندما يشاهد بعينه يشهد شهادة الحق لا يخاف في الله لومة لائم، وهو عندما يعلم لا يتلقىٰ العلم للترفيه والترف الفكري، بل يتلقىٰ العلم للتنفيذ.

فالعاقل يتعلم بالعمل أضعاف ما يتعلمه بالقراءة وتلقي العلم، والعمل دليل علىٰ همة صاحبه وإيمانه بعلمه... اللّهم ارزقنا عقلاً يحثنا علىٰ العمل بما نعلم.



تذكر.. ربما تكون ظالماً

في نكبة البرامكة الذين كانوا ملوكاً يشاركون الخليفة هارون الرشيد في: ماله، وممالكه، وأوامره، فانقلب عليهم في ليلة وضحاها، وسجنهم حتىٰ الممات، كان في السجن ولد ليحيىٰ البرمكي أحد كبار قادة البرامكة، فقال لأبيه وهم في القيود: يا أبتي أبعد الأمر والنهي، والأموال، صرنا إلىٰ هذا؟! فرد عليه أبوه: «يا بني دعوة مظلوم غفلنا عنها، ولم يغفل الله عنها».... كلنا يتفق علىٰ كراهية الظلم، وكلنا يعلم أن عاقبة الظلم وخيمة، وأن الله قد تكفل بنصرة المظلوم، ولكن القليل القليل منا من يتفكر ويسأل نفسه: «ربما أكون ظالماً»، فقد يبتلىٰ المرء بالبلاء والضيق، وتعسير الأمور وعدم التوفيق في كل أمر يلجه ولا يجلس مع نفسه جلسة مصارحة،

كما فعل يحيىٰ البرمكي! ربما ما وقع لك كان بسبب دعوة مظلوم كان تحت يديك نسيته ونسيت مظلمته، ولكن الله لم ينسه فقد تكون مديراً وتحتك طابور من المظلومين لم يستطيعوا الوصول إليك لتسمع منهم، أو أنك أخذت بأقوال مناوئيهم ولم تتحقق، فرفعوا أكفهم للسماء يدعون الله أن ينصفهم.

وربما تكون زوجاً لم تقم بما أوجبه الله عليك في حق زوجتك وعيالك من الرعاية والنفقة وحق العشرة وجعلتهم يعيشون في رعب بسبب ظلمك وقساوتك، إما إرضاء لزوجتك الثانية، أو طرف آخر.

وربما تكون قد أخرت راتب الخادم الذي عندك أو خصمت من راتبه بسبب تقصير بدر منه، أو أنك صرخت عليه وأهنته أو ضربته، فدعا عليك والحسرة تقطع فؤاده، فانتقم الجبار منك وأوقعك فيما أوقعك فيه.

أيها الظلمة من جميع شرائح المجتمع تذكروا، وحاسبوا أنفسكم فربما ما يصيبكم من بلاء وعسر بسبب دعوة مظلوم غفلتم عنها ولم يغفل الله عنها.

❋ ❋ ❋

حاجة الداعية للآخرين

كلما اعتمد الداعية علىٰ نفسه، وتخفف من حاجته للآخرين، كلما كانت كلماته أشد تأثيراً في المخاطَبين ـ خاصة ـ إذا كانت هذه الحاجات هي حاجات مالية، وقديماً كانوا يقولون: «من يمد يده لا يستطيع أن يمد لسانه»... والحاجة المالية من أشد الحاجات علىٰ نفس الداعية الذي رباها علىٰ العزة والكرامة، ولذلك كان الرسول ﷺ يقول في دعائه: «**اللّهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدَّين وقهر الرجال**» فغلبة الدَّين هم عظيم يستحق الاستعاذة منه لشدته علىٰ النفس، فهو كما قيل «ذل في النهار

وهم في الليل»... هذه الحاجة المالية تكون في كثير من الأحيان ناتجة عن سوء إدارة وتورط في الكماليات وفوضىٰ في فهم الأولويات، فحاجة الكثير من الدعاة للمال ليست لقضايا كالطعام والملبس وضروريات الحياة، بل في غالبها كماليات يمكن إرجاؤها حالما توفر هذا المال....

ولأهمية توفر المال في حياة الداعية ليستطيع القيام بواجب الدعوة، وحتىٰ تؤتي دعوته أكلها كان أمير المؤمنين في الحديث سفيان الثوري يقول: «لأن أخلف عشرة آلاف درهم، يحاسبني الله عليها أحب إليَّ من أن أحتاج إلىٰ الناس»[1].

وكان يقول: «كان المال فيما مضىٰ يكره، فأما اليوم فهو ترس المؤمن»، إننا لا نقول ذلك كي نثبط الدعاة عن دعوتهم والاهتمام بالتجارة لكي يوفروا المال علىٰ حساب الدعوة، ولكننا نلفت النظر إلىٰ قضية المال وأهميته في حياة الدعاة، وألا يتورطوا في الكماليات حتىٰ لا يضطروا لمد أيديهم للناس فيضعف تأثير كلامهم.



من هنا يبدأ التطرف

قد يكون سبب التطرف عند بعض الإسلاميين أو العلمانيين تصنيفاً سياسياً يُولِّد الانفجار، أو جهلاً يُولِّد العداء لما يجهل، أو ضعفاً من الناحية الأخلاقية تجعله يتعامل مع الآخرين بغلظة واستعلاء، إلا أن السبب الرئيس في التطرف يبدأ من ضيق الصدر وعدم تحمل الرأي الآخر، وبالرغم من وجود كم هائل في أدبيات كل فريق تدل علىٰ احترام الرأي الآخر وتحمله، إلا أن الواقع يقول غير ذلك، فنرىٰ بعض الإسلاميين يصل فيهم الضجر بالرأي الآخر إلىٰ حد رفع السلاح في وجوه المخالفين وتصفيتهم، حتىٰ وإن

---

(١) سير الأعلام ٧/٢٤١.

كانوا من الإِسلاميين ولكن ممن يخالفونهم في الرأي، وكذلك نرىٰ بعض العلمانيين ما إن يروا معارضاً لرأيهم، وبخاصة إذا كان من الإِسلاميين نعتوه بكل ما يعرفون في قاموس السب والشتم، وقليل من هؤلاء وهؤلاء من يتحمل الرأي الآخر ويحترمه.

إنها قضية أخلاقية لا علاقة لها باليسار أو اليمين، ولا بالإِسلاميين أو العلمانيين، كما أن قبول الرأي الآخر سمة للمجتمعات المتقدمة، والضيق بالرأي الآخر سمة للتخلف والتأخر من أي جهة جاء... ولهذا فقد قعّد علماء الإِسلام قواعد الإِنكار، والتي من أبرزها «لا إنكار علىٰ مختلف فيه» حيث يقول ابن قدامة في «الحلية»: ويشترط في إنكار المنكر أن يكون معلوماً كونه منكراً بغير اجتهاد، فكل ما هو في محل الاجتهاد، فلا حسبة فيه.

ويقول الإِمام سفيان الثوري: «إذا رأيت الرجل يعمل العمل الذي اختلف فيه وأنت ترىٰ غيره فلا تنهه».

ويقول الإِمام النووي في الروضة: «إن العلماء إنما ينكرون ما أجمع علىٰ إنكاره، أما المختلف فيه فلا إنكار فيه، لأن كل مجتهد مصيب، أو المصيب واحد لا نعلمه، ولم يزل الخلاف بين الصحابة والتابعين في الفروع، ولا ينكر أحد علىٰ غيره وإنما ينكرون ما خالف نصاً أو إجماعاً أو قياساً جلياً»، هكذا فهم أسلافنا الإِسلام، فهل نتعلم منهم فن الاختلاف؟؟.

❊ ❊ ❊

 الإيجابيون

فئة من البشر موجودة في كل زمان ومكان، يرفضون أن يعيشوا علىٰ هامش الحياة، أو يعيشوا كما تعيش السائمة، إنهم يحوّلون الخسارة إلىٰ ربح، والحزن إلىٰ فرح، والمحنة إلىٰ منحة، إنهم صنّاع الحياة، والسبب الرئيسي في مسيرتها ونموها وازدهارها، إنهم يعملون لحاضرهم

ولمستقبلهم، ولما بعد مغادرتهم لهذا الكوكب، إن أجسادهم تغادرنا، ولكن أعمالهم تبقىٰ شامخة تذكِّرنا بعطائهم، إنهم يستوعبون قول الحق تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [يس: ١٢].

فيحرصون علىٰ ترك آثار طيبة تبقيهم أحياء حتىٰ بعد موتهم، ودائماً يتركون لمسات في الحياة تزيدها بهجة وجمالاً، علىٰ شكل أعمال خير، ومخترعات، ومقترحات، وعلم، أو أبناء صالحين يواصلون مسيرة آبائهم الخيِّرة، ويواصلون بناء ما بدأ به آباؤهم.

إنني أقف حزيناً أمام أخبار بعض الناس الذين يُكبِّلون أنفسهم، وينعزلون عن الحياة عندما يصابون بالبلاء، والبلاء محتوم علىٰ كل بني آدم.

فهذا ينعزل لأنه أصيب بالعمىٰ، وآخر انزوىٰ في بيته، وأصبح أسيراً لفراشه لأنه أصيب بالشلل النصفي، وآخر أصيب بالإحباط، وهاجر إلىٰ بلد آخر، لمجرد أنه لم يعط الفرصة للإنجاز والإبداع.

لو سار الناس جميعاً علىٰ هذا المنوال، لتوقفت الحياة، أيها المصاب لا تكن سبباً في شلل الحياة، وارض بما قدّر الله عليك، وتسام علىٰ المصيبة واصنع منها إنجازاً، وحوِّل الحزن إلىٰ فرح، فما زال في الحياة متسع لكل هذا، وكن من الذين يبقون بعد مماتهم بمساهمتك في البناء وتحطيم اليأس.



لماذا أصبح معاكساً؟!

ربما سألتَ نفسك يوماً «لماذا أصبح ولدي معاكساً للفتيات؟» أو «لماذا أصبحت ابنتي معاكسة للفتيان؟».. كثير منا في حالة اكتشاف هذا الأمر يبدأ بإعلان الحرب علىٰ الابن أو البنت، وتبدأ جلسات المواعظ

والمحاضرات بتبيين خطأ هذا السلوك، خاصة إذا تسبب في أذىٰ الآخرين عن طريق الهاتف أو التحرش بمن لا ترضىٰ بهذا التصرف.

وننسىٰ في خضم هذه الحرب التي أعلناها عليهم أن نسأل أنفسنا: هل نشكل جانباً من المشكلة؟ أو هل نحن أحد أسبابها الرئيسة؟ وقبل هذا كله يجب أن نعرف السبب الذي يدفع الشاب أو الشابة لسلوك هذا الطريق، فقد تكون هناك أسباب كثير تدفعهم للمعاكسة، إلا أن السبب الرئيسي في ذلك الوقت هو نقص الجانب العاطفي في حياتهم، وفقدهم للرعاية أو الاهتمام والحب في المحضن التربوي الأول في عش الوالدين، مما يجعلهم يحاولون إتمام هذا النقص عند من يسمعون منه كلمات الغزل والمودة والحب لإكمال هذا النقص، ويؤكد هذه الحقيقة الدكتور كاظم أبل ـ أخصائي الاستشارات النفسية ـ في التحقيق الذي نشرته «الأنباء» في هذه الظاهرة بتاريخ ١٩٩٦/٤/٣م، حيث قال: «هذه التصرفات تنتج ممن يعانون فراغاً في حياتهم أو الإحساس بالقيود والقسوة، ويعيشون في جو من التوتر والقلق، ولا يجدون متنفساً لهم سوىٰ الخروج من المنزل، وممارسة السلوك المنحرف كمعاكسة الفتيات، فالشباب إذا افتقدوا الحب والحنان فإنهم يلجؤون إلىٰ تعويضهما عن طريق المعاكسات لإشباع حاجتهم»، هكذا يجني الوالدان سبب غفلتهما عن أبنائهما، وعدم إعطائهم الحاجة العاطفية التي يحتاجها الأبناء كحاجتهم للحليب والطعام، إذ يلقون بهذه المسؤولية العظمىٰ علىٰ عاتق الخادمات.

* * *

كفاكم.. ضرباً

ثائرة الرأس، محمرة العينين، ممزقة الثياب، في خدها الأيمن كدمة زرقاء، وجرح ينزف دماً في شفتها السفلية، تعرج في مشيتها، كلما جلست علىٰ موضع من جسدها تألمت وصاحت، قالت لي بصوت متهدج

والعبارات تخريج بصعوبة من خلف الهاتف: كنت في بيت أهلي مدللة، وجئت إلىٰ بيت فارس الأحلام لأكمل حقي من الدلال مع حبيب العمر، ونحقق أحلامنا الوردية، هكذا كان في سنواته الأولىٰ من الزواج، مثالاً للزوج الناجح، والمحب لزوجته وأسرته، حتىٰ تزوج من الثانية، وإذا بالأحلام الوردية تنقلب إلىٰ كوابيس سوداوية، وفزع دائم، ورعب متوقع في أي لحظة، يغيب عني مدة من الزمن فإذا جاء، لا يدفعه الشوق إلىٰ المجيء، إنما يأتي للقيام بواجب الضرب بعد رفضي دفع الإيجار الذي لا أملكه، رزقني الله منه خمسة من العيال، أنا وحدي الذي أقوم بتربيتهم والسهر عليهم، وبفضل الله تعالىٰ ينجحون دائماً بتفوق، وفي الآونة الأخيرة ازداد ضربه لي بسبب إجباري علىٰ التنازل عن حقي في البيت حتىٰ يتمكن من بيعه أو تأجيره وطردي من البيت، فماذا أفعل؟؟

هذه المكالمة ليست الأولىٰ التي أسمعها من الأخوات القارئات، وليست الأخيرة، إنها تحكي عن صنف من (الذكور) وليس الرجال، يعيشون بيننا هم أقرب إلىٰ الوحوش الضارية والحيوانات عديمة الإِحساس منهم إلىٰ البشر الذين يملكون العقول والإِحساس، وإلا بماذا تفسر هذه السادية في ضرب الزوجات، وبأي حق يقوم بمثل هذه العقوبة، فإذا كان يحتج بما في القرآن الكريم، بضرب الناشز فبئس ما فهم وما وعىٰ، يقول الشيخ حسن أيوب في معرض حديثه عن الضرب الذي ذكر في القرآن الكريم للنساء: «والضرب الذي ذكر في القرآن الكريم كتأديب للمرأة فسره العلماء بغير ما يخطر ببال الناس، وما يتشدق به المغرضون، فبعض العلماء قال: يلكزها بيده، وبعضهم قال: يضربها بالسواك، وهو عود لا يزيد علىٰ غلظ الإِصبع، وطوله لا يزيد علىٰ شبر» ص**٢١٧** السلوك الاجتماعي.

ويل لهؤلاء الأزواج الظلمة من الله تعالىٰ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتىٰ الله بقلب سليم، ويل لهم من دعوة مظلوم تشق سكون الليل ليتقبلها الرب سبحانه وتعالىٰ، ويقول لها: «بعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين»، فماذا سيقدم الزوج الظالم الشرس لهذا الوعيد من رب السموات والأرض، ويقول النبي ﷺ: «**من كان له امرأتان فمال إلىٰ إحداهما، جاء**

يوم **القيامة وشقه مائل**» والمقصود بالميل ها هنا هو عدم العدالة بينهما، فكيف بمن يظلم ويضرب ويفحش، ويظن أن ذلك من مكملات الرجولة، ألا بئست الرجولة هذه.

❋ ❋ ❋

طلاب الدنيا وطلاب الآخرة

يقول تعالىٰ في سورة الإسراء:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾.

في هذه الآيات الكثير من الوقفات والمعاني الإيمانية العميقة، التي يسعد المؤمن بتأملها، لما تمده من طاقة إيمانية تعينه علىٰ الثبات علىٰ طريق الإيمان، ومن أبرز هذه المعاني:

١ ـ الناس قسمان:

فريق يسعىٰ ويلهث وراء الدنيا، يحب من أجلها، ويبغض من أجلها، وهؤلاء منهم كفار ومنهم مؤمنون بالله تعالىٰ، فالكفار لا يتصورون أن هناك شيئاً غيرها، يعيشون من أجلها ويموتون من أجلها، ولا يعبدون سواها، والمؤمنون بعضهم أعمته الدنيا تماماً حتىٰ نسي عبادة الله في سبيلها، والبعض الآخر لا يعطي إلا فضول أوقاته للآخرة لأن قلبه معلق بالدنيا.

٢ ـ أنواع التعجيل في الدنيا:

هناك قراءتان للآية: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾، فقد قرأها الجمهور «نشاء» وقرأها نافع «يشاء»، فعلىٰ قراءة الجمهور كما قال ابن عطية في تفسيره ٤٦/٩: «من كان يريد الدنيا العاجلة، ولا يعتقد غير هذا، ولا يؤمن

بآخرة، فهو يفرغ أمله ومعتقده للدنيا، فإن الله تعالىٰ يعجل لمن يريد من هؤلاء ما يشاء الله تعالىٰ».

وعلى قراءة نافع يكون المعنىٰ: «أن الله تعالىٰ يعجل لمن يريد من هؤلاء ما يشاء هذا المريد» ولعل هذا الأمر واضح جلي نلمسه ونراه، فإن أكثر الأثرياء وملاك الدنيا وزينتها هم من العصاة والظلمة ومن المبتدعين في منهج الله تعالىٰ.

٣ ـ مصير طلاب الدنيا:

يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ معلقاً علىٰ هذه الآية: (فالذين لا يتطلعون إلىٰ أبعد من هذه الأرض يتلطخون بوحلها ودنسها ورجسها، ويستمتعون فيها كالأنعام، ويستسلمون فيها للشهوات والنزعات، ويرتكبون في سبيل تحصيل اللذة الأرضية ما يؤدي بهم إلىٰ جهنم)[١].

فهؤلاء الذين استبدلوا الدنيا بالآخرة، واتخذوها آلهة من دون الله، ونسوا ما خلقهم الله من أجله، ماذا سيكون مصيرهم، بعد أن يعطيهم ما يريدون من هذه الدنيا؟ يقول تعالىٰ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ يقول الإمام الرازي في تفسيره: «إن العقاب عبارة عن مضرة مقرونة بالإهانة والذم بشرط أن تكون دائمة وخالية عن شنوب المنفعة، فقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا﴾ إشارة إلىٰ المضرة العظيمة، وقوله: ﴿مَذْمُومًا﴾ إشارة إلىٰ الإهانة والذم، وقوله: ﴿مَّدْحُورًا﴾ إشارة إلىٰ البعد والطرد من رحمة الله، وهي تفيد كون تلك المضرة خالية عن شوب النفع والرحمة، وتفيد كونها دائمة وخالية عن التبدل بالراحة والخلاص»[٢].

٤ ـ أنواع طلاب الآخرة:

نستطيع أن نستخلص من الآيات الكريمات بأن طلاب الآخرة ينقسمون

---

(١) الظلال ٢٢١٨/٤.

(٢) التفسير الكبير ١٧٨/٢٠.

إلىٰ قسمين: فمنهم من يطلب الآخرة ويسعىٰ لها بالأمور المشروعة من الكتاب والسنّة الصحيحة، ومنهم من يطلبها بغير الأمور المشروعة من البدع والضلال.

٥ ـ صفات الفائزين من طلاب الآخرة:

يحدد الله تعالىٰ في هذه الآيات صفات أربع للفائزين من طلاب الآخرة وهي:

أ ـ إرادة الآخرة: فكان مخيراً بين الاختيارين، ولكنه اختار ما عند الله علىٰ ما في الدنيا الزائلة، ولا يعني هذا أنه ترك العمل في الدنيا وتحصيل الرزق، بل يعني أن الدنيا كانت بيده ولم تكن في قلبه، ولذلك لم تشغله عن آخرته، ولم يعط آخرته فضول أوقاته بسببها.

وإذا ما تعارض أمر الدنيا مع أمر الآخرة، قدَّم أمر الآخرة، علىٰ أمر الدنيا، وهكذا كان رسولنا ﷺ عندما خيَّره الله قبل موته وعند سكرات الموت بين ملك الدنيا وما عند الله فقال في آخر كلماته: «**بل الرفيق الأعلىٰ. بل الرفيق الأعلىٰ**».

ب ـ سعى لها سعيها: أي أنه سعىٰ السعي الذي ينال به الفوز بالآخرة، وصفة هذا العمل الإِخلاص، ونوعه القرب والطاعات التي أمر بها الله تعالىٰ ورسوله ﷺ، وليس الضلالات والبدع التي ما أنزل الله بها من سلطان.

جـ ـ الهمة العالية: فكلمة السعي توحي بالحركة الدائبة، والتعب والجهد في سبيل الله، وعدم تضييع الأوقات خوفاً من انقطاع العمل بالموت أو بأي أمر قاطع للعمل كالمرض والانشغال وغيره من الأمور، لذلك ترىٰ طالب الآخرة هذا يسابق الزمان والساعات والدقائق لكي يملأ صحائفه بالعمل الصالح.

د ـ الإيمان: حيث يقول تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فلا يقبل من العمل إلا بعد الإِيمان.

٦ ـ جزاء طلاب الآخرة:

لا جزاء لهم سوىٰ الجنة والمغفرة والرحمة والرضوان، يقول الإمام الرازي في تفسيره: «واعلم بأن الشكر عبارة عن مجموع أمور ثلاثة: اعتقاد كونه محسناً في تلك الأعمال، والثناء عليه بالقول والإتيان بأفعال تدل علىٰ كونه معظّماً عند ذلك الشاكر، والله تعالىٰ يعامل المطيعين بهذه الأمور الثلاثة، فإنه تعالىٰ عالم بكونهم محسنين في تلك الأعمال، وأنه تعالىٰ يثني عليهم بكلامه، وأنه تعالىٰ يعاملهم بمعاملات دالة علىٰ كونهم معظمين عند الله، وإذا كان مجموع هذه الثلاثة حاصلاً كانوا مشكورين علىٰ طاعاتهم من قبل الله تعالىٰ»[١].

نسأل الله تعالىٰ أن نكون من طلاب الآخرة الساعين لها والمؤمنين بالله تعالىٰ حتى يتوفانا الله من هذه الدار.

❋ ❋ ❋

☜ ليست.. بحائط

لا ينقصها شيء، فالزوج يقوم بواجب الإنفاق، ورعاية الأبناء، والقيام بواجباته المنزلية من شراء الحاجيات، ومتابعة ما يحتاجه البيت من إصلاح أو إضافة، كما أنه لا يهينها، ولا يسب ولا يشتم، ولكنها غير سعيدة معه.

قد يستغرب البعض هذا الأمر، ويتساءل عن سر عدم سعادتها بالرغم من مواصفات هذا الزوج المثالية؟ وماذا تريد أكثر من ذلك؟ وقد تتنهد بعض الزوجات وتقول بحسرة: يا ليت عندي زوجاً مثله.

وقد يزول هذا الاستغراب عندما يعلم هؤلاء المستغربون بأن السعادة الزوجية لا تنحصر بالمال، وقيام الزوج بواجباته المنزلية، وحب الأبناء، والقيام برعايتهم، وإن كانت هذه الأمور أساسية في بناء البيت المثالي

---

(١) التفسير الكبير ٢٠/١٧٩ ـ ١٨٠.

السعيد، ومن أهم أسباب جلب السعادة، إلا أن هناك أموراً أهم بكثير من هذه الأمور التي يعدها البعض هي كل شيء في الحياة الزوجية، ألا وهي الشعور بالطرف الآخر، ومراعاة أحاسيس الزوجة، وبث معاني الحب والتقدير، وتحسيس الزوجة بأنها إنسانة ذات كيان، وهي شريك في هذه الحياة، شريك كامل لا شريك جزئي، وبالتالي لا يجوز معاملتها كالجماد فهي ليست «حائطاً»، تحتاج من زوجها ما هو أهم من المال، تحتاج منه ابتسامة، ومزاح، وإبداء مشاعر الحب نحوها، وإبداء عبارات الإِعجاب بطبخها، وملابسها وتربيتها للبيت، وأفكارها في القضايا الفلانية، تحتاج أن يستشيرها في أموره ليشعرها بوجودها، وتحتاج ألا يخفي عنها بعض الأمور المالية والبيتية، فهما شركاء في كل شيء.

قد يغفل عن هذه الأمور كثير من الأزواج بالرغم من أهميتها، وبالرغم مما يترتب عليها من استقرار للحياة الزوجية.



قدح شاي

نقلت صحيفة «الجمهورية» المصرية أن شاباً من محافظة أسيوط أمطر زوجته وأمه وشقيقته بوابل من الرصاص من مسدسه المرخص بسبب تأخرهن في إعداد الشاي له، مما تسبب في إصاباتهن إصابات بالغة، وهن يرقدن في إحدىٰ المستشفيات هناك.

كنت عندما أقول في بعض المحاضرات التي أُستدعىٰ لها بأن بعض الرجال يُطَلِّق زوجته بسبب «طبق رز أو ملوخية» لا يصدق البعض مثل هذه المبالغة، واليوم تنقل لنا الأخبار: لا طلاقاً بسبب «المكبوس» بل قتل بسبب كوب الشاي.

الغضب أمر فطري في كل إنسان، ولكن الرجل الناجح والمرأة الناجحة هما اللذان يتحكمان في هذا الغضب عندما يجتاحنا في لحظة من

لحظات الحياة، وإلا فستحدث الكارثة، لذلك قال نبينا محمد ﷺ: «**ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**»، فالذين يتحكمون بأنفسهم عند الغضب يكونون هم ملوك الدنيا من غير ملك، فالدنيا لا تستحق أن يغضب لها، هكذا يعلمنا أحد هؤلاء الملوك وخيرهم، وهو ابن عم رسول الله ﷺ عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما، حيث يكشف لنا خطته الثلاثية حين يأتيه الغضب، فيقول: «ما بلغني مكروه إلا أنزلته إحدىٰ ثلاث منازل: إن كان فوقي عرفت له قدره، وإن كان نظيري تفضلت عليه، وإن كان دوني لم أحفل به، هذه سيرتي في نفسي، فمن رغب عنها فأرض الله واسعة».

ولملك النفس عند الغضب أربع نتائج إيجابية، مَنْ تذكَّرها كانت عوناً له من الانزلاق في الغضب، ذكر الإمام ابن مفلح المقدسي أربعاً منها في كتابه «الآداب الشرعية» حيث قال: أولها: فاحتسب سكوتك عن السفيه أجراً لك، ثانيها: وإن شئت فاعدده احترازاً من أن تقع في إثم، ثالثها: وإن شئت كان احتقاراً له، رابعها: وإن شئت كان سكوتك سبباً لمعاونة الناس لك.

وصدق القائل: إذا كان الكلام من فضة، فإن السكوت من ذهب، وأفضل السكوت عندما يغضب الإنسان، وأكثر ما يعين الإنسان عند الغضب، أن يتذكر الاستعاذة من الشيطان، كما أوصانا الرسول ﷺ، والجلوس إذا كان واقفاً، والوضوء لإطفاء نار الشيطان الذي يسري من ابن آدم مسرىٰ الدم.

❊ ❊ ❊

 العجرة

سلاح يدوي قديم، يتكون من عصا صغيرة رأسها مدبب، أو يربط برأسها حجارة أو حجارة أو حديدة، وتستعمل للدفاع عن النفس في حالة الاعتداء، هذه العجرة كانت سبباً في توبة أحد المدمنين علىٰ المخدرات فكيف كان ذلك؟!

كان شاباً مستقيماً ليس له في هذه الأمور نصيب، وفي ذات يوم اتصل به أحد أصدقائه القدامىٰ ورافقه إلىٰ أحد المطاعم وطلب له بعض السندويتشات، وما أن أكل صاحبنا هذه السندويتشات إلا وأحس بأن حجم رأسه يكبر أضعاف ما هو عليه، وبعد عدة ساعات بدأت نوبات الصداع، والدوار والترجيع، وما أن وصل إلىٰ البيت حتىٰ ألقىٰ بنفسه علىٰ السرير كأنه جثة هامدة، ولم يستيقظ كما كان معتاداً، بل تجاوز الوقت الذي يستيقظ فيه بعدة ساعات، وأحس وهو يستيقظ بثقل كبير.

ثم جاءه صاحبه في المساء وذهب معاً إلىٰ المطعم واشترىٰ له سندويتشات أيضاً، وعندما تناولها أحس براحة ونشاط.. ولكنه ما أن عاد حتىٰ عاودته الآلام والهلاوس حتىٰ أنه خلع ثيابه أمام أبنائه وزوجته وألقىٰ بنفسه في نافورة صغيرة في صالة البيت مما جعل أبناءه يضحكون عليه، وزوجته وأمه تبكيان لما أصابه في عقله، دون أن يعلما شيئاً، وفي اليوم الثالث جاءه الشيطان البشري ومعه كيس السندويتش يلوح له به، وحين أراد أن يأخذه سحبه صاحبه إليه، وقال له: هذه المرة السندويتش بمائة دينار، فرد عليه صاحبنا: «الله يخليك أعطني إياه وبعدين أعطيك».

فرد الشيطان... هذه الفلوس ليست لي، بل لصاحب السندويتش، وهو يريد ثمنها حالاً.

دخل الضحية وأخذ مائة دينار من زوجته، وأعطاها للشيطان ثمناً للسندويتش، وتناوله فأحس براحة مؤقتة، ولم يلبث أربع ساعات حتىٰ عاودته الآلام في مفاصله، والصداع، وأخذ العرق يتصبب منه، وتارة يشعر ببرد شديد.... إلخ.

ساءت حالة صاحبنا، وازدادت هلاوسه، وأصبح مزاجه حاداً، وأيقن بما هو مقدم عليه من أمور خطيرة لا يعلم بها أحد سوىٰ الله... فقال لأمه وزوجته، أخرجوا من غرفتي كل شيء سوىٰ مرتبة النوم والوسادة، وأعطوني الطعام من النافذة، وأغلقوا عليَّ الباب، فإما أن أموت، وإما أن يكتب الله لي الحياة.

وبدأت الأعراض الانسحابية تزداد ساعة بعد ساعة، حتىٰ كأنه يشعر بسكاكين تقطِّع جسده، ومن شدة الألم كان يجري داخل الغرفة من أولها إلىٰ آخرها ويضرب نفسه بالحائط، وهكذا يستمر حتىٰ يسقط علىٰ وجهه في أرض الغرفة، واستمر علىٰ هذا الحال، وأمه وزوجته يجلسان قرب باب الغرفة يبكيان، وهما يسمعانه يصرخ من شدة الألم... حتى انقضت الأيام الأربعة، فطرق الباب ففتحته أمه، فقال لها وهو يعانقها: «يمه أنا ولدك القبلي الحين».

وفي اليوم الخامس، طرق ذلك الشيطان الباب سائلاً عنه، ولما تأكد لصاحبنا بأنه الشيطان، أحضر عجرته وربطها علىٰ يده اليمنىٰ، وفتح الباب بيده اليسرىٰ، بينما أخفىٰ اليمنىٰ وراء الباب، وتظاهر بالتعب والإرهاق، ومد يده اليسرىٰ له وهو يقول: أرجوك أعطني السندويتش، فقال له الشيطان... أعطني المائة دينار، ثم سحبه من يده اليسرىٰ وانهال عليه بالعجرة يضربه في كل مكان من جسده، ليفرغ كل آلام الأيام الأربعة في هذه الدقائق، حتىٰ غطاه الدم من كل مكان، فوقع من غير حراك، لا يعلم إن كان ميتاً أو حياً، فسحبه وأدخله في سيارته، ثم قادها بعيداً عن منزله في ساحة عامة، ثم رجع إلىٰ البيت ونام نومة هانئة، وما إن استيقظ في الصباح، ونظر من خلال النافذة ليرىٰ ما حدث بالشيطان، فلم ير السيارة في مكانها، وحمد الله تعالىٰ علىٰ هذه الإرادة والتوفيق... ودعا الله لكل مدمن أن يمتلك الإرادة في القضاء علىٰ الإدمان، والتي تبدأ بالابتعاد عن رفقاء السوء.

***

 الطاعة بين المحبة والخوف

دخل ابن خريم علىٰ المهدي، وكان المهدي قد عتب علىٰ بعض أهل الشام، وأراد أن يغزوهم جيشاً، فقال: يا أمير المؤمنين عليك بالعفو عن

الذنب، والتجاوز عن المسيء، فلأن تطيعك العرب طاعة محبة، خير لك من أن تطيعك طاعة خوف[1].

هذا الذي ذكره ابن خريم قبل عشرة قرون من الزمن أصبح الآن فناً مستقلاً يدرس في مادة الإدارة في جميع جامعات العالم، فلا يمكن أن ينجح المدير في إدارة إدارته ويحقق أهداف المؤسسة بإشاعة جو الكراهية والرعب والأحقاد والشللية، بل لا بد له ليصل إلىٰ أهدافه من غرس المحبة بين أفراد المؤسسة، وبينه وبين موظفي المؤسسة. . . فلأن يطيعك موظفوك طاعة محبة، خير لك ولمؤسستك من طاعتك طاعة خوف. . ولا شك أن هناك فرقاً كبيراً عندما يعمل العامل وهو يحب عمله ومسؤوله، أو يعمل وهو ساخط كاره لمؤسسته ومسؤوليه، وسيتبين الفرق في إنتاجية كل من هذين العاملين.

لذلك كان أول عمل قام به الرسول ﷺ عند دخوله المدينة مهاجراً بناء المسجد والمؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين، وذكر منها أحاديث فضل المحبة في الله ما جعل الصحابة يتسابقون في هذا المضمار، الذي سبب وحدتهم القلبية حتىٰ جعلهم كالجسد الواحد، وبهؤلاء فتح الرسول ﷺ وخلفاؤه من بعده الفتوحات الكثيرة، ودانت لهم إمبراطورية فارس والروم.

وما ينطبق علىٰ المدراء والرؤساء ينطبق علىٰ الأب مع أبنائه، فطاعة الأب محبةً له أفضل بكثير من طاعته خوفاً، وكذلك ينطبق علىٰ الزوج مع زوجته، فطاعتها له محبة له تختلف تماماً عن طاعتها خوفاً من تهديده بالطلاق أو الضرب. . . فالحب في جميع هذه النماذج هو السر في تحقيق الأهداف ونجاح الأفراد والمؤسسات.

* * *

(١) العقد الفريد ٢/١٨٨.

صور من بر الوالدين

● قيل لعمرو بن ذر: كيف برّ ابنك بك؟ قال: ما مشيت نهاراً قط إلا مشىٰ خلفي، ولا ليلاً إلا مشىٰ أمامي، ولا رقىٰ عُلية وأنا تحته[1].

● عن حفصة بنت سيرين قالت: كان محمد ـ أخوها ـ إذا دخل علىٰ أمه لم يكلمها بلسانه تخشعاً لها.

● وعن عون قال: دخل رجل علىٰ محمد بن سيرين وهو عند أمه فقال: ما شأن محمد؟ يشتكي شيئاً؟ فقالوا: لا ولكن هكذا يكون إذا كان عند أمه[2].

● كان التابعي الجليل ابن محيريز يقول: «من مشىٰ بين يدي أبيه فقد عقه، إلا أن يمشي فيميط له الأذىٰ عن طريقه، ومن دعا أباه باسمه أو بكنيته فقد عقه، إلا أن يقول: يا أبة»[3].

ليقرأ أبناؤنا هذه الصور الفذة، ويعرفوا قدر والديهم، اللذين قرنهما الله تعالىٰ مع الأمر بعبادته والوصية ببرهما، وأخبر رسوله ﷺ بأن رضا الله مقرون برضا الوالدين وأن العاق لهما يعجل الله عقوبته في الدنيا، مع ما يدخره له من العذاب في الآخرة... فهل يرتدع العاقون عن غيهم قبل أن يصيبهم الله بعذاب من عنده لا يقومون بعده أبداً؟.

❋ ❋ ❋

هكذا كانوا يربون أبناءهم!

عن عبد الله بن عبد الملك قال:

(كنا نسير مع أبينا في موكبه فيقول لنا: سبحوا حتىٰ تأتوا تلك الشجرة

(١) العقد الفريد ٢/٤٢٤.
(٢) صفة الصفوة ٣/٢٤٥.
(٣) صفة الصفوة ٤/٢٠٧.

فنسبح حتىٰ نأتي تلك الشجرة، فإذا ارتفعت لنا شجرة أخرىٰ قال: كبّروا حتىٰ تأتوا تلك الشجرة فنكبر، فكان يصنع ذلك بنا)[1].

تربية الأبناء واجب علىٰ كل أب وأم، والإخلال في هذه القضية يؤدي غالباً إلىٰ الانحراف، وإذا ما تم الانحراف حرم الوالدان من ابن صالح يدعو لهما، جزاء بما اقترفت أيديهما من إهمال تربية الأبناء.

والتربية ليست دروساً تعطىٰ بأوقات محددة من الأسبوع، وإن كان ذلك مهماً، بل هي متابعة يومية لسلوك الأبناء وتقويمه بما يناسبه من أسلوب، كما أن تحبيب الخير وحب الله للأبناء لا يتم بالتلقين الروتيني، بل هو فن لا بد من تعلمه والتدريب عليه ليتربىٰ الأبناء علىٰ الصلاح، وتتأصل الخصال الكريمة في نفوسهم من غير إكراه، يعجبني ذلك الأخ الكريم الذي يريد غرس خصلة الذكر في أبنائه الصغار فيقول لهم: هل تحبون أن تغرس لأحدكم نخلة في الجنة ساقها من ذهب؟ فيردون عليه بلهف: نعم يا أبي.

فيقول: لا يكلفكم ذلك شيئاً سوىٰ أن تقولوا سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وبذلك تحصلون علىٰ أربعة نخلات في الجنة، وإذا بأطفاله يتسابقون بينهم من يغرس نخلاً أكثر من الآخر.

هكذا تكون التربية، لا بالأوامر والضرب والإكراه.

❊ ❊ ❊

يكره ترويع المسلمين

جاء في ترجمة عبد الله بن عوف بن أرطبان التابعي الذي درس علىٰ أنس ـ رضي الله عنه ـ أنه كانت له حوانيت يكريها، فكان لا يكريها

(١) الزهد لأحمد: ٢٢٩.

للمسلمين، فقيل له في ذلك؟ فقال: إن لهذا إذا جاء رأس الشهر روعة، وإني أكره أن أروع المسلم[1].

هذا الإِحساس المرهف الذي يملكه هذا التابعي الجليل الذي تربىٰ علىٰ يد الصحابي الجليل خادم النبي ﷺ أنس، خلق عظيم يحتاج إليه دعاة اليوم أكثر من أي وقت مضىٰ، فالإِحساس بمشاعر الآخرين ومراعاة هذه المشاعر خلق يفقده الكثير من الناس، بل إن هذا الإِحساس يتجاوز عند أصحاب التقوىٰ البشر إلىٰ الحيوان ليعلمنا الرسول ﷺ ويؤصل فينا هذا الخلق الكبير، فقد جاء في الصحيح أن بغياً من بني إسرائيل غفر الله لها بسبب إحساسها بعطش كلب، فسقته الماء، وأن امرأة دخلت النار في هرة لم تطعمها، ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض، وأن رسولنا العظيم ﷺ أوقف جيشاً كاملاً بسبب قبَّرة (طير) أحس بفقدها لولدها، فأوقف الجيش ليسألهم عمن نكب هذه القبَّرة بولدها، ولم يأذن بتحرك الجيش حتىٰ خرج من أخذ ولد تلك القبَّرة، إن الإِحساس بالآخرين وبمشاكلهم وهمومهم صفة كبيرة من صفات الدعاة، من ملكها ملك القلوب ومن فقدها فقد القلوب.

❊ ❊ ❊

فضيحة الدنيا

أصعب ما علىٰ المرء في هذه الحياة أن يفضح أمام الناس بأمر من الأمور المخالفة للشرع أو القانون وكان يخفيه عن أنظار الناس.

نشرت الصحف مؤخراً تفاصيل الذي وقع في أحد الأقطار العربية، حيث قام ثلاثة من الرجال بإلقاء أنفسهم من الدور الثاني من إحدىٰ العمارات بعد سماعهم لصوت صافرة النجدة التي ظنوها أنها متوجهة إليهم، بسبب ما يقومون به من إدارة لإِحدىٰ شقق الدعارة، مما أدىٰ إلىٰ إصابة

(١) صفة الصفوة ٣/٣١٠.

أحدهم بفقدان للوعي وكسور للآخرين في عدة أجزاء من أجسامهم.

إن من سنّة الله تعالىٰ مع خلقه، أنه يعطي لعبده بعض الفرص للتوبة، فينجيه من حادث محقق، ومن فضيحة أكيدة، ومن ورطة كاد أن يقع فيها، ليرجع إليه، ويتفكر فيما هو فيه من الخطأ، حتىٰ إذا رآه سادراً في غيه، مصراً علىٰ معصيته، مجاهراً ومفاخراً بما ستره الله، فإنه يأخذه أخذ عزيز مقتدر، وأول ما يفعل به، هو الفضيحة في الدنيا، فيسمع الجميع بمعصيته، فإن استفاد من هذه وتاب إلىٰ الله، فإنه يتوب عليه ويستره فيما يتبقىٰ من حياته، أما إذا أصر بعد ذلك، فإنه ينتقم منه، ويكون موته عبرة للآخرين.. فكم من الخلق قد أخذهم الله وهم يحتسون الخمر في إحدىٰ الحانات أو أخذوا جرعة زائدة من المخدرات فماتوا والإبرة بجانبهم.. وكم.. وكم.. وكم.. إنها مناظر تحدث في هذه الحياة لتكون عبرة للأحياء، وليعلموا أن الله حي لا يموت، ويمهل ولا يهمل، ورحيم غفور، ولكن شديد العقاب لمن أصر علىٰ المعصية ولم يرعوِ.

❋ ❋ ❋

 هكذا تعم دعوة الداعية

جاء في ترجمة التابعي الجليل الإمام الحافظ طلحة بن مصرف الكوفي، المقرئ المجود عن عبد الملك بن أبجر قال: (ما رأيت طلحة بن مصرف في ملأ إلا رأيت له الفضل عليهم)[1].

عندما يقول الحافظ عبد الملك بن أبجر (ما رأيت طلحة بن مصرف في ملأ) فقد يكون هذا الملأ من طلبة العلم، أو عوام الناس في المساجد، أو الأسواق، أو الحواري، أو مجالس السلطان، أو غير هذه الأماكن التي يتجمع الناس عادة فيها، فعندما يكون لهذا التابعي الجليل الفضل علىٰ جميع

(١) سير أعلام النبلاء ١٩٢/٥.

هذه الشرائح في المجتمع، سواء كان هذا الفضل خدمة اجتماعية، أو معاضدة مالية، أو علماً ينتفع به، فإنما يدل ذلك علىٰ تحركه الدائم لدعوة الجميع، ونصيحته لجميع إخوانه في الله وغيرهم من أهل مجتمعه، واستعداده بل وبذله للآخرين، ولا ينتظر منهم البذل، وإعانتهم، حيث لا ينتظر العون، وتنازله لهم، ولا يريد منهم التنازل، ومبادرته بكل ما يرضيهم ويحببهم إليه.. بهذه الحركة الدائبة، وهذه الأخلاق العالية تعم دعوة الداعية، ويكسب بتلك الأخلاق القلوب، فإذا ما كسبها، استطاع أن يملأها بما شاء من الخير، فهل نتعلم هذا الفن من كسب القلوب؟

* * *

هجر الاستماع!

عندما يتعلم بعض الدعاة في المعاهد أو الكليات أو الجامعات الدنيوية العلم الشرعي، ويأخذ الشهادات الجامعية في تخصص من علوم الدين، يأتي الشيطان لأحدهم فيوهمه بأنه وصل إلىٰ درجة لا يحتاج فيها إلىٰ الاستماع لغيره، لأن كل ما يسمعه يعرفه، فلا يشغل وقته إلا بالحديث للآخرين، أو تصدُّر المجالس لإِسماع رأيه.

يقول يزيد بن أبي حبيب واصفاً هذا الصنف من الدعاة والعلماء: «إن من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع، وفي الاستماع سلامة وزيادة في العلم، ومن العلماء من يرىٰ أنه أحق بالكلام من غيره، ومنهم من يخزن علمه، ويرىٰ أن تعليمه ضعة، ومنهم من ينصِّب نفسه للفتيا، فلعله يؤتىٰ بأمر لا علم له به، فيستحيي أن يقول لا علم لي فيرجم، فيكتب من المتكلفين، ومنهم من يروي كل ما سمع، حتىٰ يروي كلام اليهود والنصارىٰ، إرادة أن يغزر علمه»[1].

---

(١) جامع بيان العلم ١/١٦٦.

لا بد للداعية من توازن بين الحديث والقراءة والاستماع، وألا يغلب أحدها علىٰ الآخر، حتىٰ لا ينتكس الميزان، فإن لكل زيادة في واحد منها أمراضاً متعددة لا يلحظها في بداية الأمر، ولكن من الصعب الخلاص منها عندما تتمكن منه.

* * *

مخاللة الاخيار

يقول النبي ﷺ: «**المرء علىٰ دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**»، أي أن الإنسان يتأثر بمن يحتك به، فإن كان سيئاً اكتسب من صفاته السيئة، وإن كان صالحاً، اكتسب دون أن يشعر من صفاته الصالحة، كثيرون يحتكون بأهل الصلاح، من أجل بعض المصالح الدنيوية، أو أنهم مكرهون علىٰ ذلك بسبب ضغوط زوجاتهم أو والديهم، ومع الوقت يتحول هذا الإكراه إلىٰ حب في الله، ورغبة صادقة في توثيق هذه العلاقة، عندما يكتشف أن هؤلاء يحبون من غير مقابل، بينما لا يحب أصحاب الدنيا إلا من أجل المصلحة، ثم لا يلبث أن تتسرب إليه الخصال الطيبة منهم، وتتلاشىٰ الخصال السيئة التي تربعت ردحاً من الزمان في قلبه، وتتغير مفاهيمه للحياة، وللدنيا، وللمال، وللهدف من وجوده علىٰ هذه الأرض، وإذا بالنور يعلوه عندما يهرب النفاق من قلبه، فلا يجمع هذا القلب إيماناً ونفاقاً، يقول الإمام الجيلاني: «إذا خالطت أهل الدين وأحببتهم، استغنت يداك، وقلبك يهرب من النفاق وأهله»[1].

* * *

(١) الفتح الرباني: ٣٦.

الأولوية للعمل

يقول بلال بن أبي بردة: «لا يمنعنكم سوء ما تعلمون منا، أن تقبلوا أحسن ما تسمعون»[1].

وقريباً من هذا الرد الذي ذكره بلال بن أبي بردة كان قد ذكره الإمام سفيان الثوري عندما جاءه بعضهم فقال له يا إمام «إن الناس يأتونك من المشرق والمغرب فينفضُّون عنك لغلظة فيك» أو كلمة نحوها فقال لهم: «إذن هم حمقىٰ مثلك إذ يتركون ما ينفعهم لسوء خلقي».

هذه حقيقة تغيب عن الكثير ممن يسير في طريق الدعوة، فما أن يسمع كلمة قاسية من أحد المربين، أو العلماء، أو معاملة قاسية من أخ له في الدعوة، إلا كان ذلك مبرراً ومتكأً لترك الدعوة، وسبيلاً إلىٰ مهاجمتها، ونسيان كل ما قدمت له من أسباب النجاة من طريق الضلال.. إن هؤلاء الأعلام يذكِّرون الأتباع ببشريتهم، وامتناع العصمة منهم، فهم معرضون للخطأ، ولتقلبات الطبيعة البشرية التي من الصعب استمرارها علىٰ وتيرة واحدة، ويذكرونهم بالإخلاص والنظر إلىٰ الهدف من سماعهم للعلم، أو سيرهم في طريق الدعوة، ألا وهو العلم والعمل، ومعرفة الطريق الموصلة إلىٰ الله، فلا يكن الانتقام للنفس، وطاعة الشيطان بما يلقيه في النفس من الثأر للكرامة التي أهينت سبباً في الابتعاد عن الخير الذي هيأه الله لك.. واعلم أن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له وحده.

* * *

اكتشاف العيوب

«عاب رجل رجلاً عند بعض الأشراف فقال له: قد استدللتُ علىٰ

(١) عيون الأخبار ١٢٥/٢.

كثرة عيوبك بما تكثر من عيب الناس، لأن الطالب للعيوب إنما يطلبها بقدر ما فيه منها»[1].

إن مما يؤلم أن ترىٰ في حقل الدعوة بعض الدعاة من تسربت له عادة «الغيبة» فلا يحلو له المقام والحديث إلا في أعراض الدعاة الآخرين، لا لسبب سوىٰ أنهم جماعة تختلف مع جماعته، أو أخ يختلف مع رأيه، ويتوسع آخر في المباح من الغيبة حتىٰ يخرجها عن إطارها الشرعي الذي أبيحت من أجله... فإذا كانت الغيبة قد أبيحت عند الشكوىٰ من ظالم لاتقاء ظلمه، أو للتحذير من صاحب بدعة يتصدر توجيه الناس، أو غيرها من الأمور، فقدر حدوث هذه الإباحة بعض الضوابط الشرعية لذلك، لأن الأصل في الغيبة «الحرمة» فعند غيبة الظالم، لم تجز غيبته فقط من أجل التشفي وتضييع الأوقات، بل إذا كانت هناك مصلحة واضحة بإزالة هذا الظلم، ومثال ذلك الشكوىٰ عند القاضي أو من يملك عقوبة ذلك الظالم، وكذلك في حالة التحذير من صاحب البدعة، ففيها الخوف من إضلال الناس، وفي الأمور التي ليست من باب الخلاف الجائز أو تعدد الرأي في قضية من قضايا الفقه، وهكذا.

لقد أدرك ذلك الشريف الذي صادف ذلك المغتاب، ولمح بفراسته طبيعة ذلك المغتاب الباحث عن عيوب الآخرين، فاستدل علىٰ كثرة عيوبه، وأوقفه عند حده، ولم يستمتع بسماع عيوب الآخرين كما يطرب البعض عند سماعه لغيبة الآخرين، بل يشارك بها..

إن من يشتغل بعيوب نفسه وإصلاحها، لا وقت عنده للبحث عن عيوب الآخرين.

* * *

(١) عيون الأخبار ٢/١٤.

الدنيا ملعونة

رویٰ ابن ماجة بإسناد حسن قول النبي ﷺ: «**الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، وعالماً أو متعلماً**»، ولأن غير هذه الأربع مذموم لا فائدة للعبد فيه يوم القيامة، كان الصالحون يبرمجون حياتهم كلها علىٰ هذه الأربع، فلا تراهم إلا ذاكرين الله تعالىٰ، ومشتغلين بما يتصل بهذا الذكر وما يحب الله من الأعمال، وما يقربهم من الجليل، وإن لم يكونوا علماء يعلمون الناس الخير، فتراهم يسعون للعلم الذي يعرفهم بطريق الآخرة.. وهذا ما بيَّنه شيخ الإسلام، ومفتي الحرم التابعي الجليل عطاء بن أبي رباح، عندما قال: «إن من قبلكم كانوا يعدُّون فضول الكلام ما عدا كتاب الله، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو أن تنطق في معيشتك التي لا بد منها، أتنكرون أن عليكم حافظين كراماً كاتبين، عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد، أما يستحيي أحدكم لو نشرت صحيفته التي أملىٰ صدر نهاره، وليس فيها شيء من أمر آخرته؟»[1].

إننا بأمس الحاجة إلىٰ دعاة يذكروننا بالآخرة، دعاة يرققون قلوبنا، دعاة ينبهوننا بحقيقة وجودنا علىٰ هذه الأرض، ويوقظوننا من غفلتنا عن ضياع الوقت الذي يمر سريعاً دون أن نعي أهميته، وأنه هو الحياة، وأنه ما يمضي يوم من حياتنا إلا ويمضي جزء منا.

وصدق من قال:

والمرء يفرح بالأيام يقطعها   وكل يومٍ مضىٰ يدني من الأجل

❋ ❋ ❋

رجل العامة

«يقول أبو إسحق الفزاري: ما رأيت مثل الأوزاعي والثوري! فأما

(١) سير أعلام النبلاء ٥/٨٦.

الأوزاعي فكان رجل عامة، وأما الثوري، فكان رجل خاصة نفسه، ولو خيرت لهذه الأمة لاخترت لها الأوزاعي - يريد للخلافة»[1]، والمطّلع علىٰ حياة الإمام الأوزاعي يدرك ما قاله الفزاري، حيث إن الإمام الأوزاعي كان يحرص علىٰ الاحتكاك بجميع طبقات المجتمع، ولذلك أحبه الجميع، بينما الإمام الثوري قضىٰ معظم حياته في الكهوف والمغارات، والجبال والبراري هارباً من السلاطين، ومؤثراً الخلوات، ولهذا السبب اختلفت الطبيعتان، فالمطّلع علىٰ ترجمة الإمام الثوري يرىٰ فيه حدة الطبع، والغضب والغلظة بالقول علىٰ أصحاب المناكر من السلاطين وغيرهم، وحتىٰ على طلبة العلم.. بينما ترىٰ الوداعة والسماحة والعفو، وسعة الصدر في الإمام الأوزاعي، وكل منهما علم من أعلام العلم والهدىٰ، ولكن العلم وحده لا يكفي مؤهلاً ليكون العالم (رجل عامة) فرجل العامة هو ذلك الداعية الذي يتسع صدره لكل من خالفه، ويؤثر الخلطة علىٰ الانعزال، فيرىٰ الناس فيه الشمعة التي تحترق لتدلهم بنورها علىٰ طريق الحق.

❋ ❋ ❋

إرم نفسك في الفرات

لا يزال التشدد في كل جيل وعصر، ومنشؤه الجهل بالدين، والغرور بالتدين، أما الجهل فيدفعه للاعتقاد بأمر ليس من الدين فيشق علىٰ نفسه، ويريد من الآخرين فعل ما يقوم به، وإذا لم يفعلوه صنفهم في فئة الضعفاء وربما الفاسقين، أو غروراً بالتدين، فيحسب أنه أفضل من الآخرين، حتىٰ يصل به الحال إلىٰ أن يظن أن النافلة واجب يأثم تاركها.

ويدخل في سبيل ذلك في معارك لا تنتهي مع أهله وأصدقائه وإخوانه وجيرانه، ورواد المسجد، هذا الصنف من الناس يصعب علىٰ الكثيرين

(١) سير أعلام النبلاء ١١٣/٧.

التعامل معه لصعوبة إقناعه، ولاحتقاره الآخرين بسبب الغرور الذي أعماه عن الحق والحقيقة.

ولقد قابل أحد هؤلاء الإمام وكيعاً رضي الله عنه وذاكره في شيء من أمور المعاش أو الورع، فقال له وكيع: من أين تأكل؟

قال: ميراث ورثته عن أبي.

قال: فمن أين هو لأبيك؟

قال: عن أبيه.

قال: فمن أين هو لجدك؟

قال: لا أدري.

فقال وكيع: «لو أن رجلاً يظن ألا يأكل إلا الحلال، ولا يلبس إلا الحلال، ولا يدخل إلا في الحلال، قلنا له: انزع ثيابك، وارم بنفسك في الفرات».

ثم قال وكيع: «ما نجد إلا السعة، ما نجد إلا السعة»[1].

وحين يقول وكيع لهذا المتشدد هذه العبارات، فإنه قطعاً لا يعني ترك الورع والولوج في الشبهات، إنما يعني عدم المبالغة والتشدد فيما لا يظهر لنا حرمته أو الشبهة فيه.

* * *

لا تستعجل المديح

كم من الناس يبدو في ظاهرهم الشجاعة والجرأة، بسبب ما نسمع من كلامهم ونقاشهم، ولكنهم عندما تبرز المواقف نراهم أجبن الجبناء، وكم

(١) الجرح والتعديل ٢٢٣/١.

من الرجال تحسب أنه شبيه حاتم الطائي في كرمه، وعندما يجرب يظهر أشد من بخلاء الجاحظ، وكذلك العكس، فإنك ترىٰ البعض فتحسبهم يخافون من ظلهم، وإذا بلوتهم رأيتهم هم الرجال، وتظن في البعض حرصاً علىٰ المال، ولكنهم في المواقف يكررون صور عثمان رضي الله عنه.

كثير من الدعاة يستعجلون في تقييم الأفراد إما سلباً أو إيجاباً، فالبعض يوثق الجميع، والبعض الآخر يضعف الجميع ويشك في الجميع، إننا يجب قبل هذا وذاك أن نجرب الرجال قبل توثيقهم، فقد مدح أحدهم بعض الناس في حضرة أمير المؤمنين عمر، فرد عليه عمر: هل سافرت معه، فقال: لا، ثم قال عمر: هل جربته بالمال: فقال: لا، فقال عمر: إذن لا تعرفه.

يقول النجاشي:

«لا تحمدن امرأً حتىٰ تجربه ولا تذمن من لم يبْلُه الخُبُرُ»[1]

❋ ❋ ❋

تواضع الدعاة

يقول الإِمام مجاهد: (صحبت ابن عمر رحمه الله وأنا أريد أن أخدمه، فكان يخدمني أكثر)[2].

عندما يبلغ بعض الدعاة مبلغاً من العلم، أو المكانة في مؤسسات الدعوة، فإنه يريد ممن دونه من الدعاة معاملة خاصة، يريد أن يكون له صدر المجلس، فإذا لم يوسع له في ذلك المكان بعد مجيئه متأخراً يغتاظ لذلك، وإذا لم يلقب بالشيخ أو الدكتور أو غيرهما من الألقاب تتغير نفسه، وإذا لم يعط الحديث في بعض المناسبات، فإنه يعتبر ذلك إهانة، وإذا دعي

---

(١) عيون الأخبار ١٧٠/٣.

(٢) الزهد لأحمد: ١٩٣.

إلىٰ بعض المؤتمرات الخارجية ولم يحجزوا له في فنادق الخمسة نجوم فإنه يقرر عدم تلبية الدعوة في المرات القادمة، وهكذا هي حياته، يريد أن يتميز عن الآخرين، بينما الدعاة الصادقون، تجد من أبرز صفاتهم التواضع والنزول لأصغر الدعاة في الصف ويهرب من التمييز وإن كان يستحقه لعلمه وقدمه.. هكذا يربي أبناء الصحابة رضي الله عنهم مَنْ بعدهم.

***

لا يثقون بأنفسهم

يقول هاريسون إيليون ود. وليم والش في كتابهما «الموسوعة النفسية»: [أعرف رجالاً لا يستطيعون أن ينفردوا في وضع خطة، أو تقرير أو أمر في غير ما توجيه أو مساعدة ممن هم محل ثقتهم، كما أعرف نساءً يسوقهن الشعور الباطل إلىٰ أن يسألن أمهاتهن أو من هن في مقام الأمهات عندهن: أي ثوب يلبسن، وما الذي يجب أن يعملنه في أمور لا تعدو أن تكون من سفاسف الحياة اليومية، والحق أن فريقاً من النساء يديرون بيوتهن في جو من إرشاد الأم المتواصل، الأم التي تنهض بالعبء كله، وتأخذ نفسها بالسؤال عن كل صغيرة].

هؤلاء الرجال والنساء نشأوا عادةً مدللين ولم يعودهم الآباء والأمهات الاعتماد علىٰ أنفسهم، أو اتخاذ القرار في كل صغيرة وكبيرة، بل كانوا يقررون مكانهم، ويختارون ملابسهم، وطعامهم، وهم الذين يرتبون حجرهم، كما أن الوالدين هما اللذان يقومان بالتدريس، وباختصار لم يعلموهم «المسؤولية»، بل تشربوا الاتكالية علىٰ الغير في كل شيء، ومثل هؤلاء لا يمكن أن ينجحوا في الحياة، وإذا لم يدركوا هذه الحقيقة، فسيظلون مصدر إزعاج للآخرين، ومنبع المشاكل، ويكونون عرضة للمخادعين، ولذئاب البشر، وإذا أداروا عملاً فسيفشلون في الإِدارة، وإذا تزوجوا فسوف يفشلون في زواجهم.

لا بد للوالدين أن ينتبها لهذا الأمر الخطير، وألا يقوما بكل شيء للأبناء، وألا يتركا الخادمة تقوم بكل شيء للأبناء، لا بد أن تكون هناك بعض الأعمال التي نعوّد الأبناء القيام بها، وبخاصة ترتيب الغرفة والدراسة، وشراء الحاجات، واتخاذ القرار، فيما يريدون لبسه أو أكله أو المواد التي يريدون اختيارها حتىٰ ندربهم علىٰ المسؤولية واتخاذ القرار قبل أن نعض إصبع الندم عندما يكبرون.

* * *

أبناء المهاجرين

المهاجرون المسلمون الذين هاجروا إلىٰ بلاد الغرب، وبخاصة العرب منهم هربوا من بلادهم لأسباب كثيرة من أبرزها إيجاد مصدر ثابت وآمن للرزق، إلا أنهم جابهوا في بلدان المهجر مشاكل كثيرة لم يستطيعوا الفكاك منها، إلا أن أخطر النتائج هي مستقبل أبنائهم.

يأتي أحدهم وهمُّه الأول بناء بيت في بلده الأصلي، فيعمل علىٰ فترتين، وإذا ما جمع مبلغاً يستطيع فيه دفع الدفعة الأولىٰ للبيت، وأحس بثقل المبلغ الذي يقتطعه البنك منه، يأمر زوجته بأن تعمل، وفي الوقت نفسه يشجعها علىٰ الإنجاب، وبخاصة في بلد مثل ألمانيا تعطي مبلغاً من المال شهرياً لكل طفل يُنْجَبْ، لا فرق في ذلك بين المواطن والمقيم لتشجيع النسل، وعندما يكثر الأبناء تحتار الأم بين تربية أبنائها، ورعاية زوجها، وإدارة شؤون بيتها، والضحية في هذه المعمعة هم الأبناء، الذين ينشأون كل يوم دون رعاية من الوالدين، فيكونون عرضة لتأثيرات البيئة المحيطة والتي غالباً ما تحولهم إلىٰ أشخاص عديمي الهوية، فلا هو مسلم ولا هو عربي، ولا هو مواطن من البلد الذي وُلِدَ فيه، مما يجعلهم عُرضة لعالم الجريمة وعصابات المافيا.

وبعد فترة من الزمن ينتهي مشروع بناء البيت في البلد الأصلي، ولكن

الأب يكتشف في وقت متأخر جداً أنه هدم أبناءه، ويصبح من الصعب عليه بناء ما هدم طيلة هذه السنين، هذه صورة مصغرة لأبناء المهاجرين، فلا عزة إلا في بلادنا، وصدق الشاعر حين قال:

بلادي وإن جارت عليّ عزيزةٌ وأهلي وإن ضنُّوا عليّ كِرَامُ

❋ ❋ ❋

هؤلاء هم الذين ينجحون

أجرت جامعة ييل الأمريكية دراسة حول عدد الطلاب الذين لديهم أهداف واضحة قد كتبوها، ورسموا خططاً لإنجاحها، وجدت الدراسة أن ٣٪ من طلاب السنة الأخيرة في الجامعة قد فعلوا ذلك، وبعد عشرين سنة توبعت الدراسة بالاتصال بأولئك الطلاب الـ ٣٪ للنظر في وضعهم المالي والاجتماعي، فوجد أن هؤلاء الـ ٣٪ الذين كتبوا أهدافهم يحصلون مالياً علىٰ ما يعادل دخل الـ ٩٧٪ الآخرين.

الله سبحانه وتعالىٰ عندما خلقنا بيّن لنا أن أجل كل واحد منا محدد، وأنه لن يخلّد في هذه الدنيا أحد، وأنه لن يرجع إلىٰ الدنيا بعد الموت أحد، فالوقت هو أثمن شيء في حياتنا، وما لم نستغل هذا الوقت الاستغلال الأمثل فإنه سيمضي ولن ينتظرنا حتىٰ نفاجأ بالرحيل من هذه الدار، والناجحون في هذه الحياة يعلمون حق العلم هذه المعادلة، ويعيشونها لحظة بلحظة، لذلك يخططون لحياتهم، وينجزون دائماً.

الناجحون في هذه الحياة يخططون لأبنائهم ولأنفسهم، وللمؤسسات التي يعلمون فيها، وفي كل عام يعملون ماذا يريدون إنجازه من أبنائهم: «تعليمهم السباحة وتعليمهم لغة من اللغات، تحفيظهم بعض أجزاء القرآن الكريم، تعليمهم مهارة من مهارات الحياة»، ويخططون لأنفسهم «كم من المال يريدون جمعه هذا العام، وما هي العيوب التي يريدون التخلص منها وكم مقدّار الثقافة التي سيحصلون. . . . وهكذا».

أما الفاشلون في هذه الحياة، فيتركون كل شيء للأيام تعبث بهم، ويريدون من السماء أن تمطر ذهباً أو فضة... ولكن الحقيقة القرآنية الثابتة تقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

***

التزكية في الحركة الإسلامية (١)

من أهمِّ وأخطر المشاكل التي تعاني منها الحركة الإسلامية قضية التزكية التي تعتمدها في إدخال العناصر الجديدة في دائرتها لاستمرارية ماكينة العمل الإسلامي، وهو بلا شك أمر في غاية الأهمية لاستمرار العمل، واستمرار الامتداد لهذا الجماعات المنضوية تحت الحركة الإسلامية.

إلا أن المشكلة تكمن في الشروط التي تضعها هذه الجماعات لقبول الدخول والانخراط كعضو عامل في جماعة ما، فما هذه الشروط التي يتم علىٰ إثر توافرها بشخصٍ ما، تزكيته وقبوله كعضو؟

لا شك أنه لا توجد في الحركة الإسلامية شروط موحدة، بل هناك شروط تخص كل جماعة من هذه الجماعات الكثيرة، وإن كانت تلتقي ببعض الشروط العامة التي لا بد منها كقواسم مشتركة لجميع الجماعات الإسلامية، وبالتالي فإن هذه الشروط تتفاوت فيما بينها بين الشدة والتساهل، وبسبب هذا التفاوت تستمر بعض هذه الجماعات بالعطاء الأصيل إلىٰ سنين طويلة، وتنمو عاماً بعد عام، في حين تستمر جماعات أخرىٰ إلىٰ أجل ثم تتلاشىٰ بعد أن تتفرق إلىٰ مجموعات صغيرة متناحرة فيما بينها، وجماعات تندمج مع بعضها البعض، وجماعات تتحول مع الأيام إلىٰ أهداف غير أهدافها الأصلية، وجماعات تخترق من خصومها، فيؤدي ذلك إلىٰ تناحرها والاقتتال فيما بينها، ثم زوالها أو ضمورها إلىٰ درجة الجمود.

هذه النتائج الخطيرة ليس سببها الوحيد هو نوعية الشروط فحسب، بل السبب الآخر الذي يضاف هو نوعية الآلية التي يتم علىٰ أساسها التزكية.

****

التزكية في الحركة الإِسلامية (٢)

دست المخابرات أحد عناصرها الأذكياء في إحدىٰ الدول الإِسلامية مع بعض سجناء إحدىٰ الجماعات الإِسلامية، وكان هذا العنصر يؤخذ أمام أعين السجناء الإِسلاميين ويُضرب أمامهم ضرباً مبرحاً، ثم يأتي وهو مضرج بدمائه يئن من شدة الآلام، وباتفاق مسبق مع المخابرات، حدث اقتحام مسلح للسجن من إحدىٰ المجموعات الموجودة في السجن تزامن مع إضراب كبير قاده ذلك العنصر لجميع السجناء، ثم خرج مئات السجناء بشاحنات كانت معدَّة بعد مقتل الكثير من عناصر الشرطة العاديين، واتجاه السجناء إلىٰ الجبال، حيث تعسكر هذه المجموعات الإِسلامية، وقد برز فيهم ذلك العنصر ونال من الإِعجاب ما ناله من زملائه السجناء، وهو ما كان سبباً قوياً لقبوله عضواً عاملاً في تلك الجماعة، وليس هذا فحسب، بل أحد صنَّاع القرار فيها، وما زال يتدرج في المسؤوليات حتىٰ أصبح أميراً علىٰ تلك الجماعة، وبعد أن نال ما أراد بدأ أولاً بتصفية القيادات، ثم سلَّم رقاب المجموعة أو معظمهم إلىٰ الإِبادة بعد أن هيأهم لمواجهة مع الجيش.

هذا نموذج واقعي حدثني به أحد المقربين جداً من هذه المجموعة، يؤكد وجود مشلكة التزكية والتي تتعلق بها قضية الشروط، وآلية التنفيذ لهذه التزكية، وهناك دلائل كثيرة أكثر من أن تحصىٰ في تاريخ الحركة الإِسلامية المعاصرة يؤكد وجود مثل هذه المشكلة، ووجوب وجود حل لها.

****

التزكية في الحركة الإسلامية (٣)

كيف يتوافق أن ترىٰ شاباً في إحدىٰ الجماعات الإسلامية يدخن سيجارة؟.. وكيف يتناسب أن ترىٰ شاباً في إحدىٰ هذه الجماعات يمقت إخوانه في الجماعات الأخرىٰ، ويفضل العمل مع العلمانيين بدلاً منهم؟ وكيف يُهضم أن ترىٰ شابة في إحدىٰ هذه الجماعات الإسلامية لها علاقات عاطفية غير مشروعة مع زميل لها في الجماعة نفسها؟

وكيف يمكن أن ترىٰ رجلاً من رجالات أحد هذه الجماعات الإسلامية يظلم عماله ويؤخر رواتبهم؟ وكيف يُستساغ أن ترىٰ إسلامياً في إحدىٰ هذه الجماعات مسرفاً في مظهره الخارجي، قد حلق لحيته، وأسبل ثوبه، وأطال شعره، ويستمع إلىٰ الأغاني، ويغرم بمتابعة الأفلام؟

كل هذه الأمثلة نماذج من جماعات مختلفة، واقعية ١٠٠٪ سببها اختلاف شروط التزكية وتساهلها، وعدم جدية بعضها، مما يسبب ثغرات كثيرة يسهّل لخصوم الحركة الإسلامية الدخول فيها لسذاجة واضعيها واعتقادهم بعدم أهميتها.

لا شك أن هناك أسباباً كثيرة لهذا التساهل في الشروط منها:

١ ـ عدم النضج التربوي والدعوي.

٢ ـ ضعف العلم الشرعي.

٣ ـ تغليب النواحي السياسية علىٰ النواحي الشرعية.

٤ ـ قلة الخبرة في العمل الإسلامي.

٥ ـ الجهل بطبيعة الخصوم وطبيعة الصراع.

٦ ـ الحماس لزيادة الأنصار.

٧ ـ الضعف الإيماني الناتج من ضعف الاتصال بالله تعالىٰ.

٨ ـ كثرة الفتن والابتلاءات.

هذه الأسباب وغيرها تكوِّن في مجموعها التساهل في الشروط، والتي تؤدي بعد ذلك إلىٰ تكوين الكثير من الثغرات التي يلج منها خصوم الحركة الإِسلامية للإِجهاز عليها.

* * *

التزكية في الحركة الإِسلامية (٤)

عندما امتدح جمع من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في إحدىٰ المعارك أحد المقاتلين، وأعجبوا به لشدة بلائه في المعركة، فاجأهم الرسول ﷺ عندما قال: «**من أحب أن ينظر إلىٰ رجل من أهل النار فلينظر إلىٰ هذا**»[١].

هذا الحديث والحادثة تدل دلالة قاطعة علىٰ أن الشروط التي نظر إليها رسول الله ﷺ في عدم تزكية الرجل هي غير الشروط التي اعتمدها صحابته عندما قاموا بتزكيته، وهو يعلمهم هنا درساً عملياً في دقة وضع الشروط عند تزكية الآخرين، ورأوا بأم أعينهم كيف قتل ذلك الرجل نفسه بعد نهاية المعركة، فقال ﷺ: «**إن العبد ليعمل فيما يرىٰ الناس عمل أهل الجنة، وإنه لمن أهل النار، ويعمل فيما يرىٰ الناس عمل أهل النار وهو من أهل الجنة، وإنما الأعمال بخواتيمها**»، والسؤال الذي يتبادر للكثيرين، هل هذا الأمر هو من أمور الغيب التي علمها النبي ﷺ وإخباره بأسماء المنافقين، وبالتالي لا يتناسب الاستشهاد بمثل هذا الحديث في قضية الشروط؟

هذا الافتراض مغاير لواقع الرسول ﷺ، حيث إنه هو القائد العام، وصحيح أنه أخبر بأسماء المنافقين، إلا أن هذا لا يمنع من كون النبي ﷺ كان متمرساً بمعرفة الرجال ومتابعة خصالهم قبل التسرع بتزكيتهم لوضوح شروط التزكية لديه، فنراه يزكي عشرة من صحابته التزكية الكبرىٰ بتبشيرهم بالجنة، ويزكي خالد ابن الوليد بتلقيبه بسيف الله، وعدم تزكيته أبي ذر

(١) رواه البخاري.

للإِمارة عندما طلبها، فقال له: «إنك ضعيف»، بينما زكاه في دينه في أحاديث أخرىٰ، كل ذلك يدل علىٰ وضوح الشروط لديه ﷺ في تزكيته الآخرين، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

يجب علىٰ المنتمين للحركة الإِسلامية ألا يكتفوا بالمظاهر دون المخابر، وألا يتسرعوا بتزكية أحد قبل المصاحبة والمتابعة والمعايشة والتجربة، فلا تظهر معادن الرجال إلا بالمواقف، كما يجب أن تكون جميع شروطنا مبنية علىٰ أصل شرعي واضح، بعيداً عن الأهواء والمصالح الدنيوية، ولا بد من أن تكون التزكية جماعية وليست فردية إمعاناً بالدقة في التزكية، كما يجب متابعة المزكىٰ بعد تزكيته حفاظاً علىٰ أمن أفراد الجماعة، وتأكداً من صدقه بالانتماء.



تخلص من الكوابح

أحد أهم الأسباب في الإِخفاق هوَ المشاعر السلبية، والتي تعتبر الكوابح التي تمنع الإِنسان من التقدم والارتقاء، بل تجلعه في أحسن حالاته، متسمراً في مكانه دون تقدم، ولكنها في الغالب تزيد من انحداره، حتىٰ تغرقه في بحر من اليأس والقنوط المؤدي إلىٰ الفشل في جميع مناحي الحياة.

والمشاعر السلبية ـ كما يقول عالم النفس الإِداري بريان تريسي ـ: «تتغذىٰ بغذائين: ١ ـ التبرير. ٢ ـ انخفاض النفسية».

بمعنىٰ أننا عندما نجابه بمصائب الحياة ومشاكلها، أو نتعرض لأذىٰ الآخرين فإننا نلجأ حالاً لإِلقاء اللوم عليهم، وسلوك منهج «التبرير» للخطأ، وننسىٰ إلقاء أي من اللوم علىٰ أنفسنا، والأمر الآخر أنه عندما نتعرض لهذا الأذىٰ والمشاكل من الآخرين فإننا نتأثر وينعكس ذلك علىٰ نفسيتنا، مما يؤدي إلىٰ وضع فرملة في طريق التقدم والارتقاء، وحتىٰ ننجح في الانخلاع

من هذه المشاعر السلبية، لا بد من أن نتحمل المسؤولية، ومعنىٰ تحمل المسؤولية هو باختصار عدم إلقاء اللوم علىٰ الآخرين، حتىٰ وإن كانوا مخطئين بحقنا، والتحكم في نفسيتنا فلا ندع لأحد أي مجال لإحزاننا وإغضابنا، ويكون التحكم في أيدينا نحن، نفرح متىٰ ما نريد الفرح، ونحزن متىٰ ما أردنا الحزن.

لقد أدرك هذا الأمر ذلك الرجل الصالح من الجيل الأول الذي سبه أحدهم وقبل أن يرد عليه استدار وصلىٰ لله ركعتين، وقال في سجوده: «اللهم اغفر لي الذنب الذي سلطت بسببه هذا عليَّ» فقد تحمل المسؤولية للتخلص من المشاعر السلبية حتىٰ لا تعيقه عن الانطلاق في علاقته مع الآخرين، وتربيته لنفسه.

وكذلك ما حدث لعمر بن عبد العزيز، عندما كان خليفة فتعرض له أحد السفهاء بالسب فرد عليه: «إنما أردتَ أن يستفزني الشيطان بعزة السلطان، فأنال منك اليوم ما تناله مني غداً، انصرف إن شئت»، فهو الذي يقرر كيف يتحكم في نفسيته، ولا يدع للآخرين هذا الأمر، لذلك كان ابن عبد العزيز من أبرز الناجحين في التاريخ.

❋ ❋ ❋

ضرورة الابتكار

يقول: (توم بيترز) في كتابه الجديد «الإدارة المستمرة في التسعينيات»: «لم تعد دورة حياة المنتج تتجاوز سنة إلىٰ تسعة أشهر علىٰ الأكثر، فكل عام لدينا موديل جديد من السيارات، وإصدارات جديدة من برامج الكمبيوتر، فإذا طرحت منتجاً في الأسواق عليك أن تبيعه بسرعة قبل أن تجد إلىٰ جانبه منتجاً منافساً لم تكن قد سمعت به من قبل».

ليس من طبيعة الحياة أن تتوقف، ولم نسمع بأن العقول البشرية قد

أخذت إجازة راحة في أي بقعة من العالم، وإذا كان لكل شيء سبب، فإن للنصر أيضاً أسباباً، ولا يحدث ذلك بالإيمان الجامد، الإيمان الذي ليس له نصيب في حركة الحياة، وإذا كانت الشركات التجارية قد أدركت بأنها لن تعيش ما لم تدخل حلبة الصراع في تطوير منتجاتها بهذه السرعة التي تحدث عنها توم بيترز، فلماذا لا تعتبر الحركات الإسلامية بأنها شركة من الشركات؟ أوَليست السلعة التي تتعامل معها أغلىٰ وأهم؟ أوليس تبليغ دين الله للناس وتعبيدهم لخالق السموات والأرض هو الهدف من خلقنا؟

وإذا كنا ندرك هذه البديهيات، فلماذا لا نتحرك بأقصىٰ سرعة لإحداث ثورة في أساليب الجذب لسلعتنا، حتىٰ تنافس شركات الدنيا التي تجذب الناس وتبعدهم عن سلعتنا؟!.

* * *

أين القائد؟

كنت في لقاء مع أحد الإخوة الدعاة، وتذاكرنا أحوال الأمة، وما آلت إليه، وتكالب الأمم عليها، وكثرة المؤامرات علىٰ هذا الدين.

فتنهد صاحبي وقال: آه لو أن لنا قائداً يلتف حوله الناس فينقذنا مما نحن فيه!

قلت له: وما فائدة هذا القائد الذي تريد، إذا لم يكن له جنود؟

قال: إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

قلت: إن هذا صحيح، ولكن المشكلة التي نعانيها ليست في عدم وجود القائد، بقدر ما هي في أنفسنا نحن، ما زالت نفوس معظمنا خاوية، وما زالت الدنيا أكبر همنا ومبلغ علمنا.. وما لم نغير هذه النفوس فلن يمنحنا الله قائداً يقودنا للخلاص من هذا الواقع المر.

تذكرت عند هذا الحوار حديث ذلك الرجل، الذي جاء متسائلاً

لعلي بن أبي طالب، وهو يقول: يا علي لماذا كثرت الفتن في عهدك، ولم تكن موجودة في عهد عمر ـ رضي الله عنه ـ؟

فقال له علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: لأن عمر كان يعتمد علىٰ رجال مثلي، وأنا أعتمد علىٰ رجال مثلك.

إن القائد بالرغم من أهميته، إلا إنه لن يستطيع عمل شيء من غير جنود علىٰ مستوىٰ المهمة التي هم بصددها.

* * *

صور من الوفاء

الوفاء خلق رفيع لا يملكه إلا أولئك النفر من الناس ممن تتوافر فيهم الأصالة الإِنسانية، وسلامة الطبع، أما الذين يعانون من أمراض النفس وعقدها، فيفتقرون إلىٰ مثل هذا الخُلق، حتىٰ وإن حازوا من العلم ما حازوا، وبدت في ظاهرهم معالم الالتزام.

يروي الأبشيهي في المستطرف (ص **٢٩٢، ٢٩٣**) قصتين في الوفاء:

الأولى: فص الياقوت: (لما أحس مصعب بن الزبير بالقتل دفع إلىٰ مولاه زياد فص ياقوت قيمته ألف ألف، وقال له: أنج بهذا، فأخذه زياد، ودقه بين حجرين، وقال: والله لا ينتفع به أحد بعدك).

الثانية: المنصور وهشام: (سأل المنصور بعض بطانة هشام بن عبد الملك عن تدبيره في الحروب، فقال: كان ـ رحمه الله تعالىٰ ـ يقتل كذا وكذا، فقال المنصور: عليك لعنة الله، تطأ بساطي وتترحم علىٰ عدوي، فقال: إن نعمة عدوك لقلادة في عنقي، لا ينزعها إلا غاسلي، فقال له المنصور: ارجع يا شيخ، فإني أشهد أنك لوفي حافظ للخير).

قد تدعوك ظروف الزمان، وتزيين الشيطان عندما تختلف مع من أسدىٰ إليكَ معروفاً، أن تقرر هجره ومقاطعته، فلا تنس عند تلك اللحظات ذلك

المعروف، ومواقف الخير التي وقفها معك، وتنسف ذلك كله في لحظة غضب تريد الانتصار فيها لنفسك، هذا إذا كان مع فرد واحد، فكيف إذا اختلفت مع جماعة الخير، التي اهتديت وترعرعت في جنباتها، وكانت سبباً في ثباتك وعلمك، ومعرفتك وشهرتك.. أيكون الوفاء أن تنسىٰ كل ذلك؟!.

* * *

فأولئك هم المفلحون

من أكبر العوائق التي تقف أمام ارتقاء المسلم، إلىٰ الدرجات العالية في الدنيا والآخرة، شح النفس، وبخاصة فيما يتعلق ببذل المال، لأن المال كما يُقال نسيب الروح، فلا تعرف معادن الرجال إلا حين البذل، ولا يعرف صدق الإيمان إلا حين البذل، ومن منعه الشح عن البذل، فذلك علامة كبرىٰ من علامات التعلق بالدنيا، وضعف الإيمان بالرزق المقدر من الله تعالىٰ، كما أن البذل علامة بارزة من علامات الانتصار علىٰ النفس، لذلك قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

ويقول أحمد بن أبي خالد وزير المأمون: «من لم يقدر علىٰ نفسه بالبذل، لم يقدر علىٰ عدوه بالقتل»، سير أعلام النبلاء ١٠/٢٥٦، ذلك أن النفس أغلىٰ من المال، فمن لم يستطع بذل المال، فإنه من الصعب عليه أن يبذل ما هو أغلىٰ منه، فليكن الإنفاق صنعة لازمة لدعاة الخير، حتىٰ يعودوا أنفسهم مقاومة الشح لنيل الفلاح.

* * *

زخارف الدنيا

يقول الإمام الحافظ أبو اليمان الحكم بن نافع البهراني: «صرت إلىٰ مالك، فرأيت ثمَّ من الحجَّاب والفرش شيئاً عجيباً، فقلت: ليس ذا من

أخلاق العلماء، فمضيت وتركته، ثم ندمت بعد»[1].

مظاهر الدنيا عندما يضعها الربانيون لا تؤثر فيهم، بل يتسامون عليها، وغيرهم يصير لها عبداً، ومن الخطأ النظر للجميع بمنظار واحد، هذا ما وقع فيه أبو اليمان عندما قرن عبيد الدنيا بالإمام مالك، فخسر أخذه للعلم منه، ولم يفطن إلا بعد وفاة الإمام مالك، حيث ندم علىٰ ظنه القديم.. والفقر والغنىٰ ومظاهره قضية نسبية، فقد يكون بعض الفقراء أو الزهاد في مجتمع أغنياء في مجتمعات أخرىٰ، ومن يملك سيارة هي في بعض المجتمعات ضرورة حياتية، ومع ذلك قد يصنف من الأغنياء في مجتمعات أخرىٰ، والأصل في ذلك هو النظر إلىٰ سلوك من يملك هذه الزخارف، هل صار عبداً لها، وغيرت من سلوكه وإيمانه، وتعلقه بالآخرة، أم أنه وضعها في يده ولم يدخلها في قلبه؟.



وزن الناس بحسناتهم وسيئاتهم

جاء في ترجمة عثمان بن مسلم الأنصاري في سير أعلام النبلاء ٢٥١/١٠ قول سلمة بن شبيب: «قلت لأحمد بن حنبل، طلبت عثمان بن مسلم الأنصاري في منزله، قالوا: خرج، فخرجت أسأل عنه، فقيل: توجه هكذا، فجعلت أمضي أسأل عنه، حتىٰ انتهيت إلىٰ مقبرة، وإذا هو جالس يقرأ علىٰ قبر بنت أخي ذي الرياستين، فبزقت عليه، وقلت: سوءة لك، قال: يا هذا، الخبز الخبز! قلت: لا أشبع الله بطنك. قال: فقال لي أحمد بن حنبل: لا تَذْكُرَنَّ هذا، فإنه قد قام في المحنة مقاماً محموداً عليه، ونحو هذا من الكلام».

وسلمة بن شبيب المسمعي من كبار الأئمة، وهو ممن روىٰ عنهم

(١) سير أعلام النبلاء ٣٢٤/١٠.

الإمام أحمد، وفي هذه الحادثة يرىٰ الإمام الحافظ عثمان بن مسلم الأنصاري يقرأ القرآن علىٰ قبر بنت أخي الرياستين، فما تمالك نفسه إلا أن بزق عليه.. هذا الغضب الذي دفع بإمام مثل سلمة أن يبزق علىٰ إمام حافظ مثل عثمان ليس بسبب قراءة القرآن علىٰ الأموات ـ كما يعتقد البعض، فهذا أمر مختلف فيه بين العلماء في جوازه من عدمه، وهو مع ذلك لا يستحق علىٰ كل الأحوال أن يبزق علىٰ صاحبه، بل كان بسبب قراءته علىٰ أحد قرابة ذي الرياستين، وهو الفضل بن سهل السرخسي الذي كان قد تقلد الوزارة والحرب في خلافة المأمون الذي قاد فتنة خلق القرآن، وكان ذو الرياستين باطنياً منجماً ماكراً كما وصفه الذهبي.. ومع ذلك فإن الإمام أحمد يعطي درساً عميقاً في توثيق الرجال، ويركز علىٰ ميزان مفقود عند كثير من الدعاة، ألا وهو وزن الناس بحسناتهم وسيئاتهم، فمن غلبت حسناته، وكان من الذين ظاهرهم الالتزام والخير غضضنا الطرف عن هفواتهم.



أين الوقت؟

كثير من الدعاة يضيق وقته عن القيام بما يتمنىٰ القيام به في جميع المجالات، سواء في المجال الإيماني، أو الشرعي، أو الثقافي، أو الرياضي، أو مجال الأسرة، والتجارة، والدعوة.. وكثير من الأمور.

وعندما تسأله عن سبب تأخيره للكثير من أعماله، يجيبك بسرعة: «وأين الوقت؟»، وعندما يبدأ بسرد برنامجه اليومي تستسلم لعذره، وتقول: حقاً إنه لا يملك الوقت.

ولكن الحقيقة غير ذلك، فمن يقول هذه الكلمة، وقد أخّر الكثير من هذه الأعمال، فهذا قطعاً لا يملك خطة لتنفيذ هذه الأعمال، ولهذا السبب شغل كل وقته بأعمال محددة لا يستطيع الفكاك منها..

وهنا وقت كافٍ، ومتسع إذا عرفنا كيف نسخّر هذا الوقت في صالحنا، أما إذا جهلنا ذلك فإنه يقطعنا فلا نستطيع إنجاز شيء.

وأول خطوة في إدراك استغلال الوقت هي وضع أهداف محددة، ووضع وسائل لكل هدف محدد بأوقات وتواريخ، ثم وضع ضوابط لتنفيذ هذا المخطط، ثم إلزام النفس بالتنفيذ.

❋ ❋ ❋

فنون غرس القيم والسلوك

روي عن الثقة الكوفي زبيد اليامي (أنه كان قد قسّم الليل ثلاثة أقسام: قسم لنفسه، وقسم لولده، وقسم لولده الآخر، وكان يصلي الثلث الأول، ثم يوقظ ولده الكبير فيصلي الثلث الأوسط، ثم يوقظ ولده الصغير فيصلي الثالث الأخير، وكان إذا أيقظ أحداً من أولاده فيرىٰ في عينه نوماً يقول: نم أنت، وأنا أقوم عنك، فإذا فرغ جاء لولده الآخر، فإذا وجد عنده نوماً فعل معه كذلك، رضي الله عنهم جميعاً)[1].

هذه القيم والمبادئ السامية، والسلوك الإيماني، المستمد من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، لا يمكن أن تستقر في نفوس من نربيهم سواءً من الأبناء أو غيرهم إلا إذا توافرت القدوة الحسنة، والرفق بإدخال هذه القيم، والاهتمام المستمر بغرس هذه القَيم والسلوك، ولو فُقِد أحد هذه الثلاث فمن الصعب استقرار مثل هذه القيم في نفوس من نربيهم.

وصفحات التاريخ القديم والحاضر تنبئنا عن الكثير من الصالحين ممن استخدموا القسوة والإِجبار في غرس القيم والسلوك لأبنائهم، فكانت النتيجة

(١) صفة الصفوة ٩٨/٣.

كراهية الأبناء للالتزام، وكانوا أسوأ مثل للشباب الفاسد.. انظر كيف كان الثقة زبيد يرفق بأبنائه عندما يراهم نائمين، وتعلَّم منه التعامل مع الأبناء عند غرس القيم.

***

ضرورة الأخوَّة

هل يمكن للمؤمن أن يمارس دوره في هذه الحياة من غير إخاء في الله؟

نعم.. يستطيع ذلك، ولكنه يعرض نفسه لخطورة كبيرة، وقد تؤدي به هذه الخطورة للانتكاس، أو ولوج دروب المعصية، والخطورة التي نعنيها عند التخلي عن الإِخاء في الله تتعدد صورها.. منها أنه لن يجد من يعينه علىٰ الحق، ومن لم يجد أعواناً علىٰ الحق يتعب، ولعل تعبه هذا يضعفه عن القيام بما أوجبه الله عليه، أو التخلي عن القيام بالواجبات درءاً للمفاسد التي تنشأ عن قيامه بالواجب.

ومنها أنه لن يجد من ينصحه عند الخطأ، والنصيحة هي التنقية من الأخطاء والشوائب، الأمر الذي يؤدي إلىٰ تراكم هذه الأخطاء حتىٰ ترديه، ومنها أن الإِنسان يتشجع عندما يرىٰ غيره يقوم بالشيء الذي يتردد في فعله، وأنت ترىٰ الناس جميعهم يسهل عليهم صيام رمضان، لأنهم يرون الجميع يصومونه، بينما يشق عليهم صيام التطوع لأنهم قل أن يروا من يصومها، كذلك المؤمن عندم يرىٰ إخوانه يفعلون الخير فإنه يتشجع لفعله، وربما نسيه أو شق عليه عندما لا يرىٰ من يقوم بذلك.

ومنها أن الإِنسان يتأثر بمن يحتك به، فمن ليس له إخوة في الله فإنه قطعاً يحتك بمن هم دون ذلك، وبالتالي سيتأثر بهم وبسلوكهم وطباعهم، مما سيفقده الكثير مما اكتسبه من سلوك الخير.

يقول الشاعر:

وما المرءُ إلا بإخوانه كما يقبض الكف بالمعصم
ولا خير في الكف مقطوعة ولا خير في الساعد الأجذم[1]

❊ ❊ ❊

الفشل طريق النجاح

جرب العالم أديسون ما يزيد علىٰ الألف محاولة في اختراع الإِضاءة، ولكنه فشل، فجاءه أحد الصحفيين ساخراً منه ومستغرباً إصراره علىٰ مواصلة المحاولات، فسأله عندما كان في منتصف الطريق: (لقد جربت ما يزيد علىٰ الخمسمائة محاولة ولم تنجح، أما كان هذا الفشل دافعاً لك لتترك محاولاتك؟).

فرد عليه أديسون: (لم أفشل، ولكنني تعلمت ٥٠٠ محاولة خاطئة للوصول إلىٰ الإِضاءة).

بعد هذه المقابلة واصل الطريق حتىٰ تجاوز الألف محاولة، ثم نجح أخيراً في أكبر اختراع في عالمنا المعاصر.

ما أكثر الذين يبدأون بعض المشاريع، ولكنهم يتوقفون عند أول إخفاق، ويدخلون في دوامة الشعور بالإِحباط واليأس من النجاح، سواءً في عالم التجارة، أو الصحافة، أو العلاقات الاجتماعية، أو العمل الخيري، وغيرها من المجالات.

يقول توم بيترز في كتابه الجديد (الإِدارة المتحررة نهاية الهرم الإِداري

(١) المستطرف: ١٨٢.

في التسعينيات): (أكثر من محاولاتك الفاشلة، كلما فشلت أكثر كلما اقترب النجاح).

إن الثقة بالله تعالىٰ، وبقدرته، ثم الثقة بالنفس، وقدراتك الخاصة هي السبيل للنجاح في أي مشروع تبدأ فيه، فلا نجاح إلا بعد إخفاق.

❊ ❊ ❊

أثر الموعظة

كثير من الناس لا تنفع معهم المواعظ، وبخاصة إذا كان يغلب عليها جانب التيسير والرحمة والترغيب والمغفرة، فيظن أن ذلك مدعاة للتسويف والتواكل، وقديماً كانوا يقولون: (الحُر تكفية الإِشارة).

فيفهم من خلال الإِشارة ولا يحتاج إلىٰ تفصيل، ذلك لأنه يملك المشاعر والأحاسيس والعقل الذي يدعوه للاستفادة من الموعظة العابرة، حتىٰ وإن لم تكن موجهة إليه، بينما من لا يملك هذه المشاعر لكثرة معاصيه وغفلته، وانشغاله فيما يصد عن الآخرة، فيحتاج لكمٍّ كبير من التفاصيل، ولا يفهم الإِشارة أبداً، كما أن المواعظ العامة لا تنفعه، بل لا يحرك مشاعره المتبلدة إلا ما يلسع من المواعظ.

وقد خاطب الإِمام علي ـ كرم الله وجهه ـ هذا الصنف من الناس بقوله: «لا تكونن ممن لا تنفعه الموعظة، إلا إذا بالغت في إيلامه، فإن العاقل يعظ بالأدب، والبهائم لا تتعظ إلا بالضرب»[1].

نسأل الله العظيم أن يجعلنا من الأحرار الذين تكفيهم الإِشارة، وأن يوقظ مشاعرنا كي نحوّل المواعظ إلىٰ منهج عمل يغير من سلوكنا في هذه الحياة نحو الأفضل، ونحو ما يقربنا من الله تعالىٰ.

❊ ❊ ❊

(١) المستطرف: ١٢٣.

قطرة الخير

عندما قرر الرسول ﷺ هجرة أصحابه الأولىٰ، بعدما اشتد البلاء عليهم في مكة، أمرهم بالتوجه إلىٰ الحبشة، علماً بأن النجاشي ملكها كان نصرانياً، ولم يكن في أرضها أي رائحة للإسلام والمسلمين.

فهل كان قرار النبي ﷺ من فراغ، أم أنه لم يكن مدروساً، عندما أرسل أصحابه إلىٰ أرض مجهولة ليعيشوا بين أناس يختلفون عنهم في كل شيء: (اللغة، والعادات، والتقاليد، والدين، والأصول)، وحتىٰ اللون.

وفي خضم هذه الاختلافات الكثيرة يكون التعرض للخطر أكثر من التعرض للأمان؟

حاشىٰ للنبي ﷺ من كل نقيصة، ولكنه أوتي الكمال البشري مضافاً إليه الوحي، والرسول ﷺ يعلِّم البشرية كلها من خلال هذه الحادثة أن يتعامل بعضهم مع بعض من خلال الأرضيات المشتركة، ولا يخلو اثنان من أرضية مشتركة بينهما (لو أنهما بحثا بإخلاص).

ومن خلال البحث عن الخير فيمن تختلف معه، وما أكثر الخير في الناس لو أننا تجردنا من أهوائنا، وبحثنا بجد عن هذا الخير، ولا يخلو إنسان من قطرة خير حتىٰ وإن كان من أكثرهم شراً.

لقد بحث النبي ﷺ عن خصال الخير فيمن يختلف معه في العقيدة، واللغة، والعادات، والتقاليد، والبلد، والأصول، فوجدها في عدله، وكراهيته للظلم، فأرسل أصحابه لملك تلك البلاد، لأن غايته آنذاك لم تكن تبليغ الدعوة، بل حماية من أسلم من الإبادة والبلاء.

الناجحون في هذه الحياة هم من يستطيعون التعامل مع الجميع من خلال الأرضيات المشتركة، ومن خلال الخيرية فيمن يختلفون معهم، ولهذا السبب يضع علماء الإدارة صفة كسب الناس، واتساع دائرة المعرفة بالآخرين

من أبرز صفات الناجحين في الحياة.. أما أولئك الذين لا يرون إلا السواد والظلمة فيمن يخالفونهم فهم قطعاً من الفاشلين.

❋ ❋ ❋

☜ ما عندي حظ

يقول د. هاريسون إيليون في كتاب «الموسوعة النفسية» ص٧٢:
«ويتبع كثير من الأشخاص ما يسمونه التعديل بالتهرب من التبعة، فإذا أقرُّوا أن بهم نقصاً ما، أقرّوا به مُكْرهين، وبدلاً من أن يواجهوا النقص بجرأة ليجدوا له حلاً ملائماً تراهم يُلْقُون تبعته علىٰ الوراثة، أو علىٰ مرض كان قد أصابهم، أو علىٰ انعدام الفرص لديهم، أو علىٰ ظروف ليس لهم عليها أي سلطان، أو غير ذلك».

ومن عدالة الله سبحانه وتعالىٰ أنه جعل فرص النجاح متوافرة للجميع، فمنهم من بذل أسباب النجاح، ولم يأبه للعوائق، بل تحدَّاها في مجاهدة مستمرة، تغلبه ويغلبها، حتىٰ تغلب عليها تماماً، واستفاد من إخفاقاته، وحوَّلها إلىٰ نجاح، ومنهم من رضي بأن يرىٰ العوائق، وينوح أمامها ويلقي بالتبعة، وبأسباب الفشل علىٰ الآخرين.

لقد أجاد د. هاريسون عندما ذكر أهم أعذار الفاشلين في الحياة، ولخص قائمة الأعذار بجملة واحدة وهي إلقاء التبعة علىٰ الآخرين، وتبرئة النفس من التقصير.

وعندنا ثمة أسباب لم يذكرها هاريسون في قائمة أسباب الفاشلين، وهي ما يتحجج به الكثير مبرراً فشله مردداً عبارة (ما عندي حظ)، أو (ما عندي واسطة).

إن طريق النجاح طريق ليس بالسهل، بل دونه جهد، وجهاد، وعرق وصبر، وتحمل ومشقة، ولكن نهايته عز وجمال، وراحة وانتصار.

ليتذكر من يعاني الفشل في هذه الحياة أن أول خطوة في طريق النجاح بعد التوكل علىٰ الله هي الاعتماد علىٰ النفس، وترك الاعتماد علىٰ الآخرين، وليتذكر قول العرب: «ما حك جلدك مثل ظفرك»، وليتوقف عن البكاء، وندب الحظ، وحسد الآخرين، وينطلق الآن بإزالة العوائق للوصول إلىٰ الهدف.

* * *

الخلاص بالإخلاص

كنت في جلسة إيمانية مع أخ لي في الله، فقال لي: إن أخوف آية لي في القرآن الكريم هي قوله تعالىٰ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣].

هذه الجلسة مضىٰ عليها أكثر من عشرين سنة، لكنني ما زلت أتذكرها حتىٰ هذه اللحظة، وكلما مررت بهذه الآية أتذكر ذلك اللقاء.

إنها حقاً من أكثر آيات القرآن تخويفاً للمؤمنين، وتتحدث عن فئة من المسلمين تقوم بأعمال كجبال تهامة، من حج وصدقات، وقراءة للقرآن، وأعمال بر كثيرة، وقيام الليل، ودعوة، وصيام، وغيرها من الأعمال، وإذ بالله تعالىٰ ينسف هذه الأعمال فيكون صاحبها من المفلسين، وذلك لأن عنصر الإخلاص كان ينقص تلك الأعمال.. فليس لصاحب تلك الأعمال إلا التعب والسهر، والجوع، ولا خلاص يوم القيامة من العذاب، والفضيحة إلا بالإخلاص، ولا قبول للعمل إلا بالإخلاص.

كان معروف الكرخي نصرانياً ثم أسلم، وتزهد، وكان يكثر من القول لنفسه معاتباً: «يا نفس كم تبكين، أخلصي وتخلصي»[1].

نسأل الله تعالىٰ الإخلاص في أعمالنا.

* * *

(١) سلوة الأحزان: ٦١.

أرباب العلم

اجتمع كعب، وعبد الله بن سلام، فقال له كعب: يا بن سلام: مَنْ أرباب العلم؟

قال: الذين يعملون به.

قال: فما أذهب العلم عن قلوب العلماء بعد أن علموه؟

قال: الطمع، وشره النفس، وطلب الحوائج إلىٰ الناس[1].

كم تضخ كليات الشريعة من خريجين كل عام؟

وكم يتلقىٰ الطلبة علىٰ أيدي المشايخ في طول البلاد وعرضها من دروس علمية؟

وكم عدد الخطب والدروس والمحاضرات والمؤتمرات الإِسلامية؟

ولكن أين أرباب العلم؟

وكم عددهم بالمقارنة بمن يستمعون للعلم ويتلقونه علىٰ أيدي العلماء في كل مكان؟

لا شك في أن عددهم قليل جداً، والسبب هو ما ذكره ابن سلام ـ رضي الله عنه ـ من أن عدداً منهم يصرف هذا العلم لغير وجه الله تعالىٰ والتطلع إلىٰ مناصب الدنيا وزينتها، بل والتقاتل فيما بينهم علىٰ ذلك، وهذا العلم لا يمكن أن يستقر في قلبٍ لاهٍ عن الله تعالىٰ.

سأل الإِمام الشافعي شيخه وكيعاً عن ضعف في حفظه فقال له: إن ذلك بسبب المعصية، وصاغها الإِمام بأبيات شعر جميلة قال فيها:

شكوتُ إلىٰ وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلىٰ ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نورٌ ... ونور الله لا يُهدىٰ لعاصي

❊ ❊ ❊

(١) المستطرف: ص١١٢.

كيف نطفىء غضب الرب؟

ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «**كل ابن آدم خطّاء وخير الخطائين التوابون**».

كلنا يخطئ، ومن الخطأ ما يغضب الرب سبحانه وتعالىٰ، وبخاصة إذا لم يتبع الخطأ توبة، وندم، واستغفار.

والأخطاء إنما تصدر علىٰ هيئة كلماتنا، وأفعالنا.. فكم من الكلمات نقول كل يوم؟ وكم من الأعمال نفعل؟ ولا ندري أي كلماتنا أو أفعالنا الخاطئة تغضب الرب سبحانه وتعالىٰ؟

ولهذا السبب وجدنا من العباد من تزداد حساسيته الإيمانية، وخوفه من الجليل حداً يجعله علىٰ حذر عظيم من تلكم الأخطاء، ولا همَّ له سوىٰ العمل علىٰ إطفاء غضب الرب، والحصول علىٰ رضائه بكل ما يستطيع من الأعمال التي يحبها سبحانه وتعالىٰ، فلا يهمه منزلته بين الناس ولا علمه، ولا شهرته، إذ هو أعلم الناس بنفسه.

والإمام زين العابدين يعطينا نموذجاً عملياً لأولئك الحريصين علىٰ إرضاء الرب، وإطفاء غضبه، بل كان ذلك شغله الشاغل، فقد كان «يحمل جراب الخبز علىٰ ظهره بالليل، ويطوف به علىٰ الفقراء، والأرامل، ويقول: إن صدقة السر تطفئ غضب الرب سبحانه وتعالىٰ».

إننا بحاجة إلىٰ مثل هذه الأعمال لإطفاء غضب الرب حقاً علىٰ ما نرتكب من أخطاء[1].

❀ ❀ ❀

الناس في رمضان

الناس في شهر رمضان أنواع كثيرة، لا تعد ولا تحصىٰ.. منهم

---

(١) سلوة الأحزان: ٣٧.

المتعبد، ومنهم المبتعد.. منهم الأكول، ومنهم الغضوب.. منهم السهران، ومنهم النوام.. منهم من يتغير بعد رمضان، ومنهم من يظل علىٰ حاله.. منهم من يزيد وزنه، ومنهم من ينقص وزنه، فلنتعرف بعض هٰذا الأنواع:

العابدون: صنف من الناس أدركوا أن رمضان فرصة قد لا تعود إليهم، ولن يعيشوا ليدركوها ثانية فاغتنموا كل ساعاته وأيامه بالتقرب إلىٰ الله والتوبة إليه، وعمل الخير من قيام وقراءة للقرآن، والعطف علىٰ الفقراء، وصلة الأرحام، ومساعدة الضعفاء، وزيارة البيت الحرام، وغيرها من أنواع البر والخير.

الساهرون: فئة ينتظرون رمضان ليحيوا لياليه، لا بالعبادة، بل بالسهرات في الديوانيات علىٰ المحطات الفضائية المتنوعة، وعلىٰ الثرثرة التي لا تنفع، وإذا ما جاء النهار ناموا فيه، وربما لم يستيقظوا إلا قريباً من المغرب، حيث جعلوا ليلهم معاشاً والنهار لباساً.

الغاضبون: هؤلاء في رمضان لا يستطيع أن يحدثهم أحد بشيء فمزاجهم «مغموس» يثورون لأتفه الأمور، وكأنهم وحدهم هم الصائمون، تقل إنتاجيتهم في رمضان، وتزداد آثامهم بسبب بذاءة لسانهم، وسوء أفعالهم.

الصائمون من غير صلاة: هذا الصنف من أغرب الأصناف في رمضان، إذ يحرصون علىٰ الصيام، لكن من غير صلاة، وكأن الإِله الذي أمرهم بالصوم هو غير الإِله الذي أمرهم بالصلاة، وبالرغم من أن الصوم عبادة شاقة، والصلاة أسهل منها بكثير، إلا أنهم يصرون علىٰ عدم الصلاة ونسوا أن الصلاة عمود الدين.

المجاهرون: أكثر الأصناف شذوذاً، إذ يصعب عليهم الإِمساك عن الطعام أمام الناس واحترام مشاعرهم، فيتعمدون المجاهرة بالفطر، بسبب تبلد مشاعرهم، وقساوة قلوبهم، وخوائهم من قطرة واحدة من الحياء، وقديماً قيل: «إذا لم تستح فافعل ما شئت».

نسأل الله تعالىٰ أن يتقبل صيامنا، وقيامنا، وعمل الخير في شهر الخير، وأن يعتقنا جميعاً من النار.

* * *

إرادة التغيير

في رمضان يتغير كل شيء، برنامج المجتمع اليومي، والبرنامج الشخصي لكل فرد، تتغير مواعيد النوم، ومواعيد العمل، ومواعيد الزيارات، ومواعيد الطعام، تتغير عبادة الإنسان لربه، فيكون أكثر قرباً لله، وأكثر قراءة للقرآن، وأكثر صلاة، وأكثر التصاقاً ببيوت الله تعالىٰ، ويشعر بأنه غداً إنساناً آخر.

رمضان يعلمنا أننا نستطيع أن نتغير لو أننا قررنا ذلك، وأن الله تعالىٰ قد أودع في الإنسان طاقة كبرىٰ لذلك التغيير، وأن ذلك ممكن لو قرر الإنسان ذلك، ولكن بعض المؤثرات الداخلية والخارجية التي يستسلم لها، تجعله يستصعب ذلك التغيير الذي يذكره به رمضان كل عام.

إنه يقول لمدخن السيجارة: إنك تستطيع أن تمتنع عنها منذ طلوع الفجر، وحتىٰ غروب الشمس، ويقول لعشاق الطعام: إنكم تستطيعون ترك الطعام ليوم كامل إذا أردتم، ويقول للهاجرين للقرآن: إنكم تستطيعون ختمه في شهر لو أردتم ذلك، ويقول لكل صاحب قصد سيئ أو معصية: إنك تستطيع تغييره لو أردت ذلك.

إذن هي إرادة التغيير التي تنبع من ذواتنا نحن، ولا تهبط علينا فجأة من السماء، إنها تبدأ حينما يقرر الإنسان ذلك، وهذا ما توصلت إليه آخر الأبحاث في علم الإرادة، بأنه «لا فرق بين جامع القمامة والمليونير في العقل، وإنما الفرق هو قرار كل واحد منهما».

وصدق الله تعالىٰ إذا يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

قرر أنت فقط أن تتغير وسيتغير ما فيك من الخطأ، ولا يمكن لأحد سواك أن يقرر ذلك بدلاً منك.

❋ ❋ ❋

رمضان.. إحساس

رمضان مدرسة كبيرة، وفرصة عظيمة لمن يقدر علىٰ استغلالها، والمتخرج في رمضان بتفوق يحصل علىٰ خير كثير، وخبرات متعددة، يصعب الحصول عليها في غير هذا الشهر، الذي يعتبر دورة صيانة شاملة لهذا الإِنسان.

ومن أبرز ما يتعلمه الصائم في رمضان تنمية «الإِحساس»، إذ أن الإِنسان لا يشعر بالنعمة إلا إذا فقدها، فهو لا يشعر بنعمة الصحة والعافية إلا إذا أصيب بالمرض، ولا يشعر بنعمة المال إلا إذا أصيب بالفقر، أو الحاجة، ولا يشعر بقيمة الوقت إلا إذا انشغل فلم يجد وقتاً.

ورمضان يأتي بمثابة معهد تدريبي لهذا الإِنسان الذي يتبلد عنده الحس طيلة سنة كاملة، بسبب كثرة الانشغال والغرق في معمعة الماديات، فعندما يجوع لا بد من أن يتذكر فئة كبيرة من المجتمع الذي هو فيه، وممن يعيشون علىٰ أرضه جائعين.

وهؤلاء أحق الناس بمساعدتنا، فالأقربون أولىٰ بالمعروف، ثم يتذكر الجياع من المسلمين في سائر بلاد المسلمين، ثم يغشىٰ بيوت الله التي لم يكن يحافظ علىٰ الصلاة فيها، فيشعر بلذة الجلوس في بيوت الله وقراءة كتابه، ويسابق الزمن لختم كتاب الله مرة أو مرتين، فيشعر بأهمية الوقت ومحدودية عمره في هذه الحياة، فلا يضيّع وقتاً في غير ما يُرفع إلىٰ البارئ وتتجمع أسرته على الإفطار فسيشعر بجمال التجمع الأسري، ليقوده هذا الشعور بتقصيره في الاحتكاك بزوجته وأبنائه ومدىٰ الفرحة التي يخسرها بعدم أو قلة الاحتكاك بهم.

وهكذا ينمي الصائم «إحساسه» ليمارس بعد رمضان إنسانيته كإنسان يسعد في هذه الحياة ولا يشقىٰ بها.

***

قبل الوداع

ها هي أيام وليالي رمضان تقترب من النهاية، وها هو الشهر الفضيل يؤذننا بالرحيل، وها هي الأيام والليالي العبقة بعطر الإيمان تتضاءل، وها هو السمت الإيماني العام ينكمش، فلكل شيء بداية ونهاية، ووراء كل حركة سكون، ويعقب كل نهار ليل، ويأتي بعد كل ارتفاع هبوط.

كأنني أرىٰ رمضان شخصاً قد أتىٰ بهدايا وعطايا وزعها علىٰ البعض، وحرم منها آخرين، وهدايا أعظم منها أجّلها إلىٰ اليوم الآخر بعد أن يقرض نتائج أعمال رمضان لكل مجتهد فيه، فمنهم من سيفرح الفرحة الكبرىٰ يوم القيامة عندما يُنادىٰ عليه من باب الرَّيَّان الخاص بالصائمين، ومنهم من سيُعاقب العقاب العظيم بسبب جرأته وإفطاره من غير عذر في رمضان، بل واقترافه ما نهىٰ الله عنه دون حياء من الله تعالىٰ.

قبل الوداع حريّ بنا أن نتأمل موقف صنفين من الناس في رمضان، الأول هم من يُقبلون علىٰ العبادة، وبيوت الله وقراءة القرآن، والصدقات، وقيام الليل، وفعل الخيرات، فإذا ما انتهى رمضان هجروا بيوت الله وربما هجر بعضهم حتىٰ الصلاة، وقاطعوا القرآن، وامتنعوا عن قيام الليل، وعادوا إلىٰ ما كانوا عليه من الغفلة.

والصنف الآخر، هم الذين زادوا من تقربهم إلىٰ الله في رمضان، ومن قراءتهم والعمل بالقرآن، وأكثروا من فعل الخير، وازدادت صلتهم ببيوت الله تعالىٰ، فترك رمضان بصماته علىٰ سلوكهم بعد رحليه، فتغير كثير من أخلاقهم ومشاعرهم، ونظرتهم للحياة والآخرة.

هذا الصنف الأخير هو الصنف الناجح المتفوق في جامعة رمضان السنوية، لأنه قد أحدث التغيير الإِيجابي في نفسه، بينما الصنف الأول زائد في جموع المصلين والصائمين، وسرعان ما يتلاشىٰ في الأول من شوال ليعود متحركاً في هامش الحياة بسلبيته التي لم تسعفه للاستفادة من رمضان.

وقبل رحيلك يا رمضان، نسأل الله القبول، ونأمل أن نلقاك في العام المقبل.

❊ ❊ ❊

قلوب مُعلَّقة بالله

عندما تزداد صلة العبد بالله تعالىٰ، ويطهِّر قلبه من كل متعلق سواه، ويزداد قربه إليه بالطاعات، ويستشعر أهمية الوقت فلا يستنفد منه شيئاً إلا بما يقربه إليه، فإن كل المخلوقات تصبح لا تساوي عنده شيئاً، وذلك حين ترسخ عقيدته بأنه لا ضار ولا نافع إلا الله، وأن كل مخلوق مهما ملك من القوة والصولة، والعدة والعتاد، فإنه يبقىٰ مخلوقاً لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، ولا حياة ولا نشوراً، ومن هذه الزمرة كان الإِمام المحدث الزاهد بنان بن محمد بن حمدان، فمما جاء في ترجمته أنه «كان يأمر شخصاً من أصحابه بالمعروف، وينهاه عن المنكر، فرماه يوماً بين يدي سبع، فجعل يشمَّه، ولا يضره، فقام من بين يدي السبع، فقيل له أين كان قلبك حين شمَّك السبع؟ قال: كنت أتفكر في سؤر السباع ولُعابها»[1]، أي أنه كان يفكر أكان سؤر السباع طاهراً أم نجساً؟ أما الخوف منها فما خطر علىٰ قلبه.. عندما ضعفت صلتنا بالله، وأصبحنا نخاف من البشر أكثر من خوفنا من الله تعالىٰ غابت عن دنيانا هذه النماذج المضيئة.

❊ ❊ ❊

(١) تاريخ بغداد ١٠١/٧.

أثر الإيثار والصدقة

يقول الله تعالىٰ في كتابه الكريم: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، فالذي يستطيع مجاهدة نفسه المحبة للمال، التي تدعوه للشح وعدم الإنفاق، هو من المفلحين الناجين في الدنيا والآخرة، ومما يدلل علىٰ ذلك ما جاء في بعض الإسرائيليات: أن عابداً عبد الله سبعين سنة، وفي ليلة شاتية طرقت معبده فتاة جميلة تريد أن يؤويها فلم يلتفت إليها، فذهبت، فنظر إليها فأعجبته، فناداها، وأبقاها عنده سبعة أيام في معصية الله، ثم ندم علىٰ ما كان منه عندما تذكر حلاوة العبادة التي هجرها، فقام باكياً، وهام علىٰ وجهه، حتىٰ دخل إلىٰ خربة بها عشرة عميان، كان يتصدق عليهم راهب كل يوم برغيف لكل منهم، فلما جاء غلام الراهب بالأرغفة أخذ العابد رغيفاً فنقص رغيف لأحد العميان، فقال: أين رغيفي؟ فقال الغلام: لقد وزعت عليكم جميعاً، فقال الأعمىٰ: أبيت طاوياً، فبكىٰ الرجل العاصي وناول الرغيف لصاحبه وقال لنفسه أنا أحق بأن أبيت طاوياً لأنني عاص وهذا مطيع، فنام واشتد به الجوع حتىٰ أشرف علىٰ الهلاك، فأمر الله الموت بقبض روحه، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: هذا رجل فر من ذنبه وجاء طائعاً، وقالت ملائكة العذاب: بل هو رجل عاص، فأوحىٰ الله تعالىٰ إليهم أن زنوا عبادة السبعين سنة بمعصية السبع ليالٍ، فوزنوها فرجحت المعصية علىٰ العبادة، فأوحىٰ إليهم أن زنوا معصية السبع ليال بالرغيف، فرجح الرغيف، فتوفته ملائكة الرحمة»[1].

ويؤكد هذه الرواية ما جاء في حديث قاتل المائة وكيف أن الله رحمه بعد موته.

❊ ❊ ❊

---

(١) المستطرف ١٨، ١٩.

أبكي على عدم الإحساس

تذكر كتب التربية أن أخاً طرق باب أخيه في حاجة، فلما قضاها له، أغلق الباب، ثم بكىٰ، حتى أشفقت عليه زوجته، فسألته عن سبب بكائه، بعد أن ظنت أنه قد تأسف علىٰ المال الذي أعطاه لأخيه، فقال لها: ليس علىٰ إعطائي أبكي، بل أبكي لأنني لم أشعر بحاجة أخي واضطررته لطرق بابي وسؤالي.

هذا ما يجب أن تكون عليه الأخوة في الله: شعور متبادل بين الإخوان، يشعر الأخ بحاجة أخيه وبمشكلاته، وبآلامه، وبمرضه، وفرحه، تماماً كما وصفهم النبي ﷺ: «**كالجسد إذا اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والحمىٰ**».

والصديق الذي لا يشعر بصديقه لم يعرف بعد أبجديات الأخوة في الله.. وما أروع ما قاله الزاهد الواعظ يحيىٰ بن معاذ: «بئس الصديق صديق يحتاج إلىٰ أن يُقال له: اذكرني في دعائك»[1]، فالشعور بالأخ يجعل من الواجب عليك أن تدعو له في ظهر الغيب في غير حاجة منه، لا أن يذكرك بذلك، وإلا فبئست الصداقة، وضاع معنىٰ الأخوة.



رسالة حب إلى الأبناء

جاء في ترجمة الزاهد العابد التابعي ابن الصحابي عمرو بن عتبة السلمي، أن أباه قال له يوماً: «يا بني أنا أحبك حبين، حباً لله تعالىٰ، وحب الوالد لولده».

(١) المستطرف: ٢١٣.

فقال له: يا أبت كنتَ وهبتَ لي سبعين ألف درهم؟! فإن كنت محتاجاً إليها فخذها، وإلا فدعني أتصرف فيها.

فقال: يا بني تصرف فيها بما تختار، قال: فبنىٰ له زاوية، وعمل فيها فقراء، ورتب لها وقوفاً بباقيها، ولم يترك معه منها درهماً واحداً»[1].

وهو الذي جاء في ترجمته أنه كان يصلي يوماً بالخلاء، فإذا بأسد يأتي بجنبه، ولم يهرب، وأكمل صلاته، ولما ذهب الأسد سأله أصحابه: أما خفت من الأسد؟ فقال: «إني لأستحيي من الله أن أخاف غيره».

إننا بحاجة لأن نتعلم من ذلك الصحابي الجليل ـ والد هذا التابعي الزاهد ـ فنّ التعامل مع أبنائنا الذي من أبرز أصوله الإِشباع العاطفي للأبناء، وهو الأمر الذي يحتاجونه كاحتياجهم للحليب والطعام.. ولا بد من إرسال الرسائل العملية والكلامية للأبناء بحبنا إليهم، والتودد الدائم لهم، إذ إن الأبناء لا يمكن أن يتأثروا بالآباء أو يأخذوا عنهم شيئاً ما لم يحبوهم.

وواضح أن ذلك الصحابي الجليل ما أحب ابنه إلا بعد أن رأىٰ علامات الصلاح بادية عليه، فأرسل رسالة حب عملية بإعطائه ذلك المبلغ من المال، ثم أرسل رسالة حب كلامية عندما قال له: «إني أحبك حبين».



الدعوة في عروقهم

يقص علينا القرآن الكريم نماذج فذة من الدعاة، الذين لا ينسون هذه الدعوة، وهم في أحلك الظروف، وخاصة من الأنبياء، فقد سُجِن يوسف

(١) صفة الصفوة ٦٩/٣.

عليه السلام فلم ينسه السجن وما فيه من الظروف دعوته، فأخذ يدعو السجناء الذين سُجِنوا معه.

ويذكر القرآن قصة السحرة الذين آمنوا مع موسىٰ عليه السلام، وكيف أنهم ثبتوا أمام تهديد فرعون، بل ودعوه بعد تهديدهم بأبشع أنواع القتل والتعذيب:

﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ [طه: ٧٢ ـ ٧٥].

وتروي لنا السيرة الطاهرة ألواناً من المواقف لسيد البشر ﷺ، وهو يواصل دعوته في جميع الظروف، ومن أجمل صور الإصرار علىٰ الدعوة ما كان بعد طرده وملاحقته من قِبَل السفهاء والأطفال في دروب الطائف بعد أن دعاهم للإسلام، ذهب يتكئ علىٰ حائط إحدىٰ المزارع وهو مرهق من التعب، وقدماه الشريفتان تشخبان دماً، ثم يأتيه عبدٌ لأحد الكفار يعطيه بعض الطعام، فيستغل الموقف ويدعوه للإسلام، فُيسلم. وهكذا رُبِّي الصحابة الكرام علىٰ حب الدعوة والاستمرار فيها في الظروف جميعاً، وإن تراجمهم تروي لنا كيف أن قلوبهم كانت معلقة بالدعوة حتىٰ آخر لحظات حياتهم.

فمما جاء في ترجمة الصحابي الجليل أبي الدرداء أنه: (لما مرض قيل له: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي. قيل له: ما تشتهي؟ قال: الجنة. فلما وقع في الموت قال: ألا رجل يعمل لمصرعي هذا؟ ألا رجل يعمل لمثل ساعتي هذه؟)[1].

❊ ❊ ❊

---

(١) سلوة الأحزان: ٣٠.

إحذر عقربك

ما أكثر ما ندفن من الأموات ولا نتعظ، وما أكثر ما نسمع في الموت ولا نستعد، وما أكثر الفراق دون أن نتذكر، يقول أبو العتاهية:

عجباً عجبت لغفلة الباقينا ... إذ ليس يعتبرون بالماضينا

ما زلت ويحك يابن آدم، دائباً ... في هدم عمرك منذ كنت جنينا

ولا شك في أنه من أكبر أسباب هذه الغفلة زينة الدنيا، وزخارفها، لذلك قال الرسول ﷺ: «**ما الفقر أخشىٰ عليكم، ولكني أخشىٰ أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت علىٰ من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم، كما أهلكتهم**»[(١)].

ويمثل الإمام ابن الجوزي الموت بالعقارب التي تلسع، ولكن حب الدنيا وكثرة الأمل يقسي القلب حتىٰ إنه يفقد الشعور فيقول: «عقارب المنايا تلسع، وخدران جسم الآمال يمنع، وماء الحياة في إناء العمر يرشح»[(٢)].

فالموت يقترب من كل منا كل يوم منذ أن كنا أجنة في بطون أمهاتنا، وعقارب المنايا تلسعنا كل يوم ولكن حبنا للدنيا يفقدنا الشعور بأهمية الاستعداد للموت، وتجنب لسعه.

❋ ❋ ❋

النجاة بالكتمان

أول ثلاثة تُسعر بهم النار يوم القيامة، مجاهد، ومنفق، وعالم.. وسبب هذا التسعير أنهم أرادوا بأعمالهم العظيمة السمعة والشهرة والرياء، ولم يريدوا بها وجه الله تعالىٰ.

---

(١) متفق عليه.

(٢) سلوة الأحزان: ١٦.

ومن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «ورجل تصدق بصدقة أخفاها حتىٰ لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه».

فقد بالغ في كتمان الصدقة عن أقرب الناس إليه، طمعاً بالقبول من عند الله تعالىٰ، ذلك أن العمل لا يقبله الله تعالىٰ حتىٰ يكون صحيحاً علىٰ السنة، خالصاً لوجهه تعالىٰ.

وإذا جُبل الناس ـ أصحاب الفطر السليمة ـ علىٰ إخفاء السيئات لأنها مجلبة للفضيحة، فإن كتمان الحسنة أولىٰ، لأن إعلانها قد يعرضها لعدم القبول عندما يتهمه صاحبها بالمباهاة، ومراءاة الآخرين، لذلك كان بشر الحافي يقول: «لا تعمل لتُذكر.. اكتم الحسنة كما تكتم السيئة»[1].

وقد يظن البعض أن إظهار العمل لا يكون إلا بذكر العمل الصالح الذي قام أو يقوم به أمام الناس مع أنه من إظهار العمل الذي لا يشعر به الكثير، كذلك ما يبديه البعض من اندهاش لعدم قيام فلان بقيام الليل، أو صيام يوم الإِثنين، أو زيارة المقبرة، وكأنه يوصل رسالة للآخرين أو إلى سامعيه بأنه يقيم الليل، ويصوم الإِثنين، ويزور المقابر، بصورة غير مباشرة، والله أعلم بما في الصدور... فالحذر الحذر من عدم قبول العمل، فقد رأينا كيف أن «النجاة في الكتمان».



صورة مصغرة من «وقفة المحشر»

شاء الله تعالىٰ أن يُري المؤمنين صورة مصغرة من أرض المحشر، وما يحدث فيها، من التزاحم عند الطواف بالكعبة.

فالداخل في تلك الزحمة يرىٰ أفواجاً من البشر بشتىٰ أجناسهم وألوانهم وألسنتهم، منهم البيض والحمر والصفر والسود، وما إلىٰ ذلك،

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٤٧٦/١٠.

ويرىٰ قصار القامة وطوالها، ويرىٰ النساء والرجال والغلمان والشباب: يهطل العرق من أجسامهم، ولا تكاد تستطيع مسحة لكثرته، وترتفع يد هذا ليدفعك، ويد ذاك ليبعدك، وقدم هذا تطأ قدمك، وهذا يصرخ في وجهك يقول: «اتق الله»، وآخر يقطب بوجهه في وجهك، ويسمعك كلاماً لا تفهمه، وتتقاذفك الأمواج البشرية ميمنة وميسرة، وتكاد في بعض الأحيان تكون مُعلقاً بين الناس، هم الذين يُسيرونك في تيارهم، لا أنت الذي تسير بإرادتك، وكذلك الحشر يوم القيامة: يتجمع الناس في أرض المحشر ملايين الملايين علىٰ أرض واحدة، وفي بقعة واحدة، العمالقة والأقزام، والإنس والجن، والإِنسان والحيوان، والملائكة، كلهم محشورون في أرض واحدة، جميعهم عراة غرل، لا ينظر الرجال للنساء، ولا النساء للرجال، لشدة هول الموقف، ثم تنزل الشمس علىٰ مقربة ميل من الرؤوس، ويعرق الناس ويذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً، ويلجمهم العرق حتىٰ يبلغ آذانهم، فيعرقون لشدة حرارة الشمس وقربها منهم، ولشدة الزحام وشدة الضجر لطول ذلك اليوم الذي يبلغ خمسين ألف سنة من أيامنا.

هكذا الصورة عند الطواف في الدنيا علىٰ شكل مصغر وكذلك هي في الآخرة علىٰ شكل مكبر.

ولو تفكر الحاج بمطابقة الصورة التي هو فيها مع صورتها بالآخرة لما توقفت دموعه عن النزول، أو توقف جلده عن الشعور بقشعريرة روعة هذا التقابل بين الصورتين.



أخرِجوا الدنيا من قلوبكم

لم يخلق الله تعالىٰ الدنيا ثم يُحرِّمها علىٰ خلقه، بل ذمها عندما يتخذها هذا المخلوق هدفاً يحيا ويموت من أجله، فتنسيه الهدف الذي خُلِقَ من أجله، وهو العبادة.

أما إذا كانت الدنيا طريقاً ومزرعة للآخرة، فما أجملها، وألذها، وأسعد ما فيها.

لقد كثرت عبارات السلف ـ رضي الله عنهم ـ عن النوع الأول من الدنيا، تلك التي تلهي صاحبها عما خُلق من أجله، أولئك الذين أدخلوها في قلوبهم ولم يجعلوها بأيديهم، ينبههم التابعي الجليل مالك بن دينار بقوله: «إن الله جعل الدنيا دار سفر، والآخرة دار مقر، فخذوا لمقركم من سفركم، وأخرجوا الدنيا من قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم»[1].

إنه لم يستطع أحد من أولئك العمالقة من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ والتابعين، والصالحين من بعدهم أن يقوموا بتلك الطاعات، ويتبوأوا تلك المنازل العالية، إلا بعد أن أخرجوا تلك الدنيا الملهية من قلوبهم، وأن يجعلوها بأيديهم.

سُئل معروف الكرخي عن الطائعين لله: بأي شيء قدروا على الطاعات لله عز وجل؟ قال: «بخروج حب الدنيا من قلوبهم، لو كانت في قلوبهم لما صحت لهم سجدة»[2].

لن يفقه هذا الكلام إلا من خاض غمار الدنيا، وأقبلت عليه المناصب والأموال، وزينة الدنيا من كل صوب وحدب، عندئذ سيتذكر قولة كل من: مالك بن دينار، ومعروف الكرخي.

❋ ❋ ❋

سلاح المؤمن في الكربات

الفرق بين المؤمن المتصل بالله تعالى، وغيره من عبيد الدنيا، أنه إذا أصابه الله بالبلاء لجأ إلى الله تعالى بالدعاء، والتذلل، والاستغفار، فذلك هو السلاح الذي يملكه بعد بذل الأسباب، أما عبيد الدنيا، فينسون

(١) صفة الصفوة ٣/٢٨٥.

(٢) المستطرف: ٢١٥.

الاستعانة بالله تماماً، ويتوجهون للبشر، ويعتمدون علىٰ أنفسهم فينساهم الله تعالىٰ، ويكلهم إلىٰ أنفسهم.

وما من كربة يتعرض لها المؤمن، ويستخدم فيها سلاح الدعاء، إلا كشفها الله عنه بأسرع مما يتوقع.

«فالدعاء هو العبادة» كما جاء في الحديث... وفي ذلك قصص كثيرة تؤكد أثر الدعاء عند نزول الكرب.

من هذه القصص ما روي أن «الوليد بن عبد الملك كتب إلىٰ صالح بن عبد الله عامله علىٰ المدينة المنورة، أن أخرج الحسن بن الحسن بن علي من السجن، وكان محبوساً، واضربه في مسجد رسول الله ﷺ، خمسمائة سوط، فأخرجه إلىٰ المسجد، واجتمع الناس، وصعد صالح يقرأ عليه الكتاب، ثم نزل يأمر بضربه، فبينما هو يقرأ الكتاب، إذ جاء علي بن الحسين «زين العابدين» فأفرج له الناس حتىٰ أتىٰ إلىٰ جنب الحسن فقال: يا بن العم مالك؟!، ادع الله تعالىٰ بدعاء الكرب يفرج الله عنك، قال: ما هو يا ابن العم؟ فقال: «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم»، ثم انصرف.

وأقبل الحسن يكررها، فلما فرغ صالح من قراءة الكتاب ونزل، قال: أراه في سجنه مظلوماً أخرجوه، وأنا أراجع أمير المؤمنين في أمره، فأطلق سراحه بعد أيام، وأتاه الفرج»[1].

* * *

السبيل إلى النجاح

يقول عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر:

لسنا وإن أحسابنا كرمت ... يوماً علىٰ الأحساب نتكل

---

(1) المستطرف ٢/ ٧٠.

نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثل ما فعلوا

هذا هو الأصل، فالناجحون في هذه الحياة ليسوا أولئك الذين يعيشون علىٰ أمجاد أجدادهم وأقاربهم، وأسرهم، بل هم الذين يصنعون الحياة، ويفعلون ما فعل الناجحون من أجدادهم وأقاربهم، بل يحاولون أن يبزوهم وأن يقدموا إنجازاً أكثر مما أنجز هؤلاء من قبل.

إن نجاح الآباء، وشرف الأحساب والأنساب، لا يزيد احترام الناس للكسالىٰ والمتوانين، ولا يشفع ذلك عند الله تعالىٰ، مهما بلغ الأجداد من درجة الصلاح، حتىٰ ولو كان النسب يصل إلىٰ آل النبي ﷺ حيث بيّن الرسول ﷺ لآل بيته هذا الأمر جلياً عندما قال مخاطباً إياهم: «**يا بني كعب بن لؤي! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة! أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً، غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها**» (رواه مسلم).

ففي هذا الحديث يوضح النبي ﷺ أن النسب النبوي، وإن شَرُف، فإنه لا يكون سبباً في النجاة يوم القيامة ما لم يقدم صاحب هذا النسب عملاً ينقذه من النار.. فالعمل هو السبيل إلىٰ النجاح.

❋ ❋ ❋

من رجال الآخرة

جاء في ترجمة الإمام إبراهيم بن أدهم أنه «خرج من بيت المقدس فمر بطريق، فأخذه المسلحة ـ يعني الجنود ـ في الطريق، فقالوا: أنت عبد؟ قال: نعم. قالوا: آبق؟ ـ أي عاصٍ ـ قال: نعم. فسجنوه. فبلغ أهل بيت

المقدس خبره فجاؤوا برمتهم إلىٰ نائب طبرية فقالوا: علام سجنت إبراهيم بن أدهم؟ قال: ما سجنته. قالوا: بلىٰ هو في سجنك، فاستحضره فقال: علام سجنت؟ فقال: سألني المسلحة، قالوا: أنت عبد؟ قلت: نعم، وأنا عبد الله، قالوا: آبق؟ قلت: نعم، وأنا عبد آبق من ذنوبي. فخلىٰ سبيله»[1].

قد يستغرب البعض عند قراءته لمثل هذا النقل أن يكون إنسان يعيش مع الناس يتصرف مثل هذا التصرف، وقد يعتقد البعض أن هذا من التكلف الذي لا داعي له.. ولكن المتمعن بسيرة هذا الزاهد وأمثاله من القمم، يدرك أن هؤلاء صنف من الناس قد استولت علىٰ مخيلتهم صور الآخرة وهمها، وفاضت علاقتهم بربهم علىٰ كلماتهم وتصرفاتهم، حتىٰ أصبحت إجاباتهم تلقائية وانعكاساً لمشاعرهم، ولما يعيشون به من فيض إيماني وعلاقة حميمة مع ربهم.. نحتاج في الوقت الحاضر لتعلم الكثير من الدروس من هؤلاء لإعادة علاقتنا مع ربنا وتجديدها والتخفف ما أمكن من ثقل المادية التي نغرق فيها.

❋ ❋ ❋

قلوب قاسية

كم نحمل من الجنائز علىٰ أكتافنا، وكم نسمع من أخبار الموتىٰ كل صباح ومساء، وكم نزور القبور للتعزية، ولا يحرك فينا ذلك كله ساكناً، بل تبقىٰ القلوب كما هي قاسية، وكأن غشاءً صلباً قد غشاها، فما تكاد مناظر الموتىٰ تؤثر فيها، ولا أخبار مصارعهم تحركها، بينما حديث الرسول ﷺ ما زال فينا يذكرنا: «**أكثروا من ذكر هادم اللذات**».

لكننا نكتفي برؤية الأموات دون تذكر الموت!، وما يحدث للأموات،

(١) البداية والنهاية ١٠/١٣٩.

ولأمثالنا يتحدث عنه الإمام ابن الجوزي مذكراً، وموقظاً بقوله: «فكروا رحمكم الله في أحبابكم، وجيرانكم وأصحابكم، وإخوانكم، وآبائكم، والأباعد والأقارب، وذوي المودة والأجانب، قد هجرهم الحبيب، وسلا عنهم القريب، قد ضُيِّقت عليهم اللحود، وسالت عيونهم علىٰ الخدود، وتمزقت عنهم الجلود، ودبت في أجسادهم الهوام والدود، وبقيت أرواحهم في البرزخ إلىٰ اليوم الهائل الموعود، لم ينفعهم ما جمعوا، ولا حصنهم ما بنوا وشيدوا، ولا قدمهم ما صنعوا، صارت القبور لهم قراراً، وفر الأحباب عنهم فراراً، فانتبهوا معشر الإخوان واجتهدوا في طاعة الرحمن من قبل مفارقة الأحباب والأوطان»[1].

* * *

صفات الشقاء والنجاة

قال محمد بن الدوري: «شقي إبليس بخمسة أشياء: لم يقر بالذنب، ولم يندم، ولم يلم نفسه، ولم يعزم علىٰ التوبة، وقنط من رحمة الله. وسعد آدم بخمسة أشياء: أقر الذنب، وندم عليه، ولام نفسه، وأسرع في التوبة، ولم يقنط من رحمه الله»[2].

نقرأ القرآن الكريم، ونختمه في الشهر مرة، أو أكثر من ذلك أو أقل، ونمر علىٰ قصة بداية الخلق، وما حدث لآدم وإبليس بعد معصيتهما، وكيف نجّا آدم بهذه الصفات الخمس، وخسر إبليس بتلك الصفات الخمس، ولكننا لا نستفيد كثيراً من هذه القصة التي يكررها الله تعالىٰ في أكثر من موضع في القرآن الكريم.

إننا بحاجة ماسة لمراجعة جادة في علاقتنا بربنا، واختبار أنفسنا وما

(١) بستان الواعظين: ٢٦٧.

(٢) الاستعداد ليوم المعاد: ٦٣.

تحمله من تلك الصفات التي نجّىٰ الله تعالىٰ بسببها آدم، وغفر له ذنبه، وأدخله في رحمته.

وكم نخطئ في حق أنفسنا، وفي حق الآخرين سواء الأقربون كالوالدين، والزوجة والأبناء، أو بقية الأقارب، أو الأباعد كالأصدقاء في الدعوة والعمل، أو بقية الناس، عندما لا نشعر بالندم، أو نتعالىٰ عن الإقرار بأخطائنا، أو حتىٰ لوم أنفسنا علىٰ تلك الأخطاء، ونسأل الله تعالىٰ أن يمنحنا تلك الصفات الخمس التي منحها لآدم عليه السلام فنكون من الناجين.

***

 لذة المؤمن

لذة المؤمن ليست في الطعام والمنصب والمنكح والدواب والمال، فتلك لذات يستطيع الإنسان منحها، ولكن اللذة الروحية لا يمنحها سوىٰ الله تعالىٰ.

إنها لذة الاتباع، ولا يملكها بشر، بل يمنحها الله لمن شاء من عباده.

لذة الإيمان لها علاقة بالروح، ويبدو أثرها علىٰ الجوارح.. لذة المؤمنين باتصالهم بربهم والتقرب إليه بالنوافل بعد أداء الفرائض، حتىٰ تشف أرواحهم، وتتهلل وجوههم، وتطمئن نفوسهم، فيعبرون عن فرحهم بما قاله الإمام إبراهيم بن أدهم لصاحبه أبي يوسف: «يا أبا يوسف لو علم الملوك، وأبناء الملوك ما نحن فيه من النعيم والسرور، لجالدونا عليه بالسيوف أيام الحياة»[1].

ومن أبرز هذه القربات لله تعالىٰ، ـ والتي يجد فيها المؤمن سلوته،

---

(١) صفة الصفوة ١٥٤/٤.

ولذته الإيمانية، قيام الليل، ويصف الزاهد أبو سليمان الداراني أهل الليل بقوله: «أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء»[1].

وقيل للحسن: ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجوهاً؟ فقال: «إنهم خَلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره»[2].

* * *

أنفقْ يُنفق الله عليك

إنها قاعدة إيمانية أصيلة لا تتغير، ولا تتبدل أبداً، فما ينفقه المسلم في سبيل الله يعوضه الله في الدنيا، ويعظم أجره في الآخرة.

فقد قال تعالىٰ في كتابه الكريم: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وذكر الرسول ﷺ في الحديث الصحيح قول الملك ودعاءه للذي ينفق: «**اللّهم أعط منفقاً خلفاً**»، وحتىٰ لو كان العطاء قليلاً بمقدار نصف تمرة من كسب طيب كما جاء في الحديث: «فإن الله يقبلها بيمينه، ويربيها لأحدكم كما يربي أحدكم فلوه، حتىٰ تكون مثل الجبل».

إنها علاقة روحية بين العبد وربه، ينفق فينفق الله عليه، وعلىٰ مقدار ثقته، وحسن ظنه بالله، يعطيه الله سبحانه وتعالىٰ العطايا، وهو الذي يملك خزائن السموات والأرض.

هذا هو الدرس الذي علّمه عبد الله بن جعفر للحسن والحسين عندما لاحظا عليه كثرة الإنفاق، فقالا له: «إنك أسرفت في بذل المال»... فقال: بأبي أنتما وأمي، إن الله عوّدني أن يتفضل عليَّ، وعوّدتُه أن أتفضل

---

(١) عيون الأخبار ٢/٢٩٩.

(٢) عيون الأخبار ٢/٣٠٠.

علىٰ عبيده، وأخاف أن أقطع العادة فيقطع عني عادته»[1].

فيا له من تعامل رائع مع الله تعالىٰ.. يحتاجه المؤمن لتدعيم علاقته الإيمانية برب العالمين.

* * *

غاية التواضع

سُئل الزاهد يوسف بن أسباط: ما غاية التواضع؟

فقال: ألا تلتقي أحداً إلا رأيت له الفضل عليك[2].

التواضع ضد الكبر، والكبر من أخطر الأمراض القلبية. ويعرفه الإمام الغزالي اصطلاحياً فيقول: «هو استعظام النفس ورؤية قدرها فوق قدر الغير».

وقال أيضاً: «الكبر حالة يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وأن يرىٰ نفسه أكبر من غيره»[3].

وأخطر ما في الكبر أن الله يحرم صاحبه من دخول الجنة، بل يحرم من الجنة من كان في نفسه الشيء القليل من الكبر، إذ قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه:

«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»[4].

ويذكر ابن قدامة ثلاثة درجات من الكبر:

الأولى: أن يكون الكبر مستقراً في القلب.

---

(١) حدائق الأزاهر: ٨٦.

(٢) سير أعلام النبلاء ٩/١٧٠.

(٣) إحياء علوم الدين ٣/٣٤٥.

(٤) مختصر مسلم: ٥٤.

والثانية: أن يظهر لك بأفعاله من الترفع.

والثالثة: أن يظهر الكبر بلسانه[1].

وبهذا السبب فإن الزاهد ابن أسباط يعلمنا كيفية تربية النفس علىٰ التخلص من هذا الداء العضال برؤية الفضل لكل من تقابل في هذا الحياة، حتىٰ وإن كنت في ميزان الناس أفضل منه علماً وخلقاً وديناً، ذلك أن تسرب الكبر والعجب للإنسان آفة كبيرة تفسد ما جمع الإنسان من الأجر فيكون من الخاسرين.

❋ ❋ ❋

إتبع من يخوفك من اللّٰه

التخويف نوعان: تخويف من المخلوق، وتخويف من الخالق، فأما التخويف من المخلوق فلا يصدر إلا من إنسان لا يملك الإيمان القوي بالله تعالىٰ، ولو استقر الإيمان في قلبه لما خوَّف بمخلوق لا يملك الضر ولا النفع له مخلوق ليس له حول ولا قوة.

وأما التخويف من الله، فهو الحق، وهو المستحق سبحانه للخوف منه، لأنه هو وحده مالك النفع والضر، ومالك كل شيء، ولا يعجزه شيء في السماوات والأرض.

والفرق بين التخويفين، أن الأول ينتج عنه القلق، والفزع، والجزع، وجميع أنواع الخوف المسببة للكثير من الأمراض النفسية والجسدية.. خاصة لمن لا يملك إيماناً راسخاً، وأما التخويف من الله فإنه ينتج عنه الأمان والاستقرار والطمأنينة والشجاعة، والصلابة، والتحمل لأعباء الحياة، والهداية، والثبات، والابتعاد عن المعاصي، والكسل، وكل عائق يعوقك عن السير إلىٰ الله تعالىٰ.

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ص ٢٢٩.

ولهذا السبب فإن المغيرة بن مخادش عندما سأل الإمام الحسن البصري: «كيف نصنع بمجالسة أقوام يحدثوننا حتىٰ تكاد قلوبنا تطير؟ فقال: أيها الشيخ، والله لأن تصحب أقواماً يخوفونك حتىٰ تدرك أمناً، خيرٌ لك من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتىٰ تلحقك المخاوف»[١].

***

عزة المؤمن

كلما سأل الإنسان الإنسان وترك سؤال الله، قلّت عزته وكرامته، حتىٰ يبقىٰ حقيراً لا عزة له ولا كرامة، وتقل هيبته بين الناس، فينزع الله أثر كلمته علىٰ الآخرين.

وكلما استغنىٰ الإنسان عن الآخرين، واتصل برب العالمين زادت كرامته وعزته، وهيبته بين الناس، حتىٰ تكون لكلماته الأثر العظيم في قلوب الآخرين لعلمهم بأنه غير محتاج إليهم، وبأنه يقولها مجردة من أي مصلحة بعيدة أو قريبة.

فمما جاء في ترجمة التابعي الجليل سالم بن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهم ـ أن الخليفة هشاماً «دخل الكعبة فإذا هو بسالِم، فقال له: سلني حاجة، قال: إني أستحيي من الله أن أسأل في بيته غيره، فلما خرجا قال: الآن سلني حاجة، فقال له سالم: من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟ فقال: من حوائج الدنيا، قال: ما سألت الدنيا من يملكها، فكيف أسألها من لا يملكها؟»[٢].

ولهذا السبب كان الخلفاء والأمراء، يتحملون نصائحهم، ويكون لها وقع كبير في قلوبهم.

***

---

(١) الزهد لابن المبارك: ٣٠٣.

(٢) سير أعلام النبلاء ٤/٤٦٦.

جاء في ترجمة أبي حازم الأعرج أنه «دخل علىٰ بعض أهل السلطان فقال له: أتيتك في حاجة رفعتها إلىٰ الله قبلك، فإن يأذن الله لك في قضائها قضيتها وحمدناك، وإن لم يأذن في قضائها لم تقضها وعذرناك»[1].

قد يستغرب بعض من يقرأ هذا النقل، ظاناً أن ذلك من التكلف الذي لا يليق وأنه كان من الممكن أن يطلب حاجته، ثم يرضىٰ بما سيكون من قضائها أو عدمه، لكن هؤلاء القوم ربّوا أنفسهم تربية إيمانية عالية، وعاشوا معظم لحظات حياتهم بمشاعر مرهفة، وعلاقة متصلة بالله رب العالمين، إذ كانوا يحاسبون أنفسهم علىٰ كل لفظة ولحظة وخطوة مخافة أن تكون لغيره تعالىٰ.

لقد كانوا يخشون أن يسلبهم الله سبحانه وتعالىٰ شيئاً من الإيمان عندما يتوجهون إلىٰ سواه، وقد يكون مثل هذا الموقف الذي وقفه أبو حازم يصعب علىٰ الكثير من الدعاة ولكنه لا يصعب علىٰ من اتصل بالله مثل اتصال أولئك القوم الذين كانوا يقدمون رضا الله علىٰ ربا المخلوق، ويتحملون في جنب الله كل مؤلم في هذه الحياة الدنيا.

إنها صورة من تفويض الأمر كله لله، وعدم الشعور ولو للحظة بأن غير الله له من الأمر شيء.

إنهم قوم يرفعون شعار «لا حول ولا قوة إلا بالله» قولاً وفعلاً وشعوراً في كل لحظات حياتهم علىٰ هذا الكوكب.

❋ ❋ ❋

(١) المعقد الفريد ٢٤٣/١، ٢٤٤.

يغفل بعض الدعاة ـ ممن حباهم الله بالشهرة والبروز في المجتمع ـ عن أن كلماتهم وأفعالهم وتصرفاتهم جميعها تحت مجهر الجمهور من طلبة العلم وغيرهم، وأن كل كلمة وفعل محسوب بدقة عليهم.

وبسبب انشغالهم الكبير بأمور الدعوة والعلم، يضيق الوقت أحياناً أو غالباً أمامهم عن الاستماع إلىٰ أسئلة طلبة العلم، أو إلىٰ مشكلاتهم، أو تلبية دعواتهم، أو قد تكون إجابات مثل أولئك البارزين فيها شيء من الغلظة أو الترفع، الأمر الذي قد يؤدي ـ وبسرعة كبيرة ـ إلىٰ سقوط أولئك الدعاة من أعين الجمهور، وخروجهم من قلوبهم.

أما أولئك الدعاة البارزون الذين ـ بالرغم من انشغالاتهم، وضيق الوقت أمام قضاء بعض حاجاتهم، لكثرة الأعباء الدعوية والعلمية الملقاة علىٰ عواتقهم ـ عندما يلتقون بالجمهور أو طلبة العلم، فإن البشاشة لا تغادر محياهم، ورقة العبارة لا تفارق ألسنتهم، والتواضع الجم يكون صبغة لاصقة فيهم، ولهذا السبب يدخل مثل هؤلاء في قلوب الجمهور عندما يرون ذلك التواضع من أولئك العمالقة.

ومما جاء في ترجمة الإمام أبي معاوية الأسود صاحب الإمام سفيان الثوري أنه قدم فإذا بطائفة من الناس يقولون له: «ادع الله لنا»، فقال بكل تواضع: «اللّهم ارحمني بهم، ولا تحرمهم بي»[1].

إنه الإيمان الذي يجعله يتواضع لمن منحه تلك المنزلة من غير حول منه ولا قوة.. وهو لون من ألوان المحافظة علىٰ نعمة العلم، كما أنه الطريق الأقصر إلىٰ قلوب الآخرين، ذلك أن القلوب تنفض عمن لا يلاطفها، ويتعالىٰ عليها.

❋ ❋ ❋

(١) سير أعلام النبلاء ٧٩/٩.

حلاوة الطاعة

كم نسمع عن حلاوة الطاعة ولا نجدها.

وكم نقرأ عن حلاوة الطاعة ونفتقدها.

وكم نتمنىٰ أن نجد حلاوة الطاعة ولا ندركها.

فالسماع والقراءة والتمني لا يمكن أن تتحول إلىٰ واقع، ما لم يتواكب ذلك كله مع بذل لأسباب جلب هذه الحلاوة المنشودة، والابتعاد عن كل قول وعمل يبعدها.

وأول هذه الأسباب ـ لاستجلاب حلاوة الإيمان ـ الإخلاص لله تعالىٰ في كل أعمالنا، وألا نبتغي من أي عمل نقوم به وجهاً سوىٰ وجه الله تعالىٰ.

أما الطاعات فلا يمكن أن توجد حلاوة الإيمان بعد الإخلاص إلا باجتناب المعاصي، صغائرها وكبائرها، فمع كل معصية نكتة سوداء علىٰ القلب تحجب شيئاً من هذه الحلاوة.

ومن الأمور التي تحجب هذه الحلاوة كذلك، شكوانا ـ عندما نقع في المصائب ـ لغير الله تعالىٰ.

يقول الإمام الزاهد شقيق البلخي: «من شكا مصيبة إلىٰ غير الله، لم يجد حلاوة الطاعة»[1].

فكيف إذن بالمعاصي الواضحة؟ كم تذهب من هذه الحلاوة؟؟.

❊ ❊ ❊

---

(١) سير الأعلام ٩/٣١٥.

لتُسألنَّ عن النعيم

رویٰ مسلم في صحيحه قصة الجوع الذي أصاب النبي ﷺ، وصاحبيه أبا بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ عندما التقاهما في الطريق وسألهما: «**ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟** قالا: الجوع يا رسول الله، قال: **وأنا والذي نفسي بيده أخرجني الذي أخرجكما**». ثم توجهوا جميعاً إلىٰ بيت أحد الأنصار، فقدَّم لهم عذقاً فيه بسر، ورطب، وتمر، وذبح لهم شاة، فأكلوا منها، ثم قال النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيده لتسألنَّ عن نعيم هذا اليوم، يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتىٰ أصابكم هذا النعيم**».

وقد اختلف المفسرون في معنىٰ النعيم الذي سنُسأل عنه يوم القيامة، وقد اختصر الإمام مجاهد هذه الأقوال بقوله: «كل شيء من لذة الدنيا»[1].

وأورد الإمام ابن الجوزي في بستان الواعظين ص **٢٦٣** قول محمود بن لبيد: «لما نزل قول الله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ قال أصحاب رسول الله ﷺ: أي نعيم؟! وإنما هما الأسودان التمر والماء، وسيوفنا علىٰ عواتقنا».

وهكذا، لو استحضرنا سؤال الله لنا يوم القيامة عن هذه النعم التي نغرق فيها حتىٰ الآذان، لكان لزاماً للعاقل أن يستحيي من الله المنعم أن يقصر في حقه، أو أن يعصيه، وأن يقوم بحق الشكر لهذه النعم التي لا تُعد ولا تحصىٰ.

كيف لا، وقد قال النبي ﷺ: «**من أصبح فيكم آمناً في سربه، معافىٰ في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها**»[2].

فكيف بمن يملك أكثر من ذلك بكثير؟.

❋ ❋ ❋

---

(١) تفسير القرطبي ٦٧/١٠ ـ ٧٢.

(٢) رواه الترمذي، وحسنه الألباني.

الكيف قبل الكم

ميزان الله سبحانه تعالىٰ يختلف عن موازين البشر، فقد يكون العمل قليلاً فيدخل صاحبه الجنة، أو يكون من آخرين كثيراً، ولكنه يدخلهم النار، والفيصل في ذلك هو نوع العمل؛ الكيف وليس الكم.

ولقد حدثنا رسول الله ﷺ عن ذلك الرجل الذي يأتي يوم القيامة بأعمال كجبال تهامة بيضاء فينسفها ربي نسفاً، والسبب في ذلك أنه كان إذا خلا بمحارم الله انتهكها، أي لم يكن ذلك العمل الكثير الذي أتىٰ به خالصاً لوجه الله تعالىٰ.

وعندما تصفو الأعمال لله وحده، فإن الله يبارك فيها، وإن كانت قليلة، وينصر القليل علىٰ الكثير عندما يرىٰ الإِخلاص، ونقاء العمل، لكنه يقدِّر الهزيمة علىٰ الكثيرين عندما يختلط عملهم، وتشوبه الشوائب.

ولقد اشترط الله تعالىٰ الإِخلاص، وهو نوع العمل، لقبول العمل، ولم يشترط كثرة العمل في قبوله.

يقول التابعي الجليل محمد بن كعب القرطبي: «لأن أقرأ في ليلتي حتىٰ أصبح ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ أو ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١﴾ لا أزيد عليهما، وأتفكر فيهما، وأتردد أحب إليَّ من أن أهز القرآن هزاً، أو قال أنثره نثراً»[1].

فليست العبرة بختم القرآن، وإنما بالتفكر في آيات الله تعالىٰ، فإنه لا يغير هذه النفس ويقرِّبها إلىٰ الله مثل التفكر في هذه الآيات، وهو نوع من الاهتمام بالنوع لا بالكم، وما هذا التراجع الذي كانت تعانيه الحركة الإِسلامية أحياناً إلا بسبب اهتمامها بالكم علىٰ حساب الكيف.

❊ ❊ ❊

(١) صفة الصفوة ١٣٣/٢.

مقياس إيماني

لقياس الإيمان أدوات خاصة، من أبرزها المسجد، فكلما زاد ارتياد المسجد زاد الإيمان، وكلما ضعف ذلك قل الإيمان.

فالمسجد كان ـ وما يزال ـ علامة بارزة ومقياساً دقيقاً على قوة الإيمان.. قال سبحانه: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٧].

وذكر رسول الله ﷺ من بين السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله... «ورجل قلبه معلق بالمساجد».

كما يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة: ١٨].

ولهذا السبب كان أول عمل قام به رسول ﷺ، عند خوله إلى المدينة لبناء المسجد، ثم أعقب ذلك مؤاخاته بين المهاجرين والأنصار.

وكان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ يعرفون المنافقين من غيابهم عن شهود صلاة الفجر، فهي أشق الصلوات عليهم.

كما أن الصالحين كانوا إذا تقدم أحد لخطبة بناتهم، يسألون عن صلاته في المسجد، فإن كان من عشاق المسجد زوَّجوه وإن كان غير ذلك رفضوا خطبته.

ومما رُوي عن شيخ التابعين سعيد ابن المسيب قوله: «منذ أربعين سنة، ما أذَّن مؤذن إلا وأنا في المسجد»[1].

* * *

(١) سلوة الأحزان: ٣٤.

تقوى الله عند الغضب

أذنب غلام في حق امرأة من قريش، فأخذت السوط ومضت خلفه حتىٰ إذا اقتربت منه رمت بالسوط بعيداً عنه وقالت: «ما تركت التقوىٰ أحداً يشفي غيظه»[1].

في واقع الأمر فإن التقوىٰ تمنع أصحابها بالفعل من شفاء غيظهم، وسبب هذا المنع الخوف من الله تعالىٰ، ومن مساءلته يوم القيامة، ومن عذابه في ذلك اليوم الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتىٰ الله بقلبٍ سليم، مع الخوف من الظلم، لأنهم يعلمون حق العلم، أن ذلك الظلم ظلمات يوم القيامة، وأنهم معرّضون للإفلاس في هذا اليوم، مهما بلغت أعمالهم ـ عندما يظلمون الآخرين ـ كما يعلمون أن دعوة المظلوم مستجابة وإن كان كافراً، وأنه ليست بينها وبين الله حجاب.

ولهذا كانوا يتحملون الغيظ، ويتركون الانتصار للنفس، خوفاً من الوقوع في المحظور متذكرين حديث النبي ﷺ: **«مَنْ كظمَ غيظاً وهو قادر علىٰ أن ينفذه دعاه الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ رؤوس الخلائق يوم القيامة حتىٰ يخيره من الحور العين ما شاء»**[2].

***

فوائد البلاء

ذكر صاحب المستطرف أن «الحوادث المحضة مكسبة لحظوظ جليلة، فهي:

١ ـ إما ثواب مدخر.

٢ ـ أو تطهير من ذنب.

(١) المستطرف: ٢٧٨.

(٢) رواه الترمذي بإسناد حسن.

٣ ـ أو تنبيه من غفلة.

٤ ـ أو تعريف لقدر النعمة» [المستطرف: ٦٧]..

لا شك في أن فوائد البلاء كثيرة، وقد تحدث الكثير من العلماء في ذلك، خاصة الإمامين ابن القيم، وابن الجوزي، وإن كان أبرز ما في هذه الفوائد ما ذكره الأبشيهي في مستطرفه، ذلك أن أولىٰ الفوائد التي تساق للمبتلىٰ هي الثواب العظيم الذي يعينه في عمله القليل، خاصة إذا صبر علىٰ هذا البلاء، ولم يتأفف أو يشكُ لأحد من المخلوقين، بل حمد الله، وفوض أمره إليه، دون احتجاج علىٰ قدره.

كما أن من أبرز هذه الفوائد ما يحتاجه كل مسلم، بل أشد حاجة إليه يوم القيامة، وهو التكفير عن السيئات، فما أكثر ما نُذنب في هذه الحياة، فيأتي البلاء رحمة من الله تعالىٰ لمحو هذه الذنوب.

والبلاء إيقاظ للمسلم من غفلته وانغماسه في هذه الدنيا وزينتها، ولهوه وابتعاده عن آخرته، وهو تنبيه من الرحمن الرحيم لمن يحبه من عبيده للرجوع إلىٰ الصراط المستقيم، والعمل لما خلقه الله من أجله، مع عدم تضييع الأوقات فيما لا يجلب له الخير والنجاة يوم القيامة.

والبلاء تنبيه لقدر نعمة المولىٰ، لأن الإنسان ما سمي إنساناً إلا لكثرة النسيان، وقد تطغيه النعمة، وتنسيه المنعم، فيأتي البلاء ليذكره جليل فضل الله عليه بعد أن فقد نعمته.

* * *

من العاقل؟

قيل لعلي رضي الله عنه: صف لنا العاقل؟

قال: الذي يضع الشيء مواضعه.

قيل: فصف لنا الجاهل؟

قال: قد فعلت، «يعني الذي لا يضع الشيء مواضعه»[1].

من الدعاة من يسيء للدعوة أكثر مما ينفعها، بتصرفاته غير العاقلة التي يترتب عليها الكثير من الضرر، بل قد تسبب الفتنة للكثير من الناس، فيبتعدون عن الخير والحق، بسبب تصرفاته غير العاقلة التي لا تضع الشيء في موضعه... فيتكلم مع فئة من الناس بما لا تدركه عقولهم، أو يتشدد في أمر من أمور السنة مما لا يترتب عليه إثم في تركه، بينما يتساهل في أمور الواجب.. أو ينكر المنكر بطريقة فظة غليظة يترتب عليها منكر أشد منه.

إننا بحاجة إلىٰ دعاة عقلاء، يضعون الأشياء في مواضعها الصحيحة، فلا يهمل الواحد منهم أبناءه وزوجته علىٰ حساب الدعوة، وكذلك لا يهمل الدعوة في سبيل أبنائه وزوجته، ولا يضحي بماله كله ويترك أبناءه عالة علىٰ الناس، بل يعطي لكل حق حقه، ويضع كل شيء في وضعه الصحيح.

❊ ❊ ❊

من صور الإيثار

هذا الإِسلام العظيم ينتج كل يوم آلافاً من النماذج البشرية التي يعجز أي منهج عن إنتاجها، إنها آيات بالكمال البشري، لا يمكن أن يصوغها غير هذا المنهج الإِلهي.

فالأخلاق التي يحث عليها الإِسلام تمثل قمماً في التعامل البشري، وهي السبب الذي دعا الكثير من الأمم للدخول في هذا الإِسلام، ويعجز المرء عن تعداد هذه الأخلاق، وتلك النماذج.

فمن هذه الصور ما يرويه الواقدي «أن زوجته جاءته يوم عرفة تشكو عدم ملكها ما يصلح للعيد، يقول: فمضيت إلىٰ صديقي التاجر فعرفته

(١) رواه الترمذي بإسناد حسن.

بحالتي فأعطاني كيساً مختوماً فيه ألف دينار ومائتا درهم، فمضيت إلىٰ البيت فجاءه هاشمي يشكو حاجته وذهاب غلته، فدخل علىٰ زوجته فأخبرها خبر الهاشمي، فقالت له: ما نيتك، فقال لها: أعطيته نصف ما في الكيس، قالت: ما أنصفت، فإذا كان رجل من السوقة يعطيك ١٠٠٠ دينار، فكيف تعطي من له نسب إلىٰ النبي ﷺ نصف الكيس، فأعطاه الكيس كله، ثم ذهب التاجر يشكو حاجته إلىٰ الهاشمي، فقام الهاشمي وأعطاه الكيس كله، فعرفه التاجر ورده للواقدي، ثم استدعاه يحيىٰ بن خالد البرمكي، واعتذر له عن انشغاله عنه بما كان يريد الأمير، وقص له الواقدي قصة الكيس، فأمر له بعشرة آلاف، وقال له: ألفان لك، وألفان للهاشمي، وألفان للتاجر، وأربعة آلاف لزوجتك فإنها أكرمكم»[1].

❊ ❊ ❊

كيف كانوا يعيشون؟

كيف كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ يعيشون في هذه الدنيا؟ وكيف كانوا يربون أنفسهم؟

كانوا يدركون تماماً أنهم يعيشون علىٰ بقعة تسمىٰ الأرض، فيها فرصتهم الوحيدة للعمل، وحياتهم فيها تسمىٰ الدنيا، حيث هي بمثابة الجسر الموصل للآخرة، وهناك يتم الحساب علىٰ ما قاموا به من العمل في الأرض.

كانوا يعلمون تماماً أنهم إن نسوا هذه الحقيقة علىٰ بساطتها فإنهم يثقلون وينجذبون لهذه الأرض، وينسون المصير، وينسون الهدف من الخلق، ولهذا السبب استخدموا كل ما في هذه الأرض لتحقيق الهدف من خَلقِهم وهو «عبادة الله»، واستخدموا صحتهم وأوقاتهم في العبادة،

(١) الجليس الصالح ٣١٢/١، ٣١٣.

واستخدموا ممتلكاتهم للعبادة، واستخدموا ملكاتهم التي منحهم الله إياها للعبادة، بل واستخدموا كل نعمة وقعت عيونهم عليها للآخرة.

لقد شرب ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ يوماً ماءً بارداً فبكىٰ، واشتد بكاؤه، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: ذكرت قوله تعالىٰ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤][١].

وكان ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ كباقي الصحابة يربط ما يراه في الدنيا بالآخرة، فمما يروىٰ عنه أنه مر علىٰ هؤلاء الذين ينفخون في الكير، فوقع، ومر علىٰ الحدادين فبصر بحديدة قد أحميت فبكىٰ»[٢].

إنها صور من جيل الصحابة تعكس طريقتهم التي كانوا عليها في الدنيا. إنها رسائل لهذا الجيل، ولكل جيل بعدهم، توضح الطريقة المثلىٰ للوصول بأمان إلىٰ الآخرة.

* * *

العيش الإيماني

هل من الصعب أن يعيش المسلم في هذه الأيام حياة إيمانية في ظل تزاحم المغريات، وتزايد الملهيات والجواذب التي تتقاذفه من كل حدب وصوب؟

البعض يظن أن ذلك من أصعب الأمور، وآخرون يظنون أن ذلك أقرب إلىٰ المستحيل، بل هو المستحيل بعينه.

لا يمكن أن نوافق علىٰ مثل هذه الأجوبة المثبطة عن مثل ذلك السؤال، إنما تنبع مثل هذه الأجوبة من نفوس هزيلة، انهارت أمام مطارق

(١) سلوة الأحزان: ٢٨.

(٢) الزهد لأحمد: ١٦٣.

الشيطان وتزيينه، واستسلمت لجواذب الدنيا، وخارت قواها أمام الإِغراءات التي تجذبها خارج الإِطار الإِيماني.

إن هذا المنهج الذي بين أيدينا من كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ، لم يتغير منه شيء البتة، وهذا المنهج الذي خرّج ذلك الجيل الفريد من الصحابة ومن بعدهم من أجيال التابعين وتابعي التابعين، والصالحين من بعدهم لقادر علىٰ صياغة من يريد صياغةً إيمانية علىٰ منهج ذلك الجيل الفريد.

إن من أرسل إلينا هذا المنهج كان يعلم سبحانه بما سيحدث في زماننا من فتن وجواذب، ويعلم سبحانه أن كتابه وسنّة نبيه قادران علىٰ توليد الرجال في كل جيل، وتفجير الطاقات الإِيمانية فيمن مشىٰ علىٰ هديه، واستن بسنّة نبيه ﷺ.

* * *

سوء الظن بالناس

قرأت كتاباً في علم النفس لأحد الكتّاب الأجانب، وجذب انتباهي فيه قصة بسيطة قد لا تبدو ذات أهمية لكنها في صلب موضوعنا هذا.

إنها قصة رجل كان يجلس علىٰ مقعد في محطة للحافلات ينتظر قدوم الحافلة وأطفاله الأربعة يلعبون أمامه، ويتدافعون ويعبثون بحاجات الناس من حوله، بينما أبوهم جالس في مقعده لا يهتز له ساكن، فمن الناس من يسبه سراً أو يرميه بكلمات: أين الأب؟ وما هذا الإِهمال في تربية الأطفال؟ وغيرها من الجُمل التي يقصد بها إيقاظ هذا الجماد الذي جلس وعيناه متجهتان إلىٰ أسفل كأنه ينتظر شيئاً يخرج من الأرض.

وفجأة اقترب منه أحدهم في سكينة ووقار وسأله: أهؤلاء أطفالك؟ فرفع الرجل رأسه ولسان حاله ينطق حزناً: نعم، إنهم أولادي، وقبل ربع

ساعة كنا في المقبرة ندفن أمهم التي ماتت في حالة ولادة، وها هم المساكين يلعبون ويمرحون كأن شيئاً لم يقع.

هكذا تغيرت فكرة السائل وعرف كيف أن هؤلاء الأطفال فعلاً مساكين.. نعم تغيرت فكرته من لوم إلىٰ تعاطف، ومن حقد وكره إلىٰ حب وتقدير.

إن تصادم كثير من الأمم والشعوب والجماعات قد يكون في بعض الأحيان هو بسبب النظر للأشياء من زاوية واحدة، واعتبار ما نملك من الآراء هو الصواب والحق، مع العلم بأن الحق المطلق لا يدركه إلا مالك الملك، وعالم الأسرار والخبايا.

إن ظواهر الناس وأشكالهم وألوانهم أبداً لم تكن لتعبر عن مستوياتهم، وأبداً ما كان الظاهر من الناس والأمم الوسيلة الوحيدة لقياس إيمانهم ومعرفة حجم الخير الكامن فيهم.

وكما جاء في الحديث الصحيح: «إن الله لا ينظر إلىٰ صوركم وأجسادكم، ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم وأعمالكم».. جعلنا الله من الذين يظنون ظن الخير، وينظرون بعين البصيرة، فعين الدنيا ضعيفة في إدراك الحقيقة.

* * *

من يؤرخ لهم

ما زلنا نعاني حتىٰ هذه اللحظة ـ كتّاباً، ووعّاظاً، ودعاة، وتربويين، وآباء، وأمهات، وخطباء ـ من ندرة وجود مصادر للاستشهاد بالمواقف والأخلاق والبطولات سوىٰ تلك المصادر التي مضىٰ عليها قرون كثيرة من الزمن.

لا أعني قرن الصحابة والتابعين ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ، ولكن

القرون التي تلت ذلك بكثير، فعندما نحتاج للاستشهاد في موقف من مواقف الصدق، فإننا نستشهد بموقف في القرن الخامس أو السادس الهجري، وكذا بقية الأمور.

ولهذا السبب فإن صدىٰ المواعظ والخطب في الكثير من الحالات يكون ضعيفاً، لأن المستمع يقول في نفسه إن صاحب الموقف لم يعش ظروفي، ونوعية الفتن التي أتعرض لها، والبيئة المحيطة، ولا حتىٰ نوعية الحكام الذين نعايشهم، ولو أن الواعظ استشهد بموقف لعالم أو بطل أو زاهد عاصره السامعون، أو مضىٰ عليه وقت قريب من وقتهم ـ قرن أو أقل ـ لكان أشد تأثيراً، وأقرب إلىٰ الواقع، لأن المُستشهد به عاش ظروفهم، وبيئتهم.

ويبدو ـ والله أعلم ـ أن هناك ثلاثة أسباب لهذه الظاهرة:

الأول: خلو عصرنا أو العصر القريب منا من القدوات والأبطال، والعلماء والزهاد والحكماء.. وغيرهم!.

الثاني: ضعف همم علمائنا وكتّابنا ومؤرخينا لمتابعة وتأريخ مواقف وكلمات وحياة قدوات عصرنا.

الثالث: عدم إحساس علمائنا وكتّابنا ومؤرخينا بأهمية هذا الأمر في تربية الأجيال.. ولهذا لزم علاجه.

أما **السبب الأول**: فهو مستحيل الحدوث إذ لا يوجد عصر من العصور لا يتواجد فيه كثرة من العلماء والقدوات والحكماء والأبطال والزهاد، والمتميزين في كل علم.. ودليل ذلك قول النبي ﷺ فيما رواه الحاكم بإسناد صحيح: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحق، حتىٰ تقوم الساعة**»، وأحاديث كثيرة في هذا المعنىٰ.

صحيح أن الخيرية أقل مما كانت عليه في العصور والقرون السابقة، ولكن لا يمكن أن تختفي تماماً، أو لا يكون فيها عدد من القدوات يمكن التأريخ لهم، وتدوين مواقفهم وقصصهم وزهدهم وبطولاتهم.

أما **السبب الثاني**: فقد يكون حقاً هو السبب المباشر في هذه الظاهرة، ذلك أن الملاحظ أن الكم الهائل لكتب التراجم في العصور السابقة، والتخصص في كل لون من ألوان التراجم يوضح بجلاء الفرق الشاسع بين همم العلماء آنذاك وهمم علمائنا، فكل مذهب من المذاهب كانت فيه عشرات التراجم لعلماء المذهب.

كما كان هناك متخصصون في ترجمة رجال كل تخصص علىٰ حدة، فقد تُرجم للقضاة، وللحفّاظ، وللأبطال، وللوعّاظ، وترجم لمئات من الزهاد، وأُفردت تراجم للحكماء، والملوك، والأمراء، وقادة الجيوش والنحويين، والكثير من التخصصات، فأين من ترجم لعصرنا؟

وأما **السبب الثالث**: فهو مكمّل للسبب الثاني، إذ لو كان هناك إحساس بأهمية تدوين هذه السير، وأثرها العظيم علىٰ الأجيال المقبلة والحاضرة لكان هناك شبه استنفار لدىٰ الكثير من العلماء للانشغال بهذا الأمر.

نعم.. هناك محاولات من هنا وهناك ولكنها لا تشفي الغليل.

إن حركة التأليف لم تتوقف، بل ربما زادت عما كانت عليه في الماضي أضعافاً مضاعفة، لكنها شملت الكثير من العلوم، وأهملت هذا الجانب، بكل أسف.

ولذا فإننا نستصرخ الدعاة والعلماء والباحثين والمؤرخين في هذا العصر أن يهتموا بهذا الجانب بحيث يقوم أكثر من داعية بتقديم ترجمة تفصيلية لدعاة هذا العصر من جميع علماء ودعاة الحركة الإسلامية بفصائلها وأشكالها المتنوعة، بموضوعية وتجرد كامل، مع التركيز علىٰ أبرز الخصال والمواقف والكلمات لهؤلاء العلماء المؤثرين، والقدوات الصالحين.

ولا بأس هنا بأن يقوم أحد التربويين بترجمة مفصلة لأبرز المدرسين

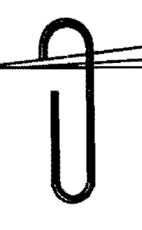
وأن يقوم قائد عسكري بتدوين ترجمة مفصلة لأبطال ذلك العصر، والعصر القريب منا، سواء المعروف منه أو المغمور.

ثم يقوم ثالث بترجمة للزهاد والقادة والحكماء، والجمعيات الخيرية.

وهكذا يتنوع تجميع هذه التراجم والمدونات في موسوعات تنفع الأجيال الحاضرة والمقبلة.





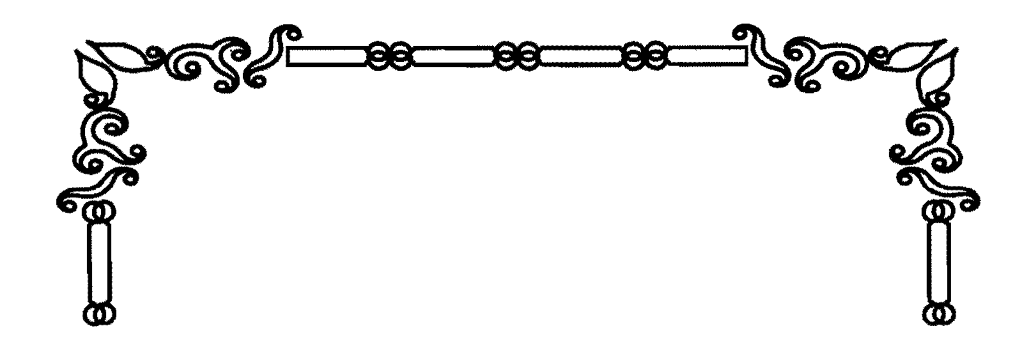


وقفات تربوية

(المجموعة الرابعة)

تأليف
عبد الحميد جاسم البلالي





ثمن التحول

عندما قرر الكثير من الحركات الإسلامية التحول من العمل السري، إلى العلني، والانفتاح على المجتمع؛ كان بذلك يرجع إلى الأصل الذي أراده الله تعالى لدعوته حتى تنتشر في الأرض، وحتى يتحقق ما قاله النبي ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري: «**وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله**» (فتح الباري **٣٨٥٢**).

لكن هذا الانفتاح على المجتمع كلَّف بعض الحركات الإسلامية خسائر لم تكن في حسبانها، من أبرزها تساقط بعض القيادات والأفراد البارزين فيها، وتحول بعضهم من دعاة إلى الله إلى سعاة إلى البروز، وحب الأضواء، والشهرة، وتسليط الكاميرات، والمجد الذاتي، والمصالح الشخصية.. بل تحول البعض منهم إلى أعداء ومؤلبين وجواسيس على الحركة التي كانوا بالأمس أعضاء فاعلين فيها!.

وعندما لمست الحركات الإسلامية ـ التي انتقلت إلى عالم الانفتاح ـ هذه الخسائر، بدأ النقاش داخلها، والتساؤلات والاتهامات التي انطلقت في اتجاهات عدة، وكان منها، القول بأن هناك استعجالاً في التحول إلى الانفتاح، بل ذهب البعض إلى أبعد من ذلك، وجعل المسألة برمتها خطأً، مفضلاً البقاء في مرحلة عدم العلن.

أين الخلل؟ ولماذا حدث هذا في بعض الحركات بنسبة لافتة للنظر بينما كان لدى البعض الآخر بنسبة أقل؟.

هذا ما سنعرفه في الوقفة المقبلة بإذن الله تعالى.

❊ ❊ ❊

الانفتاح والتساقط (١)

بدأت ظاهرة الانفتاح في العمل الإسلامي تطفو على السطح، بعد أن ركنت الحركة الإسلامية بشكل عام إلى العمل غير المعلن ردحاً من الزمن لأسباب كثيرة كان من أبرزها الظلم والدموية التي لاقتها من بعض أصحاب القرار بإيعاز من الدول الكبرى التي كان يخيفها ذلك المارد الذي لو خرج لهدد بزعمهم حضارتهم المادية التي يتباهون بها.

كان القرار صعباً للغاية بإيقاف مرحلة الانغلاق والانطلاق إلى مرحلة العلنية أو الانفتاح في الكثير من بقاع العالم الإسلامي، إلا أن كفة الانفتاح هي التي رجحت في نهاية الأمر في الكثير من تلك البقاع، لأنها هي الأصل في الدعوة إلى الله تعالى، كما قال سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧].

والبلاغ حتى ينتشر، كما يريد ربنا تبارك وتعالى يقتضي العلنية بكل ما تعني هذه الكلمة، إننا كلما توسعنا في هذه العلنية أو الانفتاح زاد انتشار الإسلام، وعم الخير كل الأرض.

❊ ❊ ❊

أزيلوا التراب عن بذور الخير

في استقراء لقصص العشرات من التائبين، سواء من أعرفهم معرفة مباشرة أو من قرأت عنهم، أو نُقل لي عنهم، فإني ألمس من خلال هذا

الاستقراء والمعايشة الطويلة، أن هناك سنة إلهية عجيبة، وهي أنه ما من عاصٍ يتوب إلى الله، ويرجع إلى الفطرة، إلا وكان الذي ساقه إلى الهداية بذرة خير كانت فيه فغطتها أتربة المعاصي ردحاً من الزمن، حتى إذا جاءت اللحظة التي انكشف عنها ذلك التراب عن تلك البذرة، كان الحصاد الحلو.

السؤال هنا: كيف ينكشف هذا التراب؟

لا شك في أن هناك عوامل مختلفة تساعد على ذلك، ولكن لا بد أن نعلم ونؤمن أولاً بأن أحد أهم هذه العوامل هو الداعية نفسه، وذلك عندما يبحث ويتفرس في ذلك العاصي ليكتشف وجود تلك البذرة الخيرة في نفسه، ثم يبدأ في إزالة الأتربة عنها، ليظهر المعدن النفيس، وليترك لأشعة الشمس أن تنعش تلك البذرة، ثم يتعهدها بالماء ويبعد عنها الآفات التي تهددها، ثم تخرج تلك البذرة الخير الكثير الذي لم نتوقعه.

إن كلمة طيبة أو موعظة مؤثرة أو ابتسامة حانية أو قضاء حاجة أو مواساة في مأساة، كلها قد تكون سبباً في انكشاف ذلك التراب.



«إن تنصروا الله ينصركم»

يقول سيد قطب ـ يرحمه الله ـ معلقاً على هذه الآية: «كيف ينصر المؤمنون الله، حتى يقوموا بالشرط وينالوا ما شرط لهم من النصر والتثبيت؟ إن لله في نفوسهم أن تتجرد له، وألا تشرك به شيئاً، شركاً ظاهراً أو خفياً، وألا تستبقي فيها معه أحداً ولا شيئاً، وأن يكون الله أحب إليها من ذاتها ومن كل ما تحب وتهوى، وأن تحكمه في رغباتها ونزواتها وحركاتها وسكناتها، وسرها وعلانيتها، ونشاطها كله وخلجاتها، فهذا نصر الله في ذوات النفوس.

ونصر الله يتحقق بنصرة شريعته ومنهاجه، ومحاولة تحكيمها في

الحياة كلها بدون استثناء، فهذا نصر الله في واقع الحياة» (الظلال ٣٢٨٨/٦).

إنها قاعدة مستمرة لا تتبدل ولا يطرأ عليها تغير منذ أن نزلت من السماء، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها.

إنها معادلة دقيقة، لا تقبل أنصاف الحلول، ومن هنا يجب أن يستقر في خلد كل مسلم مظلوم أو شعب مظلوم، أو أمة مظلومة مغلوبة من عدوها، أن الله تعالى قادر على النصر متى شاء وكيفما شاء، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ولكن هذا النصر لا يتنزل منه سبحانه إلا عندما تتحقق هذه المعادلة القرآنية، فمن أراد نصر الله تعالى فعليه أن يقوم هو بنصرة الله تعالى أولاً، ثم يتحقق الشطر الآخر في المعادلة.

إن نظرة عاجلة على خريطة العالم الإسلامي اليوم وما يقع فيها من ظلم عظيم للمسلمين في أنحاء الأرض على أيدي أراذل البشر، وعباد الصليب والوثن، وإخوان القردة والخنازير، يجعلنا نتساءل: هل حدث كل ذلك فجأة من غير مقدمات، ومن غير تخلٍّ عن الشطر الأول من المعادلة، لا أعتقد ذلك أبداً، فالله لا يظلم الناس، ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

* * *



الوقت هو الحياة

لله در الإمام حسن البنا ـ يرحمه الله ـ عندما قال تلك العبارة التي استلهمها ممن سبقه من علماء الأمة وسلفها الذين عاشوا حقاً هذه الحقيقة طيلة أيامهم في هذه الدنيا، وكانوا في سباق دائم مع الوقت، كأنه هو العدو الذي لا ينتظر أو يحابي أحداً، حتى مثّله الإمام الشافعي بالسيف «إن لم تقطعه قطعك»، فهو سباق مع الزمن، فمن توقف قطعه الزمن، والإمام ابن القيم يذكر من يريد الاسترخاء بقوله: «لا راحة للمؤمن إلا تحت شجرة طوبى».

لقد أدرك أصحاب الهمم العالية من السلف الصالح والربانيين في كل زمان أن أي لحظة راحة لا يعقبها انطلاق، فهي إما تأخير لك عن دخول الجنة، وإما انخفاض في منزلتك في الجنة أو ربما أرجعتك إلى الوراء وأسقطتك في حفرة من حفر المعاصي بعد أن استغل الشيطان تلك اللحظة التي غفلت فيها عن سلاحك.

«جاء ابن الكواء إلى الإمام التابعي الربيع بن خثيم صاحب ابن مسعود رضي الله عنه، فقال: دلني على من هو خير منك، قال: نعم، من كان منطقه ذكراً، وصمته تفكراً، ومسيره تدبراً، فهو خير مني». (سير أعلام النبلاء ٢٦١/٤).

هكذا كانوا يسابقون الوقت والأنفاس، فكل حركة ولحظة ولفظة وخطوة في حياتهم تقربهم إلى المولى، وترفع من درجاتهم في الآخرة، شعارهم: «نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل». كما قال الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه.



قلوب متصلة بالله

القلب المتصل بالله هو ذلك القلب الذي لا تمر عليه ساعة دون ذكر الله تعالى، فما تسقط عيناه على شيء إلا ويذكره بالله تعالى، ولا يسمع خبراً إلا ويذكره بالله تعالى، ولا ينطق لسانه بشيء إلا ويذكره بالله تعالى، ولا يقوم بحركة إلا ذكَّرته بالله تعالى، فكلامه يذكرك بالله، وصمته يذكرك بالله، وحركاته تذكرك بالله.

هكذا كان أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - عندما «خرج في بعض أسفاره، فلما اشتد الحر عليه دعا بعمامة فتعمم بها، فلم يلبث أن نزعها، فقيل له: يا أمير المؤمنين: لم نزعتها؟ لقد كانت تقيك الحر؟ قال: ذكرت أبياتاً قالها الأول:

من كان حين تمسُّ الشمسُ جبهته | أو الغبار يخاف الشين والشعثا
ويألف الظِّلَّ كي تبقى بشاشته | فسوف يسكنُ يوماً راغماً جدثاً
في قعرِ مظلمةٍ غبراء موحشة | يطيل تحت الثرى في جوفه اللبثا

(بحر الدموع ٨٢، ٨٣).

قطعاً، فإن أمير المؤمنين لا يعني أن الاستظلال وحماية النفس من حرارة الشمس، أو وقايتها من الحر ذنب أو معصية، لكنه القلب المتصل بالله تعالى الذي يُذكر صاحبه في كل حركة بالله تعالى، حتى يكون في ارتقاء دائم بمدارج السالكين.

***

قرأوا عنها ولم يمارسوها

كان التلميذ متشوقاً لسماع إجابة الشيخ عن تساؤله حول سبب ضمور العلاقات الأخوية بين جموع العاملين في الدعوة، حتى غلب العمل الإداري الدعوي على الجانب الروحاني الإيماني، فلا يسأل أحد عن أحد، أو يطمئن عليه، أو يتحسس حاجته إلا إذا كان هناك نشاط يستدعي ذلك، ولا لقاء إلا في الاجتماعات الدعوية؟

أجاب الشيخ: أظن ـ والله أعلم ـ أن هؤلاء الدعاة وإن مضى عليهم زمن في الدعوة إلى الله، إلا أنهم لم يتشربوا معاني الدعوة الحقة، وهناك فرق شاسع بين تشرب المعاني والعيش بها.. والفهم اللفظي لمعاني الأخوة في الله.

إن هؤلاء الدعاة قرأوا عن الأخوة، لكنهم لم يمارسوها في حياة الدعوة، لذلك لم تتشربها قلوبهم.

إننا بحاجة إلى أخوة تشبه أخوة الفاروق رضي الله عنه عندما كان يذكر الأخ من إخوانه بالليل فيقول: ما أطولها من ليلة، فإذا صلى الغداة

غدا إليه فإذا لقيه التزمه أو اعتنقه. (الزهد لأحمد بن حنبل ص **١٢٣**).

كما لا نريد أخوة مزيفة مقصورة علىٰ الابتسامات والمجاملات، فإذا ما جاء الجد تلاشت، بل نريد أخوة نابعة من القلب، ومعبرة بصدق عن الحب، وأخوة الإسلام.

❋ ❋ ❋

أين الأخوة؟

في جلسة جمعت بين شيخ وتلميذه، بعد سفر طويل قضاه التلميذ خارج البلاد للتحصيل العلمي في بلاد الغرب.

قال التلميذ لشيخه: غبت عن إخواني شهوراً طويلة، ومرض والدي، وعندما عدت إلى البلاد لم يسأل عنّي أحد من الإخوة، وبعد أسابيع طويلة دق جهاز النداء «البيجر» الخاص بي، فلما طلبت رقم الهاتف الذي ظهر على الشاشة، إذا بأحد الإخوة يكلمني بعبارات باردة، كأنني لم أتغيب كل هذه الشهور، وبعدها لم يتصل بي أحد ألبتة.. فأين الأخوة التي طالما حدثتمونا عنها، والتي طالما قرأنا عنها في الكتب، وطالما أكدتم لنا معانيها في الرحلات والمواعظ، والحفلات.. إلخ؟!.

قال له الشيخ: أيها التلميذ النجيب.. بيني وبينك من العمر ما يتجاوز العشر سنين بكثير، وبالرغم من قدم عهدي بالدعوة، وشهرتي بين جموع الدعاة، ومعرفتي الكثير من الإخوة واحتكاكي بهم، إلا أنه لا يتصل بي أحد، إلا ليطلب مني إلقاء محاضرة!.. ولا أتذكر أن أحداً اتصل بي ليسأل عنّي أو يطمئن عليّ أو فقط ليسمعني صوته، إلا ثلاثة أو أربعة أشخاص على ما أذكر على مدار سنتين كاملتين.. فلا تعجب!.

❋ ❋ ❋

حال القلوب مع الفتن

روى الإمام مسلم عن حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: **«تعرض الفتن على القلوب عرض الحصير عوداً عوداً، فأي قلب أُشربها نُكتت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى يصير على قلبين أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مرباداً كالكوز مجخياً، لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً، إلا ما أُشرب من هواه»**.

فمن أراد الابتعاد عن المعاصي، والحذر منها، ورام صفاء القلب، ونقاءه من الأقذاء، فعليه بتذكر هذا الذي ذكره الرسول ﷺ لصحابته الكرام، وما يحدث للقلب عند المعصية، وكيف يتحول القلب، ويغطيه الران حتى تغلق جميع مسامات الإحساس التي لديه!، فلا يعود يشعر بالخير أبداً أو يتأثر به.

يروي الإمام الأعمش عن أحد هؤلاء الربانيين الذين يديمون هذا الشعور ـ واستحضاره حتى يستمروا في هذه اليقظة الإيمانية، لئلا يقتحم قلوبهم إحدى تلك المعاصي التي تؤذي بذلك الانسداد الكامل ـ يقول: «كنا عند مجاهد فقال: القلب هكذا، وبسط كفه، فإذا أذنب الرجل ذنباً قال: هكذا، وعقد واحداً ـ ثم أذنب وعقد اثنين ثم ثلاثاً ثم أربعاً، ثم رد الإبهام على الأصابع في الذنب الخامس، ثم يطبع على قلبه».

قال مجاهد: «فأيكم يرى أنه لم يطبع على قلبه» (صفة الصفوة ٢/٢١٠).

أيها الداعية إلى الله: لا تظنن أنك بمنأى عن ذلك، إذا ما توالت معاصيك، وأنت لا تشعر بمصيبتك.

❋ ❋ ❋

تمكن إبليس بثلاث!

يتخيل الثقة الثبت ضرار بن مرة أن الشيطان يقول: «إذا استمكنت من ابن آدم بثلاث أصبت منه حاجتي: إذا نسي ذنوبه، واستكثر عمله، وأُعجب برأيه»! (صفة الصفوة ١١٦/٣).

إن الإنسان إذا ما تذكر ذنوبه الماضية والحاضرة، فإن ذلك يغرس الخوف في قلبه من الانتقام الرباني في الدنيا والآخرة، مما يجعله أقرب إلى التقوى، ويقظة القلب، بينما إذا نسي ذنوبه تلك فإنه ينسى عقوبة الله له، ويزول الخوف من قلبه، مما يجعل للشيطان دوراً أكبر في غوايته وتزيين المعصية له، والتحكم به.

لكن إذا لم يتمكن الشيطان من هذا الأمر، وكان المسلم من الذين لا ينسون ذنوبهم، لكنه يقع في حفرة أخرى، وهي استكثاره لعمله، فإن ذلك يدفعه لترك العمل، وإسناد الفضل لنفسه، ناسياً بذلك فضل الله عليه مما يُفسد عليه عمله، ويجعله ألعوبة بيد الشيطان.

أما إذا تجاوز ذلك كله؛ لكنه أعجب برأيه، وأهمل رأي الآخرين، احتقاراً لمنازلهم، أو مستوياتهم الاجتماعية، أو ما يراه من فضل عليهم بعبادته أو علمه، فإن ذلك يُفسد الكثير من عبادته، كما سيؤدي إلى خسارته الكثير من الأجر، بل تمكن إبليس منه.

أما إذا ما وقع في هذه الحفر الثلاث، فإن الشيطان ـ كما تخيل الثقة ضرار بن مرة ـ يستولي عليه تماماً، ويجعله عبداً له يتصرف به كيفما يشاء، ويصيب منه ما يشتهي حاجته!.

❋ ❋ ❋

فجر الأجر

ما الذي يجعل المريض يقبل تناول الدواء المر؟

وما الذي يجعل العامل يرضي بالعمل المضني والتعب؟

وما الذي يجعل الطالب يسهر ليله، ويجهد نفسه؟

إنه تذكر النتيجة، فالمريض يتذكر الشفاء فتهون عليه مرارة الدواء، والعامل يتذكر المال فيهون عليه التعب والجهد، والطالب يتذكر النجاح فتهون عليه قلة النوم، وتعب الدراسة.

والتكاليف التي افترضها الله على عباده ما هي إلا مجموعة من الأعمال المتعبة الشديدة على النفس، ولهذا فإن الله تعالى ملأ قرآنه بذكر الجنة، بل بتفاصيل ما يحدث فيها، وصفات حورها وثمارها وأنهارها، وقصورها، وغلمانها، وأوانيها، وروائحها، وما فيها من نعيم مقيم.

وكذلك ترى في السنة المطهرة؛ إذ قلَّ أن ترى دعاء أو أي نوع من أنواع الأذكار، إلا وتراه مقروناً بنتيجة من النتائج، فهذا تنال عند قوله كذا من الأجر، وهذا يجعلك في حفظ الله حتى المساء، وهذا يمنع عنك عذاب القبر، وهذا يجعلك تموت على الفطرة، وهكذا تربى الصحابة الكرام واندفعوا نحو الآخرة، واحتملوا البلاء تلو البلاء، بتذكرهم للنتيجة التي سيؤولون إليها، ألا وهي جنة عرضها السموات والأرض.

وصدق الإمام ابن الجوزي حينما قال: «تلمَّح فجر الأجر يهن ظلام التكليف» (اللطف في الوعظ ص٥٤)

فلا تنس الأجر في كل ما تقوم به لله، أو حينما يعترضك البلاء، ولن يضيع عند الله شيء، إنما هي ساعة صبر يعقبها نعيم خالد.

❊ ❊ ❊

☜ طرق الوصول

ما من مؤمن إلا وأقصى أمنياته الوصول إلى مالك السموات والأرض، وخالق كل شيء، فبالوصول إليه يضمن المؤمن رضاه، وينعم باللذة الإيمانية، والسعادة التي يبحث عنها الجميع فلا يجدها إلا القليل منهم.

لكن كيف الوصول إلى الله؟

من رحمته ـ سبحانه ـ بنا أنه لم يتركنا هكذا ضائعين، لا نعرف كيفية الوصول إليه، بل دلنا عليه في كتابه الكريم، واشترط لذلك اتباع هدي النبي ﷺ وسنته فقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

فكلما اجتهد المؤمن باتباع سنة نبيه ﷺ وتحرَّى دقائقها ـ أقوالاً وأفعالاً وتقريراً ـ فإنه يتقرب إلى الله، وعندما يوفقه الرحمن إلى ذلك عليه أن يتذكر نعمة الله عليه، وتوفيقه له، وألا يكل الأمر إلى نفسه طرفة عين، بل يجب عليه أن يشعر دائماً بأنه فقير، محتاج إليه، ذليل بين يديه، لا يتعالى بعلم، ولا بمذهب، ولا بشهرة، ولا بمنزلة بين الناس، بل يجب أن ينسب الفضل لبارئه، ثم لا يقوم بعمل أو قول إلا ويريد وجه الله فيه، ويتذكر على الدوام أن ما كان لله اتصل، وما كان لغير الله انفصل.

ويجعل هذه الطرق الثلاثة الإمام أبن القيم بقوله: «أقرب الوسائل إلى الله، ملازمة السنة، والوقوف معها في الظاهر والباطن، ودوام الافتقار إلى الله، وإرادة وجهه وحده بالأقوال والأفعال، وما وصل أحد إلى الله إلا من هذه الثلاثة، وما انقطع عنه أحد إلا بانقطاعه عنها أو من أحدها» (الفوائد، ص١٤١).

نسأل الله التوفيق للوصول إليه تعالى، والنظر إليه يوم القيامة.

* * *

وسام «أشجع الرجال»

«قال معاوية رضي الله عنه لعمرو بن الأهتم: أي الرجال أشجع؟ قال: من رد جهله بحلمه» (الحلم لابن أبي الدنيا، ص٣١).

المرء فينا إما أن يختار أن يكون في هذه الحياة داعية إلى الله تعالى،

أو واحداً من الملايين التي لا شأن لها في هذه الحياة إلا السعي نحو اللقمة والملبس والدابة والمنزل.

فإذا ما اختار الأمر الأول فلا بد له من صفات تعينه على أداء واجبه الدعوي، وأول هذه الصفات سعة الصدر والحلم، لأنه ما إن يضع قدمه الأولى في طريق الدعوة حتى يتعرض للكثير من المعترضين على سلوكه أو كلامه أو أمره بالمعروف أو نهيه عن المنكر.

لقد أدرك هذا الأمر لقمان ـ عليه السلام ـ وأراد أن يفهمه لابنه عندما وعظه فقال له كما حكى عنهما القرآن الكريم: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ۝١٧﴾ [لقمان: ١٧].

هذا الصبر الذي يشير إليه لقمان بصورة عامة يشمل كل ما يصيب الداعية في أثناء دعوته، ولكن أبرز ما فيه هو حلمه على سفاهة السفهاء، وجهل الجهلاء، وأن يتذكر دائماً أنه داعية إلى الله، فإذا ما دعته نفسه إلى الرد على حماقة البعض أو سفاهة أحدهم، فيرد ذلك بحلمه، وعندها يستحق وسام الرجولة، بل وسام «أشجع الرجال»، كما أطلق عليه عمرو بن الأهتم، عندما سأله الصحابي الجليل معاوية رضي الله عنه عن أشجع الرجال، فإذا ما كانت الرجولة صفة عظيمة في المرء، فإن الحلم أبرز أركانها.

* * *

سذاجة بعض الدعاة

تبين عشرات الآيات القرآنية والأحاديث النبوية أصناف الدجالين، والكذابين، ومدعي الصلاح، والنصّابين، والمستغلين للدين لمنافع شخصية، كل ذلك ليسهل على المسلم التعامل مع الآخرين في هذه الحياة، وحتى لا يتبع غير الصادقين، ولا يعطي الأمانة لمن لا يستحقها، فيكون الدمار والهلاك.

ومن أبرز هذه المفاهيم العامة، علاقة الإيمان بالعمل، فلم تُذكر آية في القرآن الإيمان إلا وقرنته بالعمل، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥]، وآيات أخرى رتبت العقوبة العظيمة على من يقول ما لا يفعل. قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٣].

ومن هذه المفاتيح أيضاً ذكر عشرات من صفات المنافقين، سواء النفاق العملي أو الاعتقادي. الذي منعه استهزاؤهم بمن ينفقون في سبيل الله، وقيامهم للصلاة وهم كُسالى، ومشقة صلاتي العشاء والفجر عليهم، وكثرة اعتذارهم عند طلبهم لنصرة الإسلام والجهاد، وولاؤهم لأعداء الله، وحبهم لنشر الفاحشة، وإخلافهم للوعد، والكذب، وغيرها كثير في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

ومع كل هذه المفاهيم والضوابط والمفاتيح، إلا أن الدعاة بشكل عام أو الكثير منهم لم يتشرب بعد هذه الأمور، وما زال يخلط الحابل بالنابل، ويوثق من لا يستحق، ويوالي من لا يستحق الولاء، ويثق بالكذابين والدجالين بمجرد ادعاء هؤلاء الصلاح، أو إظهارهم لبعض الأعمال الإسلامية! أليست هذه سذاجة لم يفق بعض الدعاة منها حتى الآن؟.

❊ ❊ ❊

لسنا مُطالبين بدفع فواتير الآخرين

يا أبناء الحركات الإسلامية المعتدلة في كل مكان من هذه الأرض، وأبناء أئمة الدعوة الذين تميَّزوا بالاعتدال من أمثال الإمام البنا والسباعي والمودودي والقرضاوي ونحناح وغيرهم:

في هذه اللحظات من عمر الدعوة التي تمرون فيها بفتنة من أشد الفتن التي مرت على المسلمين في العصر الحديث، لا بد أن تبرهنوا عملياً على أعتدالكم وتميزكم المعهود.

ففي خضم الدعوات المنادى بها من هنا وهناك تُرفع راية الغلو، فتدخل المسلمين والدعاة إلى الله في أتون فتنة عظيمة لا يعلم مداها إلا الله تعالى.

الاعتدال يقتضي عدم الخلط بين إنكارنا لضرب المسلمين وديار المسلمين من قبل الولايات المتحدة أو غيرها، وبين الإنكار على المخطئ كائناً من كان، وتبيين خطئه للناس حتى لا يقتدوا به، أو يحملوا الإسلام نتيجة بعض ممارساتهم الخاطئة.

يجب أن نمتلك الجرأة دون الخشية من أحد سوى الله تعالى، وأن نعلي أصواتنا ضد أصحاب الفتنة ومشعليها، وألا تغلبنا العاطفة فنقف مع المخطئ، وأصحاب الأفكار المغالية... أياً كانوا، ومهما رفعوا من الشعارات.

علينا دائماً أن نتذكر أنه ليس مطلوباً منا دفع فواتير أخطاء الآخرين أو تحمل عواقب تفسيراتهم للدين.

* * *

يا دعاة الاعتدال.. انشطوا

يا دعاة الاعتدال في كل مكان، يا من ثبتم عندما تساقط الآخرون، وبقيتم في الوسط بعد أن تجاوز الآخرون بين مشرق ومغرب:

إياكم ونسيان التاريخ.. فتاريخ المتطرفين لم يبدأ اليوم بحادثة بعينها، بل بدأ منذ عهد النبي ﷺ، عندما جاءه النفر الثلاثة فقال أحدهم إني أصوم ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا أقوم الليل ولا أنام، وقال الثالث: وأنا لا أتزوج النساء... فغضب النبي ﷺ على هذا الفهم الخاطئ للدين.. وقال محذراً لهم في نهاية الخطاب: «**من رغب عن سنتي فليس مني**».

ثم جاء دورهم في مقتل سيدنا عثمان ـ رضي الله عنه ـ والاستهانة

بدم هذا الصحابي المبشر بالجنة، وقتلوه وهو يقرأ القرآن!.

ثم استمروا بالتزايد حتى عهد الإمام علي رضي الله عنه بخروجهم على الجميع، ودس من يقتله منهم، ثم نمو حركتهم وأفكارهم، وانعزالهم عن المجتمع في جميع عصور الدولة الإسلامية، حيث تكونت منهم فرق وتجمعات ورؤساء، ومؤسسون.

وظن البعض أن تلك الأفكار قد اندثرت، وإذا بها تظهر في سجون ناصر، التي عانى الإمام الهضيبي أشد المعاناة داخلها في رد أصحابها إلى جادة الصواب، بعد أن نشروا في الزنازين فكرة تكفير المجتمع والحكام.

ثم بعد ذلك اتجهوا إلى أفغانستان للتدرب على السلاح والابتعاد عن الأنظمة المحاربة لفكرهم... ومن هناك تأصل هذا الفكر وتأسس أكثر من ذي قبل.

إننا لا نقول إنه لا توجد دوافع لتلك الأعمال، سواء كان ظلم الحكومات، والطواغيت واشتداد وطأتهم على الدعاة، ومحاربتهم للدين، ولكن ذلك كله ليس مبرراً لما يحدث من أهوال في العالم الإسلامي، مما عرقل مسيرة الدعوة الإسلامية، وضيق على الكثير من المسلمين في أنحاء العالم.



من ثبت وصل

كان يجلس إلى أمير المؤمنين في الحديث الإمام سفيان الثوري فتى كثير الفكرة، حسن الاستماع، طويل الإطراق، فأراد الإمام الثوري أن يعرف حقيقة معدنه، فاستفزه بسؤال قائلاً: «يا فتى، إن من كانوا قبلنا مروا على خيل عتاق، وبقينا على حمير دبرة»، فقال: «يا أبا عبد الله، إن كنا على الطريق، فما أسرع لحوقنا بالقوم». (حدائق الأزهار **١٠٣** لابن الجوزي).

لا شك أن ملاحظة فارق المستوى بين القدوات في الصدر الأول وبين المعاصرين أو من هم في بداية الطريق أمر مهم، وإحساس ضروري، ليدفع ذلك الإنسان للمزيد من العمل والتنافس على الخير.

ولكن الأهم من ذلك ما أدركه ذلك الفتى النابغ، واستيقنه، ألا وهو الثبات على الطريق، وسلوك الطريق نفسه الذي سار عليه أولئك القدوات «إن كنا على الطريق فما أسرع لحوقنا بالقوم».

إن قضية الثبات هي التي كانت تشغل النبي ﷺ وصحابته الكرام، ولهذا كان أكثر دعاء النبي ﷺ: **«يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»**.

وحتى لو سلكنا الطريق ذاته فليس مضموناً أن نصل إلى مستوياتهم، وليس هذا هو الهم الأكبر، إنما يجب علينا أن ننشغل بالثبات على الطريق المستقيم، لا بموعد الوصول إلى مستويات أولئك العمالقة، فمن ثبت وصل بإذن الله.

* * *

الدعاة والضعف الاقتصادي

من أبرز نقاط الضعف التي تعاني منها الحركة الإسلامية المعاصرة، ضعف الناحية الاقتصادية، ولهذا السبب يتوقف الكثير من المشاريع، وتتعثر الإنجازات ويتأخر الكثير من الطموحات، لذا صار من المظاهر المألوفة بروز عناصر تجمع المال من المساجد والتجار.

والقليل من الجماعات الإسلامية قد فطن لنقطة الضعف هذه، وبدأ في استثمار بعض هذا المال في أعمال استثمارية لتدر ريعاً مستمراً يُنفق منه على المشاريع الخيرية دون الحاجة ليكون «اليد السفلى»، وحتى يتجاوز التأخير في الكثير من هذه المشاريع، أو تحكُّم بعض أصحاب النفوذ بسبب ذلك الدعم.

ولا أدري: لماذا لم يتم طرح هذا التساؤل الكبير المسبب لهذه الظاهرة، وهو: «لماذا يحجم الدعاة أو الكثير منهم عن العمل الاقتصادي؟!».

هل لأن الكثير منّا لا يفهم المعنى الحقيقي للزهد في الدنيا؟ أم هو الخوف من فتنة الدنيا المقترن ـ في معظم الأحيان، بالمال والعمل التجاري؟

أم هو الخوف من اقتحام الصعاب وإيثار الراحة في العمل الحكومي ذي الراتب الثابت؟

أم أن الحركة الإسلامية ـ بشكل عام ـ لم تضع العمل الاقتصادي ضمن أولوياتها؟! أم أن هناك أسباباً أخرى ... الله أعلم بها.

❊ ❊ ❊

أفضل ما تتقرب به إلى الله

يروي الإمام ابن الجوزي في كتابه صفة الصفوة **٢٣١/٤، ٢٣٢** عن الإمام الزاهد الكبير أبي سليمان الداراني أنه سئل: «يا أبا سليمان: ما أقرب ما تُقرب به إلى الله؟ فبكى ثم قال: مثلي يسأل عن هذا؟ أقرب ما تقرب به إليه أن يطلع من قلبك على أنك لا تريد من الدنيا والآخرة إلا هو».

هذه هي حقيقة التوحيد، وإخلاص العبادة له وحده، فلا يبقى لمخلوق ـ كائناً من كان من إنسان أو حيوان أو جماد ـ في قلبك شيء، وألا يكون عمل ـ صغر أو كبر ـ إلا ولك فيه نية لله تعالى، ولا تخطو خطوة إلا وتريد بها وجهه، ولا تنطق بكلمة، أو تقرأ حرفاً إلا وتريد وجهه، حتى وإن كان الذي تقرؤه أو تنطق به هو القرآن الكريم أو السنّة المطهرة.

وفي اللحظة التي يتخلى فيها الإنسان عن هذه الحقيقة فإن الله تعالى يتخلى عنه، ويدعه لنفسه، ولهذا السبب كان الرسول ﷺ يكثر من دعاء: «يا حي يا قيوم بك أستغيث فأصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين».

حتى طرفة العين التي تستغرق واحداً بالألف من الثانية لا يريد رسول الله ﷺ أن يغفل عن هذه الحقيقة العظيمة.

***

التعامل مع الفتنة

روى الشيخان والإمام أحمد عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قول النبي ﷺ: «**ستكون فتن، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من تشرف لها تستشرفه، ومن وجد فيها ملجأً أو معاذاً فليعذ به**».

يقول الإمام المناوي في شرح هذا الحديث - فيض القدير **٩٨/٤**: «القاعد فيها - أي القاعد في زمنها عنها - خير من القائم - لأن القائم يرى ويسمع ما لا يراه ولا يسمعه القاعد، فهو أقرب إلى الفتنة منه - والقائم فيها - يعني القائم بمكانه في تلك الحالة - خير من الماشي - في أسبابها - والماشي فيها خير من الساعي إليها أي الذي يسعى، ويعمل فيها».

ويقول الإمام النووي معلقاً: «القصد بيان عظم خطرها، والحث على تجنبها، والهرب منها، والتسبب في شيء منها، وأن شرها يكون على حسب التعلق بها».

والتشرف الوارد في الحديث يعني التطلع للفتنة، ومن تطلع للفتنة فإنها تستشرفه أي تجره لها.

في هذا الحديث العظيم يبين لنا النبي ﷺ: خطورة الخوض في

الفتن، ويدعونا إلى الابتعاد عنها قدر الإمكان، وأن الخيرية تزيد على قدر البعد عنها والسلامة من شرورها، لأن الخائضين فيها والمتطلعين لها لا بد أن يكتووا بنارها.

ويدعونا رسول الله ﷺ: حينما تشتد الفتن إلى أن نبحث عن الملجأ والمعتصم لنلوذ به اتقاء هذه الفتن، ولا شك أن أول هذه الملاجئ الاعتدال، والرجوع إلى أقوال جماهير علماء أهل السنة والجماعة، والابتعاد عن الأفكار الشاذة والمخالفة لقول الجمهور والمناقضة لروح الإسلام، وهدي النبوة، وكذلك كف اللسان واليد والخطى عن الفتنة ومسعريها.

❊ ❊ ❊

أفضل طرق الجنة

يروي الإمام ابن الجوزي عن الإمام القاسم بن عثمان الجوعي في «صفة الصفوة» قوله: «أصل الدين الورع، وأفضل العبادة مكابدة الليل، وأفضل طرق الجنة سلامة الصدر».

ويعرف الإمام المناوي في (التوقف على مهمات التعاريف **٣٣٧**) الورع بأنه: «ترك ما يريبك، ونفي ما يعيبك، والأخذ بالأوثق، وحمل النفس على الأنسق».

ومن سلك طريق الورع فقد استبرأ لدينه وعرضه، كما جاء في الحديث، أما من خاض في كل شيء وتساهل في كل أمر، فما أسرعه للوقوع في المحذور.

وقيام الليل من أشق العبادات على النفس، ومن أكثرها ثواباً، لذلك كانت هذه العبادة من أوائل ما ربى الله به نبيه ﷺ وصحابته الكرام، حتى كانت فرضاً عليه، ثم خُففت بعد ذلك.

ومكابدة الليل غير قيام الليل، إذ إن القيام قد يكون في أول الليل

فيكون يسيراً على العابد، أو بعد نوم ساعات طويلة فيكون سهلاً دون مشقة، أما مكابدة الليل فشيء آخر، إذ هي مغالبة النفس التي تدعو صاحبها للفراش، وتشوقه للنوم، وهي الصراع مع النفس والعناء معها، كأنه في معركة معها حتى ينتصر عليها، خاصة أيام الصيف وساعات الليل القصيرة.

ثم يتحدث ـ يرحمه الله ـ عن «أفضل الطريق إلى الجنة» ألا وهو سلامة الصدر، وألا تكون هناك ضغينة في قلبك على أحد من إخوانك وألا تضع رأسك على وسادتك حتى تغرس في قلبك مسامحة الجميع، والدعاء لهم بالخير، وألا يبقى في قلبك من الرغبة في الانتقام للنفس ذرة.

هذه صفة أصحاب الجنة، وكما جاء في الحديث... «سيخرج عليكم الآن رجل من أهل الجنة»... اللهم احشرنا معهم، واجعلنا من رواد طرق الجنة.

* * *

الخارجون إلى الله تعالى

يقول شيخ الإسلام أبو بكر بن عياش: «الدخول في العلم سهل، لكن الخروج منه إلى الله شديد» (سير أعلام النبلاء: ٨/٥٠٣).

آلاف من طلبة العلم الشرعي في طول العالم الإسلامي وعرضه يدخلون إلى كليات الشريعة، وآلاف منهم يتخرجون من تلك الكليات، وآلاف يحفظون القرآن الكريم، ويتتلمذون على أيدي شيوخ العلم، ومئات الآلاف يستمعون إلى العلماء في الجمع، وحلقات العلم، ومئات الآلاف يستمعون إلى الأشرطة الإسلامية المسجلة، أو يشاهدون البرامج الدينية ويستمعون إلى محطات القرآن الكريم في الإذاعة. ولكن كم من هؤلاء الآلاف يخرج من هذه العلوم إلى الله تعالى؟.

إنما تكمن الرجولة والبطولة والهمة العالية، ويبرز أصحاب العقول وبعد النظر وسعة الأفق عند أولئك الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه،

ويحولون الكلمات والعبارات التي سمعوها إلى منهج عمل، ويخلطون ما يسمعون ويقرؤون في خلاطة القلوب الحية، والعقول النابضة ليحيلوها إلى قرار بالتغيير الفوري من السكون إلى الحركة، ومن الهمة الدانية إلى الهمة المتوقدة، ومن الضعف إلى القوة، ومن هامش الحياة إلى صناعة الحياة، هؤلاء هم الرابحون.

❋ ❋ ❋

ذوبان الثلج.. والحرارة المتأخرة!

ما أسرع انقضاء الوقت، وجريان عقارب الساعة، فكل ثانية تتحرك بها هذه العقارب، تنقص من عمرك، وتقربك إلى القبر، فإما أن تقترب إلى الجنة، وإما أن تقترب من النار، والعياذ بالله..

عمرك يمضي بسرعة، والزمن لا ينتظر، ولا يحابي أحداً، ولا يرجع لأحد، كائناً من كان.. وقد وصف النبي ﷺ سرعة انقضاء الوقت بالمسافر يستظل في أثناء سفره، بشجرة من أشجار الصحراء، ثم يغادرها.

ووصف الله تعالى سرعة انقضاء الدنيا، وجريان الزمن بقوله: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الكهف: ٤٥].

هكذا سرعة نزول المطر واختلاطه بالأرض، وتيبس أعواد الزرع بعد الخضرة، ثم ذهابها مع هبوب الرياح.

وكم وصف العلماء سرعة انقضاء الدنيا بأوصاف متعددة، ومن أبرز من تحدث في الدنيا، ووصفها الإمام ابن الجوزي إذ قال في أحد أوصافه لانقضاء العمر: «عمرك يذوب ذوبان الثلج، وتوانيك أبرد منه» (اللطف في الوعظ: **٣١**)..

فعندما لا تتناسب سرعة جريان العمر، وانقضاء الزمان مع تحرك الإنسان لإنقاذ نفسه من النار، هنا يكون حقاً ما وصفه الإمام ابن الجوزي

ببرود الهمة، حتى لتكون أبرد من ذلك الثلج الذي يذوب.

ومن كانت همته كذلك، فلا تزيد حرارته إلا قبيل الرحيل، ووقوف ألته، وعندها لا تنفع تلك الحراءة المتأخرة.

❋ ❋ ❋

احذر أبناء الدنيا

صدق رسول الله ﷺ عندما قال: «**المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**».

ومعنى ذلك أن الإنسان يتأثر بمن يحتك به إما تأثراً إيجابياً أو سلبياً، فإن كان من أبناء الآخرة تأثر به إيجابياً وقربه إلى الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل، وإن كان من أبناء الدنيا، والغافلين عن الآخرة، قربه إلى الدنيا، وأخلاق أهل الدنيا، وما قرب إليها من قول أو عمل، ولا يمكن أن يجمع هذا القلب حبين للدنيا وللآخرة، فإن أحدهما يطرد الآخر.. ولقد رأينا الكثيرين من الملتزمين ممن كانوا مع الدعاة إلى الله، وفي أجواء العلم والإيمان كيف تغيرت أحوالهم عندما احتكوا بأبناء الدنيا، فتغيرت ملابسهم، وأقوالهم، وطبائعهم، وعباداتهم، وشهواتهم، حتى نزع الله النور من وجوههم وألبسهم الذل والهوان؛ وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨]. ويقول: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

يروي الإمام ابن كثير عن أحد هؤلاء الذين تغيروا بعد احتكاكهم بأبناء الدنيا فيقول ـ في «البداية والنهاية» **١٢٣/١٣** ـ عند ترجمة الجمال عبد الله بن الحافظ عبد الغني المقدسي: «كان فاضلاً كريماً، حيياً، سمع الكثير، ثم خالط الملوك وأبناء الدنيا، فتغيرت أحواله».

فالدعاة إلى الله مدعوون للاحتكاك بأبناء الدنيا، ولكن بهدف الدعوة

إلى الله، وتبيين الحق، والتذكير بالآخرة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتحفيزهم لفعل الخير، والدفاع عن أهل الحق.

أما إذا تجاوز الأمر ذلك إلى مؤانسة الطبع، والوقوع في حبائل الدنيا، وجاذبية زينتها، فإن علامات الخوف من التبدل والتأثر السلبي الذي حذر منه الرسول ﷺ تكون ماثلة.

❋ ❋ ❋

قبل أن ينتبه الغير بك!

يظن البعض أن الله تعالى إذا سلمه من البلايا، والفتن، وأنعم عليه بكثرة النعم، ووقى جسده من الأمراض والنقم، فإن ذلك من علامات الرضى والقبول، فيتمادى في غفلته، وينسى المنعم بالنعم، فبدل أن يقوم بشكره ليستمر العطاء الرباني، وتدوم النعم، يزيد في انغماسه في الدنيا، وينسحب رويداً رويداً عن كل ما له علاقة بالآخرة!.

يتعجب الإمام ابن الجوزي من هذه الفئة أشد العجب فيقول في «صيد الخاطر» ص٣٢٣: «أعجب الأشياء اغترار الإنسان بالسلامة وتأميل الإصلاح فيما بعد، وليس لهذا الأمل منتهى، ولا للاغترار حد..

فكلما أصبح وأمسى معافى زاد الاغترار، وطال الأمل، وأي موعظة أبلغ من أن ترى ديار الأقران وأحوال الإخوان، وقبور المحبوبين، فتعلم أنك بعد أيام مثلهم، ثم لا يقع انتباهك حتى ينتبه الغير بك، هذا والله شأن الحمقى، حاشا من له عقل أن يسلك هذا المسلك».

لقد مُلئت الدنيا بمن ألغوا عقولهم، واتبعوا أهواءهم واستسلموا لشهواتهم، وإلا فكيف بمن له ذرة عقل أن يشتري دنيا فانية، بآخرة خالدة، ويشتري لذة زائلة، بنعيم مقيم؟!

❋ ❋ ❋

☜ جنة الدنيا وجنة الآخرة

يعجل الله لفئة من الناس جنة في الدنيا، ويدخر لهم جنتهم في الآخرة، هؤلاء هم ملوك الآخرة، وأسعد الناس في الدنيا.

هؤلاء هم الذين أجهدوا أنفسهم في تربية أنفسهم، ولاقوا العنت منها حتى سلس قيادها لهم، فلا يُوجد أحد فيها سوى الله، ولا حب لغيره، ولا سعادة إلا معه، ولا لذة إلا في قربه، فيعطيهم الله تعالى أغلى ما يبحث عنه الإنسان في هذه الدنيا، ويتقاتل عليه العالم بأسره، ألا وهو الراحة النفسية، والسعادة، والطمأنينة والهناء، والهدوء النفسي، والشعور بلذة الإيمان.

يصف الإمام ابن القيم قلب أحدهم بقوله: «قلب يرى الفقر غنى مع الله، والغنى فقراً دون الله، والعز ذلاً دونه، والذل عزاً معه، والنعيم عذاباً دونه، والعذاب نعيماً معه، وبالجملة فلا يرى الحياة إلا به ومعه، والموت والالم والهم والغم والحزن إذا لم يكن معه، فهذا له جنتان: جنة في الدنيا معجلة، وجنة يوم القيامة» (الفوائد: **٢٥٢** ـ النفائس).

هؤلاء لا يضطربون إذا اضطرب الآخرون، ولا يفزعون عندما يفزع الآخرون، ولا يبكون عندما يبكي الآخرون.

وجوههم مشرقة بنور الله وألسنتهم لا تفتر عن ذكر الله، قلوبهم معلقة بالمساجد، ويسابقون الوقت من أجل ملء كتبهم، فلا يصدر منهم إلا ما يرفع إلى السماء، نسأل الله تعالى أن نكون منهم.

❊ ❊ ❊

☜ شرَقُ الهوى

يقول الإمام ابن القيم في فوائده: «شراب الهوى حلو، لكنه يورث الشرق». . .

ويقول تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ [الكهف: ٧].

دائماً: الزينة حلوة متلألئة، براقة، ذات زخارف جاذبة، وهي كما يصفها الإمام ابن القيم بشراب طعمه حلو، فمن ذا الذي لا يحب الشراب الحلو؟!

ومبعث هذه الحلاوة ما جُبلت النفس على حبه والتعلق به، فالمرأة حُببت للرجال، وكلما تعرت ظهرت زينتها، والمال من أعظم الزينة التي خلقها الله تعالى، وهو نسيب الروح. قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٦].

والسلطة حلوة، وزينة عظيمة تهفو النفوس إليها، أو كما يقول ابن قدامة: «لا يزهد بالرئاسة إلا صديق».

والقصور حلوة، وزينة عظيمة، والبعض يهلك حياته كلها من أجل بناء بيت يسكن فيه، فكيف إذا كان ذلك البيت قصراً؟.

والدابة حلوة، خاصة إذا كانت سيارة جديدة، وطرازاً متيناً!.

وهكذا تتعدد زينات الحياة الدنيا ويزداد حلو المذاق... لكن الخطورة في ذلك الشراب ـ الذي يغري الآخرين بحلاوة طعمه ـ أنه قد يورث الغصة، وربما يحدث الموت بسبب تلك الغصة، صوت لا رجعة بعدها للاستدارك، فأين المعتبرون؟.

* * *

«الله لا يغيِّر علينا»!

من أسوأ الأمثال الكويتية هذا المثل الشعبي الذي يتكيء عليه الكثير من الفاشلين في حياتهم، والمحاربين لكل تغير إيجابي من حولهم.

يظل أحدهم على عادته عشرات السنين دون أن يحرك ساكناً، ولو عدت إليه بعد عشرين سنة لرأيته كما كان سواءٌ في عاداته الطعامية، أو الكلامية، أو النومية، أو التعاملية، وقد يكون الكثير من هذه العادات مضراً بصحته وأخلاقه، ويفقده الكثير من المكاسب في الحياة لكنه يقاتل من أجل

الاستمرار على تلك العادات السيئة، وإذا ما ناقشته يوماً قال: «الله لا يغيِّر علينا»!

إنه العجز عن التغيير، ولغة المهازيل الضعفاء، لأن الأقوياء وحدهم هم الذين يستطيعون التغيير.

فيا أيها الأسير لتلك العادات السيئة، ويا أيها السجين لتلك القيود المخسرة: متى تقرر الانعتاق من ذلك الأسر؟ ومتى تحطم تلك القيود لتنطلق إلى عالم الحرية والإبداع والتغيير.. بحيث تشعر أن العالم كله يختلف عما كنت قابعاً فيه؟!

إن بين النجاح والفشل قراراً منك بالتغيير، فهل تتخذ القرار أم تبقى على أطلال الماضي البالي: راضياً بأن تعيش مع عناكب التأخر، وذيول الفشل؟!.

❊ ❊ ❊

«على طمام المرحوم»

«مثل كويتي»، يُقصد به البقاء على ما كان عليه من عادة أو طبع أو خلق قديم، وعادة يطلق على العادات، والأخلاق، والطبائع غير المحمودة.

ما الأسباب التي تجعل البعض يحارب التغيير، ولا يرضى بأن ينتقل مما هو فيه إلى عادات أخرى نافعة؟

هناك أسباب كثيرة، ولكن من أبرز هذه الأسباب:

١ ـ الخوف من الجديد:

فمعظم الناس يشعرون بالخوف من الجديد لأنهم لا يتقنونه، ولا يعرفون نتائجه، ويخشون عدم النجاح فيه، بينما هم متمكنون من العادة القديمة.

٢ ـ خوف الانتقال من الأصالة:

البعض يظن أن كل عادة قديمة أصيلة، حتى لو كانت سيئة، ومخالفة للشرع، مما يجعله يرفض هذا الجديد، خوفاً من الانتقال عن الأصالة.

٣ ـ عدم الثقة في النفس:

الذين اعتادوا على عادات صحية سيئة مثل شرب القهوة بكثرة، أو التدخين، أو السهر فإنهم لا يملكون الثقة في النفس مما يجعلهم يرددون: «نحن لا نستطيع».

٤ ـ الخوف من الفشل:

يخشون إن انتقلوا إلى العادات الجديدة النافعة أن يفشلوا فيما كانوا يجنونه من النتائج.

٥ ـ المجاملة الاجتماعية:

فالكثير من الناس لا يستطيع التغيير بسبب المجاملة الاجتماعية، ومراعاة خواطر الناس، فهو لا يستطيع صناعة كلمة (لا)، فكلما قُدم له المضر قبل به خوفاً من غضب الآخرين.. وهكذا يجامل الناس على حساب صحته أو أخلاقه أو دينه.

هذه بعض الأسباب التي تجعل الناس يكرهون التغيير، ويحبون أن يبقوا على طمام المرحوم.



على أسوار طرسوس

الكثيرون ممن قرأوا حديث ابن ماجة الذي يقول فيه النبي ﷺ: «**من كانت الآخرة همه، جمع الله له شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا**

راغمة، ومن كانت الدنيا همه، فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له» اقتصر نظرهم على العقوبات الدنيوية المذكورة في الحديث لمن غلبت عليه هموم الدنيا، ولم يكن شيئاً من الآخرة يؤرقه، أو يشغل شيئاً من همه، ولم يقرأوا ما وراء الحروف، ويغوصوا في معاني هذا الحديث العظيم، وما جاء في معناه من الآيات والأحاديث الأخرى كما فعل أبو معاوية الأسود.

فقد قال وهو على سور طرسوس، مقابل الأعداء، في أثناء قيامه لليل يناجي ربه، ويبكي: «ألا من كانت الدنيا من أكبر همه طال في القيامة غداً همه» (صفة الصفوة ٤/٢٧١).

لقد أدرك أبو معاوية أنه لا يزيد هم امريء بالدنيا، إلا إذا زاد انشغاله فيها عن آخرته، وأن من انشغل عن آخرته قل عمله، ومن قل عمله فإن همه - لا شك - يزيد يوم القيامة نظراً لقلة العمل، ولكثرة الحساب.

فمن أراد أن يقل همه في الآخرة فليزهد في الدنيا، ويجعلها في يده لا في قلبه، ولينشغل بالآخرة في الدنيا فينال راحته في الآخرة.



نظرة تفاؤل

هناك جمهرة من الدعاة في جميع الأقطار تنظر إلى الواقع الدعوي نظرة متشائمة، سوداء قاتمة، ويستمر النقاش من هنا وهناك: فهذا ينقل مظهراً سلبياً، وآخر ينقل مظهراً آخر، وثالث يبرهن على ذلك بقصة، ورابع يدلل بحادثة... وهكذا حتى ليتفق الجميع على أن هناك تراجعاً واضحاً في سير الدعوة الإسلامية.

إن هذه النظرة المتشائمة نابعة بلا شك من قلوب مُحبة للدعوة والدعاة، وتتحرق على واقع الدعوة، وتتمنى الخير الذي كانت تراه ثم فقدته، فلم تعد تشعر بتلك النشوة الدعوية التي كانت تعيشها، فهل هي محقة تلك النظرة؟

أعتقد أنها محقة بالجانب الذي تراه هي، ولكنها قطعاً غفلت عن جوانب كثيرة لم ترها، أو لم تشعر بها، أو نست أن تنظر إليها مع أنها تشع نوراً وأملاً وتفاؤلاً بتقدم هذه الدعوة، وارتفاع بنيانها، وتكامل لوحتها الجميلة.

وأول أصول هذه النظرة التفاؤلية: أن هذه الدعوة ليست دعوة بشرية، بل هي دعوة مالك الملك سبحانه الذي لا يمكن أن يرضى بأن تتراجع دعوته حتى وإن تراجع حاملوها، فعندما يتراجع بعض الدُّعاة إما تكاسلاً أو لضغوط خارجة عن إرادتهم، فإن الله مالكها يخرج بشراً من مكان آخر يرفعون الراية، ويستمر المسير والبنيان.. يقول تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

انزعوا النظارة السوداء

يتلذذ بعض الدعاة بذكر المثالب والجوانب السلبية في العمل الدعوي، فلا يحلو له مجلس إلا بذكر السلبيات والعيوب والنواقص، حتى تحول الكثير من مجالس الدعاة إلى ما يشبه جلسات «شاي الضحى» عند بعض النساء!.

نحن لسنا ملائكة معصومين من الأخطاء، بل إننا بشر معرضون في أي وقت للوقوع في هذه الأخطاء والفرق بيننا وبين الآخرين، أن ثقتنا بالله كبيرة، وحسن ظننا بالله عظيم، واعتقادنا بأنه وحده يسير دفة هذه الدعوة، وما التوفيق الذي نعيش فيه من ذكائنا، وخططنا، وإدارتنا، وخبراتنا، بل هو قبل ذلك كله، من الله سبحانه وتعالى، وما نحن إلا سبب هيأه المولى لإنفاذ ما يريده من قدر لإحقاق الحق، وإزهاق الباطل.. يقول تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

إن كانت هناك عيوب في مسيرة الدعوة، ومثالب ونواقص لا بد للعمل البشري من الوقوع بها؛ فإن الإيجابيات والمحاسن أكثر بكثير.

إن الداعية إلى الله تعالى، لا بد أن ينظر دائماً إلى الجوانب الإيجابية، ولا بد أن يعيش بنظرة تفاؤلية؛ وأن يقدم الخير على الشر، فقد كانت هذه سنّة المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام، ـ فقد كان يحب الفأل الحسن، ويكره التشاؤم، بل وجعله من الشرك، عندما قال ﷺ: **«الطيرة شرك»**.

ولو نظرنا نظرة سريعة لخارطة العالم الإسلامي لرأينا أن المؤسسات الدعوية تتنامى في كل مكان، والعاطفة الإسلامية تتزايد في كل بقعة، بل والنشاط الإسلامي بدأ ينشأ في الكثير من الأماكن التي لم يكن موجوداً أصلاً بها، والحركة الإسلامية في أرض الإسراء تتأصل وتتسع يوماً بعد يوم بالرغم من كل الضغوطات، والكتب الإسلامية والشريط الإسلامي، ومواقع الإنترنت الإسلامية في تزايد دائم، وأعداد المقترعين للصوت الإسلامي في البرلمانات تتزايد في كل مكان، وذلك مع تراجع واندحار للكثير من الوسائل الإعلامية المنافية للدين.. وطوابير التائبين والتائبات من الفنانين تتزايد، وغيرها الكثير والكثير من المظاهر الإيجابية التي تدل على تزايد ـ لا تراجع ـ في مسيرة الدعوة الإسلامية.. فلماذا لا يكون التفاؤل إذن؟!.

❊ ❊ ❊

 سُمَيَّة

في بلد عربي يحرم لبس الحجاب، ويراقب المصلين في المساجد، ويكتم الأنفاس، ويعاقب كل من يجرؤ على الدعوة إلى الله تعالى، هاجر شيخ طاعن في السن فِراراً بدينه من ذلك الجو الملوث بالفكر العلماني الذي يجثم على الأنفاس الأبية.

إتجه إلى بلد أوروبي يدين بالنصرانية، لكنه يفتح الأبواب على مصراعيها لكل من يريد أن يعيش حياة حرة، يفعل ما يريد، ويعتقد ما يريد

دون أن يتدخل في حياة الآخرين أو يقترف ما يؤذيهم.

بعد سنوات عدة عاشها بصعوبة بسبب الفراق الذي باعد بينه وبين أبنائه وبناته الصغار، وشريكة حياته، جاءت البشرى بإمكان سفرهم إليه، بعد محاولات مضنية من زوجته للخروج من ذلك السجن الكبير.

في المطار وقعت عيناه على المفاجأة المفرحة: رؤية الحجاب يزيِّن وجه ابنته «سُمية» ذات الاثنتي عشرة سنة، والتي أرادت أن تفرح والدها، وتثبت له أن تربيته لها لم تضع سدى، وأن ما بذره من القيم كان ثابتاً متغلغلاً في نفسها.

التحقت سُمية بالمدرسة، وكانت الوحيدة في سنها الملتزمة بالحجاب.. وبدأت المضايقات من قريناتها، لكنها صبرت، وظنت إدارة المدرسة أنها لبست الحجاب بضغط من والدها.. فما إن جاء ليأخذها من المدرسة، حتى اقتنصت الناظرة هذه الفرصة، ووجهت له هذا السؤال، وما إن سمع السؤال، حتى تذكر صاحبه المسلم الذي سُجن بسبب إبلاغ ابنته للمدرسة بأن أباها ألبسها الحجاب عنوة! فخشي من أن يصيبه المصير نفسه.. ولكنه اعتمد على الله تعالى وقال: اسألوها هي.

فجاءت سمية، وسألها سؤالاً ذكياً:

من الذي طلب منك لبس الحجاب: أمك أم أبوك؟.

قالت سمية: دون تردد: «لم يطلب منِّي أحد لبس الحجاب، بل أنا الذي اخترت ذلك.. فإني «أحب الحجاب».. تنفس والدها الصعداء.. وقال: الحمد لله لك يا رب.. فهذا نتاج تربيتي.

بلغت سمية الخامسة عشرة من عمرها، ورافقتها طالبة نصرانية في المدرسة، أحبتها، وأحبت أخلاقها.

وذات يوم، وبينما كانت صاحبتها هذه تزورها، إذا بها تخبر سمية برغبتها في دخول الإسلام قائلة: «لا أريد سوى الإسلام ديناً».

ما هي إلا أيام حتى كانت صديقتها أول من يسلم على يديها، وتتجه

صاحبتها إلى والد سمية، وترجوه أن يبحث لها عن زوج مسلم لتحيا حياة إسلامية كاملة.

تُرى: كم من المهاجرين من يحافظ على إسلامه وهويته؟ وكم من أبناء المهاجرين من يبقى ثابتاً لا يذوب في بحر الكفر المتلاطم، ويبقي هوية أبنائه بلا تغير: تؤثر ولا تتأثر.

سمية هي إحدى هذه الاستثناءات التي أحدثت ذلك التأثير الإيجابي بثباتها، واعتزازها بدينها في بلد يحيط فيه بها الكفر من كل ناحية.

***

عشر خصال لتوبة العاقل

نقل الإمام ابن حجر العسقلاني في كتابه «الاستعداد ليوم المعاد ص١٠٢»، عن أحد الحكماء قوله: «ينبغي للعاقل إذا تاب أن يفعل عشر خصال:

استغفار اللسان، وندم بالقلب، وإقلاع بالبدن، والعزم على ألا يعود إلى المعصية أبداً، وحب الآخرة، وبُغض الدنيا، وقلة الكلام، وقلة الأكل والشرب حتى يتفرغ للعلم والعبادة، وقلة النوم، وقال الله تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨].

أما الخصال الأربع الأُول فهي شروط لا بد منها لكل تائب، وأما الخامسة والسادسة، وهي حب الآخرة، فهي نتيجة طبيعية، ومقياس دقيق على التوبة النصوح، وصدق التوجه إلى الله تعالى، فالتائب الحق هو من يتعلق قلبه بجنان الرحمن، وما فيها من الحور والأنهار، والأشجار، والقصور والفواكه، والنعيم الذي لا يخطر على بال بشر.

وفي المقابل، نراه يزهد في الدنيا، فلا تعود تغريه كما كانت من قبل، فلا يحزن إن أدبرت، ولا يفرح إن أقبلت، وذلك بسبب غلبة تعلق قلبه بالآخرة.

أما الخصلة السابعة، فلا تعني السكوت والصمت، واعتزال الناس، بل تعني التدقيق في كل ما يخرج من فمه، فلا يتفوَّه إلا بما يصعد للرحمن، لشدة خوفه من الله بعد التوبة، بل وربما يزيد في ما يحب الله من الكلام، أما غير ذلك فليس له وقت يضيعه فيه.

والخصلتان الثامنة والتاسعة، وهما: قلة الأكل والشرب، فهما علامة للاهتمام بصحته وبدنه، لعلمه بأن المريض لا يقوى على العبادة، والتخمة أحد أهم الأسباب للكثير من الأمراض.

الخصلة العاشرة والأخيرة، هي قلة النوم، فالوقت محدود، والعمر لن يطول، ونحن ننفق نحو ثلث أعمارنا في النوم، فالعاقل يحارب النوم الزائد ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ليستغل ما يوفره من ساعاته في المزيد من التقرب إلى الله تعالى بما يحب.

***

لذة العمل في سبيل الله

ما السر وراء ذلك الجهد الكبير الذي يبذله بعض الدعاة: ليلاً ونهاراً، سراً وعلانية، لا يكلون ولا يملون، سواء في دعوة الآخرين، أو تنويرهم، بما حباهم الله من العلم، أو العمل الخيري المتنوع، من كفالة للأيتام، وإغاثة للمنكوبين في أدغال إفريقيا، وغيرها من البلاد، أو التفرغ لقضاء حاجات الناس والإصلاح فيما بينهم؟

إن الكثير من الناس يتعجبون أشد العجب من هذه الجهود التي تُبذل من غير مقابل سوى رضا الله سبحانه.. حتى جعلت إبراهيم السندي يسأل رجلاً من أهل الكوفة ووجوه أهلها. كان لا يستريح قلبه، ولا تسكن حركته في طلب حوائج الرجال، أخبرني عن الحال التي خففت عنك النصب، وهوَّنت عليك التعب في القيام بحوائج الناس، ما هي؟ قال: قد والله سمعت تغريد الطير بالأسحار، في فروع الأشجار، وسمعت خَفْقَ أوتار

العيدان، وترجيع أصوات القيان، فما طربت من صوت قط طربي من ثناء حسن بلسان حسن على رجل قد أحسن، ومن شكر حر لمنعم حر، ومن شفاعة محتسب لطالب شاكر». قال إبراهيم: «لله أبوك لقد حشيت كرماً» (العقد الفريد ١/٢٣٤).

فكل قائم بخدمة الآخرين في سبيل الله كريم يعطي دون مقابل، ويقطع من وقته لإسعاد الآخرين، وإدخال الفرحة على قلوبهم، فهؤلاء هم الكرماء حقاً، وهم الذين لا تقوم الدعوات إلا بأمثالهم، ولا ينتصر الحق إلا بهم.

❊ ❊ ❊

التعلق بالله وحده

روى البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قول النبي ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله».

نلاحظ من هذا التوجيه التربوي الرائع، أن الرسول ﷺ يصرفنا فيه عن التعلق به كفرد، ويوجهنا بدلاً من ذلك، إلى التعلق بالله وحده لأنه لا يُحب لذاته سوى الله تعالى.. وبالرغمْ من أنه ﷺ سيد الخلق، وأحب الخلق إلى الله تعالى، فإنه وجهنا للتعلق بالله وحده، وذكر ما فعله النصارى عندما تعلقوا بعيسى ـ عليه السلام ـ كفرد، ومدحوه، حتى أوصلوه إلى درجة التقديس والعبادة، ووصل بهم الحال إلى أن يعتقدوا أنه ابن الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

إن هذا الدين دين التوحيد، وكل أمر يُبنى على غير هذا الأصل، فإن نهايته الفشل والزوال، فما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله زال واندثر.

إن علينا كمربين ودعاة إلى الله، أن نعلّق أفرادنا بالحق وحب الحق،

والمبدأ، وأن ننتبه لخطورة التعلق بالأفراد، لأن نهايتها وخيمة.

وعلينا أن نتذكر ما تربى عليه الصحابة الكرام من هذه المعاني، وأنشودتهم التي كانوا يرددونها فيما بينهم: «والله لولا الله ما اهتدينا، ولا تصدقنا ولا صلينا».

فالفضل كله لله وحده، وليس لأحد فضل قبله، ولا بعده.

* * *

«وما رميت إذ رميت»

حادثة غار ثور من الحوادث البارزة في السيرة النبوية العطرة، وذلك لما احتوته من معان عظيمة لتربية أجيال المسلمين.

ومن أبرز هذه المعاني، بروز الرسالة الإلهية للنبي ﷺ، بأن النصر بيد الله وحده لا بيدك أيها الإنسان، وأنه سبحانه وتعالى إذا شاء الهزيمة، فإنه يأذن بذلك، وأن الإنسان مهما بذل من الأسباب البشرية للنصر، ولم يأذن الله بذلك، فإن النصر لن يقع.

فقد بذل النبي ﷺ كل ما يستطيعه ـ كبشر ـ من الأسباب للنجاة من كيد الكفار والنجاح في هجرته، إلا أنه، وبعد كل هذه الأسباب، وصلوا إلى فوهة الغار، حتى لم يكن بينهم وبينه إلا متران أو أقل.. ولو شاء الله أن ينظر أحدهم إلى قدميه لرآهما في الغار، ولكن الله قدَّر للنبي ﷺ الظفر، ومنعهم من النظر، لتصل الرسالة للنبي ﷺ، بأن النصر من الله وحده، وليس مما يبذله البشر، من ذكاء أو خبرة أو قيادة، أو تخطيط.

ونرى الخط التربوي الإلهي لنبيه، ولصحابته الكرام خطاً متناسقاً، لا يختلف في أي جزئية من جزئيات سيرته العطرة، ومن ذلك، ما فعله ﷺ في إحدى المعارك، عندما حمل بيده حفنة من التراب وقذفها في وجوه الكفار، فدخلت كل ذرة من التراب في عين كافر.

وحتى يربيه الله تعالى على التعلّق به وحده، وألا يظن أن الرمي كان منه، وبتقديره هو أو بقوته هو، قال الله تعالى له: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، ليكون ذلك منهجاً يعلمه لأفراد أمته من بعده، بأن الذي يسيِّر الأمور هو الله وحده، وأن من بيده الحول والقوة هو الله وحده، فلا يتوجهون، أو يثقون، أو يتعلقون بقوة أو حول لسواه.

❋ ❋ ❋

حتى لا يتساقط الدعاة

ظاهرة تساقط الدعاة في موكب الدعوة تحدَّث عنها الكثير، ويبحثها الدعاة إلى الله دوماً في منتدياتهم الخاصة والعامة، وقد كتب فيها بعض الدعاة، من أمثال شيخنا الكبير محمد أحمد الراشد، والدكتور فتحي يكن، والدكتور عادل الليلي رحمه الله، وذكروا وحللوا أسباباً كثيرة لهذه الظاهرة.

وبعد هذه السنين التي قضيتها في أحضان الدعوة، واحتككت بالكثير من أنواع الدعاة والمدعوين، وجدت أن أهم أسبابها على الإطلاق هو التعلق بغير الله، وما يتبع ذلك من قصد البروز الشخصي، وحب الثناء، والانتصار للنفس، والغضب عند رد الاقتراح، والتعلق بالأفراد والإصرار على الرأي، وإن خالف الأكثرية عند التصويت.

لهذا السبب جعل الإمام ابن القيم أصول المعاصي ثلاثة: أولها: تعلق القلب بغير الله، والقوة الغضبية، والقوة الشهوانية.

ولهذا السبب، فإن المربين مطلوب منهم الانتباه المبكر لهذه الظاهرة، ووئدها في مهدها قبل أن تستفحل، وذلك، بتربية الأفراد على التعلق بالله وحده، وذلك من أبرز معاني التوحيد الذي ندعو إليه جميعاً، فالله سبحانه وتعالى لن يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم، نعلمهم على معاني الإخلاص، وخطورة قصد غير الله في الأعمال القلبية والعملية، نعلمهم التعلق بالحق والمبدأ لا التعلق بالفرد والحزب، ونوضح لهم الإطار

الشرعي الصحيح للمحبة في الله، حتى لا تتعدى إلى المحبة الذاتية بسبب جمال الوجه، أو نبرة الصوت، أو غزارة العلم، أو لحاجة من زينة الدنيا، لقضاء مصلحة آنية، أو «لمجانسة الطبع» كما يقول الإمام ابن القيم.

***

أكرم وأعظم وأوصل

جاء في ترجمة التابعي خالد بن عبد الله القسري في سير أعلام النبلاء (٤٢٦/٥)، قوله:

«إن أكرم الناس من أعطى من لا يرجوه، وأعظم الناس عفواً من عفا عن قدرة، وأوصل الناس من وصل عن قطيعة».

إن معظم الناس إنما يعطون من يرجون نفعهم، ويبتسمون لمن يرجون مساعدتهم، ويهدون من يتوقعون القيام بمصالحهم، أما أن تعطي من لا ترجو مساعدته أو عطاءه أو القيام بأي مصلحة لك، بسبب ضعفه، أو قلة حيلته، أو عدم حيازته لمنصب مؤثر.. فإنك بذلك ـ حقاً ـ من أكرم الناس.

والكثير من الناس إنما يتحينون الفرصة للانتقام ممن أساء إليهم، وأضر بمصالحهم، خاصة إذا قدروا عليه، وتمكنوا منه، لكن أن يتم العفو عن المسيء في حالة القدرة والسيطرة، والتمكن منه فإنه لا يملك مثل ذلك العفو إلا ذو خلق عظيم، ونفس شريفة، ورجولة متناهية.

وغالب الناس هم من فئة المكافئين، أي أنهم لا يصلون إلا من وصلهم، فعندما يصل ذلك الإنسان من قاطعوه، وأساء إليه، طلباً للأجر، وصلة للرحم، فهذا من أوصل الناس، بل ومن أحاسنهم أخلاقاً.

***

خصال أربع

جاء في كتاب «الاستعداد ليوم المعاد» ص**٥٢** قول الإمام علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: «أصعب الأعمال أربع خصال:

ـ العفو عند الغضب.

ـ والجود في العسرة.

ـ والعفة في الخلوة.

ـ وقول الحق لمن يخافه أو يرجوه».

ما أعظمها من خصال، وما أعظم أولئك الذين يتصفون بها.. ولأنه لا يتصف بها إلا عظيم، رأينا أن أول من اتصف بها هو رسولنا ﷺ.

فها هو يعفو عن قاتل عمه حمزة، ويعفو عن كفار قريش الذين تآمروا عليه، وطردوه من المكان الذي وُلدَ فيه، بل وأهانوه، واستهزؤا به، وبما يدعو إليه.

وكان ﷺ يجوع ليطعم صحابته الكرام، فتلقفوا منه هذه الخصلة، ليسطر التاريخ أعظم المواقف في الإيثار، من صناعة صحابة النبي ﷺ.

فهذا يُجَوِّع زوجته وأبناءه ليطعم ضيف رسول الله ﷺ، وهذا في الرمق الأخير من حياته، ثم يُؤتى له بالماء في أرض المعركة فيتركه لأخيه الجريح الذي سمعه يتأوه بجانبه فيموت قبل أن يشرب الشربة التي آثره بها.

أما العفّة في الخلوة فبطلها سيدنا يوسف عليه السلام، وأما القائلون بالحق لمن يخافه فقائمة طويلة من رجال الحق على مر العصور، شوقاً للشهادة، وأملاً بالفوز بأجر سيد الشهداء.

ليتنا نتصف بهذه الخصال الأربع، التي ذكرها الإمام علي، ففيها عز الدنيا، وكرامة الآخرة.

***

☜ لحظة الاختبار (١)

شاب في ريعان الشباب من أبناء الحركة الإسلامية في الكويت، يعمل في تجارة أبيه، وهو الوكيل العام لتلك السلعة التي يستوردها أبوه، دُعي إلى إيطاليا البلد المُصدِّر لهذه السلعة، ودُعي معه جميع الوكلاء في العالم لها، ورتب المصنعون الإيطاليون برنامجاً حافلاً للوكلاء، وختموه بحفلة كبيرة كان من ضمن برنامجها أن يتسلم كل وكيل هدية ومعها قبلة من فتاة إيطالية صارخة الجمال استُؤجرت خصيصاً لهذا الغرض!!

بدأ الوكلاء واحداً تلو الآخر في النزول من مقاعدهم والتوجه نحو الطاولة الرئيسة، حيث المدير العام ومالكوا المصنع، وتلك الفتاة الجميلة، وكل منهم يأخذ هديته، ثم تتقدم هي وتقبله.. ثم يقبلها!.

مرت لحظات صعبة على صاحبنا الشاب الصالح، والدم يغلي في عروقه، والصراع محتدم مع الشيطان ونفسه: هل يفعلها ويخسر دينه، أم يمتنع عن ذلك، ويضحك عليه الجميع، ويأخذ عنه ذلك الانطباع القديم عن المسلمين بأنهم شعوب متخلفة رجعية ضد النساء وحقوقهن، إلى آخر معزوفة الشبهات التي يقذفنا بها هؤلاء الأدعياء بين فترة وأخرى؟!.

سأل نفسه: هل يمكن أن أتحمل كل ذلك؟.. لكن ما المشكلة إذا قبلتها من غير شهوة؟ وبهذا أتخلص من هذا الحرج الكبير أمام ثمانين وكيلاً من جميع أنحاء العالم؟!



☜ لحظة الاختبار (٢)

اشتبك صاحبنا في صراع مع نفسه، فتارة ينوي الامتناع عن تقبيل الفتاة عندما يتذكر تاريخه الإسلامي، وحياته المملوءة بالتقرب إلى الله،

وتارة ينوي التقبيل عندما يقنعه الشيطان ونفسه بالحرج وضرورة إبعاد الشبهات عن المسلمين.

وبينما هو منهمك بالتفكير، إذ بهم ينادون اسمه، فنزل عن مقعده، واتجه نحو طاولة التسليم، وكأنه يتقدم إلى حبل المشنقة، دقات القلب تزداد خفقاناً، وضخ الدم يزداد في عروقه، واللون الأحمر يغطي كل جزء في وجهه.

وصل إلى الطاولة.. وكل العيون ترمقه، خاصة الذين تساقطوا في هذا الاختبار من المسلمين، وتسلَّم الهدية، وتقدَّمت الفتاة الجميلة نحوه وفتحت ذارعيها لتحتضنه، واقتربت منه أكثر وأكثر، حتى شمَّ عطرها، وكاد يقع مغمياً عليه... وإذا به يشعر بقوة الإيمان تتدفق في كل جزء من جسده، وتصيح أمام المحتفلين: لا.. لا.. لا أريد.. ابتعدي.

ابتعدت، وهي متعجبة لهذا الموقف الذي يواجهها لأول مرة في حياتها.. وإذا به وهو يعود إلى مقعده، يسمع ضحكات المسلمين المتساقطين عليه، وتوبيخهم له، فلم يرد.

وزاد من ألمه أن أحد هؤلاء الساقطين تقدم نحو تلك الفتاة، وهو يتسلم هديته، وقبلها مرتين، وهو ينادي على صاحبنا: هذه بدل قبلتك! وضحك الجميع!

يقول الأخ: بعد عودتي إلى الكويت، كان الناس يسخرون منِّي، لكنني كنت أنتشي فرحاً لهذا الانتصار في لحظة الاختبار.

قلت: إن من حقك لهذا أن تفرح وكيف لا، وقد انتصرت على نفسك في مثل هذا الموقف الصعب.. أنت القوي وهم الضعفاء.

لأن الأقوياء في هذه الحياة، هم الذين يعرفون كيف يصنعون كلمة «لا» بينما الفاشلون هم الذين لا يعرفون إلا كلمة «نعم» لكل ما يعرض لهم من خير أو شر.

❋ ❋ ❋

أصلح معاملتك مع الله

ذكر صاحب «المستطرف» أن: حاتماً الأصمّ كان رجلاً صالحاً ذا عيال، وسمع في مجلس حديثاً عن الحج فتاقت نفسه له، فدخل إلى عائلته، واجتمع بزوجته وعياله، واستأذنهم بالحج، فقالوا: نحن فقراء، ولا نملك قوت يومنا، وأنت لا تملك شيئاً، فكيف تذهب وتتركنا؟ فقالت ابنة صغيرة له: ماذا عليكم لو أذنتم له، والله هو الرزاق؟ فقالوا: صدقت هذه الصغيرة، فتوجه للحج، وباتوا الليلة دون طَعام.

فذهبت الصغيرة ترفع طرفها لله تعالى تقول: إلهي وسيدي ومولاي، عوّدت القوم على فضلك، وإنك لا تضيعهم، فلا تخيبهم، ولا تخجلني معهم، فبينما هم على تلك الحالة، إذ خرج أمير البلدة، وحصل له عطش شديد، فاجتاز ببيت الرجل الصالح حاتم الأصم فاستسقى منهم ماءً، وقرع الباب، فقالوا: من أنت؟ قال: الأمير ببابكم يستسقيكم، فرفعت زوجة حاتم يدها للسماء، وهي تقول: إلهي، سبحانك، البارحة بتنا جياعاً، واليوم يقف الأمير ببابنا يستسقينا، ثم سقته ماءً، فاستطاب الأمير الماء، فقال له الوزير: هذا بيت الرجل الصالح حاتم، وقد ترك أهله بالأمس من غير طعام، فنزع الأمير منطقته ورماها ببابهم، وقال: من يحبني يرمي منطقته، فرمى الجميع مناطقهم بالباب، ثم قال الوزير لآتينكم بثمنها الساعة، فأتى بأثمانها لهم، واستعادها، فبكت الصغيرة بكاءً شديداً، وقالت: هذا مخلوق نظر إلى حالنا فأغنانا، فالله إذا نظر إلينا لا يكلنا لأحد.

أما حاتم فإن أمير الركب مرض مرضاً شديداً فالتمسوا أحداً صالحاً يقرأ عليه، فقرأ عليه فشفاه الله، فأجزل له الهدية، فرأى رؤيا يُقَال له فيها: «يا حاتم من أصلح معاملته معنا، أصلحنا معاملتنا معه».

هكذا تكون المعاملة مع رب السموات والأرض، وتستمر سنة الله في عباده المؤمنين ـ كما جاء في الحديث القدسي: **«من تقرَّب إليَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً»**.

❋ ❋ ❋

إما سحر أو جن.. أو حسد!

مرضت فلانة، إنها محسودة!.

تزوج زوجها بأخرى، أكيد مسحور.

أصيب ابنها بتغير في خلقه بعد انتقاله إلى سن المراهقة.. يمكن تلبس به جني!.

شريحة كبيرة في المجتمع تفسر كل ما يصيبها بواحد أو أكثر من هذا الثالوث، وعندها لا يوجد أي سبب في الدنيا غيره، وخاصة من فئة النساء!.

لا بد أن نقرر ابتداء أننا نؤمن بوجود الجن، والسحر والحسد، وكلها أمور مذكورة في القرآن الكريم، لكن ديننا العظيم لم يقل لنا إن أخطاء العالم، وابتلاءات الإنسان بأنواعها، والتغيرات التي تطرأ عليها كلها مرتبطة بهذا الثالوث وحده.

فقد جاء في سورة البقرة وحده قوله تعالى ـ في معرض حديثه عن السحر والسحرة: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ونهى رسول الله ﷺ عن التشاؤم، فقال في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم: «**لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل**.. قالوا: وما الفأل؟ قال: **كلمة طيبة**».

إن لهذه الظاهرة أسباباً كثيرة، إلا أن السبب الرئيس في انتشارها هو تبرير الضعف والفشل، والأخطاء، وتبرئة النفس باتهام الآخرين، وبهذا السبب فإن معظم من يمارسون هذه العادة هم من فئة الفاشلين في الحياة.

أما الناجحون، فيعترفون بأخطاؤهم، ويبادرون لإصلاحها، ويستفيدون من كل خطأ يقعون فيه، بخطوات ناجحة إلى الأمام.

❋ ❋ ❋

☜ ١١ سبباً للصراع!

حدَّد سام ديب وليل سوسمان في كتابهما «الخطوات الذكية» أحد عشر سبباً للصراع مع الآخرين، وأرى أنه لا بد للمرء من التعرف إلى هذه الأسباب حتى يستطيع الانتباه إليها، ومحاولة تلافيها، وإطفاء نيرانها لتبقى مؤسسته بحالة صحية، ومنتجة.. وهذه الأسباب هي:

١ ـ **التحامل والمحاباة**: إذ يعزى الصراع في المؤسسات في أحيان كثيرة إلى العداء الشخصي.

٢ ـ **الطباع الرديئة**: يبدو أن هناك شريحة من الناس تعيش حياتها وهي تحمل عصا وتبحث عمن تقاتله!.

٣ ـ **الحساسية**: عندما يعاني شخص ما من انخفاض في مستوى معنوياته، أو في شعوره بعدم الأمان والاستقرار في حياته فإنه يشعر بأن أي نقد يُوجَّه إليه، أو أي مواجهة شخصية إنما هي هجوم شخصي عليه.

٤ ـ **الاختلاف في المفاهيم**: نتيجة الاختلاف في النشأة والثقافة، والجنس، والتجربة، والتعليم، والطبقة الاجتماعية، والاقتصادية وغيرها من العوامل.

٥ ـ **عدم الاتفاق حول الحقائق**: الحقيقة لا يمكن الاختلاف حولها، لأنه يمكن لأي فرد الرجوع إليها، لكن عندما يعتقد البعض أن غير الحقيقة حقيقة، فمن هنا ينشأ الاختلاف.

٦ ـ **الاختلاف حول الأولويات والأهداف**: هذا واضح في المؤسسات، خاصة في ظل القيادة الضعيفة.

٧ ـ **التنازع حول الوسائل المتبعة**: هذا واضح في المؤسسات التي يرأسها قادة مركزيون ودكتاتوريون.

٨ ـ **المنافسة على الموارد**: فمثلاً يتجادل مديران حول مدى حاجة كل منهما إلى تعيين مساعد له أكثر من الآخر، أو حول من يجب أن تتم زيادة ميزانيته؟

٩ ـ **المنافسة من أجل السيطرة**: من أوضح الأمور في مؤسساتنا، إذ يكثر الحسد والوقيعة، وحفر الحفر، والتزلف من أجل شغل المنصب ثم السيطرة.. إلخ.

١٠ ـ **سوء الفهم**: معظم الذي يبدو صراعاً شخصياً ما هو إلا سوء فهم ينقصه المصارحة والجلوس وجهاً لوجه، ويتجلى ذلك الصراع بين الاتجاهات السياسية المختلفة.

١١ ـ **التوقعات والآمال التي لم تتحق**: فمعظم الأسباب المذكورة أنفاً ناتجة عن عدم تحقيق شخص ما لتوقعات الشخص الآخر منه.

وعلى سبيل المثال، فإن التوقعات والآمال التي لم تتحقق هي السبب الأول في كثير من الصراعات الشخصية كالطلاق، ونزاع الأصدقاء، والأشقاء، والمديرين مع موظفيهم... إلخ.

والواقع أننا بحاجة للتأمل في هذه الأسباب لتجنبها، وتحقيق المزيد من التقارب، والتفاهم لإنجاح مؤسساتنا، وعلاقاتنا الشخصية معاً.

❋ ❋ ❋

لماذا تتقدم الظاهرة الإدارية؟

قال لي أحد أصحاب المكتبات الإسلامية المشهورة بإحدى دول الخليج: «إن أكثر مبيعاتي من الكتب هي الكتب الإدارية المترجمة»، فالكتاب الإداري المترجم لا يلبث أن ينفد من السوق بمجرد وضعه على أرفف المكتبات!

وعندما بدأ الأخ الفاضل د. طارق السويدان بث دوراته الإدارية في العالم العربي، لم تلبث كتبه وشرائطه حتى انتشرت في العالم بأسره، حتى إنني زرت إحدى المكتبات في بروكسل فإذا بي أشاهد إحدى مؤلفاته الإدارية في مقدمة المكتبة.

ترى ما الأسباب وراء ذلك الانتشار الملحوظ لهذه النوعية من الكتب،

بينما يقل الإقبال على الدروس والمحاضرات والخطب التقليدية، كما يقل الإقبال على قراءة بعض الكتب الإسلامية التقليدية؟

لا شك في أن وراء هذه الظاهرة بعض الأسباب التي من أبرزها ـ فيما أرى ـ ما يلي:

١ ـ يجد القارئ فيها مشكلات وقضايا يعانيها يومياً.. ويحتاج لها حلاً.

٢ ـ طرح الكتب المترجمة يتناسب أكثر مع ثقافة ومستويات القراء في العصر الحديث.

٣ ـ يجد القارئ سلاسة وسهولة في الإلمام بالموضوع وفهم العبارات.

٤ ـ الناس جبلوا على الإقبال على الجديد.

من هذا المنطلق ينبغي على العلماء والكتّاب والمشايخ أن يطوروا طرق عرضهم للمعلومات، بما يتناسب وأفهام الجيل الحديث، وأن يستخدموا الطرق الحديثة في إيصال المعلومة، وأن ينتبه جمهور القراء للكتب المترجمة، والدورات المسموعة والمرئية التي قد تحمل ما يخالف عقيدتنا، وأخلاقنا، وقيمنا.

* * *

 تجربة دعوية جديدة

منذ أن قرأت «مذكرات الدعوة والداعية» للإمام حسن البنا ـ رحمة الله عليه ـ وأنا في العشرين من عمري، وأنا معجب أشد الإعجاب بهذه الشخصية الفذّة، وخاصة اختياره لبدء العمل الدعوي مع أصعب شريحة في المجتمع، ألا وهي شريحة روّاد المقاهي، والذين يتفننون في تضييع أوقاتهم، ولا يتورع بعضهم عن تعاطي المحرمات.

كنت أقول في نفسي: «هل يوجد داعية أو جماعة إسلامية تعمل مثل هذا العمل؟ أم أن الجميع أصبح يؤثر العمل السهل؟.. حتى جاءت اللحظة

التي التقيت فيها مع بعض الإخوة الأفاضل في الكويت، وبالتحديد بعد تحرير الكويت، لأفاتحهم بمشروع يهدف للعمل بين مدمني المخدرات، وإنقاذهم مما هم فيه بالطرق الإيمانية، ووافق الجميع، وبدأنا بالعمل منذ عام **١٩٩٣**م، وبارك الله في خطواتنا، واليوم وبعد مرور ثمانية أعوام تبلور العمل، وأصبح مؤسسة كبيرة، ومتميزة يطلق عليها اسم: «لجنة بشائر الخير»، وقد هدى الله على أيدي هؤلاء الشباب عشرات المدمنين، ويعتبر رجال «بشائر الخير» هم أصحاب اكتشاف هذه النظرية الجديدة في العالم لمعالجة المدمنين بالطريقة الإيمانية.

وللمزيد من الاطلاع على هذه التجربة الرائدة يمكن زيارة موقعها على إنترنت www.Bashaer.Org.

❋ ❋ ❋

الإشباع العاطفي.. صمام الأمان

توصلت ـ بعد سبع سنوات من العمل في علاج مدمني المخدرات ـ إلى أن غالبية الحالات، إن لم تكن جميعها، كان السبب الرئيس لانحرافها، المعاناة من نقص الحب، أو النقص العاطفي من الوالدين، إما بانشغال الوالدين، أو وفاة أحدهما، أو الطلاق، أو غيرها من الأمور التي تسبب هذا الحرمان العاطفي لدى الأبناء.

الحب، والعاطفة يحتاجهما الأبناء إذن كاحتياجهم للحليب في صغرهم، وكاحتياجهم للطعام والشراب، فإذا نشأوا دون الحب، والعاطفة، فإنهم سوف يسعون إلى ملء هذا الفراغ.. وربما كانت عملية سده بطريقة تؤدي إلى الانحراف، فقد يطلب هذه العاطفة عند الشخص غير المناسب، أو بالطريقة الخطأ.. إنه يبحث عمن يحنو عليه ويقول له: «أحبك» ويطرب لسماع كلمة عاطفية نحو «يا بعد قلبي»، أو كلمة إطراء مثل «أنت لطيف»، والتي افتقدها لدى والديه!.

الإشباع العاطفي ومنح المحبة للأبناء صمام الأمان لهم من الانحراف، ولو أننا ـ آباء وأمهات ـ مارسنا هذا الواجب، لشعرنا بسعادة لا تخطر على بال. . ولبادلونا هذه المحبة والعاطفة، ولسعدنا جميعاف بجو المحبة والعاطفة، الذي له أكبر الأثر في الاستقرار النفسي، والهدوء، والراحة، والطمأنينة التي يطلبها كل إنسان في هذه الحياة.

وما أجمل ما ذكره لنا الشاعر عبد العزيز الدريني مبيناً حبه لابنته بالقول:

أحب بنيتي وودت أني	دفنت بنيتي في قاع لحد
وما بي أن تهون عليَّ لكن	مخافة أن تذوق الذل بعدي
فإن زوجتها رجلاً فقيراً	أراها عنده والهم عندي
وإن زوجتها رجلاً غنياً	فيلطم خدها ويسب جدي
سألت الله يأخذها قريباً	لو كانت أحب الناس عندي

فلنعد إلى بيوتنا، وخاصة أننا في رمضان، ولنمارس محبتنا لأبنائنا، فهي سبيل الهناءة والسعادة النفسية، وصمام الأمان لهم من الانحراف.

* * *

لا تنسَيْ أيام «الطين»!

جاء في ترجمة الرميكية زوجة المعتمد ابن عباد أحد ملوك الدولة الأندلسية أنها رأت الناس يمشون في الطين، فاشتهت المشي في الطين، فأمر المعتمد فسحقت أشياء من الطيب، وذرت في ساحة القصر حتى عمته، ثم نصبت الغرابيل، وصب فوقها ماء الورد على أخلاط الطيب، وعُجنت بالأيدي حتى عادت كالطين، وخاضتها مع جواريها!! ثم غاضبها المعتمد يوماً فأقسمت أنها لم تر منه خيراً قط، فقال: ولا يوم الطين؟! فاستحيت، واعتذرت!

لا بد من الاختلاف بين الزوجين، فالاختلاف سنة ماضية، وقد يصل أحياناً إلى درجة اللاعودة، ولكن العاقل من الطرفين من يتذكر الأيام الجميلة، والصفات الحميدة، فيهب هذه لتلك، وتمضي الحياة بالتغافر والتجاوز.

فلا ينبغي أن يكون بين الزوجين روح الانتقام، أو إثبات الشخصية، أو نسيان المعروف.

وما أجمل توجيه نبينا محمد ﷺ لنا عندما قال في الحديث الذي رواه أبو داود بإسناد صحيح: «**لا يفركن مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقاً رضي منها غيره**».

أي: لا يظلمن مؤمن مؤمنة، فإن ساءه منها خلق، فليتذكر أخلاقها الأخرى، حتى يبقيها، ويتجاوز عن خطئها.. فلن يجد زوج زوجة من غير عيوب، كما لن تجد زوجة زوجاً من غير عيوب، ولا كامل إلا الله تعالى.

فلنتذكر الأيام الجميلة عند خلافنا، ولنتذكر الأخلاق الجميلة عند غضبنا، حتى تهدأ النفوس وتأتلف من جديد.

* * *

غثاء السيل

روى الإمام أحمد بإسناد صحيح قول النبي ﷺ: «**يوشك أن تداعى عليكم الأمم في كل أفق، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**، قيل: يا رسول الله! فمن قلة يومئذ؟ قال: **لا، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، يجعل الوهن في قلوبكم، وكراهيتكم الموت**».

نبينا ﷺ في هذا الحديث يتنبأ بما سيحدث للأمة قبل ١٤ قرناً من الزمان، ويصف حالها وصفاً دقيقاً كأنه ينظر إليها من وراء الغيب فيما الصحابة يتساءلون باستغراب عم سيؤول إليه حال المسلمين، ويستبعدون أن

يكون هناك سبب آخر بخلاف الكم العددي لهذا الاستضعاف الكبير من الآخرين للمسلمين، وتلك الغثائية التي هم عليها، لكن الرسول ﷺ يفاجئهم بقوله: «**لا، ولكنكم غثاء كغثاء السيل**».

وفي اللغة: «الغثاء ما يحمله السيل من رغوة، ومن فتات الأشياء التي على وجه الأرض، ومن معانيها النحافة والضعف، وفساد الشيء، وفساد العقل، وما لا خير فيه» وغثاء السيل وصف دقيق لحالنا، فقد أصبحنا من الضعف بمكان إلى درجة أن تتحكم فينا أمواج الأمم في كل مكان، تعيث فينا ميمنة وميسرة، دون أن يكون لنا حول أو قوة، أو جرأة على اتخاذ قرار بإنقاذ أنفسنا من هذا الوضع الذي وصلنا إليه.

إنها «الغثائية» التي أوصلنا أنفسنا إليها دون أن يرغمنا أحد عليها، والسبب الذي يذكره لنا رسولنا ﷺ هو (لحبكم الدنيا وكراهيتكم الموت) هو السبب السليم لها فالدنيا لم يخلقها الله تعالى لكي نبغضها، ولكن الحب المشار إليه في الحديث هو الاهتمام الذي يطغى على المبادئ، والقيم، والأصول والمثل، فتباح كل هذه الأمور في سبيل تحصيل الدنيا، وهنا يبدأ الضعف والغثائية، كذلك «**كراهية الموت**» إذ لا يوجد مخلوق يحب الموت، لكن الموت المقصود هنا هو كراهية الجهاد في سبيل الله، وكما قال ﷺ في حديث آخر: «ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا».

أو ليس من العجيب ـ أن يتغلب نفر ـ قليل من اليهود في أمة يتجاوز تعدادها المليار مسلم؟ أليس هذا سبب الغثائية التي نعانيها؟.

❊ ❊ ❊

انجذاب الجمهور

الانجذاب الكبير نحو الحركة الإسلامية من قبل الجمهور، أمر ملموس في كل بقعة من بقاع العالم، وحيثما تُوجد حركة إسلامية تدعو إلى الله تعالى.

يصاحب هذا الخير المتدفق كالشلال على الحركة الإسلامية، عجز عن استيعاب هذه الأعداد الكبيرة التي تتدفق على الحركة الإسلامية، فليس من السهل إيجاد أو تفريخ قيادات بشكل مستمر لاستيعاب هذه الأعداد.. فما الحل؟

الحل الأسهل الذي يلجأ إليه البعض هو إيقاف عملية التجميع الكمي، والاهتمام بالتجميع النوعي، ويضعون لذلك بعض الشروط المتشددة لتجاوز أعداد كبيرة لا تنطبق عليهم مثل هذه الشروط.

وبالرغم من المنطقية الظاهرية لهذا الحل، إلا أنه لا يتلاءم وروح الشرع، الذي يحث على وجوب توجيه الدعوة للجميع، فكيف بمن يلجأ هو إليك يريد الهداية، كما جاء في عتاب الرب سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ في سورة عبس.

والحل الأقرب لروح الشرع - فيما أرى - تقسيم الجمهور المنجذب إلى قسمين: الأول يتم الاهتمام به اهتماماً خاصاً، وأولئك هم من توافرت فيهم صفات مميزة، وهؤلاء دائماً قلة في المجتمعات كما قال النبي ﷺ: **«الناس كالإبل المائة لا يجد الرجل فيها الراحلة»** (البخاري: ٢٨٦/١١).

والصنف الثاني، وهو الشريحة الأكبر، هم الذين تستوعبهم مؤسسة الدعوة في برامج عامة كالمحاضرات، والأنشطة الإيمانية العامة؛ أو البرامج العائلية والرياضية، أو غيرها، فإذا برز أحدهم، يمكن أن ينضم إلى أفراد القسم الأول.. وهكذا قد ننجح في حل المشكلة.



تفويض المسؤولية هو الحل

القائد في العمل الإسلامي ومؤسساته، تتكاثر عليه المسؤوليات، فلا يكاد يجد وقتاً حتى لأبنائه وزوجته ووالديه.

والسبب في ذلك هو القدرات التي يملكها، والتي قلّ أن توجد في آخرين، وتلك سنة إلهية، إذ جُعل المميزون والقادة قلة في هذه الحياة.

وليس هذا معناه أن تعقم النساء عن ولادة قادة غير هؤلاء، أو أن تعقم الحركات الإسلامية عن اكتشاف غير هؤلاء القادة أو من بهم ملامح القيادة من بين أفرادها.

ولا بد من أن تفهم الحركات الإسلامية أن وراء قلة القيادات فيها أسباباً كثيرة، من أبرزها عدم قيام القادة الحاليين بتربية الجيل القيادي القادم، أو تهيئة الصف الثاني الذي يخلفهم، بما يمارسونه من مركزية واحتكار للكثير من الأعمال اليومية، والمتغيرة في النشاط.. لأسباب منها:

١ ـ افتراضهم أن الآخرين لا يرقون إلى مستوياتهم من الفهم، والحركة، والنشاط، وحل المشكلات.

٢ ـ افتراضهم أن الآخرين غير قادرين على تحمل المسؤوليات.

٣ ـ اعتقادهم أن الآخرين لن ينتجوا مثل إنتاجهم وكذلك الخوف من أخطائهم.

وهذا هو عين الخطأ الذي يقع فيه بعض قياديي الحركة الإسلامية، مما يقلل من ولادة قادة جدد يستوعبون الأعداد المتزايدة من الجمهور المقبل على الدعوة.

والحل في هذا الإشكال يكمن في تفويض المسئولية، والثقة بالأتباع، والصبر على أخطائهم مع تصويب تلك الأخطاء، فمن الأخطاء، نتعلم الصواب، ولم يولد بعد ذلك الذي لا يخطئ في دنيا البشر.

* * *

التعامل مع الأنداد (١)

كتب الخليفة الراشد أبو بكر الصدّيق ـ رضي الله عنه ـ إلى الصحابي الجليل عمرو بن العاص عندما كان أميراً على جيوش الشام في شأن

الصحابي الجليل خالد بن الوليد:

«إني كتبت إلى خالد بن الوليد ليسير إليك مدداً لك، فإذا قدم عليك فأحسن مصاحبته، ولا تطاول عليه، ولا تقطع الأمور دونه لتقديمي إياك عليه وعلى غيره، شاورهم ولا تخالفهم» (حياة الصحابة: **١١٦/٢**).

«النِّد» في اللغة هو المثيل، والصدِّيق في هذا التوجيه الرائع أماط اللثام عن مفاهيم عظيمة في علم الإدارة، وأعطى حلولاً شافية لواحدة من أكبر المشكلات الإدارية في أي تجمع أو مؤسسة.. تلك المشكلة هي «التعامل مع الأنداد»، خاصة إذا كان التماثل قريباً إلى درجة يصعب التفريق بينهما، في القوة، والأخلاق، والذكاء، والعلم، والفطنة، أو القدم في الدعوة، أو غيرها من الأمور.

والنِّد إما أن يكون معك في منزلة واحدة، أو يكون فوقك في المنزلة، أو المنصب في المؤسسة، وإما أن يكون تحتك.. ولكل موضع من هذه المواضع ظروفها، وطرق التعامل معها، إلا أن الصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ وبالرغم من توجيهه للصحابي الجليل عمرو بن العاص في واحدة من هذه المنازل، والتي يكون فيها النِّد تحتك، إلا أنه ذكر خطوطاً عامة تصلح لأن تكون أساساً للتعامل مع الأنداد في كل منزلة.



التعامل مع الأنداد (٢)

ذكر الصدِّيق في رسالته لعمرو بن العاص ثلاثة أسس للتعامل مع الأنداد هي:

١ ـ حسن المصاحبة.

٢ ـ عدم التطاول.

٣ ـ المشاورة.

فإذا كان مطلوباً منك كقائد أن تحسن العلاقة مع جميع الأفراد، فإن النّد يجب أن تزيد في حُسن صحبته، والتودد إليه، حتى تزيل ما يمكن أن يلقيه الشيطان في نفسه من نزغات، وتطفئ كل شعلة من نار يشعلها الشيطان في قلبه بسبب المماثلة في الصفات والسمات والقدرات بينك وبينه.

وإذا ما دعتك قدرتك وسلطتك إلى نيل حقك منه عندما تدعوه الغيرة أو الحسد للتطاول عليك، فلا تعين الشيطان عليه، ولا تعط الشيطان هذه الفرصة لشق الصف، وبث بذور الخلاف، وقرر العفو والتجاوز، وعم التطاول.

إن أكثر ما يؤذي النّد تجاوزه، وعدم إعطائه التقدير المستحق لمستواه، ويزيل هذا الأذى، مشاورته، وعدم قطع أمر دونه.

بهذه الأمور الثلاثة يكون النّد عوناً، وقوة تُضاف إلى قوة القيادة، ومن غيرها تكون إسفيناً يشق الصف، ويحدث البلبلة، ويضعف الكثير من القرارات، ويكون معوقاً للوصول، إلى الأهداف.

* * *

أحب الأعمال إلى الله

هل يوجد مؤمن محب لله تعالى لا يبحث عن أحب الأعمال عند من يحب؟

إن من أبرز علامات المحب أن يبحث جاهداً عن كل ما يحبه المحبوب.

يقول الرسول ﷺ في الحديث الذي رواه ابن حبان وابن السني بإسناد حسن: «**أحب الأعمال إلى الله أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله**».

يقول الإمام الطيبي في شرحه لهذا الحديث: «ورطوبة اللسان عبارة عن سهولة جريانه، كما أن يبسه عبارة عن ضده، ثم إن جريان اللسان

حينئذ عبارة عن إدامة الذكر قبل ذلك، فكأنه قيل أحب الأعمال إلى الله تعالى، مداومة الذكر» (فيض القدير: ٢١٦/١).

والذكر نوعان: ذكر في القلب، وذكر في اللسان.. والمقصود بالقلب أن يداوم العبد على تذكر الله في سره وعلانيته، ويستحضر مراقبته إياه، ومن كان هذا شأنه فإنه يجعل بينه وبين المعصية حاجزاً لاستحيائه من نظر الخالق إليه.

وذكر اللسان أن يداوم على الأذكار بأنواعها، وخيرها على الإطلاق قراءة القرآن الكريم، ثم التسبيح والتهليل والتحميد وسائر الأذكار.

ومداومتها تقتضي الاستمرار في الصباح والمساء وبعد الصلوات، وفي الخلوات وأثناء المسير، وفي كل فراغ يكون فيه المرء، وهذا معناه «رطوبة اللسان بالذكر».

ما أجمل الأثر الذي تتركه الأذكار على صاحبها، وما أقسى تلك القلوب التي يغفل أصحابها عن مداومة الذكر.



كأنني أكلت

في كتابه الشائق «روائع من التاريخ العثماني» كتب الأستاذ الفاضل «أورخان محمد علي» قصة أغرب اسم جامع في العالم:

«هل سمع أحد بمثل هذا الاسم الغريب؟ ولكن هذا هو اسم جامع صغير في منطقة «فاتح» في اسطنبول والاسم باللغة التركية «صانكي يَدمْ».. أي «كأنني أكلت» أو «أفترض أنني أكَلت»!!.

ووراء هذا الاسم الغريب قصة غريبة، وطريفة وفيها عبرة كبيرة. ثم يكمل الأستاذ أورخان قصة هذا الجامع فيقول: «كان يعيش في منطقة «فاتح» شخص ورع اسمه «خير الدين كججي أفندي»، كان صاحبنا هذا

عندما يمشي في السوق، وتتوق نفسه لشراء فاكهة، أو لحم أو حلوى يقول في نفسه: «صانكي تدم» «كأنني أكلت» ثم يضع ثمن تلك الفاكهة أو اللحم أو الحلوى في صندوق له.

ومضت الأشهر والسنوات، وهو يكف نفسه عن كل لذائذ الأكل، ويكتفي بما يقيم أوده فقط، وكانت النقود تزداد في صندوقه شيئاً فشيئاً، حتى استطاع بهذا المبلغ الموفور القيام ببناء مسجد صغير في محلته، ولما كان أهل المحلة يعرفون قصة هذا الشخص الورع الفقير، وكيف استطاع أن يبني هذا المسجد، فقد أطلقوا على الجامع اسم «جامع صانكي يدم».

كم من المال سنجمع للفقراء والمحتاجين، وكم من المشاريع الإسلامية سنشيِّد في مجتمعنا وفي العالم، وكم من فقير سنسد جوعه وحاجته، وكم من القصور سنشيِّد في منازلنا في الجنة إن شاء الله، وكم من الحرام والشبهات سنتجنب لو أننا اتبعنا منهاج ذلك الفقير الورع، وقلنا كلما دعتنا أنفسنا لشهوة زائدة على حاجتنا «كأنني أكلت».

❋ ❋ ❋

 أنظر إلى أقرب مرآة

في موضع (Cyber Quotation) على شبكة المعلومات الدولية «إنترنت» كتب «ستيفن إسكو» مقاله الرائع تحت عنوان: «١٢ خطوة للنجاح الشخصي».

ذكر من أول هذه الخطوات:

«انظر إلى أقرب مرآة، فالشخص الذي تراه ينظر إليك هو الشخص الوحيد المسؤول عن نجاحك، ابتسم! فلا يوجد شخص آخر يكون سبباً في نجاحك أو يمكن أن يُلقى عليه اللوم عند فشلك، فالأشخاص الناجحون يتحملون المسؤولية كاملة عن جميع ما يقومون به».

في المجتمع عدد كبير من الأشخاص يعيشون بيننا يلقون باللوم في جميع إخفاقاتهم وفشلهم على الآخرين، وإذا لم يجدوا أحداً يلقون عليه اللوم، فإنهم يلقون به على «الحظ، والواسطة، والجن»، أما في غالب حالاتهم فإنهم يلقون بالمسؤولية على المسؤول الظالم، والقريب الحاسد، وفلان الساحر.

أما صور الفاشلين فهي حسب تعريف «ستيفن» تتعدد في المجتمع لتشمل جميع مناحي الحياة من حياتنا السياسية، إلى الفنية، إلى الرياضية، إلى الاقتصادية، إلى التربوية، والأمنية، وجميع الصور المتفرعة عن هذه الأجزاء الكبيرة.

إن معظمنا يعلق فشله على الآخرين، والقليل القليل هم الذين يمتلكون الجرأة ليقفوا أمام أقرب مرآة ليروا بأم أعينهم المسؤول الحقيقي عن فشلهم أو نجاحهم، ثم يعدلون المسير، ويصححون الأخطاء، ويحوّلون الفشل إلى نجاح، والمحنة إلى منحة، والسلبيات إلى إيجابيات.. وهؤلاء هم أقل الناس عدداً بين الناس.



العمى الحقيقي

يقول المثل الأمريكي:

There are none blind as those.
who will not see.

أي: «لا يوجد هناك أشد عمى من أولئك الذين لا يريدون الإبصار».

هذا هو حقاً العمى الحقيقي. إن أصحابه فئة من الناس مثخنون بالعيوب، لكنهم يرفضون أن يروا هذه العيوب، ويعيشون بوهم الكمال، ولهذا السبب يستمرون في أخطائهم، وظلمهم، وقساوتهم، وحماقتهم،

وخسارتهم، وفقدانهم للكثير من فرص الحياة التي تجعلم في المقدمة.

وصدق الله العظيم عندما قال عن هذا الصنف من الناس: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤].

فهم حائدون عن الجادة، بعيدون عن الصواب، والغوى حتى النخاع في الخطيئة، ومع ذلك يظنون أنهم منزهون عن الأخطاء، أو أنهم يتمتعون بقمة الأخلاق.

لهذا السبب يصعب عليهم تصديق حقيقة الثقوب التي تملأ نفوسهم، وعفن الأخلاق التي تنبعث منهم، والاعوجاج الواضح في قرارتهم وتصرفاتهم.. بل إنهم يعتقدون في غيرهم العمى، وليس فيهم، ويعتقدون حقاً في قرارة أنفسهم أنهم على حق.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١﴾ [البقرة: ١١].

وصدق الخالق عندما قال أيضاً: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

* * *

الاتصال الناجح (١)

كتب ستيف وكاثرين مارتن مقالاً جميلاً في الموقع الإلكتروني (Cyber Quotaton) تحت عنوان: «الاتصال الناجح»، ذكرا فيه خمس صفات للمتصلين الناجحين، يستطيع من يطبقها الحصول على قدر كبير من الإيجابية، والعلاقات الناجحة في البيت أو العمل.

والصفات الخمس هي:

١ ـ استمع من أجل الفهم.

٢ ـ قدِّر واحترم المتكلم.

٣ ـ تأكد وتذكر الحوافز قبل البدء بالحديث.

٤ ـ كن منسجماً أميناً.

٥ ـ تحدث واستمع مع اتخاذ موقف إيجابي.

إن الكثيرين منا يفقدون العديد من العلاقات المهمة بسبب عدم قدرتهم على التحلي بالصفة الأولى من هذه الصفات، فقد يستمع المرء ليرد أو ليعد الرد، وليس من أجل الفهم الصحيح والدقيق للمتكلم.

والبعض يستمع وقد أعد الرد سلفاً، مما يفقده احترام المتحدث، وبالتالي يخسره.

وبدلاً من ذلك يجب أن يبدي المستمع الاهتمام بالمتحدث كالنظر إليه، أو استفساره بين فترة وأخرى، أو إبداء التعابير المتفهمة على وجه المستمع.

أما الصفة الثانية وهي التقدير والاحترام لشخص المتكلم، فهي من أبجديات الأخلاق الإسلامية التي تعلمناها من رسولنا ﷺ إذ كان يستمع إلى رسل قريش في بداية البعثة، وهم يعرضون عليه كفراً، وسفاهة، وجهالة، لكنه كان يستمع إليهم، ويحترم المتحدث دون مقاطعة، حتى إذا ما أنتهى استأذنه بالحديث، وهكذا ملك قلوب الجميع.

❊ ❊ ❊

الاتصال الناجح (٢)

تحدثنا في الوقفة السابقة عن الصفات الخمس للاتصال الناجح، وذكرنا منها اثنتين هما: الاستماع من أجل الفهم، وتقدير احترام المتكلم.

واليوم نتناول صفتين من الصفات الثلاث الباقية، وهي: تذكر الحوافز

قبل البدء بالحديث، وأن يكون الإنسان منسجماً أميناً، وأن يتحدث ويستمع مع اتخاذ موقف إيجابي.

أما الصفة الثالثة فهي من أكبر المحركات لكسب جميع شرائح المجتمع، فحوافز الدعاة إلى الله تعالى تختلف اختلافاً كبيراً عن حوافز الماديين، الذين لا يعولون إلا على الحوافز المادية، بينما يتعلق الداعية إلى الله تعالى بالحوافز الأخروية، بل يقدم دمه رخيصاً في ساحات الجهاد، دافعه الجنة والحور العين، وتاج الكرامة، والحشر في حواصل طير خضر تطير في عرصات الجنة، وغيرها من الحوافر الأخروية.

بل يتحمل الدعاة الكثير من أذى الذين يدعونهم، بتعلقهم بهذه الحوافز الأخروية وحدها، مما يجعلهم أكثر الناس تهيئة لكسب الآخرين لو أنهم تذكروا فعلاً تلك الحوافز حينما يتحدثون أو يستمعون للآخرين.

أما الصفة الرابعة فيقصد بها تحقيق التوافق والانسجام بين سلوكك وأقوالك، فالناس متى رأوا تناقضاً بين الاثنين فإنهم لا يمكن أن يثقوا بالمتحدث، لذلك قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٣]، كما أن عدم التوافق من صفات المنافقين الذين لا يليق بالداعية المؤمن الاتصاف بأخلاقهم، فضلاً عن أنه يخسر نتيجة ذلك الكثير من العلاقات، واحترام الآخرين.



الاتصال الناجح (٣)

نتحدث اليوم عن الصفة الخامسة التي أوردها ستيف وكاترين مارتين في الموقع الإلكتروني (Cyber QuotariOn) وهي: «تحدث واستمع مع موقف إيجابي».

يقولان: «الناجحون يفتحون الأبواب للحلول الناجحة، حتى لأعقد وأصعب المشكلات، بينما يغلق الفاشلون الأبواب أمام جميع الحلول، إلا

لآرائهم ومواقفهم الخاصة. والإنسان الإيجابي هو الذي يقول: أستطيع أن أقوم بهذا الأمر، ونحن جميعاً نستطيع النجاح» لذلك يستمر بالنجاح، والناجحون يحولون المشكلات إلى فرص، ويحولون الفرص إلى انتصارات. والناس الذين يجالسون الناجحين يشعرون بعد الحديث معهم بأنهم كسبوا الكثير من خبرات النجاح، ويشعرون بأن هناك من فهمهم، واحترمهم وقدرهم».

الناجحون في الحياة من الدعاة هم الذين ينظرون للآخرين نظرة تفاؤل وأمل لا نظرة تشاؤم وملل، لذلك ورد عن النبي ﷺ أنه كان يحب الفأل الحسن، ويكره التشاؤم، بل جعل التشاؤم جزءاً من الشرك عندما قال في الحديث الصحيح الذي أخرجه الإمام أحمد: «**الطيرة شرك**».

وقال عن الناظرين للناس نظرة تشاؤم ويأس: «**إذا سمعت الرجل يقول: هلك الناس، فهو أهلكهم**» (رواه مسلم). يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ في رسالته الرائعة «أفراح الروح»: «لن يعدم إنسان ناحية خيرة أو مزية حسنة تؤهله لكلمة طيبة، ولكننا لا نطلع عليها ولا نراها إلا حين تنمو في نفوسنا بذرة الحب».



☜ أريد سماع هذه الأغنية!

كان صوت الموسيقى والأغاني الغربية يصم الآذان، وقد جلس ذلك الشاب الصغير في سيارته غارقاً في مقعدها، وهو يستمع إليها.

شاهده أحد الدعاة الحكماء الحلماء، فلم تطاوعه نفسه أن يمضي دون إنكار، فتقدم نحو ذلك الشاب، وسلّم عليه، وابتسم في وجهه وهو يقول له: أتأذن لي في أن أجلس بجانبك وأستمع إلى هذه الأغنية؟! فرّحب به وأذن له، وعندما استقر بجانبه، وتعرف إليه، قال له: ما أجمل هذه الأغنية، ولكن هل فهمت منها شيئاً؟

قال الشاب: لم أفهم.

فقال له: إذا كنت لا تفهم فلماذا تسمع ما لا تفهم؟

أو لا تعلم أنه قد يكون فيها كلام فاحش، أو كلمات جارحة؟.. يا بني أنت مسلم، وتنتمي لهذا الدين العظيم، تنتمي لهذا القرآن الكتاب المقدس الوحيد الذي لم يتغير، تنتمي إلى ذلك التاريخ العريق، فكيف ترضى بأن تقلد ذلك الغربي الذي لا يملك من الأخلاق شيئاً؟

هل سماعنا للأغاني الغربية علامة من علامات التقدم؟

شعر الشاب بحياء كبير، وفهم الرسالة، وشكر للداعية حديثه، ثم غادر الداعية سيارة ذلك الشاب، وهو يدعو له بالهداية.

إننا نريد نمطاً من الدعاة يملكون مثل هذه الحكمة، وسعة الصدر في استيعاب الأمور، وحسن التعامل معها.

❋ ❋ ❋

جادلتُ الأحمق فأعياني!

مما يؤثر عن الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ قوله: «ما خاطبني عالم إلا غلبته، ولا جاهل إلا غلبني»!

ويقول الشاعر شرف الأنصاري:

والأحمق الغر لا يصغي لموعظة ... كالأقرع الزط لا يلوي على شطه

ينفق بعض الدعاة الكثير من أوقاته في جدل عقيم مع فئة من الناس لا تريد أن تفهم، حتى وإن تجلت لها الحجج والبراهين، أو الأدلة العقلية والنقلية، بل وتستمر في جدالها، وتقاتل من أجل الانتصار لرأيها!

مثل هذا الجدل يجب أن يتوقف فوراً من جانب الدعاة، فأوقاتهم أغلى من أن تضيع في مثل هذا الجدل، أو مع أولئك الحمقى، ولا بد من

أن يتذكروا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

إن أمثال هؤلاء المجادلين لا تهمهم الحقيقة، ولا الحق، وإنما يهمهم الانتصار لآرائهم، وإن كانت ركيكة لا تستند إلى دليل.

وإذا أصرَّ الداعي على مثل هذا الجدل مع أولئك الحمقى والجهال، فهو يعرض نفسه للضلال عن الهدى، فقد قال الرسول ﷺ فيما رواه الإمام أحمد بإسناد حسن: «**ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل**».

ومما جاء في الإسرائيليات أن عيسى عليه السلام قال: «عالجت الأبرص والأكمه فأبرأتهما، وعالجت الأحمق فأعياني»!.

❊ ❊ ❊

عِشْ ألف عام للوفاء

يقول الإمام علي - رضي الله عنه -:

ذهب الوفاء ذهاب أمس الذاهب ... فالناس بين مخاتل وموارب
يفشون بينهم المودة والصفا ... وقلوبهم محشوة بعقارب

تقول تلك الأبيات من عاشر قوماً كانوا يبشون في وجهه، لكنهم كانوا يغدرون به من خلفه.

إن الوفاء صفة لازمة لأهل الفضل، الذين بنوا في نفوسهم أسساً راسخة من الإيمان، والقيم، والمثل، والمبادئ، والخوف من الله تعالى.

وبناء بمثل هذا الأساس الصلب لا يمكن أن تؤثر فيه أنواع الرياح العاتية، فيظل وفياً لمن قدم أي نوع من الخير حتى لو كانت ابتسامة عابرة أو كلمة طيبة، فكيف بمن قدم له أكثر من ذلك، قدم له ما أنقذه من النار وسبب له دخول الجنة؟

أما أولئك الذين لم يبنوا بنيانهم على أسس متينة، بل بنوها على

القشور، والرمال، فلا يلبث أن يقع البنيان تحت تأثير أي هزة، حتى لو كانت نسمة هادئة، فينسى أو يتناسى من قدم له أطنان الخير، ووقف معه المواقف، وبذل من أجله الوقت، والمال، والجهد، وينسف كل ذلك من أجل اختلاف أصر فيه على رأي أو طلب لم يُجب إليه لظرف من الظروف.

وأمثال هؤلاء لا يمكن أن يسودوا وإن سادوا فإنما يسودون بالحديد والنار، لأن الناس لا تقبل على من لا يملك الوفاء.

يقول أبو النجح:

عش ألف عام للوفاء وقلما ... ساد امرؤ إلا بحفظ وفاته

* * *

أبناء الدعاة

لماذا نرى بعض أبناء الدعاة غير ملتزمين دينياً؟ أو غير منتمين إلى الفكر نفسه الذي ينتمي إليه آباؤهم الدعاة حتى إنك قد ترى ذلك الداعية ـ الذي يُشار إليه بالبنان ـ ليس بين جميع أبنائه من ينتمي إلى فكره فهل هذا الأمر ظاهرة؟

نحن لا نختلف حول أن الهداية بيد الله تعالى وحده، وأن العبد لا يملك سوى التبليغ، لكن الله سبحانه وتعالى بيَّن أن للانحراف أسباباً وأن للهداية أسباباً أيضاً، كما بيَّن رسولنا ﷺ أن الوالدين هما السبب الأول في هداية أو انحراف الأبناء، وأن الأصل في الأبناء أن يكونوا على ما يكون عليه آباؤهم، وأمهاتهم، إلا ما يشذ عن القاعدة.

على هذا، فلا بد من أن تكون هناك أسباب لمثل هذه الظاهرة أو شبه الظاهرة، والتي أظن ـ والله أعلم ـ أن من أهم أسبابها عدم إعطاء الدعاة الوقت الكافي لأبنائهم نظراً لانشغالهم بأمور الدعوة.

وربما ظن بعضهم أن الله هو الذي سيتكفل بالأبناء وهدايتهم ما دام

قد تفرغ هو لأمور الدعوة! ولذلك يترك التوجيه والتربية والإرشاد والمصاحبة إلى الأم وحدها! وهي لا تستطيع ـ بطبيعة الحال بسبب انشغالها هي الأخرى بأمور البيت ـ أن تعوِّض مكان الأب في تربية الأبناء، فينشأ ذلك الفراغ التربوي الذي تؤدي إليه جواذب أخرى تأخذ بالأبناء بعيداً عن منهج الوالدين، أو حتى طريق الهداية.. في منازل الدعاة!.

❋ ❋ ❋

المثاليون!

فئة من الناس، تراهم في شريحة الدعاة، وفي شرائح المجتمع الأخرى، يطلبون في الآخرين المثالية، فإذا كانوا في صفوف الدعاة، أرادوهم كالأنبياء والصحابة، لا يقبلون منهم أي ضعف بشري، أو أي درجة أقل من المثالية، وإذا كانوا بين الرياضيين فإنهم يطلبون أعلى المواصفات الرياضية فيمن يحتكون بهم.

أما إذا أرادوا الزواج فإنهم يطلبون مواصفات أجمل نساء العالم.. يريدون الولاة كعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ويريدون الشعوب في مستوى الصحابة ـ رضي الله عنهم.

جاء واحد من هؤلاء إلى الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ فقال له: «لماذا كثرت الفتن في عهدك، ولم تكن في عهد عمر ـ رضي الله عنه؟.

فقال له علي ـ رضي الله عنه ـ: لأن عمر كان يعتمد على رجال مثلي، أما أنا فأعتمد على رجال مثلك».

كثيرو التأفف من الأوضاع.. وكثيرو الانتقاد.. بينما واقعهم بعيد كل البعد عما يطالبون به من مثالية.. إن أمثال هؤلاء لا يصلحون لتبليغ الدعوات.

❋ ❋ ❋

قرار بالسعادة

السعادة، وراحة البال، والطمأنينة، والسكينة، كلها أمور لا تُشترى ولا تُباع، بل تُمنح من مالك السماوات الأرض.

ولا يمنحها الرب إلا لمن تجرد له وحده، وعمل له وحده، وكان همه الآخرة، وأخرج الدنيا من قلبه وجعلها بيده، ولم ينفق شيئاً من الوقت في غير طاعة الله، وأدرك أن الدنيا زائلة، وأن مكوثه فيها محدود، فسابق الزمن، ليملأ صحائفه قبل فوات الأوان، وكان في شغل شاغل لتنقية قلبه من الشوائب، وإزالة العوارض التي تمنعه من الانطلاق في مدارج السالكين.

يفرح أحد هؤلاء، ويمتلئ قلبه بالسعادة فيصيح: «لو يعلم الملوك ما نحن فيه من السعادة لجالدونا عليها بالسيوف».

ومخطئ من يظن أنه يحصل على السعادة بالمال، أو العقار، أو الدواب، أو البناء، أو الأولاد، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، فلا سعادة إلا بالاتصال برب السماوات والأرض، ونحن أصحاب القرار، إما أن نطلب السعادة أو الشقاء، وإذا اخترنا السعادة فلا بد من أن نسلك أسبابها.

❊ ❊ ❊

إذا لم تستح

الحياء من الإيمان ولا يأتي إلا بخير - كما أخبر نبينا ﷺ - لأنه هو الحائل دون الإقدام على المعصية، ولهذا السبب فإن العاصي لا يملك مثل هذا الحائل، مما يجعله يقدم على المعصية.

لذلك قال الرسول ﷺ: «**إن مما أدرك الناس من كلام النبوّة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت**».

أما الخجل فشيء آخر بخلاف الحياء، إنه شعور وسلوك يمنع صاحبه من كثير مما ينفعه في الدنيا والآخرة، وسبب الخجل غالباً هو النشأة الخاطئة التي يتلقاها الفرد من والديه، أو البيئة المحيطة به.

يقول د. فيلس. م. شو في كتابه «كيف تتغلب على الخجل» (ص:٥): «إن كلمة الخجل تشتمل على أنواع مختلفة من القلق والصعوبات، فقد خُلِق الإنسان وهو لا يعرف كيفية التعامل مع الآخرين. لقد تلقينا المعلومات من والدينا وأقاربنا والجيران في أثناء الطفولة، وسن البلوغ والرشد، وكنا نحصل أحياناً على معرفة غير كاملة كانت سبباً في شعورنا بالإحراج والارتباك».

والأب أو الأم اللذان لا يعطيان الفرصة لأبنائهما بالتعبير عن أنفسهم، أو التعليق، أو الشكوى، ويمنعانهم من الحديث، بل ويهددانهم بالعقوبة إذا تحدثوا، تكون النتيجة في غالب الأمر لسلوكهم هذا هي الخجل والانزواء، والميل لعدم المشاركة أو التعبير عن المشاعر أمام الآخرين. وهذه كلها أمور سلبية يجب أن ينأى المسلم بنفسه عن الوقوع فيها.

❊ ❊ ❊

 عبرة من الهجرة

«اختبأ الرسول ﷺ وصاحبه أبو بكر في غار ثور، بعد أن بذلا كل ما بوسعهما من الأسباب البشرية وبالرغم من ذلك وصل الكفار إلى فوهة الغار».

في هذه الحادثة الكثير من العبر، أولها أن على المسلم أن يبذل كل ما يقدر عليه من الأسباب ثم يستيقن بعد ذلك بكفاية الله وحمايته وتوفيقه له، وهذا هو معنى التوكل الحقيقي.

والعبرة الثانية أن الله تعالى يريد أن يقول لنا إن النصرة بيده وحده لا بتدبير البشر مهما بلغوا من الذكاء والحنكة والتخطيط، فقد وصل

الرسول ﷺ وصاحبه إلى الغار، ولو منعهما الله تعالى من دخوله لحدثت الكارثة ولكن الله مكنهما، وحماهما.

والعبرة الثالثة تتجسد في الثقة بالله، والشعور بمعيَّته وحسن الظن به، وينال المؤمن من نصرة الله على قدر ما توجد هذه المشاعر في قلبه.

لقد خشي أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ على رسول الله ﷺ، وأسرَّ في أذنه: «لو نظر أحدهم إلى قدمه لرآنا»، وإذا بالرسول ﷺ ـ المطمئن لنصر الله، الواثق بحمايته، الشاعر بمعيته ـ يرد عليه: «**يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما**»، أو كما قال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

إننا بحاجة ـ كدعاة ـ إلى مثل هذه الثقة بالله، وحسن الظن به، والشعور بمعيته سبحانه لننال من التوفيق ما نصبو إليه بمقدار ما نملك من الإيمان والإحسان.



الهجرة منهج حياة

تمر علينا ذكرى الهجرة النبوية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ التي تمتلئ بالعبرة، بل تعد منهج حياة للناجحين.

تجمَّع أربعون شاباً من أقوى فتيان قريش وباقي القبائل حول بيت النبي ﷺ، مدججين بالسلاح، لا هدف لهم سوى رأس الرسول ﷺ.

خرج الرسول ﷺ من بينهم وقد عطّل الله سبحانه وتعالى حاسة الإبصار لديهم بالرغم من عيونهم المفتوحة.. وهنا نتمثل العبرة الأولى التي نقتطفها من هذه الحادثة، وهي أن الله تعالى قد تكفل بحفظ هذا الدين، ونصر من يقوم بحمله وتبليغه للناس، بشرط أن يقوم هذا المبلغ بنصر الله سبحانه، إذ إن القاعدة الربانية ماضية من غير تغيير حتى يرث الله الأرض

ومن عليها، قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

ولقد وفَّى الله بوعده منذ أن أنزل آدم إلى هذه الأرض، وأرسل الرسل، وكلما كان هناك نصر من المبلغ، كان يردفه نصر من الله تعالى.. فالله عزّ وجلّ لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ولكن هذا الإنسان هو الذي يتغير.

والأمر هكذا: لا يخشى الدعاة على دعوتهم، ولا ييأسوا من رحمة الله تعالى ونصره، ولكن لينظروا إلى أنفسهم، ويتحققوا من إيمانهم، وعلاقتهم مع ربهم.

لقد أغرق الله سبحانه العالم كله من أجل عبدٍ صالح نصره، وعطّل صفة الإحراق في النار عندما أُلقي عبده الصالح الذي نصره في نار الدنيا، وهو قادر على تكرار هذا النصر لكل من ينصره.. في كل زمان ومكان.

***

معادلة المحبة (١)

لا تكتمل حقيقة العبادة من غير محبة لله تعالى، لأن الحب هو الدافع الأكبر للعمل وتحمل المشاق في سبيل المحبوب، لذلك كان النبي ﷺ يقول في دعائه: «**اللهم ارزقني حبك وحب من ينفعني حبه عندك، اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب، اللهم ما زويت عني مما أحب فاجعله فراغاً لي فيما تحب**» (رواه الترمذي ـ تحفة الأحوذي **٣٥٥٧**).

يقول الإمام المباركفوري في شرحه لهذا الحديث: («**اللهم ارزقني حبك**» أي لأنه لا سعادة للقلب ولا لذة ولا نعيم ولا صلاح إلا بأن يكون الله أحب إليه مما سواه، «**اللهم ما رزقتني مما أحب**» أي الذي أعطيتني من الأشياء التي أحبها من صحة البدن وقوته، وأمتعة الدنيا من المال والجاه والأولاد والفراغ، «**فاجعله قوة لي**» أي عدة لي «**فيما تحب**» أي بأن أصرفه فيما تحبه وترضاه من الطاعة والعبادة، «**اللهم وما زويت**» أي

ما قبضته ونحيته، «**عني**» أي بأن منعتني ولم تعطني، «**مما أحب**» أي مما أشتهيه من المال والجاه والأولاد، وأمثال ذلك، «**فاجعله فراغاً لي**» أي سبب فراغ خاطري، «**فيما تحب**» (تحفة الأحوذي **٤٦٣/٩**) يقول القاضي: (يعني فيما صرفت عني مما بي فنحه عن قلبي، واجعله سبباً لفراغي لطاعتك، ولا تشغل به قلبي فيشغل عن عبادتك، وقال الطيبي: أي أجعل ما نحيته عني عوناً لي على شغلي بمحابك، وذلك أن الفراغ خلاف الشغل، فإذا ذوى عنه الدنيا ليتفرغ بمحاب ربه كان ذلك الفراغ عوناً له على الاشتغال بطاعة الله) (تحفة الأحوذي **٤٦٤/٩**).

هذا التجرد الكامل لله تعالى، والإقبال عليه سبحانه بمثل هذه الطريقة، هو قمة الحب؛ إلى درجة أنه يدعو ربه بألا ينشغل القلب للحظات بما زوى الله عنه من ملاذ الدنيا مما تحب النفس من المال، والولد، والجاه عن ذكر ربه والاشتغال بعبادته، هذا الإقبال على الله يتفاوت فيه الناس، فالأنبياء هم أكثر الخَلْق إقبالاً بقلوبهم على الله، ولهذا السبب تكون النتيجة أن الله سبحانه وتعالى يقبل بقلوب معظم الناس إليهم.



معادلة المحبة (٢)

«على قدر حبك لله يحبك الخلق».. هذه المعادلة الإيمانية ذكرها الواعظ يحيى بن معاذ (صفة الصفوة **٩٥/٤**).

وأوضحها الإمام الحسن البصري عندما قال: «ما أقبل عبد بقلبه إلى الله، إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه ودهم» (سير أعلام النبلاء **٤٩/٤**)، ومن العجيب أن ترى العبارة نفسها عند الكثير من العلماء والصالحين، بالرغم من تفاوت الأزمان والمكان بينهم، فمفتاح القلوب إلى الناس ليس المال ولا المنصب، أو أي شهوة من شهوات الدنيا، بل الإقبال على الله تعالى، لأنه هو مالك القلوب يصرفها كيفما يشاء.

هذا ما أراد أن يوصله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص عندما كتب إليه: «إن الله إذا أحب عبداً حببه إلى خلقه (لا اعتبار لمحبة الغوغاء والعوام للفساق)، فاعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس، واعلم أن ما لك عند الله مثل ما للناس عندك» (العقد الفريد ٣/٣١٦).

فحب الناس وإقبالهم عليك هو ترمومتر علاقتك وإقبال قلبك على الله تعالى، وصدق ابن عبد ربه عندما قال:

وجه عليه من الحياء سكينةٌ	ومحبة تجري مع الأنفاس
وإذا أحب الله يوماً عبده	ألقى عليه محبة الناس

وربما أراد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب تذكير خال النبي ﷺ بحديث النبي ﷺ الذي يؤكد هذه المعادلة: «**إذا أحب الله عبداً نادى جبريل إن الله يحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض**» (رواه البخاري ـ الفتح ٦٠٤٠).

يقول الإمام ابن حجر في الفتح: «والمراد في القبول قبول القلوب له بالمحبة، والميل إليه والرضا عنه، ويؤخذ منه: أن محبة قلوب الناس علامة محبة الله» (فتح الباري ١٠/٤٦٢)، ويؤكد هذا المعنى رواية الإمام الترمذي: «**إذا أحب الله عبداً نادى جبريل: إني قد أحببت فلاناً فأحبه، فينادي في السماء، ثم تنزل له المحبة في الأرض..**» الحديث (رواه الترمذي، وصححه الألباني، ص٢٨٤).

❊ ❊ ❊

أين المرأة في واقعنا؟

يتعجب المرء حينما يقلب في كتب التاريخ والتراجم، فيرى البون

الشاسع بين أسماء البارزين من الرجال، والبارزات من النساء.

وعلى سبيل المثال قامت إدارة البحث والإعداد في مؤسسة الرسالة بنبش كل ما وقع تحت يدها من كتب التراجم التي تخص شهيرات نساء العرب والإسلام اللاتي تركن أثراً بارزاً في شتى الميادين، وجمعتهن في كتاب «تراجم أعلام النساء» فلم يزد عددهن على **٥٥٧** فقط.

وبعيداً عن الاستشهاد في هذا الأمر، فإننا نرى في واقعنا الذي نعيشه، وفي عصرنا الذي نحن فيه أسماء قليلة جداً لنساء بارزات في ميادين الدعوة إلى الله، أو الكتابة، أو المواعظ والزهد، أو المحاضرات، أو العلم الشرعي.

ولو أحصينا عدد النساء في حقل الكتابة، سواء الصحفية أو الكتب فقط، فإننا في أحسن الأحوال، وبعد أن نعصر ذاكرتنا نخرج بأكثر من عشرة أسماء، فأين المرأة في ميدان الدعوة الواسع؟

هل كان الرجل أنانياً فلم يقم بتعليمها؟

هل طبيعة المرأة تتجه نحو الكسل، والاهتمامات غير المهمة؟ هل الحركات الإسلامية لم تهتم بهذه الناحية، واهتمت بالرجال فقط؟

هل القيادات الحركية النسائية ضعيفة لدرجة عدم تفريخ قيادات بارزة أخرى في كل المجالات؟

هل العلة في المناهج التربوية؟

هل تقف العادات والتقاليد حاجزاً دون تحقيق النجاح المأمول؟

هل هناك ترسبات من الجاهلية تسهم في ذلك؟.

إن الواجب علينا أن نحدد السبب الحقيقي وراء هذه الظاهرة وصولاً إلى وضع حل ناجع لها، وتمكين المرأة المسلمة من خدمة دينها، ومجتمعها.

***

خطاب الحركة الإسلامية

دخل الإمام الزاهد مالك بن دينار ـ رحمه الله ـ على أمير البصرة فقال له: «قرأتُ في بعض الكتب: من أحمق من السلطان، ومن أجهل ممن عصاني، ومن أعزٌ ممن أعتز بي؟

وأضاف: أيها الراعي السوء، دفعتُ إليك غنماً سماناً صحاحاً، فأكلت اللحم، ولبست الصوف، وتركتها عظاماً تقعقع.

فقال الأمير: أتدري ما الذي يجرؤك علينا، ويجنبنا عنك؟ قال: لا.

قال: قلة الطمع إلينا، وترك الإمساك عما في أيدينا».

إن أعداء وخصوم الحركة الإسلامية في كل مكان يضعون ضمن مخططاتهم في صراعهم مع الحركة الإسلامية إيصال وإقناع أصحاب القرار في جميع دول العالم، وخاصة في العالم الإسلامي، بأن للحركة الإسلامية مطامع في الحكم، والاستيلاء عليه، مما يجعل الحكومات في حالة استنفار دائم، وتوجس مستمر، وتضييق متواصل، وعداء تجاه أفراد وقيادات الحركة الإسلامية بسبب هذا الوهم، الذي صنعه أعداء الحركة لأصحاب القرار.

وحتى تنجح الحركة الإسلامية في عملها وتصل لتحقيق أهدافها المتمثلة في تحكيم شرع الله، وصبغ المجتمع بالصبغة الإسلامية، فلا بد من طمأنة أصحاب القرار باستمرار إلى عدم الطمع في الحكم، وأن الاهتمام منصب على تنفيذ المشروع الإسلامي على يد كائن من كان، ما دام الهدف سيتحقق.

وهكذا.. إذا ما نجحت الحركة الإسلامية في إيصال هذه الطمأنينة لأصحاب القرار، وهدم ذلك الخوف والوهم الذي تحول إلى ما يشبه اليقين فإن أصحاب القزار سيقولون للحركة الإسلامية ما قاله أمير البصرة لمالك بن دينار.

* * *

☜ أخلاق المطلِّقين

يروي الأبهيشي في المستطرف أن رجلاً طلق امرأته، فلما أرادت الارتحال قال لها: «اسمعي، ويسمع من حضر، إني والله اعتمدتك برغبة، وعاشرتك بمحبة، ولم أجد منك زلة، ولم يدخلني عنك ملة، ولكن القضاء كان غالباً».

فقالت المرأة: جُزيت من صاحب ومصحوب خيراً، فما استقللت خيرك، ولا شكوت ضيرك، ولا تمنيت غيرك، ولا أجد لك في الرجال شبيهاً، وليس لقضاء الله مدفع، ولا من حكمه علينا ممنع».

لم نعد نرى مثل هذه الأخلاق الحسنة، ولا حتى شيئاً يسيراً منها بين عموم المطلقين، بل نرى عكس ذلك من سوء أدب، وظلم يتجاوز الطرف الآخر ليصل إلى الأبناء الذين ليس لهم ذنب فيما جرى من انفصال كما نرى انتقاماً أسود يتجاوز حدود القيم، والمبادئ، والأخلاق.

فهذا يمتنع عن النفقة، وآخر يهجر أبناءه ويرتمي في أحضان الزوجة البديلة، دون أن يتذكر أن له أبناء من الأولى لهم حقوق عليه، وأخرى تترصد لمطلقها فما من محاولة للزواج من ثانية إلا وتتصل بها لتشوه صورته، وتسيء إلى محاسنه، وتصوره على أنه وحش كاسر، ليس له من أخلاق البشر شيء، وكذلك يفعل بعض المطلقين مع مطلقاته.

إننا نعاني من أزمة أخلاقية، قبل معاناتنا من مثل هذه التوترات الاجتماعية، ولهذا السبب كان الرسول ﷺ يوصينا ـ كما جاء في الحديث ـ: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه» فلم يكتف بالدين فقط، بل بالأخلاق شرطاً رئيساً، مع الدين ذلك أنها الجوهر الحقيقي له.

* * *

الرضا بقدر الله

حدَّث القاضي أبو مروان الداراني قال: «نزلت قافلة بقرية خربة من أعمال «دانية» فآووا إلى دار خربة هناك، فاستكنوا فيها من الرياح والأمطار، واستوقدوا نارهم، وسووا معيشتهم، وكان في تلك الخربة حائط مائل، قد أشرف على الوقوع، فقال رجل منهم: يا هؤلاء لا تقعدوا تحت هذا الحائط، ولا يدخلن أحد في هذه البقعة، فأبوا إلا دخولها، فاعتزلهم ذلك الرجل، وبات خارجاً عنهم، ولم يقرب ذلك المكان، فأصبحوا في عافية، وحملوا على دوابهم، فبينما هم كذلك إذ دخل ذلك الرجل إلى الدار ليقضي حاجته، فخر عليه الحائط فمات لوقته» (المستطرف ٢/٧٤).

لا تعني هذه الحادثة عدم بذل الأسباب، واقتحام الأهوال بحجة التوكل على الله، فقد أمرنا الشرع باتخاذ أسباب النجاة في الدنيا والآخرة، ونهانا عن التواكل، فالله لا يغير حتى يبدأ الإنسان بالتغيير من نفسه، وإنما تعني الحادثة استقرار الاعتقاد بأن قدر الله تعالى إذا جاء فلا يرده تدبير ولا تخطيط ولا حذر، وأنه يجب أن نهيئ أنفسنا بالرضا عند نزول الصعب بنا.

إن الاعتقاد الراسخ يجب أن يكون في أن الخير كل الخير فيما يقدره الله تعالى، خاصة إذا بذلنا كل ما بواسعنا من الأسباب: قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

❋ ❋ ❋

ارض بقدر الله

قال أمير المؤمنين في حديث الإمام سفيان الثوري: «احذر سخط الله في ثلاث:

- أن تقصر فيما أمرك.

ـ وأن يراك وأنت لا ترضى بما قسم لك.

ـ وأن تطلب شيئاً من الدنيا فلا تجده، فتسخط على ربك» (سير أعلام النبلاء ٧/٢٤٤).

الاحتجاج على قدر الله تعالى وقسمته لون من ألوان الجهل الناتج عن التقصير في أداء الأوامر التي أمر الله تعالى بها، إذ إن العلم مرتبط بالتقوى، فكلما تقرب العبد من الله، واتقاه، أنار قلبه بنور العلم، وكلما عصاه وابتعد عنه أظلم قلبه، وزاد جهله، وحُرم من أنوار العلم.. ولذلك قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، فربط العلم بالتقوى، ومن ذلك ما نراه في الحياة.

فبعض الحاصلين على أعلى الشهادات العلمية جاهل بأبسط قضايا القدر، ولا تراه إلا محتجاً على قدر الله تعالى، حاسداً للاخرين على ما أتاهم الله من فضله، بسبب ابتعاده عن الدين، وتقصيره فيما أمره الله، بينما نرى إنساناً فقيراً لا يملك أي شهادة من شهادات العلم، فقيهاً عالماً بدقائق القدر وذلك بسبب قربه من الله، وإيمانه العميق، فلا تراه إلا راضياً قانعاً بما قدره الله عليه، متأدباً بأدب العبودية مع ربه، حامداً إياه على الخير والشر.

* * *

الدخول من باب «الريان»

أوضح لنا النبي ﷺ في الحديث أن للصائمين باباً خاصاً يُسمَّى الريان، لا يدخل منه إلا الصائمون.

فمن أراد الدخول من هذا الباب الذي لا يدخله أحد من الناس إلا الصائمون، فعليه بصيام هذا الشهر إيماناً واحتساباً كما أوصانا النبي ﷺ بذلك، تصديقاً لوجوبه، واحتساباً للأجر من عند الله تعالى عن كل ما يصيب المرء وهو صائم، فيحتمل الجوع، ويشعر بالجائعين، ويصاب

بالصداع، أو قرصة الجوع، فيتذكر آلاف المسلمين الذين يعيشون بالعراء، أو في صقيع الثلج المتجمد بسبب الحروب التي فرضها عليهم أعداء الله من غير مأوى أو طعام يقتاتون عليه.. فيحمد الله الذي أتم عليه نعمته، ويقول ـ عندما يُؤذى من الآخرين أو يتعرض للشتم ـ: «إني صائم».. حيث يتذكر العهد مع الله، وأجر الصابرين على تحمل الأذى كما يخشى الحرمان من الأجر وعدم العتق من النار.

ومن أراد الدخول من باب الريان، فعليه كذلك أن يصوم لسانه عما يغضب الله من الكلمات، وأن يصوم سمعه عما يغضب الله من الكلام الفاحش، أو الغيبة، أو النميمة، أو الغناء الماجن، وأيضاً يصوم بصره فلا يرى ما حرم الله، كمناظر العري، ويصوم قدمه فلا يظلم بها أحد، ويصوم فرجه نهار رمضان عن أهله.. كما يتعب جوارحه بالتقرب من الله سبحانه.

* * *

 ازونا.. يا رمضان

ها أنت تعود يا أحب الشهور إلينا.

ها أنت تعود يا رمضان بعد شوق أخذنا كل مأخذ.

ها أنت تعود يا رمضان بعد أن قحطت العيون، وتصحرت النفوس، وجفت الأرواح وتيبست القلوب.. وازداد الظمأ.

ارونا يا رمضان بماء الإيمان، ونسمات السحر، ورحيق قيام الليل، وعطر قراءة القرآن، وشذى الصدقات والقربات، وروعة الاعتكاف في العشر الأواخر، وعظمة ليلة القدر.

ارونا يا رمضان، فقد عصفت بنا عواصف المادة، اثني عشر شهراً، ودخلت ذرات غبار الغفلة في بصيرتنا قبل بصرنا طيلة هذه الشهور.

اورونا يا رمضان، فقد لسعتنا شمس الدنيا، وزينتها، وابتعدنا وبعدت بنا عن روحانية المشاعر.

حللت أهلاً، ووطئت سهلاً يا رمضان.

فأنت الحبيب، وأنت الكريم، وأنت الطبيب يا رمضان.

يا رب هذا الشهر العظيم: اعتقنا من النار، واجعلنا ممن يصومه إيماناً واحتساباً، وممن يُروى في يوم العطش الأكبر يوم القيامة، وممن ينادى عليه من باب الريان.

❋ ❋ ❋

ضوابط كلمة الحق

كلمة الحق التي يستخدمها الداعية في دعوته للآخرين، لا يمكن أن تكون مؤثرة حتى تتوافر فيها مواصفات عدة، ذكرها الكثير من العلماء في كتبهم.

ومن أجمل الكتب التي ذكرت ذلك كتاب د. محمد أبو الفتح البيانوني، وعنوانه: «جهاد الكلمة.. معالمه وضوابطه»، إذ ذكر فيه ضوابط عدة لكلمة الحق، منها قوله في الصفحة التاسعة: «أن تكون ملائمة مكافئة للموضوع المتكلم فيه، والأمر المدعو له، والنهي المنهي عنه».

فهناك طائفة من الدعاة يخلطون بين السنّة والواجب، والمكروه والمحرم، فتراهم يغضبون ويزمجرون، وترتفع نبرات صوتهم على سنّة يُؤجر فاعلها ولا يأثم تاركها، بل تكون تلك معركتهم مع الآخرين! يوالون ويعادون من أجلها، بينما نرى هؤلاء الدعاة أنفسهم يتعاملون في أمور أخرى من الواجبات تعاملاً بارداً لا يوجد فيه ذلك الغضب، ولا الحرقة على انتهاك محارم الله!

هذه الصفة التي ذكرها الشيخ الفاضل لا تشتمل على نوع الحكم

فحسب، بل تشمل حتى نبرة الصوت، فما يعلو فيه الصوت من المواضيع يختلف عما يخفت فيه، وما تكون نبرته وقورة محافظة غير ما تكون النبرة فيه مرحة ضاحكة.

كذلك فإن بداية الخطبة أو الكلمة لا تكون فيها النبرة مثل وسطها أو آخرها، والحديث عن أحد مواضيع الزهد تختلف فيه النبرة عن الحديث عن مواضيع الظلم والظالمين.. وهكذا.

❊ ❊ ❊

الحديث بالطلاسم

شوقنا لجيل الريادة، وإعادة مجد الأمة، ومواقف الرعيل الأول يجعل البعض منا أحياناً يميل لطرح مسائل كبار العلم في كل مناسبة يلتقي فيها من يسمع منه هذا العلم، استعجالاً منه لبناء سريع للجيل المأمول.

وينسى هذا الصنف من الدعاة ـ بالرغم من وجهة نظرهم وصحة نيتهم ـ أن كبار العلم لا يمكن أن تُستوعب قبل معرفة صغاره، حتى ليزين لبعض هؤلاء أنه لا يليق بهم عندما تتاح لهم الفرصة في الصحافة أو التلفاز أو الإذاعة أو المؤتمرات إلا التحدث بكبار العلم.

كما ينسون أيضاً أن القاعدة الكبرى للمستمعين هي من جيل الشباب الذين لا يفهمون معظم هذه المصطلحات التي قد لا يفقهها إلا قدامى الدعاة، وكبار المثقفين والمطلعين.

يذكر عبد الله بن يوسف الحسن في الرسالة الثانية من رسائل العين «ربانية التعليم» في الشرط الخامس للانفتاح بالكلام على المجتمع:

«ألا يكون قصد المفكرين والقادة الكلام بكبار العلم في المؤتمرات والصحف عن عمد واستمرار يجعلها هي الموطن الطبيعي لهذا النوع من الكلام، أو الموطن المختار، وإنما يجعلون ذلك من باب الاستثناء بقصد

اكتشاف وإثارة وتشجيع عناصر قوية ذات إبداع ربما لا يصلون لها بطريق الاتصال الخاص، وأما كثافة ما ينقلونه من كبار العلم مما علمهم الله فيجب أن يكون عبر المدارس القيادية والمجالس المنهجية المتكررة، ليتم الشرح بأوفر ما يكون البيان، وليكون الحوار المباشر المستخرج من قبل الأستاذ لما لم يكن قد رواه سلفاً من المعاني والإرشادات».

❊ ❊ ❊

القلم والإنترنت والمحطة الفضائية، أم المنبر؟

تتعدد وسائل الدعوة إلى الله تعالى، وكلما ازداد التقدم التكنولوجي، زادت هذه الوسائل، وما كان في الجيل الماضي يختلف كل الاختلاف عمَّا في الجيل الحاضر.

كان الشعراء يمثلون في تلك العصور السحيقة «وكالات الأنباء» بكل ما تحمل هذه الكلمة من معانٍ، بل كان الملوك والأمراء والسلاطين والخلفاء يخشون الشعراء، والكل يسترضيهم حتى لا يقضوا على مستقبله السياسي أو الاجتماعي ببيت شعر.

وبسبب أثرهم الكبير نزلت سورة كاملة باسم «الشعراء»، ولكن لم يعد للشعراء ذلك الدور، بل إن مئات منهم ينظمون القصائد كل يوم في هذا الزمان ولا يتغير أي وضع سياسي أو اجتماعي بسبب ذلك كما كان يحدث في الماضي.

وحل الآن بدل الشعراء في قوة التأثير وتغيير القرار السياسي والاجتماعي المقال في الصحيفة، وشريط التسجيل، والمقابلة التلفازية، وكذلك الإنترنت.

إن أشد الخطباء في العالم الإسلامي تأثيراً لا يسمعه أكثر من ثلاثة إلى خمسة آلاف شخص في أحسن الأحوال، بينما يقرأ مقال الصحيفة في أقل تقدير مائة ألف، وأول من يقرؤها أصحاب القرار، فأي وسيلة هي أكثر تأثيراً: القلم، أم المنبر؟

وما يقال عن القلم يقال عن التلفاز والمحطة الفضائية، فالمقال الذي يقرؤه مائة ألف يعلو على أثره ذلك البرنامج التلفازي في المحطة الفضائية التي يشاهدها الملايين في جميع الأقطار.. فما هو أشدُّ تأثيراً؟

إن الدعاة مطالبون بانتقاء أكثر الوسائل تأثيراً ليستخدموها، وإن لم يتقنوا هذه الفنون، فواجب عليهم تعلمها ليكون تأثير كلمتهم أقوى من تأثير كلمة أصحاب الباطل الذين أتقنوا قبلهم فنون هذه الوسائل، فأثروا على شريحة كبيرة من المجتمع في غيبة أصحاب الحق.

***

من يؤرخ لهم؟

ما زلنا نعاني حتى هذه اللحظة ـ كتّاباً، ووعّاظاً، ودعاة، وتربويين، وآباء، وأمهات، وخطباء ـ من عدم وجود مصادر للاستشهاد بالمواقف والأخلاق والبطولات سوى تلك المصادر التي مضى عليها قرون كثيرة من الزمن.

لا أعني قرن الصحابة والتابعين ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ، ولكن القرون التي تلت ذلك بكثير، فعندما نحتاج للاستشهاد في موقف من مواقف الصدق، فإننا نستشهد بموقف في القرن الخامس أو السادس الهجري، وكذا بقية الأمور.

ولهذا السبب فإن صدى المواعظ والخطب في الكثير من الحالات يكون ضعيفاً، لأن المستمع يقول في نفسه إن صاحب الموقف لم يعش ظروفي، ونوعية الفتن التي أتعرض لها، والبيئة المحيطة، ولا حتى نوعية الحكام الذين نعايشهم، ولو أن الواعظ استشهد بموقف لعالم أو بطل أو زاهد عاصره السامعون، أو مضى عليه وقت قريب من وقتهم ـ قرن أو أقل ـ لكان أشد تأثيراً، وأقرب إلى الواقع، لأن المُستشهد به عاش ظروفهم، وبيئتهم.

ويبدو ـ والله أعلم ـ أن هناك ثلاثة أسباب لهذه الظاهرة:

الأول: خلو عصرنا أو العصر القريب منا من القدوات والأبطال، والعلماء والزهاد والحكماء،، وغيرهم!.

الثاني: ضعف همم علمائنا وكتابنا ومؤرخينا لمتابعة وتأريخ مواقف وكلمات وحياة قدوات عصرنا.

الثالث: عدم إحساس علمائنا وكتّابنا ومؤرخينا بأهمية هذا الأمر في تربية الأجيال.. ولهذا لزم علاجه.

***

السبب الثالث

تناولنا في الوقفتين السابقتين ظاهرة انعدام أو قلة وجود مصادر تسجل سيرة وحياة علماء عصرنا الحديث أو العصر القريب منا، واعتمادنا ـ حتى هذه اللحظة ـ في كثير من مواعظنا أو غالبيتها ـ على مواقف مضى عليها أكثر من خمسة قرون.

وأرجعنا سبب تلك الظاهرة إلى ثلاثة أسباب، أولها: احتمال خلو عصرنا أو القريب منا من القدوات، وهذا أمر مستحيل، وثانيها: ضعف همم علمائنا المعاصرين، وهذا أمر ممكن وموجود للأسف، وثالثها: عدم إحساس علمائنا ومؤرخينا بأهمية تدوين هذا الأمر، وهذا ما نناقشه اليوم.

إن هذا السبب مكمل للسبب الثاني، إذ لو كان هناك إحساس بأهمية تدوين هذه السير، وأثرها العظيم على الأجيال المقبلة والحاضرة لكان هناك شبه استنفار لدى الكثير من العلماء للانشغال بهذا الأمر.

نعم.. هناك محاولات من هنا وهناك ولكنها لا تشفي الغليل.

إن حركة التأليف لم تتوقف، بل ربما زادت عما كانت عليه في

الماضي أضعافاً مضاعفة، لكنها شملت الكثير من العلوم، وأهملت هذا الجانب، بكل أسف.

لذا فإننا نستصرخ الدعاة والعلماء والباحثين والمؤرخين في هذا العصر أن يهتموا بهذا الجانب بحيث يقوم أكثر من داعية بتقديم ترجمة تفصيلية لدعاة هذا العصر من جميع علماء ودعاة الحركة الإسلامية بفصائلها وأشكالها المتنوعة، بموضوعية وتجرد كامل، مع التركيز على أبرز الخصال والمواقف والكلمات لهؤلاء العلماء المؤثرين، والقدوات الصالحين.

ولا بأس هنا بأن يقوم أحد التربويين بترجمة مفصلة لأبرز المدرسين وأن يقوم قائد عسكري بتدوين ترجمة مفصلة لأبطال ذلك العصر والعصر القريب منا، سواء المعروف منه أو المغمور.

ثم يقوم ثالث بترجمة للزهاد والقادة والحكماء، والجمعيات الخيرية.

وهكذا يتم تجميع هذه التراجم والمدونات في موسوعات تنفع الأجيال الحاضرة والمقبلة.



سبب مستحيل.. وآخر ممكن

ذكرت في الوقفة السابقة ظاهرة من أشد الظواهر سلبية في عصرنا الحديث، وهي عدم وجود مصادر لمواقف وأخلاق وكلمات وحكم وبطولات رجال عصرنا، أو العصر القريب منا، واعتمادنا ـ حتى هذه اللحظة ـ على مواقف وكلمات وبطولات مضى عليها أكثر من خمسة قرون، وذكرنا أنه قد يكون وراء هذه الظاهرة السلبية ثلاثة أسباب:

١ ـ خلو عصرنا أو العصر القريب هنا من القدوات.

٢ ـ ضعف همم علمائنا ومؤرخينا في تدوين هذه المواقف.

٣ ـ عدم إحساس علمائنا ومؤرخينا بأهمية هذا الأمر.

أما السبب الأول فهو مستحيل الحدوث إذ لا يوجد عصر من العصور لا يتواجد فيه كثرة من العلماء والقدوات والحكماء والأبطال والزهاد، والمتميزين في كل علم.. ودليل ذلك قول النبي ﷺ فيما رواه الحاكم بإسناد صحيح: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، حتى تقوم الساعة**»، وأحاديث كثيرة في هذا المعنى.

صحيح أن الخيرية أقل مما كانت عليه في العصور والقرون السابقة، ولكن لا يمكن أن تختفي تماماً، أو لا يكون فيها عدد من القدوات يمكن التأريخ لهم، وتدوين مواقفهم وقصصهم وزهدهم وبطولاتهم.

أما السبب الثاني فقد يكون حقاً هو السبب المباشر في هذه الظاهرة، ذلك أن الملاحظ أن الكم الهائل لكتب التراجم في العصور السابقة، والتخصص في كل لون من ألوان التراجم يوضح بجلاء الفرق الشاسع بين همم العلماء آنذاك وهمم علمائنا، فكل مذهب من المذاهب كانت فيه عشرات التراجم لعلماء المذهب.

كما كان هناك متخصصون في ترجمة رجال كل تخصص على حدة، فقد تُرجم للقضاة، وللحفاظ، وللأبطال، وللوعاظ، وترجم لمئات من الزهاد، وأُفردت تراجم للحكماء، والملوك، والأمراء، وقادة الجيوش والنحويين، والكثير من التخصصات، فأين من ترجم لعصرنا؟

وحتى متى لا توجد أمثلة كافية للاستشهاد بها من عصرنا أو العصر القريب منا؟.



العيش الإيماني

هل من الصعب أن يعيش المسلم في هذه الأيام حياة إيمانية في ظل

تزاحم المغريات، وتزايد الملهيات والجواذب التي تتقاذفه من كل حدب وصوب؟

البعض يظن أن ذلك من أصعب الأمور، وآخرون يظنون أن ذلك أقرب إلى المستحيل، بل هو المستحيل بعينه.

لا يمكن أن نوافق على مثل هذه الأجوبة المثبطة عن مثل ذلك السؤال، إنما تنبع مثل هذه الأجوبة من نفوس هزيلة، انهارت أمام مطارق الشيطان وتزيينه، واستسلمت لجواذب الدنيا، وخارت قواها أمام الإغراءات التي تجذبها خارج الإطار الإيماني.

إن هذا المنهج الذي بين أيدينا من كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ، لم يتغير منه شيء البتة، وهذا المنهج الذي خرّج ذلك الجيل الفريد من الصحابة ومن بعدهم من أجيال التابعين وتابعي التابعين، والصالحين من بعدهم لقادر على صياغة من يريد صياغةً إيمانية على منهج ذلك الجيل الفريد.

إن من أرسل إلينا هذا المنهج كان يعلم سبحانه بما سيحدث في زماننا من فتن وجواذب، ويعلم سبحانه أن كتابه وسنّة نبيه قادران على توليد الرجال في كل جيل، وتفجير الطاقات الإيمانية فيمن مشى على هديه، واستن بسنة نبيه ﷺ.



كيف كانوا يعيشون؟

كيف كان الصحابة - رضي الله عنهم - يعيشون في هذه الدنيا؟ وكيف كانوا يربون أنفسهم؟

كانوا يدركون تماماً أنهم يعيشون على بقعة تسمى الأرض، فيها فرصتهم الوحيدة للعمل، وحياتهم فيها تسمى الدنيا، حيث هي بمثابة الجسر الموصل للآخرة، وهناك يتم الحساب على ما قاموا به من العمل في الأرض.

كانوا يعلمون تماماً أنهم إن نسوا هذه الحقيقة على بساطتها فإنهم يثقلون وينجذبون لهذه الأرض، وينسون المصير، وينسون الهدف من الخلق، ولهذا السبب استخدموا كل ما في هذه الأرض لتحقيق الهدف من خلقهم وهو «عبادة الله»، واستخدموا صحتهم وأوقاتهم في العبادة، واستخدموا ممتلكاتهم للعبادة، بل واستخدموا كل نعمة وقعت عيونهم عيلها للآخرة.

لقد شرب ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ يوماً ماءً بارداً فبكى، واشتد بكاؤه، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: ذكرت قوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [الأحزاب: ٢٨].

وكان ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ كباقي الصحابة يربط ما يراه في الدنيا بالآخرة، فمما يروى عنه أنه مر على هؤلاء الذين ينفخون في الكير، فوقع، ومر على الحدادين فبصر بحديدة قد أحميت فبكى (الزهد لأحمد: ١٦٣).

إنها صور من جيل الصحابة تعكس طريقتهم التي كانوا عليها في الدنيا.. إنها رسائل لهذا الجيل، ولكل جيل بعدهم، توضح الطريقة المثلى للوصول بأمان إلى الآخرة.

❋ ❋ ❋

☜ من صور الإيثار

هذا الإسلام العظيم ينتج كل يوم آلافاً من النماذج البشرية التي يعجز أي منهج عن إنتاجها، إنها آيات للكمال البشري، لا يمكن أن يصوغها غير هذا المنهج الإلهي.

فالأخلاق التي يحث عليها الإسلام تمثل قمماً في التعامل البشري، وهي السبب الذي دعا الكثير من الأمم للدخول في هذا الإسلام، ويعجز المرء عن تعداد هذه الأخلاق، وتلك النماذج.

فمن هذه الصور ما يرويه الواقدي «أن زوجته جاءته يوم عرفة تشكو عدم ملكها ما يصلح للعيد، يقول: فمضيت إلى صديقي التاجر فعرفته بحالتي فأعطاني كيساً مختوماً فيه ألف دينار ومائتا درهم، فمضيت إلى البيت فجاءه هاشمي يشكو حاجته وذهاب غلته، فدخل على زوجته فأخبرها خبر الهاشمي، فقالت له: ما نيتك، فقال لها: أعطيته نصف ما في الكيس، قالت: ما أنصفت، فإذا كان رجل من السوقة يعطيك ١٠٠٠ دينار، فكيف تعطي من له نسب إلى النبي ﷺ نصف الكيس، فأعطاه الكيس كله، ثم ذهب التاجر يشكو حاجته إلى الهاشمي، فقام الهاشمي وأعطاه الكيس كله، فعرفه التاجر ورده للواقدي، ثم استدعاه يحيى بن خالد البرمكي، وأعتذر له عن انشغاله عنه بما كان يريد الأمير، وقص له الواقدي قصة الكيس، فأمر له بعشرة آلاف، وقال له: ألفان لك، وألفان للهاشمي، وألفان للتاجر، وأربعة آلاف لزوجتك فإنها أكرمكم».

الجليس الصالح ٣١٢/١، ٣١٣.

***

من العاقل؟

قيل لعلي رضي الله عنه: صف لنا العاقل؟

قال: الذي يضع الشيء مواضعه.

قيل: فصف لنا الجاهل؟

قال: قد فعلت، «يعني الذي لا يضع الشيء مواضعه».

(المستطرف ص٢٥).

من الدعاة من يسيء للدعوة أكثر مما ينفعها، بتصرفاته غير العاقلة التي يترتب عليها الكثير من الضرر، بل قد تسبب الفتنة للكثير من الناس، فيبتعدون عن الخير والحق، بسبب تصرفاته غير العاقلة التي لا تضع الشيء

في موضعه. . . فيتكلم مع فئة من الناس بما لا تدركه عقولهم، أو يتشدد في أمر من أمور السنة مما لا يترتب عليه إثم في تركه، بينما يتساهل في أمور الواجب. . أو ينكر المنكر بطريقة فظة غليظة يترتب عليها منكر أشد منه.

إننا بحاجة إلى دعاة عقلاء، يضعون الأشياء في مواضعها الصحيحة، فلا يهمل الواحد منهم أبناءه وزوجته على حساب الدعوة، وكذلك لا يهمل الدعوة في سبيل أبنائه وزوجته، ولا يضحي بماله كله ويترك أبناءه عالة على الناس، بل يعطي لكل حق حقه، ويضع كل شيء في موضعه الصحيح.

❋ ❋ ❋

فوائد البلاء

ذكر صاحب المستطرف أن «الحوادث المحضة مكسبة لحظوظ جليلة، فهي:

١ ـ إنما ثواب مدخر.

٢ ـ أو تطهير من ذنب.

٣ ـ أو تنبيه من غفلة.

٤ ـ أو تعريف لقدر النعمة» (المستطرف: ٦٧).

لا شك في أن فوائد البلاء كثيرة، وقد تحدث الكثير من العلماء في ذلك، خاصة الإمامين ابن القيم، وابن الجوزي، وإن كان أبرز ما في هذه الفوائد ما ذكره الأبشيهي في مستطرفه، ذلك أن أولى الفوائد التي تساق للمبتلى هي الثواب العظيم الذي يعينه في عمله القليل، خاصة إذا صبر على هذا البلاء، ولم يتأفف أو يشكُ لأحد من المخلوقين، بل حمد الله، وفوض أمره إليه، دون احتجاج على قدره.

كما أن من أبرز هذه الفوائد ما يحتاجه كل مسلم، بل أشد حاجة إليه

يوم القيامة، وهو التكفير عن السيئات، فما أكثر ما نُذنب في هذه الحياة، فيأتي البلاء رحمة من الله تعالى لمحو هذه الذنوب.

والبلاء إيقاظ للمسلم من غفلته وانغماسه في هذه الدنيا وزينتها، ولهوه وابتعاده عن آخرته، وهو تنبيه من الرحمن الرحيم لمن يحبه من عبيده للرجوع إلى الصراط المستقيم، والعمل لما خلقه الله من أجله، مع عدم تضييع الأوقات فيما لا يجلب له الخير والنجاة يوم القيامة.

والبلاء تنبيه لقدر نعمة المولى، لأن الإنسان ما سمي إنساناً إلا لكثرة النسيان، وقد تطغيه النعمة، وتنسيه المنعم، فيأتي البلاء ليذكره جليل فضل الله عليه بعد أن فقد نعمته.

❊ ❊ ❊

تقوى الله عند الغضب

أذنب غلام في حق امرأة من قريش، فأخذت السوط ومضت خلفه حتى إذا اقتربت منه رمت بالسوط بعيداً عنه وقالت: «ما تركت التقوى أحداً يشفي غيظه» (المستطرف ٢٧٨).

في واقع الأمر فإن التقوى تمنع أصحابها بالفعل من شفاء غيظهم، وسبب هذا المنع الخوف من الله تعالى، ومن مساءلته يوم القيامة، ومن عذابه في ذلك اليوم الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليم، ومن الخوف من الظلم، لأنهم يعلمون حق العلم، أن ذلك الظلم ظلمات يوم القيامة، وأنهم معرضون للإفلاس في هذا اليوم، مهما بلغت أعمالهم - عندما يظلمون الآخرين - كما يعلمون أن دعوة المظلوم مستجابة وإن كان كافراً، وأنه ليست بينها وبين الله حجاب.

ولهذا كانوا يتحملون الغيظ، ويتركون الانتصار للنفس، خوفاً من الوقوع في المحظور متذكرين حديث النبي ﷺ: «**مَنْ كظمَ غيظاً وهو قادر**

على أن ينفذه دعاه الله سبحانه وتعالى على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره من الحور العين ما شاء» (رواه الترمذي بإسناد حسن).

❋ ❋ ❋

مقياس إيماني

لقياس الإيمان أدوات خاصة، من أبرزها المسجد، فكلما زاد ارتياد المسجد زاد الإيمان، وكلما ضعف ذلك قل الإيمان.

فالمسجد كان ـ وما يزال ـ علامة بارزة ومقياساً دقيقاً على قوة الإيمان.. قال سبحانه: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٧].

وذكر رسول الله ﷺ من بين السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله... «ورجل قلبه معلق بالمساجد».

كما يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة: ١٨].

ولهذا السبب كان أول عمل قام به رسول ﷺ، عند دخوله إلى المدينة بناء المسجد، ثم أعقب ذلك مؤاخاته بين المهاجرين والأنصار.

وكان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ يعرفون المنافقين من غيابهم عن شهود صلاة الفجر، فهي أشق الصلوات عليهم.

كما أن الصالحين كانوا إذا تقدم أحد لخطبة بناتهم، يسألون عن صلاته في المسجد، فإن كان من عشاق المسجد زوَّجوه وإن كان غير ذلك رفضوا خطبته.

ومما رُوي عن شيخ التابيعن سعيد ابن المسيب قوله: «منذ أربعين سنة، ما أذَّن إلا وأنا في المسجد». [سلوة الأحزان: ٣٤].

❋ ❋ ❋

لماذا سبقني فلان؟

كثيراً ما يتساءل بعض الصالحين والأتقياء فيما بينهم وبين أنفسهم: «لماذا سبقني فلان وعلان بالتجارة، ونجحوا ولم أنجح؟ ولماذا تبوأ فلان - الذي تخرج معي في الجامعة نفسها - ذلك المنصب الكبير، وأنا لا أزال في مكاني؟ ولماذا رزق الله فلاناً الأبناء وحرمت من ذلك»؟ وغيرها من التساؤلات مما يجعل للشيطان منفذاً عليه، ليعترض على قدر الله من حيث لا يدري، فيقع في المحذور!.

ولو تأمل ذلك العبد الصالح والعالم البارز، والداعية التقي، لعلم أن الله تعالى ما صرفه ومنعه هذه النعمة إلا لمصلحته التي لا يعلمها هو، وذلك من حفظه له واصطفائه لعبده.

يقول الصحابي الجليل ابن مسعود: «إن العبد ليهم بالأمر من التجارة أو الإمارة، حتى ييسّر له، فينظر الله إليه فيقول للملائكة: اصرفوه عنه، فإني إن يسرته له أدخلته النار، فيصرفه الله عنه، فيظل يتطير، يقول: سبقني فلان، دهاني فلان، وما هو إلا فضل الله عزّ وجلّ» (نور الاقتباس ص٤٩).

ولو رجع العبد إلى حقيقة الإيمان لأدرك أن الله تعالى لا يقدر له إلا الخير، وإن خفي عنه ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

* * *

على ظهره عارية!

كنت أنتظر الطبيب في مستشفى مبارك الكبير في الكويت، فرأيت شاباً طويل القامة، ممتلئ الجسم يلبس بنطالاً وقميصاً ملوناً لاحظت صورة كبيرة لامرأة عارية على ظهره! فتقززت من هذا المنظر، وبدأ الدم يغلي في

عروقي على هذا الاستهتار والعبث، والتخلي عن القيم.. واحترت ماذا أفعل؟؟ هل أنكر عليه وأوبخه أمام الناس؟ وإذا فعلت ذلك فهل سآمن من لسانه، وربما من يده؟؟ أسئلة كثيرة بدأت ترد علي، ومحاكمة في قاعات نفسي علا فيها صوت الشبهات والردود، بين المنطق الشيطاني والرد الإيماني، أوقفت المحاكمة وأسكت جميع الشبهات، وتزيينات الشيطان، واتجهت إلى ذلك الشاب، بعد أن اغتنمت فرصة الانفراد به بعيداً عن جمهرة الناس، وأول خطوة بدأت بها معه هي الابتسامة العريضة من أعماق قلبي، مما اضطره لأن يجاملني ويبتسم، وتقدمت نحوه، لأبدأ بالخطوة الثانية وهي مصافحته لأتركه في حيرة من أمره، وتساؤلات بينه وبين نفسه لأصهر الجليد الذي يحجزني عنه، ثم بدأت الخطوة الثالثة وهي الثناء على شيء جميل فيه، فقلت له إن ذوقك باختيار القميص رائع، وإذا به يرد عليّ سريعاً: أحقاً ما تقول أم هي مجاملة؟؟ فلما رأيته تفاعل معي، بدأت الخطوة الرابعة قائلاً: لا إنها ليست مجاملة بل حقيقة، ولكن فيه عيباً واحداً، قال بتلهف وما هو؟ فأسررت في أذنيه حتى لا يسمعني القريب... لقد رسمت صورة لا مرأة عارية خلفك.

وإذا به ينتفض بما لم أتوقعه، وهو يقول: أحقاً ما تقول؟! والله لا أدري والله لا أدري، جزاك الله خيراً على هذا التنبيه وبدأ يلصق ظهره بالحائط حتى يواري الصورة عن الآخرين... وبدا نادماً على ذلك واستمر في شكري وتأسفه حتى غادر المكان.

قبل أن نحكم على الناس بأنهم لا يقبلون منا النصيحة، هل جربنا الحكمة في الإنكار؟؟.



المواقف تظهر المعادن

كم من المظاهر في هذه الحياة تخدعنا، فنفاجأ بأن ذلك المظهر لم

يتطابق مع المخبر عندما حدث الموقف. لهذا السبب فإن قاعدة التقييم للرجال عند الصحابة الكرام التي فهموها من خلال آيات الله الكريمة بأن المظهر لا يغني عن المخبر.

وقاعدة «**إن الله لا ينظر إلى صوركم..**» الحديث.

وقاعدة ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤] وقاعدة ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾ [البقرة: ٢٠٤].

فكم من خطيب مفوه يبهر السامعين ببيانه وفصاحته وتحليله، وقوة التأثير التي يملكها، وكثرة المعارف التي يعرفها.

وكم من صاحب لحية طويلة، وثياب قصيرة، وحناء في لحيته، ومسواك لا يفارق فاه، وعمامة تغطي رأسه، وسبحة لا تفارق أصابعه، وكم من طالب علم لا يفارق حلقات العلم، ومتابعة كل مطبوع جديد من كتب العلم، وملاحقة العلماء من مسجد إلى مسجد.

كل هذه الجموع ممن يبدو في ظاهرهم التدين والالتزام، لا تتضح معادنهم الأصيلة إلا عند المواقف، والفتن، وأنواع البلاء، وهذا لا يتضح إلا عند المخالطة لمدة طويلة، لمعرفة كل ما خلف المكياج الذي يتفنن الكثيرون بوضعه على ظاهرهم لإخفاء معدنهم الحقيقي.



أيها العلماء والدعاة

في بلد عربي يعج بالعلماء والدعاة، دعيت إلى إلقاء محاضرة تربوية موجهة للشباب، وإذا بي أفاجأ بعطش الشباب للمعلومة الإسلامية، ولو لم ينه عريف الندوة وقت المحاضرة لامتدت الأسئلة إلى وقت طويل. ومما لفت نظري طرح أحد الشباب سؤالاً لم أكن أتوقع أن يطرح في بلد عربي

إسلامي، ناهيك عن أن يكون ذلك البلد متميزاً بكثرة العلماء والدعاة إلى الله، وكان السؤال «هل يخلد الكفار في النار؟».

آلمني أن يصدر هذا السؤال الذي يعتبر من بدهيات وأبجديات المعلومة الإسلامية من شاب لأبوين مسلمين، ويعيش بين مسلمين، وبعد أن أجبت بخلود الكفار في النار، في الكتاب والسنّة، دون أن أبدي استغرابي من السؤال.. انفردت بعريف الندوة، وسألته عن أسباب صدور مثل هذا السؤال من ذلك الشاب، أين العلماء في هذا البلد، وأين دور الدعاة في هذا البلد؟

أجابني: استغرابك في محله. والعلماء الذين تتحدث عنهم، الكثيرون منهم لا يلتقون بمثل هؤلاء الشباب، إما لكثرة ارتباطاتهم وانشغالاتهم، وإما لعدم شعورهم بأهمية مثل هذا الأمر، لذلك فإن هؤلاء الشباب الذين التقيت بهم يعتبرون الالتقاء بعالم أو داعية.. حلماً من الأحلام..

ويكمل محدثي سرد هذه المعاناة: تصور أنني حاولت دعوة أحد العلماء لإلقاء محاضرة على هؤلاء الشباب، وبعد أسابيع وأسابيع، وأنا أتابعه من مكان إلى مكان ومن مسجد إلى مسجد لم أتمكن من مقابلته، حتى أدركته عن طريق معرفة الوقت الذي يخرج فيه إلى سيارته.. وعندما فاتحته بالأمر اعتذر..

فلا تستغرب بعد ذلك أن يسألك مثل هذا الشاب ذلك السؤال.

أيها العلماء.. أيها الدعاة ..الله سيسألكم يوم القيامة عن تجاهل مثل هؤلاء.. فماذا أعددتم من إجابة؟؟.



عندما يغضب الدعاة

العمل الدعوي اليومي في المؤسسات الإسلامية المتنوعة في جميع أنحاء العالم صورة من صور العمل والنشاط البشري بشكل عام، إلا أن

الذي يميزه أو يفترض أن يميزه، أن العمل في هذه المؤسسات الدعوية، وخاصة التطوعية منها، قائم على الإخلاص لله، وابتغاء وجهه وحده.. هذا هو الأساس والأصل الذي يجب على جميع الدعاة العاملين في مثل هذه المؤسسات ألا يفارق قلوبهم وعقولهم قيد أنملة، لأنه إذا غاب هذا الأساس الأصيل فإن كل ما يصيبهم من بلاء بسبب تحركهم، أو ما يصيبهم من نقد أو نصح أو توجيه فإنهم سيعدونه إهانة، وتجريحاً، وتدخلاً واستهزاءً، وتجهيلاً، إلى آخر قائمة هذه المتوالية مما ينفثه الشيطان في نفوسهم دفاعاً وغضباً للنفس لا لله تعالى.

لذلك يختلط الحابل بالنابل، وتظهر الضغينة والخلاف، والصراع، والغضب، والمقاطعة وترك العمل، وتشهير بعضهم ببعض، وإباحة الغيبة والنميمة.

وقد يسأل سائل، أيمكن أن يحدث مثل هذا في مجتمع الدعاة؟

أقول نعم، وأضعافه، إذا ما غابت عن أذهانهم تلك الركيزة.. والأساس الأصيل.. وهو أن عملنا كله لله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢].

❊ ❊ ❊



التغيير

من أبرز ما نتعلمه من جامعة رمضان الكبرى إمكانية التغيير في كل شيء في حياتنا، إذا ما قررنا ذلك، والصوم يبرهن للمسلم أنه قادر على ذلك، فالصائم يتغير كل شيء في حياته: الطعام وأوقاته، النوم وأوقاته، علاقته بزوجته، وعلاقته بالقرآن، علاقته بالمسجد، تعامله مع الناس، انقطاعه عن عاداته السيئة كالتدخين، والإكثار من الشاي والبن، وبعض أنواع الطعام.

وهذا يدل على أن شريحة الكسالى من الناس الذين لا يريدون التغيير

بحجة عدم الاستطاعة، حجتهم باطلة، وأن رمضان حجة عليهم.

إن فن التغيير لا يستطيع القيام به إلا أولئك النجباء من الناس، أولئك الناجحون في الحياة، الذين عرفوا كيف يستفيدون من جامعة رمضان بإمكانية التغيير، والله قادر على أن يغير كل إنسان للأفضل، ولكن قرن إرادة تغييره بقرار الإنسان لتغيير نفسه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، حيث ندرك قانون التغيير من خلال ممارستنا لصيام رمضان المبارك، لنحدث بعده انقلاباً في حياتنا نستثمر فيه كل لحظات حياتنا، ونملأ أوراق كتبنا لنراها نوراً يتلألأ - بإذن الله - يوم القيامة.

❋ ❋ ❋

حبس المؤمن

يقول الرسول ﷺ في الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم: **«الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»** (مختصر مسلم **٢٠٧٩**).

إنها سجن للمؤمن، لأنه يمنع نفسه عما تريد من الحرام، وهي سجن له لأنه يحبسها عن الشهوات والشبهات، ويلزمها بما أمر الله تعالى. وهي سجن له، لأن كل ما فيها من اللذائذ مآله إلى الزوال، وكل نعيم فيها لا يقارن بنعيم الآخرة، ولا حتى يقرب منه، ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البقرة: **٢٥**]، فقط تتشابه الأسماء ولكن لا تتشابه الحقائق أبداً بين نعم الدنيا ونعم الآخرة، ومن أطلق لنفسه العنان من هذا السجن، وجعلها ترتع في الحرام، فإن الله يحرمه لذائذ الآخرة، ويودعه سجناً أكبر من سجن الدنيا..

ويبين الإمام ابن القيم هذه الحقيقة في فوائده **(ص٥٤)** فيقول: «طالب الله والدار الآخرة لا يستقيم له سيره وطلبه إلا بحبسين:

حبس قلبه في طلبه ومطلوبه..

وحبسه عن الالتفات إلى غيره.

وحبس لسانه عما لا يفيد.

وحبسه على ذكر الله، وما يزيد في إيمانه ومعرفته.

وحبس جوارحه عن المعاصي والشهوات.

وحبسها على الواجبات والمندوبات.

فلا يفارق الحبس حتى يلقى ربه فيخلصه من السجن إلى أوسع فضاء وأطيبه، ومتى لم يصبر على هذين الحبسين، وفر منهما إلى فضاء الشهوات أعقبه ذلك الحبس الفظيع عند خروجه من الدنيا، فكل خارج من الدنيا، إما متخلص من الحبس، وإما ذاهب إلى الحبس، وبالله التوفيق».

❋ ❋ ❋

الباحثون عن العزة

يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ۝١٠﴾ [فاطر: ١٠].

يقول سيد قطب رحمه الله: «وهذه الحقيقة كفيلة ـ حين تستقر في القلوب ـ أن تبدل المعايير كلها، وتبدل الوسائل والخطط أيضاً! إن العزة كلها لله، وليس شيء منها عند أحد سواه. فمن كان يريد العزة فليطلبها من مصدرها الذي ليس لها مصدر غيره. ليطلبها عند الله، فهو واجدها هناك، وليس بواجدها عند أحد، ولا في أي كنف، ولا بأي سبب ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ﴾ [الظلال: ٥/٢٩٣٠].

فمن يبحث عن العزة في المال، وعالم الثروة فهو واهم، ولن يجدها أبداً هناك، ومن يبحث عنها في المناصب العالية فلن يجدها هناك، ومن يبحث عنها في موالاة أعداء الله، اغتراراً بقوتهم وسلاحهم وسيطرتهم فلن يجدها هناك، ومن يبحث عنها في منهج غير منهج الله تعالى فلن يجدها

هناك أبداً، فما زالت كلمات الفاروق تتردد على مر الأجيال والسنين، لقد كنا أذل الناس فأعزنا الله بالإسلام، ومهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله». وحقاً.. متوهمون من يبحثون عن العزة عند غير الله من البشر أو المناهج أو في لعاعة من لعاعات الدنيا، يقول الحسن البصري: «ما أعز أحد الدرهم إلا أذله الله عزَّ وجلَّ» (الزهد لأحمد **٢٧٠**).

ومن أعز الله أعزه، وإن كان أفقر الناس، وأقلهم عدة، وأكثرهم ضعفاً في موازين البشر.

«قال رجل للحسن البصري: إني أريد سفراً فزودني. قال: ابن أخي، أعز أمر الله حيث ما كنت يعزك الله عزّ وجلّ» (الزهد **٢٦٣**).

❋ ❋ ❋

أثر المال المشبوه

كم نقف بين يدي الله تعالى نصلي، وكم نتلو القرآن، أو يتلى علينا، وكم نسمع من الأشرطة الإيمانية أو نشاهد من البرامج الدعوية، وكم نستمع من خطب ودروس مواعظ، ولا نشعر بلذة الإيمان، وإذا جاءت فإنما تأتي للحظات، ثم لا تلبث أن تمر مر السحاب ونحتار ونتساءل عن سبب غياب ذلك الفتح الرباني، والشعور الإيماني، ولذة المناجاة، والدمعة الخاشعة.

ولا ندري أن غياب ذلك إنما يحدث لأسباب أهمها أكل المال الحرام، أو ما به شبهة الحرام، ولا يلتفت لذلك إلا الربانيون أمثال الإمام سفيان بن عيينة رضي الله عنه حيث يقول: «كنت أقرأ الآية فيُفتح لي فيها سبعون باباً من العلم، فلما أكلت مال هؤلاء الأمراء صرت أقرأ الآية فلا يفتح لي فيها باب واحد» (بحر الدموع **١٨٠**).

ويقصد بهم أولئك الأمراء الظلمة آنذاك ممن كانوا يأخذون أموال الناس بالباطل، أو يجمعونها من أوجه الحرام والشبهات، فكيف بالبعض منا

ممن لا يتورع عن رؤية الحرام، أو سماع الحرام، أو أكل المال المشبوه، أو قول الحرام أو تأخير إعطاء الحقوق لأهلها، أو منعها، أو ظلم زوجته وأبنائه، أو عقوق والديه، وغيرها من أنواع المعاصي، ثم يتساءل: أين اللذة الإيمانية؟!.

❋ ❋ ❋

القلوب بيد الله تعالى

غالب الناس ينسون تماماً أن القلوب ـ كل القلوب ـ بيد الله وحده، يقلبها كيف شاء ومتى شاء سبحانه، فيسعون لإرضاء العبد، ويستميتون من أجل ذلك، بالرغم من أن العبد لا يملك قلبه ولا قلب غيره، ضاربين عرض الحائط برضا الله تعالى.. المالك للقلوب.

أما ملوك الآخرة، الذين أدركوا الهدف من الخلق، فجعلوا الدنيا معبراً للآخرة، وتفانوا في عبادة الله، وسابقوا الزمن لئلا تضيع منه لحظة دون قربة إلى الله.

أما هؤلاء فقد اختصروا الطريق، ولم يتعبوا أنفسهم مع الناس، بل توجهوا لمالك القلوب مباشرة، فحفظوا حقه، فتكفل سبحانه وتعالى بحفظ حقوقهم عند الناس.

هكذا أدرك هؤلاء هذه المعادلة التي تغيب عن معظم الناس، ولخصها الإمام ابن الجوزي عندما قال: «العاقل من يحفظ جانب الله عزّ وجلّ وإن غضب الخلق، وكل من يحفظ جانب المخلوقين، ويضيع حق الخالق يقلب الله قلب الذي قصد أن يرضيه فيسخطه عليه، وعلى ضد هذا، كل من يراعي جانب الحق والصواب، يرضي عنه من سخط عليه» (صيد الخاطر ٢٢٩، ٢٣٠).

❋ ❋ ❋

☜ كتب هذا الزمان (١)

من عادتي الذهاب إلى المكتبات الإسلامية لمتابعة آخر ما يطبع في مجالات متعددة في الشأن الإسلامي، وأصدم عندما أرى عشرات الكتب التي تقذف بها المطابع إلى هذه المكتبات، ولا يوجد فيها إلا القليل مما يستحق القراءة، أو يستحق أن يطلق عليه «كتاب». . . وأصبح من المتعذر أن ترى كتاباً قد بذل فيه المؤلف جهداً يستحق القراءة، أو أضاف شيئاً جديداً لم يسبقه إليه أحد، أو علماً قديماً قد أخرج بثوب جديد، وعرض مشوق، وقالب سهل، ليستفيد منه أبناء هذا العصر.

إن مما يؤلم أن ترى معظم الكتب التي تملأ رفوف المكتبات بأجمل التصاميم، وأكثر الألوان جاذبية، مجردة من المحتوى الذي يتناسب مع هذه الزخارف والألوان، والصفحات المصقولة.

يبهرك غلاف كتاب، وعندما تتصفحه ترى أن من كتبه لم يضع فيه حرفاً واحداً من عنده، بل نقله بكامله من كتب أخرى وكتب أسفل الغلاف تأليف «فلان»، أهذا من الأمانة العلمية؟؟

كيف يجرؤ مثل هذا على كتابة اسمه على الغلاف؟؟. . . وكيف تطبع دور النشر فصولاً منقولة من كتب أخرى تنسب لغير أصحابها؟.

وترى كتباً أخرى تبهرك عناوينها وعندما تقلبها تطالع عبارات غير متناسقة وأفكاراً مشتتة، وكلمات مبعثرة. . . وعندما تسأل عن سبب ذلك، يخبرك الناشر، أن هذا الكتاب ما هو إلا «شريط مفرغ» لذلك العالم المشهور!.

❊ ❊ ❊

☜ كتب هذا الزمان (٢)

لأنني مهتم بقراءة القصص، للاستشهاد بها في خطبي ومواعظي، وتربيتي لأبنائي، فقد ذهبت إلى المكتبة لأرى الجديد في هذا المجال.

بهرتني مجموعة قصصية... فرأيت فيها ثلاث قصص قد نقلت من بعض كتبي، ولم ينسبها الكاتب لي! ثم أضاف قصة واحدة منه، وقصصاً أخرى لمؤلفين آخرين ثم ختمه بتوقيع اسمه على الغلاف. هكذا أصبح التأليف في زماننا، تجميع من كتب أخرى، دون أي جهد يذكر من الكاتب، وفصول كاملة من كتب تراثية قديمة تُحول إلى كتيبات صغيرة، وأشرطة مفرغة لعلماء أجلاء؟!

إننا بأشد الحاجة إلى كتب تعيد التراث القديم بأسلوب معاصر، وكتب تستنبط من عبارات السلف قواعد تربوية تسهّل على الجيل الجديد التخلق بأخلاق الرعيل الأول.

إننا بحاجة إلى التطرق للمشكلات المعاصرة عن طريق الاستشهاد بعبارات السلف، والأحاديث النبوية، وآيات من القرآن وآراء الفقهاء، واستناداً للإحصائيات الحديثة، والاستبانات، وإسقاطاً على ما يعانيه الشباب من مشكلات وتحديات من الجاهلية الحديثة.

هذا هو التأليف الذي يتعب فيه المؤلف، ويستفيد منه القارئ، لا طريقة القص واللصق، التي يتبعها الكثير من كتاب هذا الزمان.

* * *

«أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم»

لديَّ ولد صغير، عمره لا يتجاوز السابعة، تعودت أن أخذه إلى المسجد في بعض الصلوات، فيسلم عليه الكثيرون من رواد المسجد، ويلاطفه الجميع. سألته يوماً عن أحب الناس إليه في المسجد فذكر لي أحدهم.

حاولت التعرف على السبب، فوجدت أن ذلك الرجل يحرص على إعطائه الحلوى، فكلما رآه دس في جيبه نوعاً منها، ويعامله معاملة الكبار، ويلاطفه أكثر من غيره، فأدركت السبب، وأن الأطفال ـ مثلهم مثل الكبار ـ

تأسرهم الكلمة الطيبة والمعاملة الطيبة والإحسان إليهم، وصدق الرسول ﷺ حينما قال: «**ما كان الرفق في شيء إلا زانه، وما نزع من شيء إلا شانه**».

يقول الإمام المناوي (في فيض القدير ٥/٤٦١) معلقاً: «لأن به تسهل الأمور، وبه يتصل بعضها ببعض، وبه يجتمع ما تشتت، ويأتلف ما تنافر وتبدد، ويرجع إلى المأوى ما شذ، وهو مؤلف للجماعات جامع للطاعات، ومنه أُخذ أنه ينبغي للعالم إذا رأى من يخل بواجب، أو يفعل محرماً أن يترفق في إرشاده، ويتلطف به».

❊ ❊ ❊

لا تنفعل (١)

وضع النبي ﷺ أحد أهم وأبرز أسس التحكم بالانفعالات النفسية السلبية عندما قال: «**ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب**».

فالقوة والشدة إنما تكمن فيمن يتحكم بهذه الانفعالات السلبية، وفي الحديث تقرير بأن كل نفس تنفعل وتثور عندما يستفزها الآخرون أو الظروف أو أي نوع من أنواع البلاء، ولكن القوي هو من يستطيع ترويض هذه النفس وتهدئة ثورتها وهيجانها.

والسؤال الذي يبرز هنا: ما هي خطوات السيطرة على النفس عند الهيجان؟.

إن الخطوة الأولى أن يتذكر المسلم أن الذي يدفعه لهذا الغضب السلبي هو عدوه الأول: الشيطان، لأنه يريد له الشر، وأن يقع فيما يغضب الله. . . لذلك أوصانا النبي ﷺ بالاستعاذة بالله من الشيطان عند أول الشعور بالغضب، كما جاء في البخاري، خاصة إذا استذكر معنى: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». أي ألجأ إليك يا رب وأطرق بابك، وأستعيذ بك من شر الشيطان، فإذا ما استعاذ وكرر الاستعاذة ذهب عنه كل الغضب أو

أكثره بإذن الله «**إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**» (البخاري).

وتتوقف نتيجة الاستعاذة وتأثيرها في تسكين الغضب والانفعال على الحالة الإيمانية والعلاقة بين الغاضب وربه، لذلك قال الإمام الطيبي: ولا تنفع الاستعاذة إلا المتقين بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟﴾ [الأعراف: ٢٠١]، أي ما أمرهم به ونهاهم عنه، ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ لطريق السداد، ودفعوا ما وسوس به إليهم (مرقاة المفاتيح ٥/٢٦٧).

* * *



لا تنفعل (٢)

تحدثنا في الوقفة السابقة عن الخطوة الأولى في التحكم في الانفعالات السلبية وهي الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم.

أما الخطوة الثانية فهي تغيير الحالة الجسدية كما جاء في وصايا النبي ﷺ.

فإذا كان الغضبان واقفاً فليجلس، وإذا كان جالساً فليضطجع، وليغير حرارة جسده بالوضوء، ليطفئ نار الغضب، وفي ذلك تأثير كبير على خفض ـ وربما إزالة ـ الغضب بالكامل.

أما الخطوة الثالثة، فهي تصنيف المخاطب بكسر الطاء، وهي الخطوة التي كان يتبعها الكثير من علماء الأمة وصلحائها.

فإذا كان أعلم مني فأجلُّه لعلمه وأغفر زلته، وألتمس له العذر لفضائله الكثيرة ومنزلته... أما إن كان أقل مني علماً فأترفع عن مخاطبة الجاهلين، ولا أنتزل إلى مستواهم، وألتمس لهم العذر لجهلهم، وأما إن كان من

القرناء، ومن هم في مستواي، فأتفضل عليهم وأبادر بالتجاوز والعفو، لأن الله تعالى يقول: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

وما عليك إلا أن تتذكر عند أي احتكاك مع الآخرين، وبداية تحرك الانفعال أن تصنف المقابل، وتتعامل معه كما كان يتعامل معه عقلاء الأمة وصلحاؤها. تسلم من الكثير مما ستندم عليه لو أطعت نفسك وانسقت وراء الشيطان.

❊ ❊ ❊

وداعاً نحناح

ودَّعت الدنيا علماً شامخاً من أعلام الحركة الإسلامية الحديثة، وعموداً صلباً من أعمدة الاعتدال فيها، ومجاهداً من مجاهديها، إنه رائد الحركة الإسلامية في الجزائر الأخ محفوظ نحناح يرحمه الله.

لم أعرفه من خلال الصحافة والكتب والمحطات الفضائية، ولم أعرفه من خلال الآخرين، بل عرفته احتكاكاً وجهاً لوجه لسنين طويلة، وأحببته وأحبني في الله، وأسأل الله أن يجمعني وإياه إخواناً على سرر متقابلين في الجنة.

لا أستطيع إحصاء مواقفه الأصيلة لكثرتها، ولكنني أنقل موقفاً واحداً عنه لا يعلمه الكثيرون من الناس، فقد كنت في غرفته في فندق سفير في الكويت عام **١٩٩٣**م، فيما أتذكر، ورن الهاتف في غرفته فحمل السماعة ليرد على مكالمة من الجزائر فأسمعه وهو يرد «الحمد لله إن كان على يد إخواني فالحمد لله..»، فسألته بعد انتهاء المكالمة عن تلك العبارة فقال: لقد أبلغني الإخوان في الجزائر أن فتوى قد خرجت للتوتبيح دمي فرددت على الأخ المبلغ إن كان قتلي على يد إخواني فالحمد لله.

إنه يعكس الأصالة وطيب المعدن وتحمل البلاء وحقن الدماء، وحب المسلمين حتى وإن كانوا من مخالفيه... لقد كان ـ يرحمه الله ـ بعيداً كل

البعد عن المجاملات وأنصاف الحلول، وكان إذا رأى الحق التزمه وإن غضب عليه الجميع، وإن سار ضد التيار، وإن كان وحده ضد الأمواج العاتية...

وبسبب اعتداله، وصلابته نأى بجماعته عن الكثير من الفتن والصراعات، وخطا بهم خطوات كبيرة في المجال السياسي والاجتماعي والدعوي، حتى غدت «حمس» أصلب الحركات الإسلامية وأقواها وأرسخها قدماً في الجزائر، بل في المغرب العربي كله.. رحم الله محفوظاً وجعله في أعلى الجنان بإذنه، وصبر محبيه وإخوانه على فراقه.

❀ ❀ ❀

الإمام والفاتحة

أصلي إحدى الصلوات الخمس خلف إمام، من أبرز رموز التيار الإسلامي، ومن المتميزين بالتحصيل العلمي، ويضاف إلى ذلك تقدمه بالسن، فلاحظت عليه خطأً في قراءته للفاتحة، فيقرأ «غير المغضوب عليهم» بفتح الغين، وقد هبتُ أن أصحح له القراءة، فهو يكبرني بالعلم والسن، فتحدثت مع أحد أقربائه أن يوصل له هذه الملاحظة، ويبدو أنه استحى أن يخبره بذلك، واستمر في هذا الخطأ، فوقع في نفسي أن أكتب له قصاصة وأبعثها مع البعض ليعطيها له دون أن يعلم من المرسل... وانشغلت، ولم أكتبها، وكنت دائم التأنيب للنفس على عدم النصح والتردد فيه... حتى استجمعت قوتي يوماً من الأيام، وانتظرت حتى انتهى من صلاة السنة، وتوجهت إليه، وقبلت رأسه، وبششت في وجهه، وسلمت عليه سلاماً حاراً، وكذلك هو بادلني بأكثر مما حييته، وذلك من خلقه وعلمه.. ثم قلت له: يا شيخ.. عندي ملاحظة صغيرة، قال تفضل يا أخي: قلت لاحظت عليك عند قراءة الفاتحة أنك تنصب حرف الغين في «المغضوب عليهم» والغين ليس من حروف القلقلة، فشكرني على هذه الملاحظة وحيّاني وودَّعني بأدب جم.

وقلت في نفسي وأنا أغادر المسجد: كم من المناكر والأخطاء نسهم في انتشارها بسبب ترددنا بعدم الإنكار والتصحيح، تخويفاً من الشيطان لنا بفقدان الصداقة، أو التعرض للإهانة، وغيرها من التوقعات السلبية، ولو أننا توكلنا على الله، وتذكرنا وجوب الإنكار، واستخدمنا غاية الحكمة والرفق بالإنكار، لكان كل ذلك معيناً على مهمتنا في تغيير المنكر.

❋ ❋ ❋

دواء الدعوة

دُعي الإمام «حسن البنا» لإلقاء محاضرة في بورسعيد، وحشد المنظمون للمحاضرة أعداداً كبيرة من الجمهور، وعندما جاء يوم المحاضرة أصاب الإمام «حسن البنا» احتقان شديد في اللوزتين حيث لم يستطع السفر من الإسماعيلية إلى بورسعيد إلاّ مضطجعاً لشدة المرض، وقد حذره الطبيب محمود بك صادق من أنه إذا خطب هذه الليلة فإنه سيجني على نفسه. . . يقول الإمام «حسن البنا» عن تلك اللحظات: «ولكن مع هذا صممت على السفر ونزلت من القطار إلى دار الإخوان، وصليت المغرب فيها من قعود للإعياء، وانتابتني بعد الصلاة حالة نفسية عجيبة، فقد تصورت سرور الإخوان البورسعيديين بحفلهم هذا، وآمالهم المعلقة عليه، ونقودهم التي أنفقوها من قوُتهم من أجله، ودعوتهم التي بذلوا كل الجهد في توجيهها ثم تكون النتيجة اعتذار الخطيب، تصورت هذا فبكيت بحرارة، وأخذت أناجي الله تبارك وتعالى في تأثر عميق واستغراق عجيب إلى وقت صلاة العشاء، فشعرت بشيء من النشاط، وصليت العشاء من قيام، وجاء وقت الحفل وافتتح بالقرآن الكريم، ووقفت للخطابة وبدأت وأنا لا أكاد أسمع نفسي، وسرعان ما شعرت بقوة عجيبة، وشفاء تام وصفاء في الصوت غريب، وارتفاع فيه» (مذكرات الدعوة والداعية ص٩٨/٩٩).

أتذكر وأنا أقرأ ما قاله الإمام عن هذه الحادثة، أنه يحدث لي مراراً

صداع شديد يكاد يقعدني عن أي نشاط ويقدِّر الله أن يكون ذلك الصداع وقت أحد الدروس، وما إن أبدأ الدرس حتى يزول الصداع رويداً رويداً، فلا ينتهي الدرس حتى أعود كأصح ما يكون، معافى من كل ألم، وكم من المرات لا يتوقف ألم الصداع بشتى أنواع الدواء، فيأتي إلقاء الدرس أو الانشغال بأحد الأنشطة الدعوية حتى يتلاشى ذلك الصداع، إنه دواء الدعوة إلى الله.

❋ ❋ ❋

التعجل بالتصديق

كم من الأحداث تقع في هذا العالم وتقف الحركة الإسلامية عاجزة عن الاستفادة أو توظيف الحدث لصالحها... والقليلون من فصائل الحركة الإسلامية هم الذين ينظرون إلى الأحداث نظرة «شرعية عقلانية واقعية» بعيداً عن العاطفة ليخرجوا بأكبر كم من الفائدة.

أما غالب أبناء الحركة الإسلامية فإنهم يكررون نفس الأخطاء مع كل حدث عالمي يكون جزء من العالم الإسلامي طرفاً فيه، ويقبلون طواعية بالسير في ركب الجمهور، ومع أمواجه العاتية خوفاً من ذلك الموج أن يجرفهم، والقليلون هم الذين يقفون أمام ذلك الموج، ويتحملون الكثير من الآلام في سبيل الوقوف مع ما يعتقدون حقاً، وعندما نقلب صفحات التاريخ الحديث نرى الكثير من هذه الأخطاء المكررة واللدغات المتوالية، دون أن نرى - حتى هذه اللحظة - صحوة بعد هذه اللدغات.

فبالأمس القريب صفق البعض، «لابن بلا» العائد للإسلام الذي سيقود راية الإسلام، ثم تبين غير ذلك، ومنهم من صفق «للقذافي» الذي توهموا أنه القائد الإسلامي المنتظر، ثم تبين أنه من أشد المحاربين للإسلام، ثم جاء دجال القرن العشرين «صدام حسين» وخدع الإسلاميين

باستخدام بعض آيات القرآن، ووضع شعار الله أكبر على علمه، وأعلن الحرب على أمريكا، فهتف بعض الإسلاميين له، وقالوا: قد عاد صلاح الدين! وكم خرجت فتاوى تؤيد القتال تحت رايته وهم يعلمون أنه من أكبر الحاقدين على الإسلام والظالمين في العصر الحديث... فمتى نتعلم من الأحداث؟.

ومتى نستمر بتصديق كل ناعق بتمسح بالإسلام؟!.

***

مصنع الطابوق!

أثناء دارستي في المملكة المتحدة عام **١٩٧٥**م حضر الاستاذ مصطفى مشهور ـ يرحمه الله ـ أحد المؤتمرات الإسلامية التي نظمها بعض الجمعيات الطلابية والتقيته بعد إحدى المحاضرات، وكان قد خرج حديثاً من غياهب السجون.. وسألته عن بعض أمور الدعوة، فأجابني بما لم أسمع به من قبل، خاصة في وصفه لقضية الثبات والسقوط في حياة الدعوة والدعاة. وأذكر أن مما قاله لي في وصفه للدعاة واحوالهم أثناء المنحن: «الدعوة كأنها مصنع طابوق، حيث يمر الدعاة في مراحل عدة، يثبت بعدها من يثبت ويسقط من يسقط، ففي البداية يُجمع الطين، وهي مرحلة التجميع الأولى في الدعوة، ثم يوضع في قوالب، وهي مرحلة أخص في الدعوة، ومن ثم لا يثبت في هذه القوالب الجميع، بل يتفتت البعض منها ولا يتحمل تلك القوالب، وهذا نوع من السقوط المبكر، ثم تحمل القوالب إلى الحزام الذي يسير ببطء نحو النار لتجفيف الماء الذي فيه، ولتجعله أصلب، وكذلك أمر الدعوة والدعاة أثناء المحن، ولكن بعض هذا الطابوق يتصدع ـ بسبب عدم تحمله لحرارة النار ـ ويثبت البعض، ويذهب بدوره لدرجة حرارة أعلى، فيتصدع البعض ويثبت البعض الآخر، ثم يخرج من النار، ويترك ليبرد، ثم تأتي مرحلة التحميل، والتي يتكسر أثناءها البعض أيضاً،

وهذا مثال لمن يتساقطون وقت الرخاء بعد الشدة، ثم إذا نقل هذا الطابوق إلى حي البناء، يتكسر البعض أثناء التركيب ويثبت البعض في الجدار لا تضيره العواصف ولا التغيرات الجوية».

هكذا استرسل «أبو هاني» وهو يصف لي بما أسعفتني الذاكرة مراحل الدعوة والدعاة في أثناء المحن، مما يجعل هذا اللقاء، عالقاً في ذهني حتى هذه اللحظة.

رحم الله أبا هاني، فقد أعطى وأجزل العطاء، وكان من الطابوق الذي ثبت في جدار الدعوة، ولم تضره الرياح العاتية حتى توفاه الله، وهو ثابت، نسأل الله له الجنة، والثبات لمن بقي بعده من الدعاة إلى الله في جدار الدعوة.

❋ ❋ ❋

فقه المحنة وفقه العافية (١)

كثير من الدعاة إلى الله في كثير من بلاد الله الواسعة لا يتصورون الدعوة إلى الله إلا من خلال السجون والمعتقلات والملاحقة والتعذيب والتحقيق وحياة السراديب والصدام مع السلطة ومع بقية الأحزاب المخالفة، بينما الحقيقة أن هذا ليس هو الأصل، وإن حدث وتكرر، بل الأصل هو محبة الناس وتمني الخير لهم، ودعوتهم بالرفق، ونشر الخير بينهم وحثهم عليه، والابتعاد عن العنف، وكل ما من شأنه أن يؤدي إلى الصدام وخسارة الأرواح والأموال والأعراض.

فليس صحيحاً أن يبقى الآلاف من الدعاة إلى الله أسرى أدبيات فقه المحنة (السجون ـ الأغلال ـ الدماء ـ التعذيب ـ المشانق ـ الملاحقة... إلخ)، بل لا بد أن يعيشوا فقه العافية، ويسعوا إلى الأصل، قبل الاستثناء الذي لا يقومون به إلا مضطرين، بعد أن تسد كل السبل وتوصد كل الأبواب، الأصل هو اللين ورحمة الناس، كما قال ربنا: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ

لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وكما أوصى ربنا رسوله موسى وأخاه هارون ـ عليهما السلام ـ عندما وجههما إلى فرعون الذي ادّعى الألوهية، فقال لهما: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٤].

والأصل الرفق بالناس، ونبذ العنف كما قال رسولنا ﷺ: «**إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه**» (مسلم ٢٥٩٤).

ففقه العافية هو الأصل الذي يجب على الدعاة أن يعوه ويسعوا إليه، وأن ينعتقوا من أسر فقه المحنة الذي يجعلهم يدورون في حلقة مفرغة.

* * *

فقه المحنة والعافية (٢)

من يقلّب صفحات بعض الكتب التي تتحدث عن الحركة الإسلامية الحديثة لا يجد في معظمها سوى التعذيب والسجون والمعتقلات والدماء والخوف، والطغاة والملاحقة إلى آخر أبجديات فقه المحنة... بينما لا تجد إلا النذر اليسير ممن يتحدث عن الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى، ومد الجسور ونبذ الصراع مع السلطة بعد التمكين أيام العافية، والمحبة والتعاون بين فصائل الحركة الإسلامية أيام العافية، بالرغم من وجود آيات بيّنات في القرآن الكريم تحث المؤمنين على الألتفات إلى فقه العافية، منها قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]. ثم يقول تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦].

وبالرغم من قوله ﷺ فيما رواه البخاري: «**أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف**».

يقول الإمام المناوي في فيض القدير ٣٨٨/٦: «لا تتمنوا لقاء العدو؛ لما فيه من صورة الإعجاب والوثوق بالقوة، وقلة الاهتمام به، وهو مخالف للاحتياط ولأنهم قد ينصرون استدراجاً، ولأن لقاء العدو أشد الأشياء على النفس، والأمور الغائبة ليست بالمحققة، فلا يؤمن أن يكون عند الوقوع على خلاف المطلوب وتمني الشهادة لا يستلزم تمني اللقاء».

لقد كان من نتائج غياب فقه العافية، هذه الجفوة المستمرة بين السلطة والحركة الإسلامية في معظم البلاد الإسلامية وانعدام الثقة بينهما.

وكان من نتائج هذه الجفوة تلك المذابح التي حدثت وما زالت تحدث في بعض البلاد الإسلامية، وكان من نتائجها الصراع الذي حدث بين مجاهدي الأمس وإخوانهم من الحركات الإسلامية، عندما استولوا على الحكم وطردوا العدو الكافر... فهل من معتبر؟.

❋ ❋ ❋

نماذج ناجحة ورائدة

قد يقول قائل بعد قراءة ما ذكرناه في الوقفتين السابقتين عن فقه المحنة وفقه العافية: «إن الذي اضطر الحركة الإسلامية إلى انتهاج منهج الصدام مع السلطة، ما قامت به السلطة في معظم البلاد الإسلامية من عداء واضطهاد وملاحقة للإسلاميين، قبل أن يبدؤوا هم بالعنف، فكانت ردة الفعل لهذا الظلم هي المعاملة بالمثل».

ومع تقديرنا واحترامنا لمثل هذا الطرح الذي يبدو أنه منطقي، إلا أن فهمنا للنصوص لا يقر مثل هذا التصرف وهذه المعاملة بالمثل، فما من رسول أرسله الله إلا وأوذي، إلا أن القرآن لم يذكر أن رسولاً من الرسل قابل هذا البغي ببغي مثله، وحارب قومه ونكل بهم، وقام بذبحهم من الوريد إلى الوريد، وروَّع الآمنين، وقتل بالظنة، وكفَّر كل من لم يتبعه، ولم يكن من حزبه، بل صبر وكان النصر حليفه بإذن الله. ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

وإن فيمن نجح في التعامل مع السلطة ومع الناس وكسب لدعوته الكثير الكثير من الإنجازات، وتسبب بحكمته وفهمه لفقه العافية، في إحراج السلطة واضطرارها للتعامل معه باحترام وثقة وتقدير، إن في هذا دليلاً دامغاً لحجج دعاة الصراع والعنف، ممن لا يسيرون على خط الدعوة والدعاة.

***

التفت إلى نفسك

ما الذي يجعل الكثير من الناس يمارس معصية (الغيبة) ولا يشعر بوخز الضمير، أو أي أثر لتلك الكبيرة، بل لا يحلو له الحديث إلا بأكل لحوم إخوانه؟ أحد أهم الأسباب نسيان الشخص عيوب نفسه أو استصغارها، وعدم محاسبته إياها، وجرد سيئاته، ونقاط ضعفه، بل يزين له الشيطان أعماله، حتى يصل إلى درجة اليقين بأنه إنما يمارس عملية الإنكار على الآخرين، ويقوم بدوره كداعية إلى الله، بالرغم مما به من عيوب ونواقص واضحة للعيان، ولا تحتاج إلى فراسة المتفرسين، وإذا ما أخطأ أو وقع في المعصية استصغرها وأوجد لها المبررات، حتى يرفع عنه لوم الناس، وهذا من أكبر العيوب التي يغفل عنها الكثير من الناس.

إلا أن المتيقظين من الصحابة والتابعين وأحفادهم لم يغفلوا أبداً عن هذا العيب الكبير. فهذا جعفر بن محمد بن علي بن الحسين يوصي ابنه موسى فيقول له: «من استصغر زلة نفسه استعظم زلة غيره ومن استصغر زلة غيره استعظم زلة نفسه» (صفة الصفوة ٢/١٧٠) وهذا لا يعني أبداً الترغيب بترك الإنكار على أصحاب المعاصي، إنما يعني عدم الغفلة عن عيوب النفس أثناء ممارسة الإنكار على الآخرين، فالإنكار لن يؤثر ما لم يخرج من قدوة يطبق عى نفسه قبل أن ينكر على الآخرين.

***

التفكير السلبي

هو كل تفكير لا يتماشي مع الضوابط الشرعية والعقلية والمنطقية، مما يؤدي بصاحبه للكثير من الأمراض العضوية والنفسية، والعزلة عن المجتمع، وتفويت الكثير من الفرص التي كان من الممكن استغلالها للانطلاق والنجاح.

والتفكير السلبي له أشكال عدة، منها ما يتعلق بالعقيدة، أو السلوك ومنها ما يظهر عند المعاملة.

ولقد ضرب لنا القرآن الكريم والسنة المطهرة أمثلة كثيرة على التفكير السلبي، وما حدث لصاحبه من خسارة في الدنيا والآخرة، وعلى سبيل المثال لا الحصر: التفكير السلبي لفرعون عندما كان يقول إنه هو الرب الأعلى، استناداً لدلائل ضعيفة، وكذلك ما فعله النمروذ مع سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ بتفكيره السلبي، عندما ظن أنه عندما يفرج عمن حكم عليه بالإعدام ويعدم البريء فقد أصبح إلهاً! ولم يتعب إبراهيم ـ عليه السلام ـ كثيراً بنقض هذا التفكير عندما طلب منه أن يأتي بالشمس من المغرب، وكذلك ما ذكره القرآن عن قصة قارون وتفكيره السلبي، بأن المُلك الذي بحوزته إنما هو نتاج ذكائه ودهائه وعلمه، وتخطيطه، فخسف الله به وبداره الأرض جزاءً لمثل هذا النوع من التفكير السلبي.

كما حذَّر المولى سبحانه وتعالى المؤمنين من إقناع الشيطان لهم بالتفكير السلبي عندما يهمُّون بالصدقة، فيخوفهم الفقر: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، أي يخوفكم عند الإنفاق بالفقر.

كما بيَّن في أكثر من موضع التفكير السلبي للشيطان الذي اعترض على أمر السجود بأن المادة المخلوق منها وهي النار أفضل من الطين، ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

❊ ❊ ❊

آدم والتفكير السلبي

إن أهم الأسباب التي دعت آدم ـ عليه السلام ـ لمخالفة الأوامر الربانية، تصديقه للتفكير السلبي الذي أقنعه به إبليس: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠].

وفي القصة تحذير رباني لنا نحن أبناء آدم ـ عليه السلام ـ من أننا على خطرٍ عظيم وتحدي كبير بسبب وساوس الشيطان، المتكررة والمستمرة، ما دامت هذه الحياة، والتي تنصب على إقناع بني آدم بالتفكير السلبي الذي يؤدي بهم إلى خسارة الدنيا والآخرة.

ومن أنواع التفكير المنحرف ظن البعض بأن المال والولد والجاه إنما هي علامات المنزلة العالية عند الرب، وأن الفقر والمرض وقلة الولد وضعف المنصب والجاه، من علامات المنزلة الهابطة عند الرب، ويبين الله تعالى مثل هذا التفكير بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر: ١٥ ـ ١٦].

ولكن الله سبحانه يرد على هذا التفكير ببيان أن كلا الأمرين بلاء واختبار، ولا يدل على قرب أو بعد المؤمن من الله تعالى، وأن الناس يتفاوتون يوم القيامة بسبب تقواهم وأعمالهم، مع رحمة الله تعالى.

* * *

كيف نتغلب على التفكير السلبي؟

روى البخاري في صحيحه (٢٢٧٦) الفتح قول النبي ﷺ: «**يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته**».

يقول الملا علي القاري في كتابه «مرقاة المفاتيح» (**٢٤٢/١**) تعليقاً على هذا الحديث بعد أن تحدث عن أهمية الاستعاذة بطرد هذا التفكير

والوسوسة من الشيطان: «ولينته» أي ليترك التفكير في هذا الخاطر، وليشتغل بأمر آخر لئلا يستحوذ عليه الشيطان، فإنه إنما أوقعه فيه رجاء أن يقف معه ويتمكن في نفسه فيحصل لها شك وريب في تنزيهه تعالى عن سمات الحدوث، وإن دقت وخفيت، فمن تنبه وكف عن الاسترسال مع ذلك الخاطر، وأشغل نفسه حتى انصرفت عنه فقد خلص، ومن لا فقد ارتبك فيخشى عليه مزلة القدم في قعر جهنم».

ويكتشف علماء الإدارة هذا العلاج بعد أربعة عشر قرناً من حديث نبينا ﷺ بتبيين أحد أبرز طرق إيقاف التفكير السلبي، فتكتب «كين مالك أنيس» مقالاً تحت عنوان: «التغلب على تكرار التفكير السلبي باستخدام إيقاف التفكير» تتحدث فيه بإسهاب عن أهمية إيقاف الاسترسال بالتفكير السلبي، وإقناع النفس بأن مثل هذا التفكير سوف يهيئ الكثير من الأمراض، ويفقد الكثير من فرص النجاح ويعرض الإنسان للخسارة.

فلا حل للغارقين في التفكير السلبي إلا التوقف حالاً عن هذا التفكير غير المنطقي، الذي يتعارض مع النقل والعقل، ولا يؤدي بالإنسان إلا للمزيد من الخسائر والفشل، والانزواء، والأمراض النفسية والعضوية.

وأولى من ذلك، سلوك طريق التفاؤل والإصرار والمحاولة، والثقة بالنفس، والتوكل على الله مع بذل جميع الأسباب، واليقين بقدرة الله تعالى لإزالة العقبات، والوصول إلى الأهداف، وهذا هو دأب الناجحين في الحياة.



طريق الفضائل

الكثير من الآيات والأحاديث يذكر لنا حقيقة إيمانية كبرى، لا يمكن لأحد أن يسلك طريق الإيمان ويثبت فيه إلا ويدركها، ألا وهي أن هذا الطريق فيه الكثير من العوائق التي يطلق عليها القرآن لفظ «البلاء» ومن هنا يظهر الجهاد والتزكية لهذه النفس التي تأمر صاحبها وتزين له السوء، وعدم

ركوب الصعاب، ومن هنا تظهر معادن الرجال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩ ـ ١٠]، فالمفلحون الناجحون في هذه الحياة وفي الآخرة هم الذين أدركوا هذه الحقيقة، وقاوموا هذه الأنفس المزينة للكسل، والراحة، والسلامة، والابتعاد عن الصعاب.

إنها تشتد عليهم وهم يقاومونها ويزكونها، ليرتقوا بها إلى نوع آخر من النفوس «النفس اللوامة»، ثم النفس المطمئنة، ومن لم يدرك هذه الحقيقة، فما أسهل السقوط والانتكاس الذي يلاقيه عند أول الطريق، وعند أصغر نوع من البلاء، هؤلاء هم الذين يأبون دخول الجنة، كما قال عنهم الرسول ﷺ: «**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى**». قالوا ومن يأبى؟ قال: «**من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى**»، إن أمثال هؤلاء يصيح بهم الإمام ابن الجوزي قائلاً: «طريق الفضائل مشحون بالبلاء ليرجع عنها مخنث العزم». (اللطف في الوعظ ٤٤).

❋ ❋ ❋

قوموا نعيد الصلاة

أورد الإمام ابن الجوزي في كتابه «بحر الدموع ص١١٩»، أن «يوسف بن عاصم ذهب مع بعض أصحابه يسألون حاتم الأصم عن صلاته فقال لهم: إذا قمت إليها فاعلم أن الله مقبل عليك، فأقبل على من هو مقبل عليك، واعلم بأن جهة التصديق لقلبك أنه قريب منك قادر عليك، فإذا ركعت فلا تأمل أن ترفع، وإذا رفعت فلا تأمل أن تسجد، وإذا سجدت فلا تأمل أن تقوم، ومثّل الجنة عن يمينك، والنار عن يسارك، والصراط تحت قدميك، فإذا فعلت فأنت مصل.

فالتفت يوسف إلى أصحابه وقال: قوموا نعيد الصلاة التي مضت من أعمارنا».

فكم منّا من إذا وقف بين يدي الله في الصلاة لا يتفكر بالأبناء

والزوجات والمال والتجارة، وما حدث له مع فلان وعلان، وما يتمناه من متاع هذه الحياة!.

لو أننا تفكرنا بالقليل مما ورد عن الجنة والنار، وعشنا مع القليل من الآيات التي نتلوها أو تتلى علينا، لخرجنا بغير القلوب التي بين جوانحنا، ولأحسسنا بقول النبي ﷺ لبلال: «**يا بلال! أقم الصلاة أرحنا بها**»، ولكانت الصلاة واحة وراحة لقلوبنا المتعبة والمتخمة بحب الدنيا وزينتها.

إننا نحتاج حقاً إلى «غربلة» لصلاتنا وتنقية لها مما شابها من دغل قلوبنا.

❋ ❋ ❋

العزة والكرامة

يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

يقول الإمام القرطبي (في تفسيره ٤٤١٦/٦): «أي من أهانه بالشقاء والكفر لا يقدر أحد على دفع الهوان عنه».

ومهما وضع من الديكور والميكاج والزينات ليصنع من نفسه كريماً أو يصنع منه الآخرون عزيزاً يبقى ذليلاً مهاناً، ويأبى الله تعالى إلا أن يذله بسبب ذنبه وإعراضه عن دينه، بل قد يذله أقرب الناس إليه وربما أرذل الناس وأهونهم على الله، فلا أثر لكلامه، ولا مهابة لفعاله، فهو مفضوح أمام الخلق، هتك ستر الله فهتك الله ستره.

وإن بدا أمام الناس منتفشاً بأبهى الحلل، ممتطياً أغلى المراكب، متعالياً على عباد الله فإن الله تعالى لا بد أن يكسر هيبته المصطنعة علي يد أحقر الناس، وأسقطهم من خلقه، وأراذلهم من عبيد الدنيا.

ويقول الإمام إبراهيم الخواص: «على قدر إعزاز المرء لأمر الله يلبسه الله من عزه، ويقيم له العز في قلوب المؤمنين» (صفة الصفوة ١٠١/٤).

إن من يطلب العزة والكرامة في الدنيا والآخرة لا سبيل له سوى إعزاز أمر الله وصون النفس من الوقوع في نتن المعاصي التي نهى الله عنها، مع الحذر الدائم من نفسه الأمارة بالسوء أن تجره إلى حيث المهانة والمذلة.

وفي ذلك قال الإمام علي رضي الله عنه:

ومحترس من نفسه خوف ذلة ... تكون عليه حجة هي ماهيا
فقلص برديه وأفضى بقلبه ... إلى البر والتقوى فنال الأمانيا
وجانب أسباب السفاهة والخنا ... عفافاً وتنزيهاً فأصبح عاليا

(مجمع الحكم والأمثال: ١٦٥).

هؤلاء هم الذين أخرجوا من قلوبهم كل ما من شأنه إسقاطهم في وحل المهانة والمذلة فنالوا المراتب السامية والمنازل العالية.

* * *

السلبية

هي كل نقص يعتري الأخلاق العالية وكل تراجع في بلوغ حد الكمال، وكل خلق مغاير للأخلاق الفاضلة.

يخشى صاحب هذه الصفة النجاح، ولا يهتم إلا بذاته ولذاته، ولا تعنيه جراحات الآخرين، وهمومهم أو صراع الحق مع الباطل.

إنه عضو في جسد، لكنه لا يشعر بوجود أعضاء الجسد الأخرى، ولا آلامها ومشاعرها، فقد مات الإحساس لديه، حتى ما عاد يشعر بوجود أحد سواه!

والسلبية نوعان: جزئية وكلية، فالجزئية أن يكون سلبياً مع ذاته فيهرب دوماً من التخلق بالأخلاق الفاضلة، وتفتر همته في بلوغ ذلك، ويفضل البقاء في الوادي بعيداً عن القمم، بسبب خوفه من الصعود والارتقاء، إيثاراً

للسلامة، ورغبة في الراحة والخمول، حتى وإن كانت لديه القدرة على ذلك. وفي هذا قال الشاعر:

ولم أرَ في عيوب الناس عيباً   كنقص القادرين على التمام

أما السلبية الكلية، فهى انعدام الإحساس بالآخرين، فلا يهتم بما يحدث للمسلمين وحتى لأقرب الناس إليه، ولا يتفاعل أبداً مع قضايا الأمة وهمومها، وآلامها وآمالها.

ومبعثُ ذلك، الأنانية المتأصلة فيه وحب الذات الذي يعميه عن التطلع إلى خارج إطاره، أو هي البلادة والمعصية التي تعمي بصيرته عما ينفعه وينفع الآخرين، وهذا أسوأ أنواع البشر، لا ينفع نفسه ولا الآخرين. نعوذ بالله أن نكون من هؤلاء.

* * *

متى يتأثر الناس بالداعية؟

يقول الشيخ محمد الصباغ في كتابه (من صفات الداعية) ص**٥٢**: «وإننا نقرأ في التاريخ أن معظم الدعوات التي لاقت رواجاً عند الناس، ولا سيما المنحرفة منها، كان دعاتها من أشد الناس زهداً، ولذلك كان الناس يجتمعون عليهم ويسيرون وراءهم. ولقد أعجب المنصور بعمرو ابن عبيد (القدري) لأنه رفض أن يأخذ عطيته، ومدحه مدحاً لم يحظ به أحد من الناس، من أجل ذلك كان على الداعية أن يرفض أي نفع مادي يمكن أن يأتيه عن طريق دعوته، فإن ذلك أدعى إلى تأثر الناس به».

فالناس جُبلوا على التأثر بمن يرونه مخلصاً لفكرته، متحمساً لها، يدعو بها بتجرد، دون أن يكسب من ورائها ديناراً أو درهماً، أو منصباً أو أي مكسب شخصي، وهكذا نرى المؤثرين من الدعاة في هذه الحياة، سواء كانوا من الصالحين أو الفاسدين والمفسدين، نرى فيهم خصلة مشتركة،

وهي التجرد الكامل للفكرة والاستعداد للتضحية من أجلها، وعدم التكسب من ورائها فمتى أخلوا بتلك الشروط بطل التأثر بهم. وسقطوا من أعين الناس، لأنهم يفقدون بذلك مصداقيتهم ويوصلون إلى الناس رسالة مفادها أنهم يتسترون بهذه الدعوات من أجل مصالحهم الخاصة. وما أجمل وما قاله سيد قطب - يرحمه الله - في هذا الشأن إذ قال: «كلماتنا عرائس، فإذا متنا من أجلها دبت فيها الروح».

❋ ❋ ❋

أسباب تغير النعم

يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال: ٥٣].

كم يمر علينا في هذه الأيام ممن نرى ونخالط، وممن نسمع عنهم أو نقرأ من تغير حالهم، من العز إلى الذل، ومن الكرامة إلى المهانة، ومن القوة إلى الضعف، ومن الغنى إلى الفقر، ومن التمكن إلى التفكك، ومن القصور إلى الخرائب، ومن السلامة إلى الأمراض والأسقام، ومن عز الدعوة إلى الله تعالى، إلى ذل عبادة الدنيا، ومن العلم والعلماء إلى الجهل والجهلاء.. ولا نسأل أنفسنا كيف حدث هذا؟

في الآية السابقة في بداية هذه الوقفة جواب عن تلك الأسئلة. يقول الشيخ المراغي في تفسيره لها (١٠/١٧): «فقد جرت سنة الله ألا يغير نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم من الأحوال التي استحقوا بها تلك النعم. وفي الآية إيماء إلى أن نعم الله على الأمم والأفراد منوطة ابتداءً ودواماً بأخلاق وصفات، وأعمال تقتضيها، فما دامت هذه الشؤون ثابتة لهم، متمكنة منهم كانت تلك النعم ثابتة لهم. والله لا ينتزعها منهم بغير ظلم منهم ولا جرم، فإذا هم غيروا ما بأنفسهم من تلك العقائد والأخلاق، وما يلزم ذلك من محاسن الأعمال

غيّر الله حالهم، وسلب نعمتهم منهم، فصار الغني فقيراً والعزيز ذليلاً، والقوي ضعيفاً».

ومن أراد بقاء النعمة. . فليتذكر دائماً زوالها بمعاصيه وعدم قيامه بحق الشكر المقتضي لدوامها، وليحاسب نفسه وليقم على إصلاحها، كي تدوم النعمة.

* * *

مولد الإيجابية

يقول الأستاذ محمد قطب في كتابه منهج التربية الإسلامية (الجزء الأول: ص٢١٧):

الله هو الخالق، وهو المدبر، ومن ثمَّ فموقف الإنسان من الله هو التسليم الكامل المطلق بلا مراجعة، ولا سؤال ولا تردد ولا اقتراح ولا اعتراض، ومن هذا التسليم الخالص لله يستمد الإنسان إيجابيته الكاملة تجاه الأشياء، والأشخاص والأحداث.

نعم، فبقدر ما يتواضع الإنسان لله تعالى، بقدر ما يرتفع عند الناس، وفي عالم الحياة، لذلك قال العلماء: «من تواضع لله رفعه».

ولذلك أيضاً فإن السجود يمثل قمة الخضوع الجسدي، فإذا كان لله تعالى كان قمة الارتفاع عند الناس، وإذا كان لغير الله كان قمة الذلة والمسكنة عند الله تعالى وعند الناس.

والإيجابية تحرك مستمر، وهمة عالية، وتفاعل بالمشاعر والأحاسيس، واغتنام لكل لحظة في هذه الحياة، وإدراك لقيمة الوقت، وسباق للزمن، ومبادرة بالعمل الصالح قبل إدراك الموت الذي يقطع الأعمال، وهذه جميعها لا يمكن أن تحدث إلا إذا تعلق الإنسان بخالق السموات والأرض، وخضع له بالقول والعمل، وأتعب نفسه في مرضاته، وضحّى بالغالي

والنفيس من أجل النجاة من النار، والفوز بالجنة، ومن هنا تولد الإيجابية، وفي غير هذا الرحم لا يمكن أن تعيش بويضتها.

***

الحافزية

قوة عاطفية ورغبة جامحة تنشأ في النفس البشرية بسبب بعض الدوافع للقيام بعمل ما، مما يجعل الفرد يتحرك بقوة ذاتية نحو هذا العمل.

وتنقسم الحوافز إلى قسمين: غيبي أخروي ودنيوي، والدنيوي ينقسم إلى قسمين: مادي ومعنوي.

الحوافز الأخروية لها أمثلة كثيرة، ومن أبرزها الترغيب بأعمال الخير بذكر ما يحفز على ذلك من الجنة، وما فيها من نعيم، أو النجاة من النار، كقوله ﷺ: «من صام يوماً في سبيل الله باعد الله وجهه عن النار سبعين خريفاً».

ومن صورها كذلك عندما قام الرسول ﷺ في الصحابة خطيباً محفزاً لهم على القتال، فقال: **«قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض»**، فقال الصحابي الجليل عمير بن الحمام: «بخ بخ؟!»، فقال له الرسول ﷺ: **«وما دعاك أن تقول بخ بخ»**... فرد عليه الصحابي الجليل: «إلا رجاءة أن أكون من أهلها»... فقال له: **«أنت من أهلها»**، فألقى بتمرات كان يأكلهن وهو يقول: «والله إنها لحياة طويلة حتى أنتهي من هذه التمرات»، ثم انطلق نحو الكفار، وقاتلهم حتى استشهد رضي الله عنه.

والقرآن والسنة مملوءتان بمثل هذه الأنواع من الحوافز.

أما الحوافز الدنيوية، فالقسم المعنوي هو الحث على عمل ما، بواسطة المدح والثناء، وعرض العمل أمام الآخرين، في الصحافة أو على الحائط، أو في وسائل الإعلام الأخرى، أو تصوير المدير أو الشيخ أو

العالم معه، أو زيارته... إلى آخر هذه الحوافز المعنوية... أما الحوافز الملموسة المادية، فهي زيادة الراتب، أو الأجرة، أو الهدية... إلخ.

❊ ❊ ❊

قوانين الحافزية (١)

لا شك أن الحافزية من أعظم ما يدفع الإنسان للقيام بالعمل، ولا يُتصور أن يتحرك أي إنسان، مهما اختلف انتماؤه أو عقيدته، من غير حوافز.

تُستخدم الحافزية بطريقتين، الأولى التحفيز الذاتي، وهي أهم هذين الطريقين، إذ إنه لا يمكن أن نقوم بأي نوع من التحفيز للآخرين إذا كنا فاقدين لهذه الحافزية، والطريق الثاني - هو تحفيز الآخرين..

والتحفيز الذاتي له قوانين يجب علينا اتباعها إذا أردنا استمرار الهمة العالية، ووفرة الإنتاج.

القانون الأول: الاتصال الدائم بالحوافز العليا، وهي ما يتصل بالآخرة، فدوام قراءة القرآن الكريم، والسنّة المطهرة، يجعل الإنسان يتصل بالمنهج الأعظم للحافزية.

القانون الثاني: تذكر محدودية العُمر... فإن هذا يدعو الإنسان لزيادة التحرك نحو الأهداف الأخروية، وحتى الدنيوية، فلا يُوجد متسع للوقت حتى يضيع في غير الأهداف التي تنجي الإنسان من النار، وتجعله ناجحاً في هذه الحياة.

القانون الثالث: ضع أهدافاً رئيسة: حتى تتقد الحافزية في ذاتك لا بد من تجزيء هذه الأهداف الرئيسة إلى أهداف مرحلية صغرى، يمكن القيام بها، فإن نجاحك في تحقيق هذه الأهداف الصغرى يحفزك على تحقيق الأهداف الكبرى.

القانون الرابع: انته مما بدأت به: الانتهاء من العمل حافز كبير للقيام بأعمال أخرى منتجة، بينما التوقف عن استكمال العمل الذي بدأت به يؤدي إلى الإحباط، وضعف الحافزية.

* * *

قوانين الحافزية (٢)

ذكرت في الوقفة السابقة أربعة قوانين للحافزية، وهي الاتصال الدائم بالحوافز العليا، وتذكر محدودية العمر، وضرورة وضع أهداف رئيسة، والانتهاء من استكمال العمل الذي بدأت به.

وفي هذه الوقفة أكمل تلك القوانين:

القانون الخامس: الاحتكاك بمن يماثلك في الهواية، أو الرغبة، فإن في ذلك حافزاً عظيماً لزيادة العمل، وتطويره، والاستمرار فيه، وهذا القانون نابع من قول الرسول ﷺ: «**المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**».

القانون السادس: تعلم كيف تتعلم: كطريق للتعلم، وهو ما أقصد به التعلم الذاتي، والإكثار منه كطريق آخر لاكتساب المعرفة، فالإنسان كريم على ذاته، بينما يبخل الآخرون في منحه العلم.

القانون السابع: استثمر موهبتك الطبيعية، وقدراتك الخاصة، في زيادة الحافزية، فإن المواهب تصنع الحافزية، والحافزية تصنع الإصرار، والإصرار يؤدي إلى إنجاز العمل.

القانون الثامن: الإكثار من قراءة قصص أصحاب الهمم العالية في جميع المجالات العبادية والعلمية والمادية... مع التعمق في معرفة الفن الذي تمارسه أو المادة التي تحبها، لأن ذلك من شأنه تطوير الحافزية وزيادتها.

القانون التاسع: تقبل المخاطرة: الفشل والارتداد للخلف من أهم عناصر الحافزية، فالفشل أداة التعلم الرئيسة، فلا أحد في هذه الحياة نجح في أي مجال من المجالات دون التعرض للفشل والإخفاق، فلا تخش من الإخفاق والفشل، لأنه لا طريق للنجاح إلا بالمرور على محطة أو بعض محطات الإخفاق، والناجح هو الذي يستثمر هذا الفشل للوصول إلى قمة النجاح.

القانون العاشر: الابتعاد عن المحبطين: من أراد طريق الحافزية عليه الابتعاد عن كل ما يضعفها، وأكثر من يضعفها هواة الرسائل السلبية، والمحبطون والمتشائمون، والمكثرون من الشكوى، والنقد، وغيرهم من طوابير الفاشلين.

هذه عشرة قوانين للحافزية، من التزم بها ونقلها للآخرين، فإنه سيكون بإذن الله من أصحاب الهمم العالية، والحافزية المتقدة التي لا تخبو.

***

نظرة في كتب الإدارة

خلال اطلاعي على الكثير من كتب الإدارة الإنجليزية أو المترجمة، تبيَّن لي ما يلي:

أولاً: غالب ما يُذكر في هذه الكتب له أصل في الإسلام، أو هدي النبي ﷺ، مما زاد من اعتزازي بهذا الدين، وزاد من حرصي على تنفيذ كل أمر من تعاليمه.

ثانياً: جعلني أكثر قرباً من قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، فمؤلفوا هذه الكتب في الغرب هم فئة من العقلاء، كتبوها بعد تجربة، أو تجارب خاضوها في الحياة، فوجدوا أن الإنسان لا يمكن أن ينجح إلا بهذا السلوك الإداري.

قد تكون أهدافهم هي الحصول على المزيد من المكاسب المادية في الدنيا، ولكن هذا لا يتنافى مع ما دعا إليه الإسلام.

ثالثاً: ولأن هذه الكتب الإدارية كُتب غالبها بأيدي نصارى أو يهود أو علمانيين لا دينيين، فإن فيها بعض الانحرافات الاعتقادية والسلوكية المخالفة لعقيدتنا وسلوكنا وقيمنا الإسلامية، لذلك وجب الحذر أثناء قراءتها، وعدم التسليم بكل ما فيها، ولهذا السبب فإن من الخطورة بمكان أن يُترجم كل ما فيها، خاصة إذا قام بالترجمة أو إعطاء الدورة من ليس لديه خلفية شرعية.

ومن الخطورة أن نجلب بعض هؤلاء إلى بلادنا ليقولوا كل ما في جعبتهم لجميع المستويات، وقد يكون ممن يستمع إليهم من لا يمتلك تلك الخلفية الشرعية المطلوبة، فيبهره كل ما يسمع حتى وإن كان فيه بعض المخالفات.

❊ ❊ ❊

نموذج للضحالة

تحدثت في المثال السابق عن خطورة ترجمة كل ما في الكتب الإدارية الغربية، دون «غربلة»، مشيراً في الوقت نفسه إلى ما تحتويه هذه الكتب من فوائد جمة، وتجارب تؤكد ما ذهب إليه ديننا الحنيف في الكثير من الأمور.

ومن خلال قراءتي للكثير من هذه الكتب سواء المترجم منها أو ما كان في لغته الأصلية تبين لي بعض هذه المخالفات الشرعية التي قد تنطلي على الكثيرين.

ومن أمثلة ذلك ما قرأته في بحث الحرية للكاتب الأمريكي «فردرك مان». وبالرغم من استفادتي الكبيرة من هذا البحث، إلا أنه وقع في بعض هذه المخالفات الكبرى، ومن ذلك ما جاء عند حديثه عن التحرر من القيود، فيذكر أن الموت من أكبر هذه القيود التي يجب على الإنسان التحرر

منها، وبدأ يفضح في هذه الجزئية ضحالته الفكرية، باقتراح بعض طرق التخلص من الموت باختراع بعض الهرمونات وغيرها من الأفكار السخيفة!.

ثم تعمق الكاتب في التحرر من القيود حتى وصل إلى قيد الدين، داعياً للتخلص مما وصفه «القيود الدينية، وقيود رجال الدين».

بالطبع: إنه يتحدث عن عقيدته النصرانية، لكن القارئ أو المترجم لا يملك هذا التطور حتى يميز بين المترجَم عنه، والمترجَم له.

هذا نموذج واحد من نماذج كثيرة يجب على من يقرأ مثل هذه الكتب أن ينتبه إليها.

* * *

المبالغة والاستهتار

في قضية الانفتاح على المجتمع ابتليت الحركة الإسلامية بنمطين كلاهما سبّب لنفسه وللآخرين الكثير من الخسائر، الأول هو الهاجس الأمني المبالغ فيه، ويقابله الاستهتار الأمني والتهور الذي لا حد له، وإلغاء كل مبادئ الحيطة لحفظ الدعوة والدعاة، إستناداً لقوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١].

هذان التوجهان ـ كلاهما ـ سبب الكثير من التساقط عند اتخاذ قرار الإنفتاح والانتقال إلى العمل العلني، وكان من المناسب، والأقرب إلى الحكمة أن يكون خطُّ الحركة الإسلامية هو الوسط بين هذا الانغلاق والخوف وذلك التهور واللامبالاة.

هذا حقاً ما قامت به بعض الحركات الإسلامية لاحقاً لتلافي النسبة الأكبر من التساقط عند قرار الانفتاح، فلجأت إلى الدراسة المتأنية لذلك، وقسمت قضية الانفتاح إلى ثلاث مراحل: جزئي ونصفي وكلي، وكل مرحلة قدرت لها وقتاً محدداً، وتركت الظروف أحياناً لتمدد في هذه

المرحلة أو تلك، أو تقصر من هذه المرحلة أو تلك، واختارت لكل مرحلة النشاط الملائم، والأشخاص المناسبين. وحدثت ـ ولا شك ـ بعض الأخطاء إلا أنها كانت أخطاء عادية استفادت منها الحركة لتنطلق بعد ذلك انطلاقاً عظيماً وتكسب أضعاف ما كانت عليه قبل قرار الانفتاح في المجتمع، وترتب على ذلك بالتبعية انتشار أكبر لكلمة الله تعالى، وتعاليم الإسلام.

إننا نحتاج إلى وقفة تأمل ومدارسة لهذا الأمر قبل أن يتفاقم في كلا الاتجاهين فلا نستطيع بعد ذلك لملمة أجزائنا.

* * *

أسباب التساقط

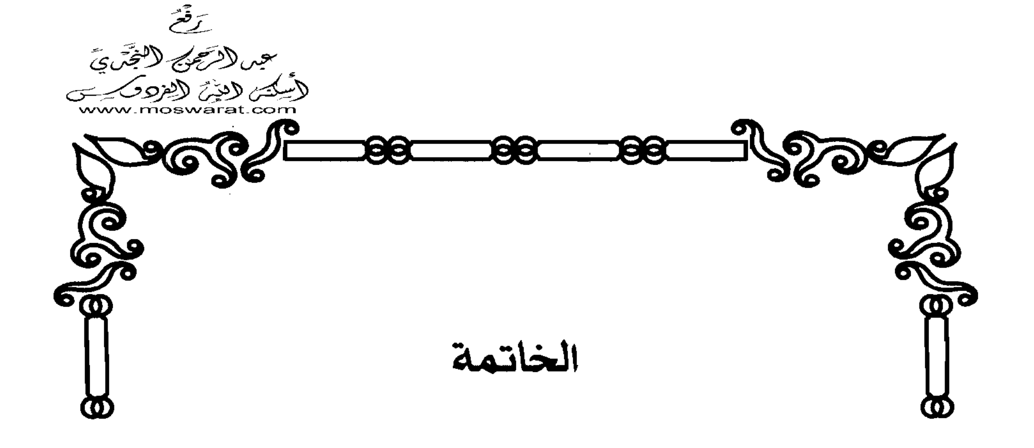
إذا أردنا حقاً، ومن غير مجاملات، أن نضع النقاط على الحروف في قضية تساقط البعض من القادة والبارزين والأفراد العاديين في مرحلة الانفتاح التي قام بها بعض الحركات الإسلامية، فلا بد من الطرح الجريء والواقعي حتى نتعرف الأسباب فنتلافاها قبل أن يتسع الخرق فلا نستطيع الإدراك.

ما أراه أن التساقط لم يكن بسبب الانفتاح بذاته بل يقبع وراءه الكثير من الأسباب، إذ إن الانفتاح مرحلة لا بد منها عاجلاً أو آجلاً، لأنه هو الأصل ـ كما أسلفت ـ وهو ما قام به النبي ﷺ، فلم يبق طيلة حياته في المرحلة السرية، بل تحول بعد ثلاث سنوات فقط إلى مرحلة الانفتاح والعلنية ولم تثنه عن ذلك الضغوط التي ووجه بها مع صحابته الكرام، بالرغم من أن هذه الضغوط والفتن، التي تعرض لها عند التحول نحو الانفتاح ـ إن صح التعبير ـ كانت أكثر بكثير من بداية الأمر.

بعد الانفتاح تعرض أيضاً ﷺ للمزيد من الفتن والضغوط، وذلك كله لم يثنه أبداً عن المضي في قرار الانفتاح والعلنية الكاملة، لقناعته ﷺ بأن أمر الدين لن يتم إلا بجهد بشري قائم على الاتصال المباشر بالمجتمع.

إذا كان ذلك واضحاً، وأتمنى أن يعتبره البعض من أبجديات الفهم الدعوي الحركي، فإن السبب الأول ـ الذي يبدو واضحاً ـ في التساقط هو الاختيار الخاطئ لبعض الرموز الذين قذفت بهم الحركة ليمارسوا دور الانفتاح، ولم يأخذوا كفايتهم من التربية الإيمانية والدعوية، ولم يكن رصيدهم سوى شهاداتهم، أو بروزهم في المجتمع، أو ما حباهم به الله من بعض الملكات مثل الكلام والعلاقات العامة، وما سواها من الملكات، فلما وجدوا أنفسهم في وسط بهارج الانفتاح والأضواء فتنوا.





الخاتمة

آن لك بعد هذه الوقفات أن تنطلق، فما كانت هذه الوقفات مكاناً للاستراحة الدائمة والدعة، وليست مرتعاً للكسالى وبائعي الكلام، بل كانت بمثابة استراحة المجاهد، وهي خاصة بعشاق العمل الذين لا يبتغون به وجهاً سوى وجهه الكريم سبحانه.

تنطلق نحو نفسك بالإصلاح.

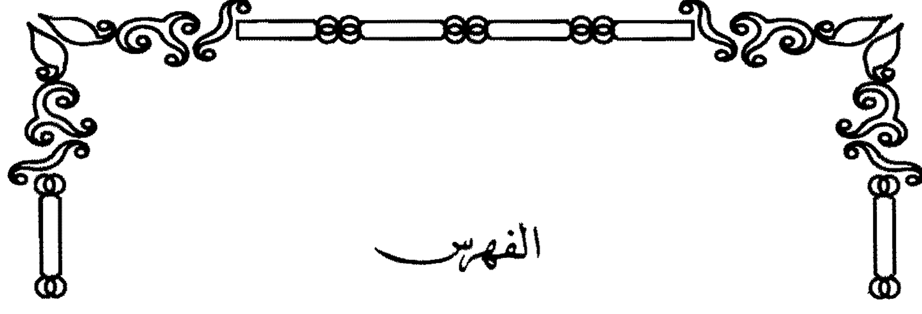
ونحو أهلك بالتربية.

ونحو مجتمعك بنشر الفضيلة وتأصيل الخير.









الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

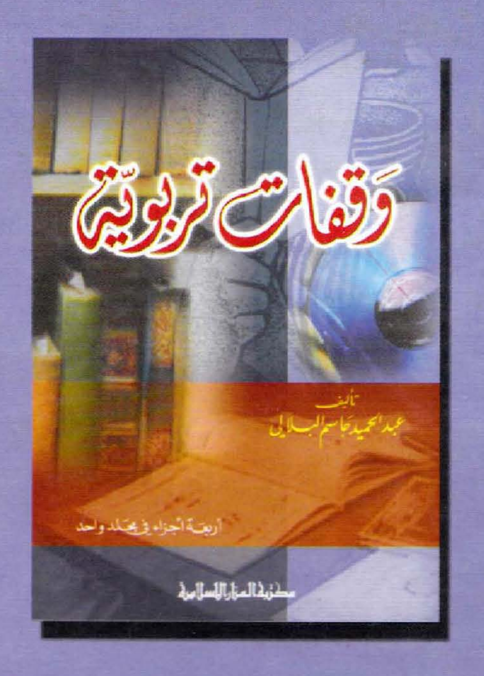
الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة




رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


وقفات تربوية
تأليف
عبد الحميد جاسم البلالي
أربعة أجزاء في مجلد واحد
مكتبة المنار الإسلامية